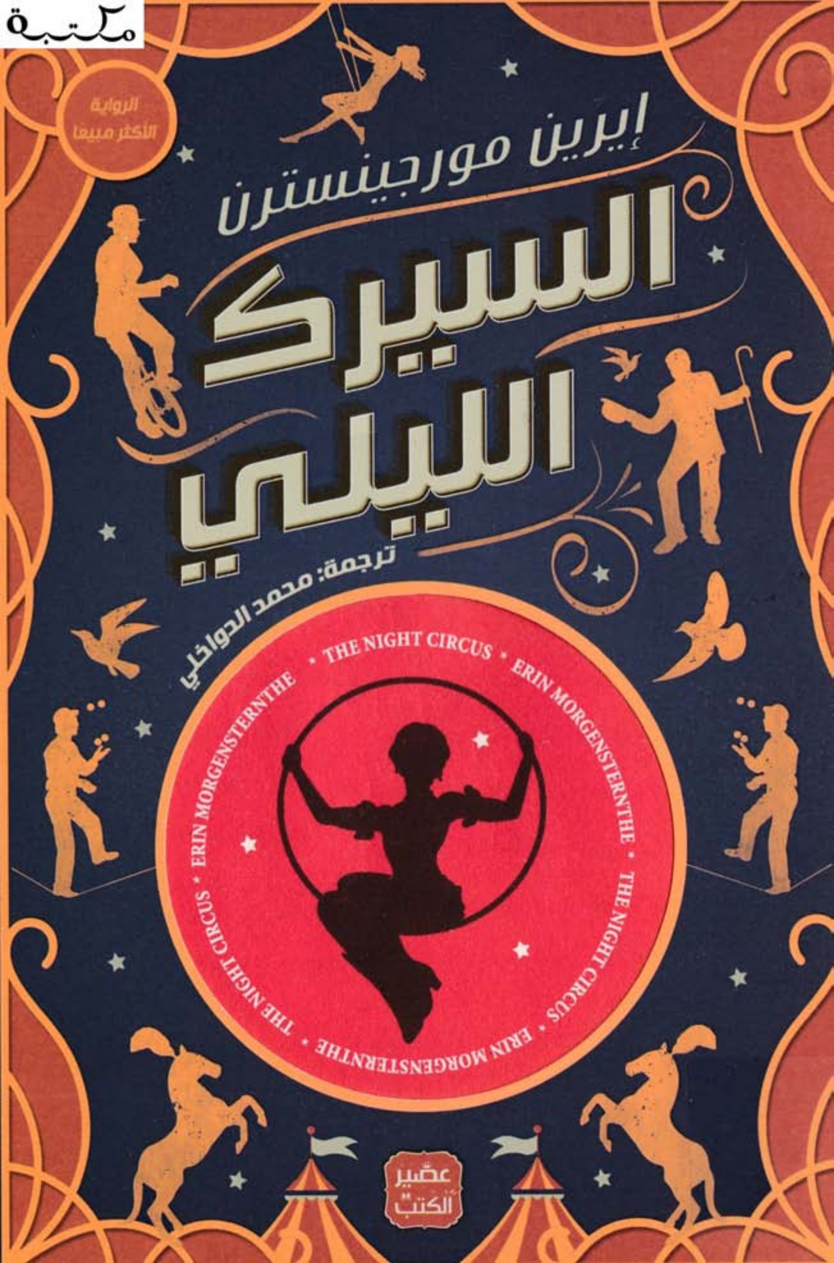

مكتبة
الرواية
الأكثر مبيعا
إيرين مورجينسترن
السيرك
الليلي
ترجمة: محمد الدواخلي
THE NIGHT CIRCUS
ERIN MORGENSTERNTHE
THE NIGHT CIRCUS
ERIN MORGENSTERNTHE
THE NIGHT CIRCUS
ERIN MORGENSTERNTHE
عصير
الكتب


مكتبة


إيرين مورجينسترن
السيرك
الليلي
رواية


THE NIGHT CIRCUS
ERIN MORGENSTERNTHE
THE NIGHT CIRCUS
ERIN MORGENSTERNTHE



- العنوان
- العنوان
- طُبِع بوا
- طُبِع بوا
- حُقوق ا

ن علي

م

- رقم الإيداع: 10430 / 2021م

- الترقيم الدولي: 978-977-6902-33-6

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

الرواية الأكثر مبيعًا

إيرين مورجينسترن

السيرك الليلي

ترجمة: محمد الدواخلي

THE NIGHT CIRCUS • ERIN MORGENSTERN • THE NIGHT CIRCUS • ERIN MORGENSTERN • THE NIGHT CIRCUS • ERIN MORGENSTERN

عصير الكتب

الترقب

وصل السيرك دون سابق إنذار.. لم يسبقه إعلان، أو توزع له منشورات، أو تعلق لافتات في منافذ البلدة أو يروج له في الصحف المحلية، ببساطة كان مقامًا هناك حيث لم يكن هناك أمس.

خيامه العالية كانت مخططة بالأبيض والأسود، لا توجد شرائط ذهبية أو قرمزية. بلا ألوان على الاطلاق كأنه اكتفى بألوان الأشجار المحيطة والعشب الذي يغطي الحقول. شرائط سوداء وبيضاء أسفل سماء رمادية، خيام لا تحصى مختلفة الأشكال والأحجام، محاطة بسياج محكم من الحديد المطاوع يغلفهم في عالم خالٍ من الألوان. حتى مساحات الأرض المكشوفة القليلة الظاهرة من الخارج كانت إما سوداء أو بيضاء. ربما دهنت أو رشت أو أيًّا ما كانت حيلة السيرك التي عولجت بها.

لكنه ليس مفتوحًا. ليس بعد.

خلال ساعات كان كل من في المدينة سمع عنه، عند الظهيرة وصلت أخباره عدة مدن محيطة. الكلمة التي تلوكها الألسنة هي أقوى إعلانًا وأسرع انتشارًا من الإعلانات المكتوبة أو الصور المطبوعة واللافتات

المعلقة. كان خبرًا مثيرًا غير عادي ظهور هذا السيرك الغامض. انبهر الناس بالعلو الشاهق للخيمة الكبرى وحدقوا إلى تلك الساعة الموضوعة داخل البوابات ولا يستطيع أحد أن يصفها بدقة.

وتلك اللافتة السوداء التي دُهِنَ عليها بحروف بيضاء وعلقت فوق البوابة:

تفتح في الليل وتغلق عند الفجر

تساءل الناس: أي سيرك هذ الذي يفتح فقط في الليل؟

لم يعرف أحد إجابة شافية ورغم ذلك عند الغروب احتشد عدد كبير من المشاهدين أمام البوابة.

بالطبع أنت معهم. لقد بلغ فضولك أقصى ما يمكن للفضول أن يصل. تقف في الضوء الخافت، يلتف وشاحك حول رقبتك ليدفع عنك نسمات المساء الباردة، تنتظر لترى بنفسك: أي سيرك هذا الذي لا يفتح إلا بعد غروب الشمس!

كشك التذاكر الظاهر وراء البوابة مغلق ومسيج. الخيم تبدو ساكنة تمامًا إلا من هزات الرياح. لا حركة داخل السيرك إلا عقارب تلك الساعة التي تحصي الدقائق إذا كانت تلك المنحوتة العجيبة يمكن تسميتها بالساعة.

بدا السيرك مهجورًا وخاويًا، لكن يمكنك مع نسيم المساء أن تشم روائح الكراميل المتصاعدة تتسلل بين عبق أوراق الخريف المتساقطة. حلاوة رقيقة تأتي من حافة البرد.

اختفت الشمس تمامًا من الأفق وتحولت الأضواء الأخيرة من الغسق إلى الشفق. الناس حولك يتململون من الانتظار، يغمغمون حول التخلي

عن الأمر بحثًا عن مكان أدفأ يقضون فيه الأمسية. حتى أنت نفسك تهم بالرحيل حينما حدث.

في البداية، كان هناك صوت قرقعة، صوت عالٍ فاق أصوات الرياح والمحادثات، ضجيج مكتوم يشبه صوت الإبريق قبل غليان الشاي. ثم سطعت الأضواء حول الخيم. أضواء خافتة ترتعش لكنها جعلت السيرك بأكمله ساطعًا كما لو كان مغطى باليراعات المضيئة. سكنت الحشود المنتظرة. وهي تتأمل هذا العرض الضوئي. شهق أحدهم بالقرب منك، وطفل صغير صفق بيديه فرحًا للمشهد.

حين أصبحت كل الخيم متوهجة، تتلألأ في مواجهة سماء الليل، ظهرت اللافتة.

ممتدة فوق البوابة مختبئة بين الثنايا الحديدية، أحيتها المزيد من تلك الأضواء الشبيهة باليراعات.

برزوا كلما زاد سطوعهم، بعضها مصاحب بشلال من الشرارات البيضاء الساطعة، وبعض الدخان. الجمهور الأقرب تراجع بضعَ خطوات للخلف.

في البداية بدت كأضواء عشوائية، لكن كلما اشتعلت أكثر بدأت تميز فيها بعض الحروف المكتوبة. أولًا حرف (C): أصبح ظاهرًا ثم تبعه المزيد من الحروف، حرف (q) يظهر وحده ثم عدد من حروف، (e) متناثرة. ثم حين سطع المصباح الأخير وانقشع الدخان والشرارات بدا الاسم مقروءًا.

تلك اللافتة المضيئة البديعة إن مِلْت إلى يسارك كي تراها بوضوح أكثر ستستطيع قراءتها *"Le Cirque des Rêves"*

ابتسم واحد من الجمهور بفهم بينما عبس آخرون وتلفتوا حولهَم يسألون من جوارهم. طفلة بالقرب منك جذبت أكمام أمها، وهي ترجوها أن تخبرها معنى المكتوب.

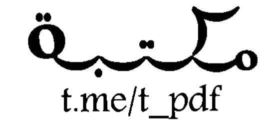
أتت الإجابة: سيرك الأحلام.

فأشرقت ابتسامة الطفلة.

اهتزت البوابة الحديدية وانفتحت، فيما بدا أنه من تلقاء نفسها. اكتد مصراعيها خارجًا يدعوان الناس للدخول.

الآن فتح السيرك.

الآن يمكنك الدخول.



الجزء الأول
التحضير

يتشكل سيرك الأحلام من سلسلة من الدوائر، ربما كونه اعترافًا بأصل كلمة «سيرك» المشتقة من الإغريقية «كيركوس» التي تعني الدائرة أو الحلقة. تقليديًّا نجد إشارات لهذا في مجال السيرك ولو أن سيرك الأحلام ليس بالسيرك التقليدي.

فبدلًا من أن يكون خيمة واحدة تحوي حلقات داخلها، يحوي هذا السيرك مجموعة من الخيم تشبه الأهرامات، بعضها كبير والبعض الآخر أصغر. نصبت بين مسارات دائرية حولها سياج دائري. حلقات متصلة متداخلة.

فريديريك تايسن، 1892

الحالم هو من يجد طريقه فقط في ضوء القمر، وعذابه أنه يرى الفجر قبل بقية العالم.

أوسكار وايلد 1888

طرد مفاجئ

نيويورك، فبراير 1873

يتلقى (بروسبيرو الساحر) -كما يلقب نفسه- طرودًا كثيرة عبر إدارة المسرح، لكن كانت المرة الأولى التي يصل فيها للمدير خطاب يحوي رسالة انتحار، كما أنها الأولى التي تكون الرسالة فيها مثبتة في معطف فتاة عمرها خمس سنوات.

المحامي الذي رافق الفتاة رفض أن يوضح الأمر، ورغم احتجاجات المدير، ترك الفتاة ورحل مسرعًا دون رد سوى أن رفع قبعته وهز كتفه.

لم يكن المدير بحاجة إلى قراءة المظروف كي يعرف لمن تركت الفتاة. تلك العينان اللامعتان اللتان تطلان خلف ستارة من خصلاتها البنية غير المصففة لم تكن سوى نسخة أصغر سنًا وأكثر اتساعًا من عيني الساحر.

أخذ بيدها، كانت أصابعها صغيرة لا تقبض إلا على أطراف أصابعه، ورفضت خلع معطفها برغم دفء المسرح، وحين سألت لماذا لم تجب سوى بهزة رأس عنيدة.

أخذ المدير الفتاة إلى مكتبه لا يدري ما يفعل بها! جلست في صمت على كرسي غير مريح أسفل مجموعة من الملصقات الخاصة بالإعلان

عن العروض الماضية. محاطة بصناديق التذاكر والإيصالات. أعطاها المدير كوبًا من الشاي ووضع فيه المزيد من السكر، لكنه ظل ساكنًا جوارها لم يهمس حتى بَردَ.

لم تتحرك الفتاة، لم تتململ في كرسيها. جلست في سكون تام ويداها مشبكتين. نظراتها ثابتة نحو الأسفل، تحملق في حذائها الذي لا يصل إلى الأرض، به نقرة قبالة الإصبع الأكبر. لكن الأربطة معقودة في أنشوطة محكمة.

الظرف المغلق معلق من الزر الثاني العلوي لمعطفها في انتظار (بروسبيرو) كي يصل.

سمعته قبل أن يفتح الباب، خطواته ثقيلة يتردد صداها في الرواق. على العكس من الخطوات الخفيفة للمدير الذي مضى ذهابًا وإيابًا بخفة مثل القطة.

فتح المدير الباب وقال ممهدًا: «هناك أيضًا... طرد لك يا سيدي».

ثم غادر متحججًا بمتابعة شؤون المسرح عازفًا عن حضور هذا اللقاء.

أخذ الساحر ينظر في أركان المكتب ممسكًا بكومة من الخطابات في إحدى يديه، كان يرتدي حرملة مخملية مبطنة بحرير أبيض ناصع تتدلى من ورائه. كان يبحث عن صندوق ورقي أو قفص فقط حين نظرت إليه الفتاة بعينيها التي تشبهانه، أدرك ما قصده المدير.

كان رد فعل (بروسبيرو) التلقائي حين لاقى ابنته هو ببساطة قوله: «حسنًا! تبًّا!».

عادت الفتاة إلى النظر إلى حذائها.

أغلق الساحر الباب خلفه وترك الخطابات على المكتب بجوار كوب الشاي ونظر إليها.

مزق الظرف من معطفها تاركًا الدبوس الذي كان يثبته متدليًا من الزر، بينما كتب على الصفحة الأولى اسمه المسرحي وعنوان المسرح، كانت الأوراق بالداخل تحييه باسمه الحقيقي (هكتور بوين).

قفز عبر السطور وقد أخفقت جهود كاتبتها في إثارة عاطفته، ثم توقف عند الحقيقة الوحيدة التي تهمه، هذه الفتاة التي من الواضح أنها ابنته قد تُرِكَت لوصايته واسمها (سيليا).

«كان يجب أن تسميك (ميراندا)».

أخيرًا تحدث هذا الملقب بـ (بروسبيرو) الساحر، وهو يكتم ضحكته، وأضاف «**أظنها لم تكن ذكية بما يكفي كي يخطر ببالها**»!

*****

نظرت الفتاة إليه مرة أخرى بعينيها الداكنتين تطلان من خلف خصلاتها.

بدأ كوب الشاي على المنضدة يهتز، موجات تثير السطح الهادئ بينما تنتشر الشقوق في الكوب. ثم تحول إلى شظايا من الخزف المزهر، فيسيل الشاي على الصحن ويتساقط على الأرض تاركًا بقعًا لزجة على الخشب المصقول.

تلاشت ابتسامة الساحر وحدق نحو المنضدة بتجهم، وإذا بالشاي المنسكب يرتفع من الأرضية والقطع المكسورة والمفتتة تعيد إصلاح نفسها حول السائل، حتى عاد الكوب سليمًا مرةً أخرى وتصاعدت منه دوامات ناعمة من البخار.

حدقت الفتاة بعينين متسعتين إلى الكوب.

أمسك (هكتور بون) وجه ابنته بيديه متأملًا رد فعلها للحظات قبل أن يتركها. تركت أصابعه علامات حمراء طويلة على خديها، ثم قال:

- يبدو أنك جديرة بالاهتمام.

لم ترد الفتاة.

حاول في الأسابيع التالية أن يسميها أي اسم آخر، لكن الفتاة لم تقبل بأن تنادى إلا بـ (سيليا).

بعد عدة شهور، حينما عرف أنها جاهزة، كتب الساحر خطابًا آخر. لم يضع له عنوانًا لكنه في كل الأحوال وصل لوجهته عبر المحيط.

رهان السادة

لندن- أكتوبر 1873

الليلة هو العرض الأخير من برنامج محدود. لم يظهر (بروسبيرو) الساحر على مسرح لندن منذ فترة. ولم يحجزه سوى لأسبوع واحد دون حفلات نهارية.

لكن التذاكر رغم ثمنها الباهظ نفدت سريعًا، كان المسرح مزدحمًا حتى إن الكثير من النساء أمسكن مراوحهن ليحركنَ الهواء قبالة ياقاتهن المزركشة، كي يتحملن الحر الشديد بخلاف لسعات الخريف الباردة بالخارج.

وفي لحظة ما من العرض، إذا بكل تلك المراوح تتحول إلى طيور صغيرة، فحلقت أسراب منها حول الجماهير التي انفجرت في التصفيق. قبل أن يعود كل طائر ليسقط ويتحول مرة أخرى إلى مروحة تقع في حجر صاحبتها بدقة. ليتضاعف التصفيق مرة أخرى برغم الذهول الذي جمد بعضهن، وهنَّ ينظرن لتلك المراوح المصنوعة من الريش والكتان بذهول. وقد تناسين تمامًا الحر الشديد.

الرجل ذو البدلة الرمادية الذي يجلس في المقصورة اليسرى لم يصفق، ليس لهذه الخدعة ولا لغيرها من الفقرات طوال العرض. اكتفى

بالنظر بهدوء وتدقيق إلى هذا الرجل الواقف على المسرح دون أن يهتز له جفن. لم يرفع يديه ذات القفازين أو يتأثر، بينما الشهقات وحتى الصرخات تعلو من الجمهور المنبهر بالأعاجيب.

بعد انتهاء العرض خرج الرجل ذو البدلة الرمادية ليخترق منظمي المسرح بسهولة ويمضي خلف الستائر نحو غرف تغيير الملابس، ليمر بين عمال المسرح ومعدي الأزياء دون أن يلاحظه أحد ليصل إلى غرفة في نهاية الرواق ويدق عليها بالرأس الفضي لعصاته لينفتح الباب من تلقاء نفسه كاشفًا غرفة فوضوية مزدحمة بالمرايا، كل مرآة منها تعكس زاوية مختلفة لـ (بروسبيرو).

كان معطف الساحر ذا الذيل ملقى على مقعد مخملي وصدريته المفتوحة معلقة فوق قميصه المزركش وقبعته الطويلة التي تصاحبه دومًا في عروضه قابعة على حامل قبعات قريب.

على المسرح كان يبدو أصغر سنًا مع كل ألعاب الإضاءة وطبقات المكياج، لكن الوجه الظاهر في المرايا يبدو أكبر، والشعر أقرب إلى الرمادي.

لكن بدت ابتسامته صبيانية حينما رأى انعكاس الرجل الواقف على عتبته.

سأل دون أن يلتفت عن المرآة:

- لقد كرهته، أليس كذلك؟

بينما يمسح طبقات البذرة بمنديل كان ذات يوم أبيض.

رد الرجل ذو البدلة الرمادية وهو يغلق الباب بهدوء خلفه:

- وأنا أيضًا سعيد برؤيتك يا (هكتور).

قال هكتور بوين ضاحكًا:

- بغضت كل لحظة! أنا متأكد! كنت أراقبك لا يمكنك الإنكار!

والتفت مادًّا يده التي تجاهلها الرجل ذو البدلة الرمادية. فهز هكتور كتفه ولوح بيده بطريقة درامية نحو الجدار المقابل. انزلق الكرسي المخملي من الركن المزدحم بالصناديق والأوشحة، بينما ينهض المعطف ذو الذيل من فوقه ليطير مثل الأشباح ليعلق نفسه في الصوان. قال هكتور:

- اجلس من فضلك! ليس مريحًا للأسف مثل كراسي المقصورة.

خلع الرجل ذو البدلة الرمادية قفازيه لينفض بهما الكرسي، بينما قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- لا يمكنني القول إن مثل هذا الاستعراض يحظى بموافقتي.

وخلع قفازيه لينفض بهما المقعد قبل أن يجلس:

- الانتحال التلاعب والحيل والتضليل، وتوجيهه للجماهير.

ألقى هكتور منديله الغارق بالبدرة على منضدة مزدحمة بالفرش والدهانات ومساحيق التجميل، وقال وهو يشير اتجاه المسرح:

- ليس بين الجمهور شخص واحد يصدق ولو لثانية واحدة أن ما أفعله حقيقي، وهذا أجمل ما في الأمر، هل رأيت البدع التي يخترعها الـ (سحرة) كي يقدموا أبسط الحيل؟! إنهم حفنة من الأسماك التي تغطي نفسها بالريش؛ كي توهم الناس أنها تطير وأنا ببساطة طائر حقيقي وسطهم. الجمهور لا يعرف سوى أنني ساحر ماهر فحسب.

- هذا مبرر يزيد من عبثية الفعل فحسب!

- أولئك الناس يصطفون في طوابير طويلة لأنهم يريدون أن يُذْهلوا، وأنا يمكنني إذهالهم بسهولة أكثر من الآخرين. أظنها فرصة لا

تُفَوَّت، ويدفعون لي أفضل مما تتصور كذلك. هل تحب أن أقدم لك شرابًا؟ هناك زجاجة مخبأة في مكان ما هنا ولو أنني لست واثقًا من العثور على كؤوس.

وأخذ يحاول ترتيب المنضدة باحثًا، وهو يزيح أكوامًا من الصحف والأقفاص الفارغة.

اعتدل الرجل ذو البدلة الرمادية في كرسيه وأسند يده إلى جانبه وقال:

- لا شكرًا، لكن أثار عرضك اهتمامي، وحيرتني ردة فعل الجمهور، فقد كنت مفتقدًا للدقة.

ضحك هكتور وقال:

- لا يمكنني أن أبدي براعة أكثر مما ينبغي، لو أردت أن أوهمهم أنني مزيف مثل الآخرين! أشكرك حقًا لمجيئك، وتحملك العرض حتى نهايته. لقد فوجئت في الواقع بحضورك. فقدت الأمل بعدما أبقيت تلك المقصورة لك طوال الأسبوع.

- عادة لا أرفض الدعوات، كان هناك اقتراح منك في خطابك؟

صفق هكتور بيديه قائلًا:

- بالفعل! كنت آمل أن تكون مستعدًا للعبة، لقد مر زمن طويل منذ لعبنا آخر مرة. ولكن أولًا يجب أن تقابل مشروعي الجديد.

- كنت أتصور أنك تركت التدريس نهائيًا.

- تركته، لكن تلك كانت فرصة فريدة لم أستطع مقاومتها.

ثم كشف هكتور عن باب مخفي خلف مرآة طويلة ونادى تجاه الغرفة خلفه:

- سيليا، عزيزتي.

قبل أن يرجع إلى كرسيه.

بعد لحظات ظهرت الفتاة الصغيرة من الباب، بفستان أنيق للغاية مقارنة بما يحيطها من فوضى رثة.

كانت ملابسها مهندمة لا تقارن بتلك الخرق الفوضوية في المكان. الشرائط والضفائر تجعل شكلها في أفضل حال كالدمية الجديدة باستثناء خصلات قليلة هاربة من ضفيرتها، بدت مترددة واقفة عند العتبة حين وجدت أن والدها ليس بمفرده.

أشار إليها بيده مشجعًا:

- لا بأس عزيزتي، لا داعي للخجل، تعالَيْ، تعالَيْ، هو زميل لي فلا تخجلي.

اقتربت بضع خطوات، وانحنت مؤدية تحية راقية رافعة ذيل الفستان من فوق خشب الأرضية البالي.

قال هكتور للرجل ذي البدلة الرمادية:

- هذه هي ابنتي سيليا..

واضعًا يده على رأسها:

- سيليا! هذا ألكسندر.

قالت:

- تشرفت بمعرفتك سيدي.

كان صوتها يكاد يكون هامسًا وبرقة أكثر بكثير مما تظن أن تصدرها فتاة بعمرها.

أومأ لها الرجل ذو البدلة الرمادية بتحية مهذبة، بينما قال هكتور:

- أرجو أن تُري السيد ما تستطيعين فعله.

وأخرج ساعة جيب فضية ذات سلسلة طويلة وضعها على المنضدة وأكمل:

- هيا!

اتسعت عيناها، وقالت:

- أنت قلت لي ألا أفعل هذا أمام أي شخص، جعلتني أعدك.

رد هكتور ضاحكا:

- هذا السيد ليس مثل أي شخص.

اعترضت سيليا:

- قلت لي لا استثناءات.

تلاشت ابتسامة والدها وقبض على كتفيها بصرامة وقال:

- هذه حالة خاصة، جدًا. من فضلك أري هذا السيد ما تستطيعين القيام به. تمامًا كما تفعلين في الدروس.

ودفعها ناحية الطاولة والساعة.

أحنت الفتاة رأسها المتجهم نحو الساعة وعقدت يديها خلف ظهرها.

بعد لحظة بدأت الساعة تدور ببطء تلتف في دوائر على سطح الطاولة، وسلسلتها تتبعها في مدار حلزوني، ثم تركت الساعة الطاولة، طفت في الهواء كما لو كانت معلقة في الماء، ونظر هكتور للرجل ذي البدلة الرمادية مترقبًا رد فعله. قال الرجل:

- مدهش! لكنه لا يتعدى الأساسيات.

انعقد حاجبا سيليا فوق عينيها الداكنتين، بينما اهتزت الساعة قبل أن تتفكك تروسها وتتناثر في الهواء. قال والدها بحدة:

- سيليا!

احمرت وجنتاها وغمغمت معتذرة وعادت التروس تطير لتسكن في أماكنها ثانية حتى عادت الساعة سليمة تدق الثواني التي مضت كأنما لم يحدث شيء لها.

قال الرجل ذو البذلة الرمادية معترفًا:

- هذا أكثر إدهاشًا بعض الشيء، لكن بها حدة.

ربت هكتور على رأس سيليا متجاهلًا تجهمها وقال:

- ما زالت صغيرة، وهذا دون أن تكمل حتى عام من الدراسة، حين تكبر ستكون بلا نظير.

- يمكنني أن ألتقط أي طفل من الشوارع وأعلمه نفس القدر، بلا نظير لا تعني سوى في رأيك الشخصي الذي يمكن دحضه بسهولة.

صاح هكتور:

- هه! إذن فأنت مستعد أن تلعب!

تردد الرجل ذو البدلة الرمادية للحظة فقط قبل أن يومئ موافقًا، ثم قال:

- لو كان شيئًا أكثر تعقيدًا بقليل من المرة السابقة، فربما ستجدني بالفعل مهتما، ربما!

رد هكتور:

- بالطبع سيكون أكثر تعقيدًا! لدي موهبة طبيعية ألعب بها، ولن أراهن بها في شيء بسيط.

- المواهب الطبيعية ظواهر مشكوك فيها، ربما شغف لكن القدرة الداخلية غير المكتسبة أمر شديد الندرة.

- إنها ابنتي من صلبي، بالطبع لديها موهبة طبيعية.

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- انت اعترفت بأنها تلقت دروسًا، كيف يمكنك أن تكون واثقا.

سألها هكتور دون أن يلتفت نحوها:

- سيليا، متى بدأت في الدروس؟

أجابت:

- في مارس.

أضاف هكتور:

- من أي عام؟

ردت كما لو كانت تراه سؤالًا غبيًا:

- هذا العام.

ألقى هكتور بحجته:

- دروس ثمانية أشهر بدأت وهي بالكاد في السادسة، لو صح ما أتذكره، فأنت أحيانًا تبدأ مع تلاميذك من عمر أصغر، سيليا قطعًا أكثر تقدمًا مما لو لم تمتلك موهبة، لقد استطاعت رفع الساعة من المحاولة الأولى.

التفت الرجل ذو البدلة الرمادية إلى سيليا وأومأ نحو الساعة القابعة على الطاولة وهو يسألها:

- لقد حطمت تلك عن طريق الصدفة؟ أليس كذلك؟

تجهمت سيليا وهي ترد بإيماءة طفيفة.

علق لهكتور:

- قدرتها على التحكم واضحة مقارنة بعمرها، لكن حدة طبعها تعد متغيرًا سيئًا، ربما يقودها إلى سلوك اندفاعي.

- إما تكبر وتتجاوزه أو ستتعلم السيطرة عليه، هذه مشكلة بسيطة.

أبقى الرجل ذو البدلة الرمادية عينيه على سيليا بينما حوَّل خطابه إلى هكتور، لم تعد أذني سيليا قادرتين على تفسير صوته إلى كلمات. وتجهمت ثانية حينما رد والدها بنفس الأصوات غير المفهومة.

- أتراهن بابنتك؟

رد هكتور:

- لن تخسر. أنصحك أن تجد طالبًا لن يؤلمك وداعه إن لم يكن لديك واحد تنوي الاستغناء عنه.

- أفترض أن رأي والدتها لن يؤخذ بالحسبان؟

- افتراضك صحيح.

تفحص الرجل ذو البدلة الرمادية سيليا لبعض الوقت قبل أن يتكلم ثانية، وإن ظلت كلماته غير مفهومة لها.

- أتفهم ثقتك في قدراتها، ولو أنني أحثك على أن تضع في الحسبان إمكانية أن تخسر. فربما تمضي المنافسة في غير صالحها. سأجد لاعبًا يستطيع منافستها بقوة، وإلا فلا داعي لي كي أشارك، انتصارها لا يمكن ضمانه.

رد هكتور دون أن ينظر حتى إلى ابنته:

- تلك مخاطرة مستعد لتحملها. لو أحببت أن تجعل الأمر رسميًّا الآن وهنا فلتبدأ.

نظر الرجل ذو البدلة الرمادية مرة أخرى لتعود إليها قدرتها على فهم الكلمات.

ثم أومأ موافقًا وقال:

- حسنًا إذن.

همست سيليا لأبيها:

- جعلني لا أستطيع السماع السليم.

رد هكتور:

- نعم يا حلوتي، ولم يكن هذا أمرًا مهذبًا.

وقربها من المقعد فأخذ الرجل ذو البدلة الرمادية يتمحصها بعينين رماديتين باهتتين مثل بدلته. سألها وهو ينظر ثانية نحو الساعة:

- أكنت دومًا قادرة على فعل هذه الأشياء؟

أومأت سيليا وقالت بخفوت:

- أمممم أمي كانت تقول لي إنني طفلة الشيطان.

مال عليها الرجل ذو البدلة الرمادية وهمس بشيء في أذنها، بصوت خافت لم يستطع والدها سماعه، بينما أشرق وجهها بابتسامة صغيرة. اعتدل ثانية وقال لها:

- اعقدي يدك اليمنى.

مدت سيليا يدها فورًا، باسطة راحتها وهي حائرة فيم يريدها، لكنَّ الرجل ذا البدلة الرمادية لم يضع أي شيء في يدها بل قلبها، وخلع من خنصره خاتمًا فضيًّا ووضعه في إصبعها، برغم أنه كان واسعًا جدًا على إصبعها الرفيع، بينما أبقى يده الأخرى على ساعدها. فتحت فمها لتقول ما هو واضح كالشمس أن الخاتم لن يناسب إصبعها، حينما لاحظت أنه انكمش ليناسب يدها.

لم تدم فرحتها بتناسب الخاتم سوى لحظة حطمها الألم الذي تبعها حين استمر الخاتم بالانكماش، بينما يحرق المعدن بشرتها. حاولت خلعه لكنَّ الرجل ذا البدلة الرمادية أبقى يده ممسكة بقوة على ساعدها.

ظل الخاتم ينكمش ويصغر حتى تلاشى تاركًا مكانه ندبة حمراء ساطعة حول إصبع سيليا.

ترك الرجل ذو البدلة الرمادية يدها فتراجعت للخلف. متقهقرة نحو الركن، تحدق إلى إصبعها بينما قال والدها:

- فتاة طيبة.

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- سأحتاج بعض الوقت كي أجهز لاعبًا يمثلني.

رد هكتور:

- بالطبع، خذ كل الوقت الذي تحتاجه.

ثم خلع دبلة ذهبية من يده ووضعها على الطاولة وقال:

- لأجل طالبك حين تعثر عليه.

- ألا تفضل أن تحوز الشرف بنفسك؟

- أنا أثق بك.

أومأ الرجل ذو البدلة الرمادية وأخرج منديلًا من معطفه، والتقط به الخاتم دون أن يلمسه ووضعه في جيبه.

- أرجو أنك لا تفعل هذا بسبب فوزي في التحدي الأخير.

قال هكتور:

- بالطبع لا، أنا أفعل هذا لأن لدي لاعبة قادرة على هزيمة أي شخص تختاره لمواجهتها. ولأن الزمن مر بما يكفي لأن يكون الأمر مثيرًا

مرة أخرى، وضع في الاعتبار أن المحصلة الإجمالية لا تزال في صالحي.

لم يجادل الرجل ذو البدلة الرمادية تعليقه الأخير، وإنما أبقى على نظرته المتفحصة مسلطة على سيليا. حاولت أن تبتعد عن نظراته لكن الغرفة كانت صغيرة جدًا. تكلم أخيرًا:

- أعتقد أنك فكرت في الحلبة بالفعل؟

رد هكتور:

- ليس بالضبط. أظن أنه سيكون أكثر متعة ترك مساحة من الحرية في اختيار بعض الأمور مثل الملعب؛ ليكون عنصر مفاجأة إن وافقت. أعرف منتجًا مسرحيًّا هنا في لندن يقدر على تحديات أعداد غير المعتاد. سأبلغه ببعض الملاحظات حين يحين الوقت، وأثق أنه سيجهز شيئًا ملائمًا. من الأفضل أن يختار أرضًا محايدة ولو أنني أظنك ستحبذ البدء على جانبك من المحيط.

- وما اسم هذا السيد؟

- لوفيفرا، شاندرش كريستوف لوفيفرا. يزعمون أنه ابن غير شرعي لأمير هندي أو ما شابه. الأم كانت راقصة متجولة. لديّ بطاقته في مكان ما وسط هذه الفوضى، ستعجب به، لديه أفكار تقدمية، غني، وغريب الأطوار. شغوف بعض الشيء بما هو غير متوقع. لكن أظن أن هذا عنصرًا ضروريًّا لمن يمتلك حسًّا إبداعيًّا.

أخذتْ كومةُ أوراق على مكتب قريب تتحرك وتتقلب حتى برزت بينها بطاقة عمل، ثم طارت عبر الغرفة لتقع بين يديه ليقرأها قبل أن يناولها إلى الرجل ذي البدلة الرمادية. مكملًا:

- هو يقيم حفلات رائعة.

وضع الرجل ذو البدلة الرمادية البطاقة في جيبه دون أن يلقي عليها ولو نظرة واحدة، وقال:

- لم أسمع به من قبل، كما أنني لا أحب جعل تجهيزات تلك الأمور علانية. لكن سأضع الأمر في الاعتبار.

- كلام فارغ! التجهيزات العلنية هي الممتع في الأمر، فهي تجلب كمًّا من التحديات والقيود والمعايير التي تضطر للعمل بها.

فكر الرجل ذو البدلة الرمادية في الأمر بضع لحظات قبل أن يومئ:

- هل ستضع شرطًا للإفصاح؟ سيكون هذا عادلًا بما أنني تعرفت إلى لاعبك.

قال هكتور:

- دعنا لا نضع أي شروط باستثناء القواعد الأساسية للتدخل، ولْنَرَ ما سيحدث. أريد أن نتحدى الحدود هذه المرة. لن نضع حدًّا زمنيًّا كذلك، بل سأمنحك أيضًا الحركة الأولى.

- حسنًا إذن، اتفقنا. سأتواصل معك.

ثم نهض الرجل ذو البدلة الرمادية ونفض غبارًا غير مرئي عن أكمامه قائلًا:

- تشرفت بلقائك آنسة سيليا.

ردت سيليا تحيته بانحناءة مهذبة بينما تتابعه بعيون قلقة.

رفع قبعته محييًا بروسبيرو، وخرج من الباب وانسل من المسرح، يتحرك كالشبح وسط الشارع المزدحم.

أما في غرفته كان هكتور يضحك في داخله، بينما ابنته ما زالت في ركن الغرفة، تنظر للندبة في إصبعها، كان الألم قد تلاشى مع تلاشي الخاتم نفسه، لكن العلامة الحمراء في لحمها ظلت مكانها.

أخذ هكتور الساعة الفضية من فوق الطاولة وقارن توقيتها بتلك الموجودة على الحائط، وأخذ يديرها بينما يراقب العقارب وهي تدور حول الأرقام.

ثم سال سيليا دون أن ينظر إليها:

- سيليا، لماذا ندير الساعة؟

أجابت بخنوع دون أن ترفع عينيها عن إصبعها:

- لأن كل شيء يحتاج إلى الطاقة، يجب أن نضع طاقة وجهدًا في أي شيء نريد تغييره.

- أحسنت!

وهز الساعة برفق قبل أن يثبتها في جيبه.

سألته سيليا:

- لماذا أسميت هذا الرجل بألكسندر؟

- ما هذا السؤال السخيف!

- إنه ليس اسمه.

- لحظة! كيف لك أن تعرفي هذا؟

ألقى هكتور سؤاله رافعًا ذقنها لتنظر إليه محاولًا فهم النظرة المطلة في عينيها الداكنتين.

حدقت سيليا بدورها إلى عينيه غير قادرة على التفسير، أخذت تستعيد انطباعها عن الرجل وبدلته الرمادية وعينيه الباهتتين وملامحه القاسية، تحاول أن تفهم لماذا لا يناسبه الاسم. قالت:

- هذا ليس اسمه الحقيقي. ليس الاسم الذي يسمي به نفسه دومًا. إنه اسم يرتديه مثل قبعته، لذا فهو يتركه عندما يريد، مثلما تسمي نفسك بروسبيرو.

قال هكتور:

- أنت أكثر براعة حتى مما كنت أطمح إليه.

دون أن يؤكد أو ينفي انطباعاتها عن مسميات زميله، أخذ قبعته العالية من فوق الحامل ووضعها على رأسها لتنزل حتى تغطي عينيها المتسائلتين وتحبسهما في قفص من الحرير الأسود

*****

درجات من الرمادي

لندن: يناير 1874

كان المبنى رماديًا مثل الرصيف أسفله والسماء أعلاه، يبدو باهتًا كما لو كان سحابة ستتلاشى في الهواء، يوجد حجزي حجري رمادي عديم الملامح لا يفصله عن مشهد بقية المباني المحيطة مع لافتة مهترئة معلقة عند الباب. حتى ملابس المديرة تبدو غارقة في الرماد. ورغم ذلك بدا الرجل ذو البدلة الرمادية شاذًّا عن المكان.

أطراف بدلته متناسقة تمامًا، مقبض عصاه المصقول يتألق بين قفازه الفاخر.

ذكر اسمه للمديرة فنسته فورًا وأصابها الحرج أن تعيد السؤال، وحينما وقع بعدها الأوراق اللازمة كان إمضاؤه غير مقروء وتلك الاستمارة بالذات فقدت بعد أسابيع من كتابتها.

كانت الخصال التي يبحث عنها غير معتادة، مما أربك المديرة، لكن بعدما سألته بضعة أسئلة لتستوضح الأمر أحضرت له ثلاثة أطفال: ولدين وبنت، طلب الرجل أن يقابلهم منفردين ووافقت المديرة على مضض.

لم يدم الحديث مع الولد الأول إلا بضع لحظات قبل أن يصرفه وحين غادر عبر الردهة نظر إليه الآخرون لعله يلمِّح لهما بما ينتظرهما، لكنه اكتفى بهز رأسه.

استغرقت الفتاة مدة أطول لكنها صُرفت هي الأخرى وغادرت وحاجبيها منعقدين من الحيرة.

ثم أدخلوا الطفل الثاني للغرفة كي يتحدث مع الرجل ذي البدلة الرمادية. أجلسوه على مقعد أمام مكتب بينما يقف الرجل بجواره.

لم يتململ الصبي مثلما فعل الولد الأول، بل جلس بهدوء وصبر وعيناه ذواتا اللون الرمادي المخضر تستطلعان كل تفصيلة في الغرفة والرجل، يلتقط نظراته بحرص كي يستطلع دون أن يحدق بوقاحة. كان شعره الداكن قُصَّ قصة رديئة، كما لو كان الحلاق مشتتًا أثناء عمله. وإن كانت هناك محاولة لتسريحه. ملابسه غير مكوية ولكن معتنى بها، ولو أن سرواله كان قصيرًا، وليس من الواضح لونه الأصلي أكان أزرق أم بنيًا أم أخضر، فقد بهت حتى لم يعد ظاهرًا.

سأله الرجل أخيرًا بعدما انتهى من تفحص الصبي وحالته الرثة بضع لحظات:

- منذ متى أنت هنا؟

رد الصبي:

- دائمًا.

- كم عمرك؟

- سأتمُّ التاسعة.

- تبدو أصغر من ذلك.

- ليست كذبة.

- لم أقصد التلميح لذلك.

ثم أخذ الرجل ذو البدلة الرمادية يحدق إلى الصبي دون تعليق لبرهة.

حدق الفتى إليه بالمقابل.

سأل الرجل:

- أفترض أنك تستطيع القراءة؟

أومأ الصبي وقال:

- أحب القراءة، الكتب هنا غير كافية، قرأتها جميعها بالفعل.

- جيد.

دون إنذار ألقى الرجل ذو البدلة الرمادية عصاه نحو الفتى فالتقطها الصبي بيد واحدة دون أن يجفل، ولو أن عينيه ضاقتا في حيرة وهو ينقل نظراته بين العصا والرجل.

أومأ الرجل مشيرًا إلى نفسه وطلب استعادة عصاه. وأخرج منديلًا فاتحًا من جيبه كي يمسح بصمات الفتى عن سطحها.

قال الرجل:

- حسنًا جدًا، ستأتي لتدرس معي. وأضمن لك أنك ستجد لدي الكثير من الكتب العظيمة. سأنهي الترتيبات اللازمة ثم نمضي في طريقنا.

- هل لدي خيار؟

- هل ترغب في البقاء هنا؟

فكر الصبي في الأمر للحظة ثم قال:

- لا.

- حسنًا إذن.

سأله الصبي:

- ألا تريد معرفة اسمي؟

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- الأسماء ليست بالأهمية التي يتصورها الناس، علامة وضعت عليك من الميتم أو من والديك الراحلين لا تهمني، وليس لها قيمة بالنسبة إليّ. حينما تجد نفسك في أي موقف بحاجة إلى اسم فلتختر لنفسك واحدًا. أما الآن فليس له ضرورة.

أُرسل الولد ليجمع مقتنياته التافهة ووقع الرجل ذو البدلة الرمادية الأوراق المطلوبة وهو يجيب أسئلة المديرة بإجابات لم تستطع أن تتابعها، لكنها لم تعترض على إتمام الأمر.

حين استعد الصبي، أخذه الرجل ذو البدلة الرمادية من المبنى الرمادي ليذهب بلا عودة.

*****

دروس السحر

من 1875 حتى 1880

كبرت سيليا بين المسارح، في الأغلب نيويورك، لكن أقامت لمدد طويلة في مدن أخرى، بوسطن وشيكاغو وسان فرانسيسكو، بعض العروض تسافر أحيانًا إلى ميلان أو باريس أو لندن. أحيانًا تغرق وسط فوضى الأدوات والمخمل ونشارة الخشب حتى تنسى في أي بلد هي إن كان الأمر يعنيها أصلًا.

حينما كانت صغيرة كان والدها يأخذها معه كأنها كلُبُه الصغير المحبوب الذي يزينه بالملابس الفاخرة؛ كي يعرضه على زملائه ومعارفه ومعجبيه حينما يسهر معهم بعد العروض.

وحين وجد أنها أصبحت أطول من أن تعرض كزينة ظريفة، بدأ يتركها في غرف تغيير الملابس أو الفنادق.

كل ليلة تتساءل إن كان سيرجع أم لا، كان يعود مترنحًا في ساعات متأخرة أحيانًا يربت على رأسها وهي متظاهرة بالنوم وأحيانًا يتجاهلها تمامًا.

أصبحت دروسها أقل انتظامًا، قبل ذلك كانت دروسها في وقت مخصص حتى وإن كان عشوائيًا. أما الآن فكل شيء أصبح اختبارًا ما

دام ليس أمام الآخرين، حتى المهام البسيطة كرباط حذائها يمنعها من أن تعقده بيديها، تحدق فقط إلى قدميها بصمت لتجعل الأربطة تلتف في ربطة فوضوية، فتتجهم حينما تختلط في عقدها.

لم يُبْدِ لها والدها الكثير مما هو آت، استنتجت فحسب أن الرجل ذا البدلة الرمادية الذي يدعوه والدها ألكسندر لديه طالب وأنه ستقام لعبة ما، وحين سألت والدها عن اللعبة ذات مرة:

- مثل الشطرنج؟

اكتفى بالرد:

- لا، ليست مثل الشطرنج.

*****

كبر الصبي في بيت متعدد الطوابق في لندن، معزولًا عن الناس. حتى وجباته لم ير من يقدمها، فقط كانت تظهر في صوانٍ مغطاة أمام بابه وتختفي بنفس الطريقة، مرة كل شهر يأتي رجل لا يتكلم ليقص شعره، ومرة كل عام يأت نفس الرجل ليأخذ مقاسات ملابسه الجديدة.

يقضي الولد معظم وقته في القراءة، والكتابة بالطبع. ينسخ فصولًا من الكتب، يكتب كلمات ورموز لا يفهمها في البداية لكنه يتقنها ويألفها بأصابعه الملطخة بالحبر يرصها مرة تلو الأخرى في سطور تزداد ثباتًا. كان يقرأ التاريخ والأساطير والروايات، يتعلم ببطء بعض اللغات الأخرى بالرغم من معاناته صعوبة في نطقها.

أحيانًا يذهب في رحلات إلى المتاحف والمكتبات العامة في غير أوقات الزيارة؛ حيث يقل أو ينعدم الزوار الآخرين.

كان الفتى يعشق تلك الرحلات، ليس فقط لإعجابه بما تحتويه المباني، ولكن أيضًا للهروب من روتينه المحكم، لكنها كانت نادرةً جدًا ولم يسمح له بمغادرة المنزل دون رقابة.

كان الرجل ذو البدلة الرمادية يزوره في حجرته كل ليلة، في الأغلب حاملًا معه كومةً جديدةً من الكتب، يقضي بالضبط ساعة واحدة يشرح له أشياء لا يدري الفتى هل سيستطيع فهمها حقًّا ذات يوم أم لا.

مرةً واحدةً فقط سأله، متى سيسمح له بفعل شيء.. شيء مثل تلك الأشياء التي –نادرًا جدًّا- يعرضها عليه الرجل ذو البدلة الرمادية وسط دروسه شديدة الانتظام.

كانت الإجابة الوحيدة التي تلقاها هي:

- حينما تكون مستعدًا.

ويبدو أنه لن يكون مستعدًا لوقت طويل.

*****

تلك الحمامات التي تظهر على المسرح أو بين الجمهور في عروض بروسبيرو تحفظ في أقفاص مخصصة، تُسَلَّم إلى كل مسرح مع بقية أمتعته وأدواته.

صفق باب بعنف ليبعث رجفة في كومة من الصناديق والأكياس في حجرته فيسقط من فوقها قفص ممتلئ بالحمام.

أعادت الصناديق نظم نفسها فورًا، لكن هكتور التقط القفص ليتفحص ما أصابه من أضرار.

أغلب الحمامات لم يصبها إلا الإعياء. لكن واحدة بدا واضحًا أن جناحها قد كسر. أخرج هكتور بحرص الطائر، وعادت القضبان المنثنية لحالتها بمجرد إعادته القفص لمكانه. سألته سيليا:

- أيمكنك معالجته؟

نظر والدها إلى الحمامة الجريحة ثم إلى ابنته منتظرًا أن تسأل سؤالًا آخر.

بعد لحظة سألت:

- أيمكنني معالجته؟

قال والدها:

- هيا جربي.

وناولها إياه.

طرقت سيليا برفق على الطائر المرتعش وحدقت بعزم إلى جناحه المكسور، أطلق الطائر صوتًا متألمًا مخنوقًا يختلف تمامًا عن هديله الطبيعي، قالت سيليا وعيناها دامعتان:

- لا أستطيع فعلها. مناولة الطائر إلى والدها.

أخذ هكتور الحمامة وبحركة سريعة قصم رقبته متجاهلًا اعتراض ابنته.

قال لها:

- الكائنات الحية قواعدها مختلفة، عليك أن تتدربي أولًا على شيء يناسب الأساسيات.

ثم أمسك بدمية سيليا الوحيدة من فوق المقعد القريب وأسقطها على الأرض لينكسر رأسها المصنوع من البورسلين.

وحينما أتت سيليا في اليوم التالي إلى والدها حاملة عروسها سليمة تمامًا، اكتفى بمنحها إيماءة موافقة قبل أن يلوح لها لتبتعد، بينما رجع إلى تجهيزات ما قبل العرض.

قالت له سيليا:

- كان بإمكانك أن تعالج الطائر.

فرد:

- إذن ما كنت لتتعلمي أي شيء، يجب أن تعرفي حدودك جيدًا كي تستطيعي أن تتجاوزيها، ألا تريدين الفوز؟

أومأت سيليا وهي تخفض رأسها نحو دميتها، التب بدت كالجديدة، لا يظهر بها شرخ واحد في هذا الوجه المبتسم الخاوي.

ألقت بالدمية أسفل أحد المقاعد ولم تأخذها معها حينما رحلوا.

*****

أخذ الرجل ذو البدلة الرمادية الصبي إلى فرنسا لقضاء أسبوعٍ، فيما لم يكن بالضبط عطلة. كانت رحلة دون سابق إنذار، حقيبة الفتى الصغيرة أعدت دون علمه، افترض الصبي أنه سيتلقى دروسًا ما، لكنه لم يجد مكانًا معدا للتعليم. بعد اليوم الأول تساءل إن كانا هناك فقط من أجل الطعام. مبهورًا بالطعم الرائع للمخبوزات الفرنسية والتنوع في الأجبان الفاخرة.

كانت هناك بعض الجولات للمتاحف؛ حيث حاول عبثًا أن يتجول بين المعروضات بالهدوء الذي طلب منه، مرتجفًا كلما تردد دبيبه، وبرغم أنه طلب كراسًا للرسم لكن معلمه أصر أن يحتفظ بالصور في ذاكرته.

وذات مساء أرسل الصبي إلى المسرح، ظن أنه ذاهب لحضور مسرحية أو عرض باليه، لكنه وجد عرضًا غير معتاد.

الرجل على المسرح كان ذا شعر ناعم ولحية وقفازات ناصعة البياض تبدو كطائر على خلفية ملابسه حالكة السواد، كان يؤدي بعض الخدع

البسيطة وألاعيب خفة اليد. طيور تختفي عبر قفص ذي قاع زائف، أو مناديل تنسل من الجيب كي تخفى ثانية وسط الأكمام.

شاهد الصبي الساحر وكذلك جمهوره المحدود بفضول، بدا أن المشاهدين معجبون بالحيل ويصفقون لها بلطف، وحينما سأل مدربه قيل له إن هذا الأمر لن يناقش إلا بعد أن يعودوا للندن نهاية الأسبوع.

في المساء التالي جُلب الصبي إلى مسرح أكبر، ومرة أخرى ترك وحيدًا لمشاهدة العرض. كان حجم الجمهور الهائل مثيرًا لأعصابه، لم يحضر من قبل إلى مكان متسع كهذا وسط كل هؤلاء الناس.

كان المؤدي هذه المرة يبدو أكبر سنًا من الساحر في الليلة السابقة، وملابسه أكثر أناقة وحركاته أكثر دقة، كل فقرة ليست فقط غير عادية، وإنما أيضًا تحبس الأنفاس والتصفيق كان أكثر تحمسًا. هذا الساحر لم يكن يخفي المناديل بين أكمامه والطيور التي تظهر من كل مكان ليست في أقفاص أصلًا، براعة لم ير الصبي مثلها إلا في دروسه. خدع وأوهام كرر عليه مرارًا أنها يجب أن تبقى سرًا.

صفق الفتى بقوة حينما انحنى بروسبيرو في نهاية العرض.

ومرة أخرى رفض معلمه أن يجيب أيًا من أسئلته حتى يعودوا إلى لندن.

وحينما عادوا إلى البيت واستأنف الروتين الصارم كأنما لم يقطع من قبل، سأله الرجل ذو البدلة الرمادية عن الفارق بين العرضين.

- الرجل الأول كان يستخدم أدوات ميكانيكية ومرايا، ويشتت انتباه الجمهور حينما يريد أن يبعد أنظارهم عن شيء ما كي يخلق لهم إحساسًا زائفًا. أما الثاني، هذا الذي يسمي نفسه باسم الدوق في

مسرحية شكسبير **العاصفة** فهو يتظاهر بأنه يفعل نفس الشيء. لكنه لا يستخدم المرايا أو الخدع. إنه يفعل حقًا تلك الأشياء.

- جيد جدًا.

سأله الصبي:

- هل تعرف هذا الرجل؟

رد معلمه:

- لقد عرفت هذا الرجل منذ زمن طويل جدًا.

- هل يعلّم تلك الأشياء مثلما تقوم أنت بتعليمي؟

اكتفى معلمه بإيماءة دون توضيح.

- كيف لا يرى الناس الفرق حين يشاهدونه؟

كان الصبي يسأله لأن الأمر كان واضحًا للغاية بالنسبة إليه، بالرغم من عدم مقدرته على الشرح، كان شيئًا محسوسًا في الهواء وليس فقط ما تلاحظه عيناه.

- الناس ترى ما تريد أن تراه، وفي أغلب الأحيان ما يقال لهم أن يروه.

ولم يعد ثانية إلى مناقشة الأمر.

ورغم أن الفتى أُخذ لقضاء ما يشبه العطلة مرات نادرة أخرى، لكن لم يحضره لرؤية أي عروض للسحرة ثانية.

*****

استخدم بروسبيرو الساحر مطواة كي يشق أطراف أصابع ابنته، واحدًا تلو الآخر ينظر صامتًا بينما تصرخ، منتظرًا أن تهدأ كفاية كي

يشفيها، وزحفت قطرات الدماء راجعة. التئم الجلد على نفسه وخطوط البصمات وجدت بعضها لتنغلق معًا كما كانت.

أرخت سيليا كتفيها وقد ذهبت الصدمة التي جعلتهما يتشنجان، وأحست بالارتياح حينما جذبت نفسها كلية للأمان.

تركها والدها ترتاح لدقيقة واحدة، قبل أن يعود لقطع أناملها الملتئمة ثانية.

*****

أخرج الرجل ذو البدلة الرمادية منديلًا من جيبه وأسقطه على المنضدة؛ حيث ارتطم بصوت مكتوم، هناك شيء مخفي أثقل من الحرير بين طياته، جذب المربع الحريري إلى أعلى ليظهر محتواه: خاتم فريد ذهبي يتدحرج فوق المنضدة، كان ملطخًا وعليه نقش خفيف بدا للفتى أنه كلمات لاتينية، لكن النص كان ملتفًا ومزركشًا لم يستطع تفسيره.

وضع الرجل ذو البدلة الرمادية المنديل الذي أصبح فارغًا في جيبه وقال:

- اليوم سندرس الربط.

وحينما وصلوا لوقت التطبيق العملي طلب من الصبي أن يضع الخاتم في يده، لم يلمس هو الصبي نهائيًا مهما كانت الظروف.

عبثًا حاول الفتى أن يمسك بالخاتم من إصبعه بينما كان يذوب فيها.

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- الروابط دائمةٌ يا صبي.

سأله وهو يحدق بتجهم إلى الندبة التي حلت مكان الخاتم:

- وما الذي أصبحت مربوطًا به؟

- التزام تنفذه بالفعل، وشخص لن تقابله إلا بعد بعض الوقت، التفاصيل ليست مهمة الآن وهذا مجرد ضرورة تقنية.

اكتفى الفتى بالإيماء دون أن يسأل ثانية، لكن في تلك الليلة حين أصبح وحده وأصابه الأرق، قضى ساعات يحدق إلى يده على ضوء القمر، متسائلًا عن ماهية الشخص الذي تم ربطه به.

*****

على بعد آلاف الأميال في مسرح مزدحم يرتج بالتصفيق الحار للرجل الواقف على الخشبة، هناك في الظلال التي تصنعها أكوام الأدوات المهملة خلف الخشبة تختبئ سيليا بوين متكورة على نفسها لتبكي.

الحاوي

لندن مايو ويونيو 1884

قبيل أن يتم الفتى التاسعة عشر أخرجه الرجل ذو البدلة الرمادية من المنزل دون إنذار ليسكنه في شقة صغيرة مطلة على المتحف البريطاني.

في البداية ظن الفتى أن هذا وضع مؤقت فمؤخرًا، سافر في رحلات طويلة تستمر لأسابيع وربما شهور إلى فرنسا وألمانيا واليونان، متخمة بالدروس أكثر من الجولات. لكن هذا الانتقال لم يكن واحدًا من أشباه الإجازات تلك التي يقضيها في الفنادق الفاخرة.

كانت شقة صغيرة بأثاث بسيط يشبه غرفته القديمة التي من الصعب أن يشعر بحنين إليها، وخزانة كتب صغيرة، وإن كان بها عدد مبهر من الكتب، صوان به مجموعة من البدلات السوداء حسنة التفصيل، وإن كانت غير مميزة، ومجموعة من القمصان البيضاء تمامًا وصفّ من القبعات المستديرة المناسبة لمقاسه.

سأل إن كان قد اقترب من الجاهزية للتحدي الذي ينتظره، لكنَّ الرجل ذا البدلة الرمادية لم يرد عليه، برغم أن الانتقال يشير بوضوح إلى انتهاء دروسه المنتظمة.

بدلًا من الدروس استأنف دراسته بنفسه، كان محتفظًا بمذكرة بها كل الرموز والخطوط، وعبر جهده الخاص يضيف إليها ما يجده من عناصر مفيدة. كان يحمل مذكرة صغيرة معه طول الوقت ينسخ ما بها في نسخة أكبر ما إن تمتلئ.

كان يبدأ كل مذكرة بنفس الطريقة، برسم مفصل لشجرة مرسومة بالحبر الأسود على الوجه الداخلي لغلافها الأمامي، ومنها تمتد الفروع السوداء للصفحات التالية، لتربط معًا السطور التي تشكلها الحروف والرموز، حتى تغطي كل صفحة تمامًا بالحبر. كل الحروف الرونية والكلمات والخطوط ملتفة معًا؛ لتكوِّن جزءًا من الشجرة الأصلية.

ولديه غابة كاملة من تلك الأشجار مرصوصة بعناية على رف مكتبته.

كان يتدرب على الأمور التي تعلمها رغم أنه من الصعب قياس مدى فاعلية خدعه بنفسه. فكان يقضي أوقاتًا طويلة يراقب انعكاسه في المرآة.

وبما أنه لم يعد مقيدًا بجدول أو محبوسًا في غرفته، فقد بدأ في جولات سير طويلة عبر المدينة، برغم أن الزحام الهائل كان يزعجه، لكن التمتع بقدرته على الخروج وقتما يريد يغلب مخاوفه من الاحتكاك بالمارة كلما نزل إلى الشوارع.

كان يجلس في الحدائق والمقاهي يتأمل الناس الذين لا يعيرونه اهتمامًا؛ حيث يبدو واحدًا من زحام الشباب الذين يرتدون ملابس متشابهة مع قبعات مستديرة.

ذات ظهيرة رجع إلى منزل معلمه معتقدًا أنه لا يوجد ما يعيب في أن يدعوه إلى شيء بسيط كتناول كوب من الشاي، لكنه وجد المنزل مهجورًا ونوافذه مغلقة.

وبينما كان يمشي عائدًا إلى شقته وضع يده في جيبه ليدرك أن مذكرته مفقودة.

أطبق سبة عالية لفتت انتباه سيدة مارة تفادته بالكاد حين توقف فجأة على الرصيف المزدحم.

أخذ يستعيد خطواته، ولكن قلقه تزايد مع كل خطوة دون أن يجدها، وبدأت أمطار خفيفة في النزول، لا تعدو مجرد رزاز ضبابي لكنّ كثيرًا من المظلات رفعت لتلاشيها بين الزحام، فشد حافة القبعة كي تحمي أنظاره قدر الإمكان، بينما عيناه تمسحان الأرض بحثًا عن المذكرة.

توقف أسفل مظلة مقهى يتأمل المصابيح المتراقصة وسط المطر متسائلًا إن كان من الأفضل أن ينتظر حتى يقل الزحام أو تتوقف الأمطار، ثم لاحظ تلك الفتاة التي تقف على بعد بضع خطوات تحتمي أيضًا بالمظلة، بينما عيناها تلتهمان صفحات مذكرة مألوفة جدًا حتى يجزم أنها تخصه. بدت في حوالي الثامنة عشر، أو ربما أصغر، عيناها لامعتان وشعرها له درجة لون متوسطة لا يستطيع تحديد أهو أشقر أم بني، وترتدي فستانًا ربما كان على الموضة منذ عامين وقد بللته الأمطار.

اقترب منها، لكنها لم تنتبه إليه، بدت مأخوذة تمامًا بالقراءة، حتى إنها خلعت قفازها كي تقلب الصفحات الرقيقة. الآن يستطيع أن يرى أنها بالفعل مذكرته مفتوحة على صفحة برسوم نسخ بها بطاقة تاروت بها رسم كائن مجنح يزحف فوق عجلة ذات قضبان وخطه يغطي البطاقة، وما حولها حتى لا يمكن تمييزها عن بقية النص.

راقب انطباعها وهي تقلب بين الصفحات، كان مزيجًا من الدهشة والفضول. ثم قال بعد برهة:

- أظن أن هذا كتابي.

قفزت الفتاة من المفاجأة، وكادت أن تُسقط الكتاب لكنها أدركته في اللحظة الأخيرة، وإن تسبب هذا في سقوط قفازها على الرصيف، لينحني ويلتقطه له. وحينما وقف ثانية بدا له أنها مندهشة من ابتسامته لها.

قالت وهي تأخذ منه قفازاتها سريعًا وتعطيه مذكرته:

- أنا آسفة، سقطت منك في الحديقة وحاولت إعادتها إليك لكني فقدتك وسط الزحام، ثم أنا .... أنا آسفة.

- قطعت حديثها وقد غلبها الحرج.

قال لها وقد انزاح همه باستعادة المذكرة:

- لا بأس، كنت أخشى أنني لسوء حظي قد فقدتها للأبد، في الحقيقة أنا مدين لك بأحر امتنان آنسة...؟

أجابت بلهجة بدت له كاذبة:

- مارتين، إيزوبل مارتين.

ثم صمتت في انتظار اسمه فقال:

- ماركو، ماركو أليسادير.

أحس بالاسم غريبًا وهو ينطقه، نادرًا ما احتاج لنطقه بصوت عالٍ. كان قد وقّع هذا الاسم المنتحل مصحوبًا باسم مدربه المستعار عشرات المرات، لكن نطق الحروف نفسها شيء آخر.

- سعيدة بلقائك سيد أليسادير.

كان يجب أن يشكرها ويأخذ كتابه ويرحل، هذا هو التصرف السليم لكنه لم يكن متحمسًا للعودة إلى شقته الخاوية.

وضع المذكرة في جيبه ثم سألها:

- أتسمحين لي آنسة مارتين بأن أشتريَ لك شرابًا؟

ترددت إيزوبل، كانت مدركةً أنه لا يصح أن تقبل دعوة غريب قابلته في ركن مظلم من الشارع، لكنها فاجأته أنها أومأت وقالت:

- سيكون هذا لطيفًا، شكرًا لك.

قال ماركو:

- حسنًا جدًا، لكن هناك مقهى أفضل من هذا.

ومال مشيرًا للنافذة المجاورة ثم أكمل:

- ليس ببعيد إن كنتِ ممن لا يمانعون في السير تحت المطر، فللأسف لا أحمل معي مظلة.

ردت إيزوبل:

- لا أمانع.

مد إليها ماركو ذراعه فأخذتها ومشيا معًا في الشارع وسط الأمطار الناعمة.

قطعا في الشارع ناصية أو اثنتين قبل أن يأخذها عبر زقاق ضيق، أحس ماركو بقلقها يتصاعد في الظلام، لكنها هدأت حينما وجدت أنه توقف بها أمام باب مضاء جيدًا جوار نافذةٍ ملطخة، أبقى الباب مفتوحًا كي تدخل منه إلى المقهى الصغير الذي كان أحد أماكنه المفضلة القليلة التي ارتاح لها في لندن خلال الشهور الماضية.

كانت الشموع تتراقص فوق حوامل زجاجية على كل أسطح المقهى تقريبًا. والجدران مطلية بلون أحمر قانٍ كالدم، لم يكن هناك سوى عدد قليل من الزوار متناثرين وسط هذه المساحة الدافئة والكثير من الطاولات شاغرة، فجلسا على طاولة صغيرة مجاورة للنافذة.

لوح ماركو للسيدة التي تقف خلف المشرب فأحضرت لهما كأسين من نبيذ بردو تاركة باقي الزجاجة على الطاولة جوار مزهرية صغيرة تحمل زهرة صفراء.

وعلى صوت المطر الذي يطرق النافذة تجاذبا الحديث الهادئ حول مختلف الأمور الواهية. فلم يكشف ماركو شيئًا يُذْكَر عن نفسه وبالمثل كانت إيزوبل.

وحينما سألها إن كانت جائعة أجابت بتمنع مهذب فضح جوعها الشديد، فأشار ثانية إلى السيدة خلف المشرب لتعود بعد دقائق بطبق من الأجبان والفاكهة وشرائح الخبز.

سألته إيزوبل:

- كيف عرفت هذا المكان؟

قال:

- التجربة والخطأ وتناول الكثير من كؤوس الخمر البشع.

ضحكت إيزوبل وقالت:

- آسفة! ولو أن الأمر أثمر في النهاية، هذا المكان جميل كأنه واحة.

وافقها ماركو مميلًا كأسه نحوها:

- واحةٌ ذات خمر رائع.

قالت إيزوبل:

- يذكرني بفرنسا.

سألها:

- أأنت من فرنسا؟

قالت:

- لا، لكنني عشت هناك لفترة.

رد ماركو:

- وأنا أيضًا، ولو أن هذا كان منذ زمن طويل. وأنت على حق، هذا المكان فرنسي جدًا وأظن هذا من أسباب سحره. أكثر الأماكن هنا لا تبالي بالسحر.

قالت إيزابيل:

- أنت ساحر.

واحمرت خجلًا وبدت كأنها تتمنى لو استطاعت أن تعيد الكلمات إلى فمها.

لم يدر ماركو ماذا يقول سوى:

- شكرًا لك.

ارتبكت إيزوبل وقالت:

- آسفة. لم أقصد أن .....

اختنق صوتها ثم يبدو أن مفعول كأس ونصف من الخمر أعاد إليها جرأتها فأكملت:

- هناك أسحار في كتابك.

نظرت إليه منتظرة رد فعله لكنه ظل صامتًا فأضافت بعد برهة:

- أسحار، طلاسم، رموز... لا أعرف معانيها كلها لكنها أسحار، أليس كذلك؟

وأخذت رشفة عصبية من كأسها قبل أن تجرؤ على النظر إليه ثانية.

اختار ماركو كلماته بعناية وهو قلق من الاتجاه الذي تسير له المحادثة فسألها:

- وماذا تعرف سيدة شابة كانت تعيش في فرنسا عن الأسحار والطلاسم؟

قالت:

- فقط ما قرأته عنها في الكتب. لا أتذكر معانيها كلها لكنني تعرفت على رموز التنجيم وبعض الرموز الخميائية. وحتى هذه لا أعرفها جيدًا.

توقفت كأنها مترددة أتسهب أكثر أم لا ثم أضافت:

- "*La Roue de Fortune*" لا رو دي فورتين عجلة الحظ. البطاقة التي في كتابك. أعرف هذه البطاقة، لدي مجموعة أنا أيضًا.

حتى هذه اللحظة كان ماركو ينظر إلى لقائها على أنها مغامرة عاطفية صغيرة مع فتاة جميلة لكن بوحها هذا غير الأمور، مال نحو النافذة وهو ينظر إليها لأول مرة باهتمام حقيقي.

سألها:

- أتعنين أنك تقرئين التاروت آنسة مارتين؟

أومأت إيزوبل وقالت:

- أنا أفعل، أو على الأقل أحاول. فقط لنفسي رغم أن هذا لا يعتبر قراءة حقًا. إنه... إنه شيء تعلمته منذ سنوات.

سألها ماركو:

- هل معك مجموعتك؟

أومأت ثانية دون أن تحاول إخراجها فأكمل:

- سيسعدني كثيرًا لو رأيتها. إن كنت لا تمانعين.

التفتت إيزوبل حولها متأملة فيمن حولهم.

لوح ماركو بيده مهونًا وقال:

- لا تشغلي نفسك بهم. ستحتاجين لما هو أكبر بكثير من حفنة من البطاقات كي تثيري قلق هذا الحضور. لكن لو لم ترغبي في الأمر فأنا أتفهم.

- لا لا، لا مانع عندي.

والتقطت حقيبتها لتخرج بحرص منها مجموعة من البطاقات المحفوظة في قماش من الحرير الأسود. أخرجتها من غطائها ووضعتها على الطاولة.

مد ماركو يده وسألها:

- أتسمحين لي؟

أجابت إيزوبل مندهشة:

- على الرحب والسعة.

وضح ماركو:

- بعض القارئين لا يحبون أن يلمس أحد آخر أوراقهم. وأكره أن أكون لحوحًا.

استعاد في ذهنه تفاصيل ما تعلمه في دروس الكهانة، وهو يمد يده ليكشف الورقة الأولى. كانت ورقة *Le Bateleur* أو الحاوي. لم يملك ماركو أن يمنع نفسه من الابتسام حين رأى البطاقة قبل أن يعيدها للكومة.

سألته إيزوبل:

- أتقرأ الطالع؟

رد:

- أوه لا! أعرف البطاقات لكنها لا تتحدث إليّ. على الأقل ليس بالطريقة الكافية كي أستطيع أن أقرأها حقًا.

ورفع ناظريه من البطاقات إلى إيزوبل، لا يدري حقًا ماذا يفعل معها.

- لكنها تتحدث إليك، أليس كذلك؟

قالت:

- لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة من قبل لكن أظنها تفعل.

وجلست صامتة تراقبه وهو يتعامل مع المجموعة. كان يوليها نفس الاهتمام الذي أظهرته لمذكرته. يمسك بالبطاقات بحرص من أطرافها ينظر عبرها حتى شاهد المجموعة كلها وأعادها مرة أخرى للطاولة.

قال:

- تلك أوراق قديمة، عمرها أكبر منك، لا أريد المجازفة بالتخمين، هل يزعجك أن تخبريني كيف حصلت عليها؟

قالت:

- وجدتها في صندوق مجوهرات بمحل تحف في باريس منذ سنوات، السيدة هناك لم تطلب حتى ثمنًا لها، قالت لي فحسب أن آخذهم بعيدًا وأخرجها من متجرها. بطاقات الشيطان. أسمتها كذلك: كارتس دو ديابل *Cartes du Diable*.

قال ماركو:

- الناس سذج.

مكررًا كلمة مدربه التي طالما قالها له سواء كنصيحة أو تحذير.

وأضاف:

- من الأسهل لهم أن يلصقوها بالشيطان عن فهمها، تلك حقيقة مؤسفة لكنها الحقيقة مهما كان.

سألته إيزوبل:

- عم يتحدث كتابك؟ لا أريد التطفل لكنه أثار فضولي وأرجو أن تغفر لي أنني نظرت بداخله.

قال:

- حسنًا لقد سوينا حسابنا بسماحك لي الاطلاع على بطاقاتك. لكن أخشى أن الأمر أكثر تعقيدًا من هذا، وليس من اليسير شرحه أو تصديقه.

قالت إيزوبل:

- يمكنني تصديق الكثير من الأشياء.

لم يعقب ماركو وأخذ يتفحصها بإمعان كما كان ينظر لبطاقاتها. استقبلت إيزوبل تحديقه ولم تنظر بعيدًا.

كان الأمر مغريًا بحق، أن يجد شخصًا ما يمكنه أن يتحدث معه عن هذا العالم الغريب الذي قضى فيه حياته، كان يعلم أنه يجب أن يبتعد ولكنه لم يستطع.

قطع صمته أخيرًا:

- يمكنني أن أريك لو أحببت.

قالت:

- سأحب هذا.

أنهيا شرابهما ودفع ماركو للسيدة خلف المشرب الفاتورة، واعتمر قبعته وأخذ بذراع إيزوبل ليغادرا دفء المقهى، عائدين إلى الأمطار.

توقف ماركو فجأة بعد الناصية التالية ليقف أمام فناء بوابته إلى الداخل قليلًا صانعة أمامها فجوة بين السور الحجري المبتل البارد وبين الطريق.

قال ماركو:

- هذه ستفي بالغرض.

قاد إيزوبل فوق الرصيف لتدخل في تلك الفجوة وأوقفها ليواجه ظهرها الحجر البارد المبتل ووقف أمامها مباشرة. قريبًا جدًا منها حتى إنها تستطيع رؤية كل نقطة مطر تسيل على قبعته.

قالت بصوت متوجس مرتاب:

- يفي بأي غرض؟

كانت الأمطار ما زالت تتساقط والشوارع خاوية تمامًا حولهما، لكن ماركو اكتفى برفع يده المغطاة بالقفاز مشيرًا إليها لتصمت وأخذ يركز في الأمطار والجدار خلف رأسها.

كانت تلك المرة الأولى التي يعرض فيها مهاراته على أحد، ولم يكن واثقًا حتى إنه سيستطيع تنفيذه.

حملق فيها بنفس القوة التي كان عليها في المقهى، وإن كان هذه المرة على بعض بوصات من عينيها.

سألها:

- هل تثقين بي آنسة مارتين؟

ردت دون تردد:

- نعم.

قال ماركو:

- جيد.

وبحركة سريعة وضع يده بقوة فوق عيني إيزوبل.

*****

صدمت إيزوبل وتجمدت. غاب نظرها تمامًا. لم تستطع رؤية شيء أو تشعر بشيء سوى الجلد الملامس لبشرتها، أحست برجفة لم يكن مصدرها الوحيد هو الإحساس بالبرد أو المطر، صوت جوار أذنها يهمس بكلمات تسمعها بالكاد ولا تستطيع فهمها، وفجأة توقف صوت المطر، والجدار الحجري خلفها الذي كان تشعر بخشونة ملمسه منذ لحظات أصبح ألمسَ، ثم بدأت الظلمة في الانقشاع وأنزل ماركو يده.

طرفت عيناها كي تتأقلم على الإضاءة لترى في البداية ماركو واقفًا أمامها، لكن كان به شيء مختلف.

لم تعد هناك قطرات مطر تتساقط من حافة قبعته، بل كان ضوء الشمس يسطع من خلفه. لكن لم يكن هذا هو ما جعل إيزوبل تشهق.

ما أخرج شهقتها هو حقيقة أنهما الآن يقفان في غابة! ظهرها كان في تلك اللحظة مستندًا إلى جذع شجرة قديم ضخم.

كانت الأشجار سوداء عارية من الأوراق، وفروعها تمتد عبر السماء الزرقاء فوقهم لتتألق في ضوء الشمس، الأرض مغطاة بطبقة رقيقة من حبيبات الثلج يتلألأ ويتألق مع أشعة الشمس، إنهما في يوم شتاء مثالي ولا يظهر حولهما مبنى واحد على مدى النظر لأميال، فقط فضاء شاسع لا يوجد به سوى الأشجار والثلج، طائر على شجرة قريبة ينادي وآخر بعيد يرد عليه.

بهتت إيزوبل، كان الأمر حقيقيًّا، تشعر بدفء الشمس على بشرتها وبلحاء الشجرة بين أصابعها. برودة الثلج محسوسة، وإن أدركت أن

فستانها لم يعد مبللًا من المطر، حتى الهواء الذي تتنفسه هو بلا شك هواء الطبيعة المنعش دون ذرة من دخان لندن، لكن لا يمكن أن يكون الأمر حقيقيًّا.

التفتت لماركو وقالت:

- هذا مستحيل!

ابتسم وعيناه الخضراوتان تتألقان في شمس الشتاء.

رد:

- لا شيء مستحيل.

ضحكت إيزوبل ضحكة رنانة مجلجلة كالأطفال، اندفع مليون سؤال إلى رأسها حتى لم تستطع أن تختار بينها ما تقوله قبل أن تملأ صورة بطاقة الحاوي ذهنها فقالت:

- أنت حاوٍ!

أجاب ماركو:

- لا أظن أن هناك من أسماني بهذا من قبل.

ضحكت إيزوبل ثانية وظلت تضحك حتى مال عليها وقبلها.

وحلّق زوج الطيور فوقهما، بينما تهب نسمة تهز فروع الأشجار حولهما.

بالنسبة إلى المارة في شوارع لندن المظلمة فلم يبد بهما أي شيء غير طبيعي، فقط عاشقان يتبادلان القبلات تحت المطر.

انتحال مزيف

يوليو إلى نوفمبر 1884

لم يكن هناك بيان اعتزال للمسرح من بروسبيرو الساحر، وإنما في السنوات الأخيرة تباعدت جولاته حتى إن توقفه التام عن أداء العروض لم يلفت انتباه أحد.

لكن حتى لو كان بروسبيرو لا يفعل، فإن هكتور بوين ما زال يسافر في جولات من نوع آخر.

كان يسافر من مدينة إلى أخرى يقدم ابنته ذات الاثني عشر عامًا كوسيطة روحية.

كثيرًا ما احتجت سيليا:

- أكره هذا يا بابا.

- لو كان عندك فكرة أفضل لقضاء الوقت حتى يحين التحدي –ولا تجرئي أن تقولي القراءة– فأهلًا ومرحبًا، على أن تكون مجزية بنفس القدر من المال، إلى جانب أنه تدريب جيد لك على الأداء أمام جمهور.

قالت سيليا:

- أولئك الناس لا يُطاقون.

لم تعرف بالضبط ماذا تعني، لكنها كانت تشعر بعدم الارتياح جوار زبائنها. الطريقة التي ينظرون إليها بها، نظرات الاعتذار ورقرقة الدموع، ينظرون إليها كونها شيئًا وليس شخصًا، مجرد جسر يصلهم بأحبائهم المفقودين يتشبثون به باستماتة. يتكلمون عنها أمامها كما لو كانت غائبة، كما لو كانت بلا قيمة مقارنة بأرواح أحبتهم. تضطر لإجبار نفسها ألا تجفل حينما يحتضونها بقوة يريدون شكرها عبر تنهداتهم.

يقول والدها:

- لا يعني هؤلاء الناس شيئًا، إنهم لا يكادون يدركون شيئًا من أدنى استيعاب لما يرونه أو يسمعونه، ومن الأسهل لهم أن يتصوروا أنهم يتلقون اتصالًا إعجازيًّا من الحياة الآخرة. لماذا لا نستغل هذا؟ خصوصًا حينما يصرّون على إنفاق أموالهم بهذه السهولة.

ظلت سيليا على رأيها أن المال -أيًا ما كان قدره- لا يعوض وحشة تلك التجربة، لكن هكتور كان مصرًّا، فاستمرا في السفر والتحريك الذهني للطاولات واصطناع الدقات على الجدران.

من المحير لها كيف أن زبائنها تتلهف على التواصل وتبحث عن الطمأنينة. بالنسبة إليها لم تتمنَ أبدًا أن تتواصل مع والدتها الراحلة، وتشك كثيرًا أن والدتها سترغب في الحديث معها إن استطاعت. خاصة حين يأتي التواصل عبر مثل هذه الطرق المعقدة.

كانت تتمنى لو تصرخ فيهم: **هذا كله كذب، الموتى لا يحومون ليطرقوا بأدب فنجانًا من الشاي أو مفرشَ مائدة أو يهمسون عبر الستائر المهتزة.**

حتى إنها كانت أحيانًا تحطم الأغراض الثمينة ملقية باللوم على الأرواح القلقة.

في كل مكان يذهبون كان والدها يسميها باسم مستعار مختلف، لكنه كان يكثر من اختياره لاسم ميراندا، ربما لأنه يعرف كم يغيظها هذا.

وبعد شهور من الاستنزاف وتحطيم الأعصاب، وليس بسبب الترحال المستمر فحسب، وإنما أيضًا؛ لأن والدها بالكاد يطعمها، زاعمًا أنه كلما كانت أشبه بالمتشردين كلما كانت أكثر إقناعًا، وأقرب إلى الجانب الآخر. أتت مرة وسقطت في غيبوبة حقيقية، لم تؤد حركاتها الدرامية المدروسة بعناية قبل أن تتظاهر بالإغماء ككل مرة، فرضخ والدها إلى ضرورة الراحة في منزلهم بنيويورك.

*****

بينما يتناولان الشاي في الظهيرة، حينما كانت تضع المربى والقشدة على كعكتها أبلغها أنه تعاقد مع أرملة حزينة في طرف المدينة لخدماتها نهاية الأسبوع. وقد وافقت على دفع ضعف الأجر المعتاد.

وحينما رفضت سيليا قال والدها دون أن يرفع عينيه عن كومة الأوراق التي وضعها على مائدة الطعام:

- قلت إنه يمكنك أخذ استراحة، وقد أخذت ثلاثة أيام، هذا يجب أن يكفيك. كما أنك تبدين بخير، يبدو أنك ستصبحين أكثر جمالًا حتى من والدتك في يوم ما.

قالت سيليا:

- يدهشني أنك تتذكر ملامح والدتي.

سألها والدها:

- أحقًّا؟

نظر إليها وحينما لم تجبه سوى بتجهم قال:

- ربما لم أقض معها أكثر من بضعة أسابيع، لكنني أتذكرها بوضوح أكثر منك، وأنت من قضيت معها خمس سنوات. الزمن أمر غريب وهو ما ستتعلمينه في النهاية.

وعاد يولي انتباهه للأوراق.

سألته سيليا:

- ماذا عن هذا التحدي الذي تدربني لأجله، أم أنه مجرد وسيلة أخرى لجمع المال؟

قال هكتور:

- عزيزتي سيليا. تنتظرك أمور عظيمة، لكن عليك أن تتخلى عن محاولة معرفة متى ستبدأ. جانبنا ليس له حق الحركة الأولى، ببساطة سيتم إبلاغنا حينما يحين وقتك على اللوحة، ما إن تَحْدُث.

- إذن فيمَ يهمك ما أفعله في الوقت الحالي؟

- لأنك بحاجة إلى التدريب.

أمالت سيليا رأسها محدقة إليه، واضعة يداها على المائدة، وإذا بكل الأوراق على المائدة تثني نفسها في أشكال متنوعة أهرامات وحلزونات وطيور ورقية بأجنحة مرفرفة.

نظر إليها والدها بضيق ورفع ثقالة ورق زجاجية ثقيلة ليسقطها على يدها بقوة كافية لكسر معصمها، وعادت الأوراق لتنبسط ثانية على المائدة.

كرر والدها:

- أنت بحاجة إلى التدريب، فما زلتِ مفتقدة للسيطرة.

غادرت سيليا الغرفة دون كلمة واحدة ممسكة بمعصمها حابسة دموعها، بينما والدها يهتف خلفها:

- وبحق المسيح كُفِّي عن البكاء!

استغرق الأمر منها ساعة مريرة كي تصلح وتشفي كسور عظامها.

*****

جلست إيزوبل على الكرسي ذي الذراعين الذي نادرًا ما وجد زائرًا يشغله في ركن شقة ماركو. كانت تلف على أصابعها شرائط من الحرير الملون بألوان قوس قزح تحاول عبثًا تجديلها.

نظرت بتجهم إلى قعدة الشرائط قائلة:

- هذا سخيف.

رد ماركو من مقعده المحاط بالكتب المفتوحة:

- إنها تعويذة بسيطة، شريط لكل عنصر تربط بالعقد والعزم، الأمر مثل بطاقاتك لكن تحاولين التأثير في المادة بدلًا من مجرد الغوص في معانيها. لكنها لن تنجح ما لم تؤمني بأنها ستنجح، تعرفين هذا.

قالت إيزوبل:

- ربما أنا لست في المزاج المناسب للتصديق الآن.

وأرخت العقد ووضعت الشرائط جانبًا تاركة إياها تتكوم على مسند الكرسي وأكملت:

- سأحاول غدًا.

رفع ماركو نظراته عن الكتب وقال:

- إذن فساعديني. فكري في شيء ما، شيء مهم لا يمكنني أن أعرف عنه.

تنهدت إيزوبل لكنها أطاعته مغلقة عينيها وركزت.

بعد لحظة قال ماركو:

- إنه خاتم.

التقط الصورة من عقلها بسهولة كأنها رسمتها له:

- خاتم ذهبي، له فص من الزفير على جانبيه ماستان.

اتسعت عينا إيزوبل على اتساعهما وسألته:

- كيف عرفت؟

رد بتكشيرة:

- أهو خاتم خطوبة؟

والتقط بعض الذكريات المرتبطة بالخاتم نفسه:

- في برشلونة، لقد هربت من زواج مدبر، لهذا أتيت إلى لندن. لماذا لم تخبريني؟

قالت إيزوبل:

- ليس بالموضوع المحبب للحديث. وأنت لم تخبرني شيئًا يذكر عن نفسك، ربما هربت أنت من أيضًا من زواجك المدبر!

ظلا يحدقان للحظات إلى بعضهما وماركو يحاول إيجاد رد مناسب لكن إيزوبل قطعت الصمت بضحكها.

قالت وهي تنظر إلى يدها الخاوية:

- في الأغلب. لقد بحث عن الخاتم أكثر مما بحث عني. كان قطعة جميلة، لم أرد أن أتركه، لكن لم يكن لدي المال ولا أي شيء آخر كي أبيعه.

أراد ماركو أن يقول إنها حتمًا حصلت على ثمن جيد لمثل هذا الخاتم، لكن قاطعه طَرْقٌ على باب الشقة.

همست إيزوبل:

- أهو مالك المبنى؟

لكن ماركو وضع إصبعه على شفتيه وهز رأسه نافيًا.

شخص واحد فقط يدق على هذا الباب بغير ميعاد. جذب ماركو إيزوبل نحو الحجرة المجاورة قبل أن يجيبه.

لم يدخل الرجل ذو البدلة الرمادية إلى الشقة. لم يدخلها أبدًا بعد اليوم الذي أشرف فيه على الانتقال مخرجًا تلميذه إلى العالم.

قال دون تحية أو مقدمات:

- ستتقدم لطلب وظيفة لدى هذا الرجل.

وأخرج من جيبه بطاقة عمل باهتة وأعطاها له. مضيفًا:

- ستحتاج على الأرجح اسمًا.

رد ماركو:

- لدي اسم.

لم يسأله الرجل ذو البدلة الرمادية عنه بل أضاف:

- مقابلتك حددت غدًا بعد الظهيرة. لقد توليت بعض الأعمال لمسيو لوفيفرا مؤخرًا ومنحتك توصية كبيرة، لكن عليك فعل أي شيء يتطلبه الأمر لتحصل على الوظيفة.

سأله ماركو:

- هل هذا بداية التحدي؟

- هذه مناورة استعدادية لجعلك في وضع الأفضلية.

سأله ماركو السؤال الذي طرحه عشرات المرات دون إجابة ملموسة:

- إذن فمتى يبدأ التحدي؟

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- سيتضح هذا مع الوقت. ولكن حين يبدأ سيكون من الحكمة أن تضع تركيزك على المنافسة نفسها.

وحرك عينيه مشيرًا إلى باب الحجرة المغلقة قبل أن يضيف:

- دون ما يلهيك.

ثم التفت مغادرًا الرواق تاركًا ماركو واقفًا على الباب ينظر إلى الاسم والعنوان على البطاقة البالية.

*****

استجاب هكتور بوين أخيرًا لإصرار ابنته على البقاء في نيويورك، لكن كان هذا لصالح أغراضه هو.

بينما كان يخبرها كل فترة أن عليها التدريب أكثر، فقد كان في الأغلب يهملها. ويقضي وقته وحيدًا في غرفة الجلوس بالأعلى.

كانت سيليا سعيدة بهذا الأمر، وقضت أغلب وقتها في القراءة، كانت تتسلل طوال الوقت إلى متاجر الكتب مندهشة أن والدها لا يتحرى من أين تأتي كل تلك المجلدات الجديدة.

وكانت تتدرب، تحطم كل ما يقع تحت يدها في المنزل كي تعيد إصلاحها، تجعل الكتب تحلق كالطيور في غرفتها، وتحسب إلى أي مدى ستصل كي تطور مهاراتها.

وأصبحت خبيرة في التلاعب بالأنسجة، تعيد تفصيل فساتينها كحائك محترف كي تناسب وزنها العائد، أصبحت تشعر أن جسدها قد عاد ملكًا لها ثانية.

كان عليها أن تُذكّر والدها بالخروج من غرفة الجلوس وقت الوجبات، رغم أنه مؤخرًا أصبح يرفض هذا أكثر فأكثر وبالكاد يغادر الغرفة.

اليوم لم يرد حتى على طرقاتها الملحة، أصابها القلق ولأنها تعلم أنه سحر القفل كي لا يتم فتحه إلا بمفتاحه، هو ركلت الباب بحذائها ولدهشتها فتح على مصراعيه.

كان والدها يقف جوار النافذة، يحدق بجدية إلى ذراعه الذي يمده خارجًا أمامه، وضوء الشمس آت عبر الزجاج المكسو بالجليد ينزل على أكمامه.

كانت يده تختفي بالكامل ثم تعود، يفرد أصابعه ويتجهم مع صوت صرير مفاصلها.

غلب فضولها انزعاجها وسألته:

- ماذا تفعل يا بابا؟

لم يكن هذا شيئًا رأته يفعله من قبل، لا على المسرح ولا في دروسهما الخاصة.

قال والدها:

- لا شيء يخصك.

وجذب أكمام قميصه ثانية لتغطي يده.

وأغلق الباب في وجهها.

تمرين الرماية

لندن ديسمبر 1884

كانت لوحة الأهداف معلقة برعونة على جدار غرفة المكتب، بين خزائن الكتب العالية واللوحات الزيتية ذات الإطارات المبهرجة، فتكاد لا تظهر رغم مظهرها المميز. لكن السكين كان يصل إلى هدفه كل مرة في كل وقت يلقى نحوها، قريبًا جدًا لقلب الهدف المغطى بورقة من جريدة ثبتت بدبوس على اللوحة.

الورقة كانت مراجعة مسرحية، مقالة أزيلت بعناية من جريدة تايمز لندن. كان مقالًا إيجابيًا، ربما يسميه البعض مديحًا، ورغم ذلك فقد نصب للإعدام والسكين ذي المقبض الفضي يلقى نحوه.

يشق السكين الورقة ليغوص وسط الفلين المصنوع منه اللوحة ليتم استعادته وإعادة الكرة مرة أخرى.

كان السكين يلقى ببراعة من مقبضه ليدور عدة مرات حول نفسه قبل أن تجد ذبابة السكين هدفها الذي يريده شاندرش كريستوف لوفيفرا، وقد طبع اسمه بحروف واضحة في السطر الأخير من قصاصة الورق المعلقة.

الجملة التي تحمل اسمه هي تحديدًا ما أثار السيد م. لوفيفرا لدرجة إلقاء السكين.

جملة واحدة تقرأ هكذا م. **شاندرش كريستوف لوفيفرا يستمر في تخطي حدود المسرح الحديث مبهرًا مشاهديه وذلك بعروضٍ شبه خارقة.**

أغلب المنتجين المسرحيين سيسعدون بمثل هذا الوصف، ربما قصوا المقالة للصقها في ألبوم خاص بالمراجعات النقدية، وسيقتبسون هذا المقطع حينما يحتاجون الإشارة إلى أعمالهم.

لكن ليس هذا المنتج المسرحي تحديدًا. ليس السيد م. شاندرش كريستوف لوفيفرا الذي سيركز بدلًا من ذلك على الكلمة قبل الأخيرة: **شِبْه! شبه!**

طارت السكين مرة أخرى عبر الغرفة، فوق الأثاث المكسو بالمخمل والخشب المنحوت مقتربة إلى حد الخطر بجوار دورق البراندي المصنوع من الكريستال تدور بسرعة بين المقبص والنصل، حتى وجدت طريقها لتدفن نفسها في لوحة الأهداف مرة أخرى. هذه المرة مخترقة قطعة الورق بين كلمتي **الجمهور** و**عروض** مدمرة كلمة و**ذلك** تمامًا.

تبع شاندرش السكين وانتزعها بحرص عنيف من اللوحة؛ ليخطو عائدًا عبر الغرفة ممسكًا بالسكين في إحدى يديه وكأسٍ من البراندي في اليد الأخرى، قبل أن يستدير بسرعة ويطلق السكين مرة أخرى محاولًا إصابة الكلمة البغيضة.

شبه!

حتمًا هو يفعل خطأ ما، طالما أن إنتاجه ليس إلا (شِبه) خارق، بينما الخارق الحقيقي متاح وموجود في مكان ما قريب، ينتظر من يعرضه.

لذا فلا بد أن هناك شيئًا آخر يجب فعله. كان هذا ما يملأ تفكيره منذ وضعت المقالة على مكتبه وجهزت ووضع عليها إشارة من مساعده.

كانت هناك نسخ أخرى وضعت في أماكن أخرى للحفظ والمراجعة؛ حيث من المعتاد للنسخ الموضوعة على المكتب أن تلقى نفس المصير الشنيع، بينما يعاني شاندرش مع كل كلمة.

يتلذذ شاندرش بردود الفعل، الردود الحقيقية وليس التصفيق المجامل. يرى الاستجابة أكثر أهمية من العرض نفسه. فالعرض دون جمهور كالهباء المنثور، ففي النهاية في تأثر الجمهور تكمن قوة أرواح العارضين.

نشأ وسط المسارح، جالسًا في مقصورات الباليه كطفل ملول زهد سريعًا في الرقصات المكررة وصب اهتمامه نحو الجمهور، يتابع متى يبتسمون أو يشهقون، حينما تتنهد النساء أو يميل الرجال رؤوسهم. لذا فليس من المستغرب أنه في هذه اللحظة بعد تلك السنوات ما زال يولي اهتمامه للجمهور أكثر من العرض نفسه، ولو أن بالطبع على العرض أن يكون رائعًا كي يحصد رد الفعل المثالي.

ولأنه لا يقدر على رؤية وجه كل فرد من الجمهور في كل فقرة من كل عرض (العروض تتنوع بين الدراما الحامية والراقصات المثيرات والمزج المبدع بينهما) لذا يعتمد على المراجعات النقدية.

لكن لم تأتِ من قبل تلك المراجعة التي تشعل غيظه، مثل تلك الأخِيرة. وحتمًا مرت سنوات منذ أخرج سكينه خصيصًا لمقال. طارت سكينه ثانية لتمزق هذه المرة كلمة **المسرح**.

تبعها شاندرش ثانية وهو يرتشف من كأسه تأمل الورقة شبه المدمرة للحظات محدقًا إلى الكلمات شبه المطموسة قبل أن ينفجر مناديًا ماركو.

الظلام والنجوم

وتذكِرَتك في يدك، تتبع طابور لا ينتهي من المتفرجين، تشاهد الإيقاع الرتيب للساعة ذات اللونين الأبيض والأسود بينما تنتظر.

خلف كشك التذاكر فإن المدخل الوحيد عبر ستارة مخططة ثقيلة واحد تلو الآخر يدخلها كل شخص يمر فيختفي عن الأنظار.

وحين يأتي دورك تدفع القماش عنك وتتقدم فقط ليبتلعك الظلام، حينما تغلق الستارة خلفك. تأخذ عيناك بعض الوقت لتتأقلم لتجد نقطًا ضئيلة من الضوء كأنها النجوم تحدد الجدران المظلمة أمامك.

وبينما كنت منذ لحظات قريبًا جدًا من بقية رواد السيرك حتى تكاد تلامس من أمامك فقد أصبحت فجأة وحيدًا وأنت تتحسس بداية طريقك الذي يشبه نفق في متاهة.

النفق يلتوي ويلتف وتلك النقاط المضيئة هي الضوء الوحيد ولا يوجد ما يعينك على معرفة كم قطعت أو في أي اتجاه تذهب.

في النهاية تصل إلى ستارة أخرى. قماش ناعم كالمخمل بين يديك ينزلق بسهولة حين تلمسه.

والضوء في الجانب الآخر يعمي الأبصار.

المصارحة أم الجرأة؟

كونكورد، ماساشوستس، سبتمبر 1897

جلس خمستهم على شجرة البلوط في شمس الظهيرة. شقيقته كارولين جلست على الفرع الأعلى لأنها كانت دومًا تتسلق أعلى منهم.

صديقتها المفضلة ميلي تجلس أسفلها. الشقيقان ماكنزي يلقيان بالجوز على السناجب من فرع أسفلهما، لكنه يظل مرتفعًا بما يكفي كي يكونا عاليين. وهو يجلس كعادته دومًا على الفروع المنخفضة، ليس لخوفه من الارتفاعات وإنما لمكانته وسط الشلة، هذا إن سمح له أن يكون فردًا فيها. أن يكون الشقيق الأصغر لكارولين هو مزيج من النعمة والنقمة. فأحيانًا يسمح لبيلي بالانضمام إليهم، ولكن عليه أن يبقى في الأسفل.

قالت كارولين من فرعها العالي:

- مصارحةٌ أم جرأةٌ؟

لم يستجب أحد لتحديها؛ لذا أسقطت جوزة بلوط على رأس أخيها وكررت نداء اللعبة:

- مصارحةٌ أم جرأةٌ يا بيلي؟

فرك بيلي رأسه من أسفل قبعته. أشعرته الجوزة بالرغبة في المناوئة، اختياره للمصارحة سيجعله خاضعًا لإذلال كارولين، سيجعل اللعبة مثل إلقاء الجوز عليه. الجرأة تجعله في صورة الند أكثر، على الأقل إذا كان عليه أن يجاريها فليثبت أنه ليس جبانًا.

بدا أنه اتخذ القرار الصحيح، وأحس ببعض الفخر حينما جعل رده كارولين تصمت للحظات. كانت تجلس فوقه بخمسة عشر قدمًا تأرجح قدميها من فوق الفرع تتأمل الحقول وتخطط لتحدي الجرأة، بينما الشقيقان ماكينزي يواصلان تعذيبهما للسناجب.

ثم ابتسمت كارولين وتنحنحت قبل أن تعلن قرارها.

قالت:

- تحدي الجرأة، لبيلي..

خصت أخاها بالأمر كي تورطه فيه دون الآخرين، وهو ما أشعره بالقلق من قبل أن تحدد ما هو التحدي.

صمتت للحظات كي تزيد التشويق ثم قالت:

- تحدي الجرأة لبيلي هو أن يقتحم السيرك الليلي.

شهقت ميلي وتوقف الأخوان ماكينزي عن إلقاء الجوز ونظرا إليها وقد نسيا فجأة أمر السناجب. بينما علت ابتسامة واسعة وجه كارولين وهي تحدق إلى بيلي بالأسفل وتضيف:

- وتحضر منه شيئًا كإثبات.

لم تملك إخفاء لهجة الانتصار في صوتها، فهذا تحد مستحيل والجميع يعرف هذا.

نظر بيلي عبر الحقل نحو خيم السيرك العالية، وقد بدت كالجبال في وسط الوادي. كانت ساكنة تمامًا في النهار لا تسمع الموسيقى أو ترى الأضواء أو الجماهير المتزاحمة. مجرد مجموعة من الخيم المخططة تبدو صفراء في شمس الظهيرة أكثر من لونها الحقيقي الأبيض والأسود.

بدا السيرك له غريبًا، وربما غامضًا، لكن ليس خارقًا. على الأقل ليس كذلك في وسط النهار. فكر بيلي أنه ليس مخيفًا بالقدر ذاته.

قفز من فوق الفرع السفلي وقال:

- سأفعلها.

واندفع جاريًا دون أن ينتظر رد البقية، أو يتمهل حتى تلغي كارولين التحدي. كان واثقًا أنها توقعت أن يرفض، شقت جوزة الهواء جوار أذنه لكنه لم يسمع تعقيبًا آخر.

ولأسباب لم يستطع التعبير عنها بكلماته انطلق بإصرار شديد نحو السيرك. بدا له تمامًا مثلما رآه أول مرة، قبيل أن يتم السادسة. تجسد في نفس هذه البقعة ويبدو الآن كما لو كان لم يغادر أبدًا. كما لو أنه فقط كان خفيًا في تلك السنوات الخمس حينما بدا هذا الحقل خاويًا.

حينما كان عمره أقل من السادسة لم يكن من المسوح له أن يزور السيرك، ظن والداه أنه صغير جدًا لذا اكتفى بالتحديق فيه من بعيد، مأخوذًا بالأضواء والخيام آملًا أن يبقى موجودًا بما يكفي كي يصل إلى عمر يسمح له بزيارته.

لكن السيرك اختفى بعد أسبوعين. تاركًا الصغير بيلي كسير القلب.

لكن ها هو قد عاد.

وصل منذ أيام قليلة وما زال حدثًا جديدًا، لو كان وصل منذ مدة أطول فعلى الأرجح كانت ستختار كارولين له تحديًا مختلفًا. لكن

السيرك هو حديث المدينة حاليًا وكارولين تحب أن تجعل تحدياتها مسايرة للموضة.

الليلة الماضية كان تعرفه الحقيقي على السيرك. لم يكن كأي شيء رآه من قبل، الأضواء والأزياء كل شيء كان مختلفًا. كان الأمر كأنه هرب من حياته إلى عالم آخر. كان يتوقع أن يرى عرضًا، شيئًا يجلس ويتفرج عليه، ولكن سرعان ما أدرك كم كان مخطئًا.

لم يكن شيئًا لتشاهده بل شيئًا تستكشفه.

استطلعه قدر استطاعته، لكنه أحس أنه لم يتجهز لهذا، لم يعرف أي خيمة يستهدفها وسط عشرات الخيارات كل منها عليه لافتات تعطي تلميحات غامضة عن محتوياتها. وكل منعطف يأخذه عبر الطريق المخطط يقود إلى مزيد من الخيم ومزيد من اللافتات ومزيد من الغموض.

وجد خيمة مليئة بلاعبي الأكروبات فوقف معهم يراقبهم، وهم يدورون ويقفزون حتى آلمته رقبته من النظر إلى أعلى. تجوّل عبر خيمة ممتلئة بالمرايا ليشاهد مئات بل آلاف من النسخ الشبيهة به تنظر إليه بعيون واسعة وقبعة رمادية مشابهة.

حتى الطعام كان مذهلًا. تفاح مغموس في الكراميل الثقيل لدرجة أن يبدو مسودًا، ولكن تظل التفاحة خفيفة وقرمشة وحلوة، خفافيش من الشكولاتة بأجنحة ذات رقة متناهية. ألذ شراب تفاح ذاقه بيلي في حياته.

بدا كل شيء سحريًا، وبدا كأنه مستمر للأبد. وطرقاته المتشعبة بدت أنها لا تنتهي أبدًا، إما توصله بطرق جديدة أو تعود به إلى الساحة.

حينما سألته والدته بعدها إن كان استمتع لم يستطع أنه يصفه حق قدره واكتفى بالإيماء موافقًا. لم يبقوا طويلًا كما كان يتمنى، غادر والداه مبكرًا ولولا إصراراهما لبَقِيَ هناك طوال الليل. تبقت خيم كثيرة لم يستكشفها، لكنه أُخذ إلى البيت بعد ساعات قليلة وواسوه بالوعود أنه سيذهب ثانية في نهاية الأسبوع رغم احتجاجه بتذكيرهم أن السيرك اختفى سريعًا المرة الماضية. كان متلهفًا إلى الذهاب ثانية في نفس اللحظة التي غادر فيها.

تساءل في داخله: **هل قَبِلَ التحدي رغبة منه في العودة سريعًا؟**

استغرق الأمر عشر دقائق كي يقطع الحقل، وكلما اقترب كلما بدت الخيم أكبر وأكثر رهبة وكلما خفت تصميمه.

كان لا يزال يفكر في الشيء الذي عليه أن يحضره كإثبات لنجاحه حينما وصل إلى البوابة.

كانت البوابة مثل طوله ثلاث مرات وفوقها الحروف التي تسميه:

LE CIRQUE DES RÊVES أو سيرك الأحلام.

لا تكاد تقرأ في ضوء النهار وكل منها في حجم ثمرة قرع ضخمة. والزخارف الحديدية الملتفة حول الحروف تذكره بجذور القرع. وهناك قفل معقد يغلق البوابة ولافتة صغيرة مكتوب عليها بحروف ملتفة **تفتح في الليل وتغلق عند الفجر.**

وأسفلها بحروف صغيرة واضحة **الدخلاء سيُسْتَنْزَفُون**

لم يفهم بيلي ماذا تعني كلمة **يُسْتَنْزَفُون**، لكن لم تبد له محببة.

بدا السيرك غريبًا في ضوء النهار. شديد الهدوء، بلا موسيقى أو ضجة فقط زقزقة الطيور وحفيف الأشجار. لا يوجد أحد به، بدا المكان

مهجورًا تمامًا، وإن كانت رائحته مثلما كان بالليل لكن أضعف، مزيج من روائح الكراميل والفشار ودخان الحطب.

نظر بيلي خلفه نحو الجانب الآخر من الحقل، كان البقية ما زلوا جالسين على الشجرة برغم أنهم يدون صغارًا من هذه المسافة. لكنهم بلا شك يراقبونه. لذا قرر أن يدور حول السور إلى الناحية الأخرى. لم يعد واثقًا أنه يريد فعل هذا وحتى لو فعله فهو حتمًا لا يريد أن يراه أحد.

كان أغلب السور بعد البوابة ملاصقًا للخيام لذا فلا توجد مساحة للمرور لذا استمر بيلي في السير. بعد بضع دقائق بعدما غابت شجرة البلوط عن نظره ووجد جزءًا من السور غير ملاصق لخيمة، وإنما يجاورها أحد الممرات كأنه زقاق بين الخيمة والسور يدور حول جانبها ويختفي عبر الناصية. كان مكانًا لا بأس به للمحاولة.

عند هذه اللحظة عادت رغبة بيلي في دخول السيرك، ليس بسبب التحدي فقط هذه المرة بل لأن الفضول قد غلبه، فضول قاتل لا يقاوم. ووراء الرغبة في إثبات ذاته أمام كارولين، وأسفل فضوله القوي، كانت هناك أيضًا تلك الرغبة العارمة في الرجوع إلى السيرك قد اشتعلت.

كانت القضبان الحديدية سميكة وناعمة، وبمجرد النظر أدرك بيلي أنه لن يستطيع تسلقها، إلى جانب أن الأقدام الأخيرة من السور مستحيلة؛ لأن الجزء العلوي منحنٍ إلى الخارج في لفائف تنتهي بما يشبه الرماح. لم تكن مخيفة لكن بالطبع ليست مُرَحِّبَة.

لكن السور لم يُبْنَ ليواجه محاولات فتى في العاشرة للتسلل، فرغم أن القضبان قوية وعالية لكن المسافة بين كل اثنين حوالي قدم، ويمكن لبيلي بجسده الصغير أن ينعصر بينهما ليمر بسهولة.

تردد قليلًا، فقط للحظة واحدة، لكنه كان يعرف أنه سيكره نفسه لو تراجع الآن ولم يحاول مهما كانت النتائج التالية.

كان يظن أنه سيشعر بالاختلاف عما كان عليه في الليل، لكنه ما إن تجاوز القضبان ووقف في الممر بين الخيم لم يشعر بأي اختلاف عما كان عليه بالخارج، كأن السحر الذي يأتي في المساء قد ذهب كلية أو أنه لا يستطيع الشعور به.

وبدا المكان مهجورًا تمامًا. لا أثر للعمال أو المؤدين، وكان المكان صامتًا أكثر من الخارج فلا يسمع حتى صوت الطيور. حتى الأوراق الجافة التي تتحطم تحت قدمه بالخارج لم تتبعه للداخل. برغم أن القضبان متسعة بما يكفي لكي يحملها النسيم معه.

احتار بيلي في الاتجاه الذي يمضي به، والشيء الذي يحضره معه كإثبات لنجاحه في التحدي. لا يبدو أن هناك أي شيء ليُؤخذ، فقط الأرض الجرداء والجوانب الملساء للخيم. في ضوء النهار بدت الخيم على غير المتوقع قديمة وبالية، فتساءل: **منذ متى يتجول هذا السيرك وإلى أين يذهب بعد أن يغادرهم**. فكر أنه ربما كان هناك قطار خاص للسيرك برغم أنه لم ير واحدًا في المحطة القريبة. وعلى حد علمه لم ير أحدهم مثل هذا القطار يمر من هنا.

انعطف بيلي ناحية اليمين عند نهاية الممر ليجد نفسه وسط صف من الخيام. كل منها عليه باب ولافتة تروج لما تحتويه، واحدة تقول: **تحليق الخيال**، وأخرى **اللغز الأثيري**. وحبس بيلي أنفاسه وهو يمر بجوار **الوحوش المرعبة والمخلوقات العجيبة**، لكنه لم يسمع شيئًا داخلها. وأيضًا لم يجد شيئًا ليأخذه. وبما أنه لا يريد أن يسرق لافتة فلم يجد حوله سوى بقايا الفشار المدهوس والأوراق الممزقة.

كانت شمس العصر قد ألقت بظلال طويلة بين الخيم تمتد على الأرض الجافة التي دهنت باللونين الأبيض والأسود، وإن كان الطين البني قد ظهر لبيلي بعدما قلبته عشرات الأقدام التي مرت فوقه، فتساءل إن كانوا يعيدون دهانه كل يوم. كان يفكر في هذا ناظرًا ناحية الأرض وهو يدور حول ناصية فكاد أن يصطدم بفتاة.

كانت تقف في منتصف الطريق بين الخيم دون أن تفعل شيئًا كأنها كانت تنتظره، بدت في مثل عمره، ترتدي زيًّا عجيبًا: حذاء طويل الرقبة أبيض اللون كثير الأزرار، جوارب بيضاء وفستانًا أبيض مصنوعًا من كل أنواع الأقمشة التي يمكنك أن تتصورها. قطع من الحرير والقطن والدانتيل مجتمعة معًا في قماشة واحدة، وفوقه معطف عسكري وقفازات بيضاء. كل بوصة من عنقها حتى قدمها غارقة في البياض، مما يجعل شعرها الأحمر ملفتًا بشدة.

قالت الفتاة ذات الشعر الأحمر بهدوء:

- لا يُفترض أن تكون هنا.

لم يبدُ في صوتها غضب أو مفاجأة، حملق بيلي بها بضع لحظات قبل أن يستطيع الرد.

قال:

- أنا.. آهه أعرف.

بدا له هذا أغبى رد ممكن. لكن الفتاة اكتفت بالنظر له فأضاف:

- أنا آسف؟

وأحس أنه زاد رده غباءً.

التفت الفتاة خلفها وقالت:

- يجب أن تغادر قبل أن يراك أحد آخر.

لم يستطع أن يرى إلام تنظر وأضافت الفتاة:

- من أين أتيت؟

ارتبك بيلي:

- من الوراء حيث ...

أخذ يتلفت حوله ولم يدر من أي طريق جاء، كان الممر الذي سار فيه يلتف حول نفسه ولم يستطع رؤية أي لافتة مألوفة ليتأكد من أنه مر من جوارها. قال:

- لست واثقًا.

وضعت الفتاة يده في يدها ذات القفاز الأبيض وقالت:

- لا بأس، تعال معي.

وجذبته عبر أحد الممرات، ومضت به دون أن تقول كلمة واحدة. كانت توقفه كلما أتيا إلى منعطف وتبقيه ساكنًا لدقيقة في كل مرة، وحينما حاول أن يسأل ما الذي ينتظرانه، وضعت إصبعها على شفتيها لتسكته قبل أن تتحرك ثانية بعد بضعة ثوانٍ. سألته الفتاة:

- أتستطيع المرور بين قضبان السور؟

فأومأ بالإيجاب.. أخذته الفتاة عبر منعطف حاد بين الخيم عبر ممر لم ينتبه بيلي لوجوده من قبل، وها قد ظهر له السور ثانية والحقل من ورائه. قالت الفتاة:

- اخرج من هنا وستكون بخير.

ساعدت بيلي على اعتصار نفسه بين قضيبين كانا أضيق بعض الشيء من اللذين دخل بينهما، وحين أصبح أخيرًا بالخارج التفت نحوها. لم يجد ما يقوله سوى:

- شكرًا لك.

ردت:

- على الرحب والسعة، لكن عليك أن تكون أكثر حذرًا، لا يفترض أن تدخل في النهار، يجعلك هذا دخيلًا.

قال بيلي:

- أعرف، وأعتذر. لكن ما معنى يُسْتَنْزَفون؟

ابتسمت الفتاة وقالت:

- تعني أن دماءهم ستصفى بالكامل، لكنهم لا يفعلون هذا حقًا، لا أظن.

ثم التفتت لتعود عبر الممر. قال بيلي:

- انتظري.

برغم أنه لم يدر لم يطلب منها الانتظار. وهي لم ترد، فقط انتظرت ما سيقوله. قال لها:

- يفترض أن أعود بشيء ما.

ندم فورًا على قوله ما إن نطقه، بينما انعقد حاجباها وهي تحملق به وتكرر:

- تعود بشيء ما؟

خفض رأسه ناظرًا لحذائيه الباليين وقال:

- إيهٍ، كان تحديَ جرأة.

آملًا أن تتفهم الأمر.

ابتسمت الفتاة وعضت شفتها لثوان مفكرة ثم نزعت قفازها الأبيض من إحدى يديها، ومدته لبيلي عبر القضبان. تردد الصبي فقالت:

- لا بأس، لدي صندوق كامل منها.

أخذ قفازها ووضعه في جيبه وهو يقول ثانية:

- شكرًا لك.

قالت:

- لا عليك يا بيلي.

وهذه المرة حينما التفتت لم يقل شيئًا، واختفت بعد المنعطف خلف الخيمة المخططة.

ظل بيلي واقفًا مكانه لفترة طويلة قبل أن يعود عبر الحقل. لم يجد أحدًا ينتظره عند شجرة البلوط، فقط كميات كبيرة من الجوز ملقاة على الأرض، والشمس تميل للمغيب.

وفي منتصف الطريق للمنزل أدرك أنه لم يخبر الفتاة قط بأن اسمه بيلي.

شركاء ومخططون

لندن، فبراير 1885

العشاء في منتصف الليل يعد تقليدًا في قصر لوفيفرا. في البداية كان الأمر مجرد نزوة لاقت هوًى لدى شاندرش أتته نتيجة لمزيج من الأرق المزمن والسهر المتأخر في المسرح، وكرهه الحميم لتقاليد مآدب العشاء الفاخرة. هناك أماكن يمكنه الأكل فيها في الليل المتأخر، لكنَّ أيًّا منها لم يكن يناسب ذائقة شاندرش.

لذا بدأ يعد مآدب عشاء متنوعة الأنماط مع تقديم الطبق الأول عند منتصف الليل. دومًا بالضبط عند منتصف الليل. في نفس اللحظة التي تدق فيها ساعة جده في البهو في العزف توضع الأطباق الأولى على المائدة. كان شاندرش يشعر أن هذا يعطي جلالًا للطقوس.

كانت المآدب الأولى صغيرة، تضم فقط الأصدقاء المقربين وزملاء العمل. مع الوقت أصبحت أكثر تكرارًا وإسرافًا. وفي النهاية تحولت إلى نوع من الموضة السرية. الحصول على دعوة **لعشاء منتصف الليل** يعد موضع غبطة في بعض الدوائر.

كانت الدعوات حصرية، برغم أنها أحيانًا قد تصل إلى الثلاثين فردًا، لكن أحيانًا لا قد تزيد على الخمسة. في المتوسط من اثني عشر إلى خمسة عشر مدعوًا. لكن الطعام دومًا ما يكون رائعًا أيًا ما كان العدد.

لم يقدم شاندرش إلى ضيوفه قوائم طعام، بعض المآدب المماثلة -إن وجد ما يليق بالمقارنة- تعد قائمة من الورق المقوى تصف كل طبق بالتفصيل. أو حتى مجرد اسم الطبق ونوعه.

لكن مآدب منتصف الليل بها نوع من غموض المساء وسحره. لذا ظن شاندرش أن عدم تقديم قائمة، أو خريطة لكيف سيقدم الطعام تعزز هذا الإحساس.

طبق تلو الآخر يوضع على المائدة، بعضها يسهل معرفة مما طبخ، مثل السمان والأرانب والضأن، تقدم على ورق الموز، أو محشوة بالتفاح، أو مزدانة بالكرز المنقوع في البراندي. بعض الأطباق أكثر صعوبةً وغموضًا، محجوبةً بالتسبيكة الحلوة أو البهارات اللاهبة. لحوم مجهولة مخفاة في المعجنات أو مغطاة بالصلصات.

ولو أن إحدى الحاضرات تساءلت عن طبيعة طبق معين، أو ماهية شيء قضمته أو نكهة لا تستطيع تحديدها بالضبط (فحتى الذواقة الخبراء بالأطعمة لا يستطيعون معرفة كل نكهة موجودة) فلن تُقَابل بإجابة مريحة. يعلق شاندرش فقط بأن:

- الوصفة ملك للطهاة أنفسهم ولن أنتهك أسرارهم.

فتعود الضيفة الفضولية إلى طبقها متذكرة أنه أيًا ما كانت أسرار الطبخة، فالطعام يظل مبهرًا. لتظل تأكل وتتساءل في حيرة عميقة عن مصدر تلك النكهة الغامضة مع كل قضمة.

مثل تلك النقاشات تدور عادة في الأوقات بين تقديم الأطباق، لكن في الحقيقة فإن شاندرش نفسه لم يكن محبذًا لأن يعرف كل المكونات أو يفهم طريقة طهو كل طبق، كان يعتقد أن جهله بهذا يجعل كل طبق يذوقه مفعمًا بالحياة، وليس مجرد مجموع لمكونات وطرق.

وحين ذُكر الأمر قال لأحد الضيوف:

- أنت لا تريد رؤية تروس الساعة، بل تعرف منها الوقت.

الحلوى كانت دومًا مذهلة. مزيج مثير للنشوة من الشكولاتة والزبد والسكر والمربى والتوت تفور بالكريمة والشربات.

كعكات مصفوفة بعلو لا يصدق، معجنات أخف من الهواء، تين مُشرب بالعسل، سكر مضفر في شكل ورد يراها المدعوون أجمل وأروع من أن تؤكل، لكنهم يأكلونها على أي حال.

لم يكشف شاندرش أبدًا اسم الطاهي. إحدى الشائعات تزعم أنهم مجموعة من عباقرة الطهو من مختلف دول العالم اختطفهم شاندرش ويسجنهم داخل مطبخه؛ حيث يتم إجبارهم بطرق قاسية على تلبية كل رغباته. شائعة أخرى أن الطعام لم يطه في قصره، بل يحضره من أفخر مطاعم لندن التي يدفع لها المزيد كي تظل تعمل وقت السهر، وعادة ما يصاحب هذه الشائعة افتراضات متضاربة عن كيف تحفظ الأطعمة الساخنة بحرارتها والباردة ببرودتها دون أن يبدو أحدها مقنعًا فلا يخرج من يفكر فيها إلا بمزيد من الشعور بالجوع.

أيًا ما كان مصدره فقد كان الطعام شهيًا، وزخرفة حجرة الطعام (أو حجرات الطعام حسب عدد المدعوين) خرافيًا مثله مثل بقية المنزل؛ حيث يمتزج الأحمر النفيس مع الذهب الأخاذ والفن الراقي في تحف جلبت من حول العالم معروضة في كل ركن، والمكان مضاء بقناديل

ساطعة وثريات متلألئة، توازن الإضاءة فلا تكون ساطعةً وإنما دافئةً وحميميةً وهادئةً.

عادة ما يكون هناك عروض للتسلية من نوع ما، راقصات أو حواة أو موسيقيين غرباء. حينما يكون الحضور من المقربين فعادة ما يصاحبهم عازفة البيانو الخاصة بشاندرش، وهي سيدة شابة جميلة تعزف طوال الأمسية دون انقطاع ولا تنطق بكلمة واحدة.

كانت مأدبة مثل غيرها من المآدب، لكنَّ أجواءها ووقتها الساهر تحولها إلى شيء آخر، شيء عجيب ومشوق. وشاندرش لديه موهبة طبيعية لخلق ما هو عجيب ومشوق، وكان مدركًا للقوة الكامنة في تهيئة الأجواء.

ذات ليلة، كانت مأدبة منتصف الليل مخصصة لمجموعة محدودة، فقط خمسة من المدعوين. ولم يكن غرض الدعوة الوحيد هو التواصل والضيافة.

كانت أولى الواصلين (بعد عازفة البيانو التي كانت تعزف بالفعل) هي السيدة آنا بادفا. وهي نجمة باليه متقاعدة من رومانيا كانت صديقة عزيزة لوالدة شاندرش، ناداها بالعمة بادفا وهو طفل، وما زال يفعل ذلك حتى اليوم. كانت سيدة مهيبة، ما زالت محتفظة بخفة الراقصات برغم عمرها المتقدم تمامًا، مثل ذوقها الراقي في الموضة، وكان ذوقها الراقي هذا هو سبب دعوتها.

كانت مرجعًا في الجماليات تجيد التقاط الموضة التي تجمع بين التفرد والروعة وهو ما منحها مصدرًا للدخل يكفيها بعد اعتزالها الباليه.

تصفها الصحف بأنها ساحرة الأقمشة، صانعة للمعجزات، وبرغم أنها لا تحب هذه الألقاب فقد كانت تمزح بأنه ببعض الحرير ومشد

صلب يمكنها أن تجعل شاندرش نفسه موضع حسد السيدات الباحثات عن الأناقة.

في هذا المساء كانت السيدة بادفا ترتدي ثوبًا من الحرير الأسود مطرزًا يدويًّا بزركشة معقدة في شكل براعم الكرز. وشيئًا يشبه الكيمونو الياباني كمعطف، وشعرها الفضي معقود فوق رأسها بمشبك أسود مزدان بالجواهر. وقلادة من ياقوت مصقول أحمر بحرفية معقودة على رقبتها، معطية إحساسًا بأن نحرها قد شُقَّ. كان مشهدها يبعث بمزيج من الرهبة والروعة.

كان ثاني الواصلين هو السيد إيثان دابليو باريس، وهو مهندس ومعماري ذو شهرة. بدا كأنه في المكان الخطأ، كان سيليق أكثر به لو كان مدعوًا في مكتب أو بنك بطريقته الآلية ونظاراته الفضية. كان شعره مصففًا بعناية ليخفي بدايات الصلع الزاحفة. لم يقابل شاندرش سابقًا إلا مرةً واحدةً في معرض عن عمارة الحضارة الإغريقية. كان وصول الدعوة له أمرًا مفاجئًا فلم يكن السيد باريس من النوع الذي يتلقى دعوات لحفلات غير عادية في آخر الليل، ولا لأي حفلات في الحقيقة. لكنه لم يجد أن من اللائق رفضها. كما أنه كان راغبًا في إلقاء نظرة داخل منزل السيد لوفيفرا الذي يعد أسطورة بين زملائه الذين تسنى لهم العمل في عمارته الداخلية.

بعد لحظات من وصوله وجد في يده كأسًا من النبيذ الفاخر ويتبادل المزحات مع نجمة باليه سابقة. وهو ما جعله يغير رأيه في الحفلات الليلة، وأنه قد يكون من الممتع أن يوليها اهتمامًا أكبر.

وصلت الشقيقتان بيرجس معًا. تارا وليني، تعملان بالقليل من كل شيء تقريبًا، أحيانًا راقصتين أو ممثلتين، وذات مرة عملتا أمينتيّ مكتبة وهو موضوع لا تأتيان على ذكره إلا تحت تأثير الخمر الشديد. ومؤخرًا

بدأتا تعملان في تقديم الاستشارات حول أي شيء، نصائحهما تتراوح بين مشاكل العلاقات والأمور المالية والسفر وحتى الأحذية. السر في نجاحهما (الذي ستتطوعان بشرحه تحت تأثير الخمر) هو امتلاكهما لقوة ملاحظة عظيمة. تنتبهان لكل التفاصيل حتى أدق التغيرات. وإذا أغفلت تارا شيئًا فستراه ليني والعكس بالعكس.

كانتا تتمتعان بحل مشاكل الآخرين بالنصائح بدلًا من مزاولة العمل بنفسيهما، كان هذا مرضيًا أكثر كما تزعمان.

كانتا متشابهتين، لهما نفس التموجات في شعريهما الكستنائيين، نفس العيون الواسعة اللامعة العسلية، التي توحي بعمر أصغر من عمريهما الحقيقي، وإن كانتا لا تصرحان بهذا العمر أبدًا ولا حتى أي منهما هي الكبرى.

كانتا ترتديان فستانين أنيقين ليسا متماثلين، لكنهما يتناسقان مع بطريقة جميلة كأن إحداهما تكمل الأخرى. حيَّتهما السيدة بادفا بتجاهل متعمد كعادتها مع كل ما هو شاب جميل، لكنها انقلبت إلى الود حينما مدحا بحرارة شعرها وجواهرها وفستانها. وجد السيد باريس نفسه مفتونًا بكلتيهما، وإن كان من المحتمل أن هذا تأثير الخمر. وجد صعوبة في فهم لكنتهما الثقيلة الأسكتلندية، إن كانت أسكتلندية فهو ليس متأكدًا.

الضيف الأخير وصل قبيل تقديم العشاء مباشرة، بعدما أُجلس الضيوف في مقاعدهم وصُب لهم النبيذ. كان رجلًا طويلًا متوسط العمر غامض الملامح يرتدي بدلة رمادية تمامًا ذات ذيل وترك قبعته العالية وعصاه عند الباب مع بطاقة باسمه «السيد أـ هـ ـ». حيا الحضور بإيماءة مهذبة قبل أن يجلس دون أن ينبس بنبت شفة.

وهنا انضم لهم شاندرش، وخلفه مساعده ماركو، الشاب الوسيم ذو العيون الخضراء الأخاذة جذب فور رؤيته نظري الأختين بيرجس. قال شاندرش:

- لقد دعوتكم جميعًا لسبب، واثق أنكم خمنتم هذا الآن. ولكنه سبب مرتبط بالأعمال وهو ما أحبذ أن تكون مناقشته بمعدة ممتلئة. لذا سنؤجل حديثنا المهم لما بعد التحلية.

وأشار إلى الندلاء بينما بدأت الساعة تدق بنغمات هادئة ثقيلة ترددت في أرجاء المنزل اثنتي عشرة مرة ليتم إحضار المقبلات.

كان الحديث مشوقًا وسلسًلا مثل النبيذ الذي فاض طوال تقديم الأطباق المختلفة. كانت السيدات هما الأكثر تحدثًا من الرجال، في الحقيقة فذلك الرجل ذو البدلة الرمادية لم ينطق بكلمة طوال العشاء. وبرغم أن هذه المجموعة لم تتلاق من قبل تقريبًا إلا أن من يراهم بعدما أنهوا طبقهم الرئيسي سيظن أنهم أصدقاء منذ سنوات.

وحينما انتهت التحلية قبل دقائق من الثانية صباحا وقف شاندرش وتنحنح قائلًا:

- لو أكرمتموني بعطفكم وانضممتم معي في المكتب لتناول القهوة والبراندي لعلنا نتناقش في العمل.

وأومأ إلى ماركو الذي انسل بعيدًا لينضم إليهم بالأعلى في المكتب حاملًا معه دفاتر كبيرة ولفائف من الورق. صُبّت القهوة والبراندي للضيوف الذين توزعوا بين المقاعد والأرائك حول المدفأة المتوهجة. وبعدما أشعل سيجارة بدأ شاندرش حديثه المصاحب بنفخات من الدخان.

- احتجت رفقتكم هذه الليلة لمشروع سأبدئه، تجربة كما يمكنكم تسميتها. تجربة أظن أنها ستلقى منكم جميعًا القبول، وستساهمون جميعًا، كلٌّ منكم بطريقته في التخطيط لها. مساعدتكم التي هي اختيارية تمامًا ستلقى التقدير والتعويض المناسبين.

لوحت السيدة بادفا بكأسها قائلة:

- كُفَّ عن المراوغة وألق بلعبتك الجديدة يا عزيزي شاندرش، بعضنا لم يعد يمتلك ما يكفي من العمر.

كتمت الشقيقتان بيرجس ضحكاتهما، بينما انحنى لها شاندرش قائلًا:

- بالطبع عمتي بادفا، إن لعبتي الجديدة كما وفقت في تسميتها هي سيرك.

قالت ليني مبتسمة:

- سيرك؟ يا للروعة!

أما السيد باريس فقد بدا مرتبكًا وهو يسأل:

- سيرك؟ تعني مثل الكرنفال؟

قال شاندرش:

- بل هو أكثر من الكرنفال، في الحقيقة شيء أكبر من السيرك. لا يماثل أي سيرك رآه إنسان من قبل. ليس في خيمة واحدة عملاقة، بل الكثير من الخيام كل منها متخصصة في عرض محدد، ليس بالأفيال أو المهرجين، كلا بل شيء أرقى دون ابتذال. سيكون شيئًا مختلفًا. سيكون تجربة فريدة ووليمة للمشاعر، مسرحيات

دون مسرح، متعة غامرة. سندمر ما يتوقعه الناس من السيرك وما يعرفونه عنه لنصنع لهم شيئًا مختلفًا كلية، شيئًا جديدًا.

وأشار إلى ماركو الذي بسط لفائف الأوراق على المنضدة، وثبت أركانها ببعض مثقلات الورق والأشياء الغريبة (كجمجمة قرد وفراشة محنطة في قالب من زجاج).

كانت المخططات عبارة عن رسوم سريعة محاطة بالملاحظات، لا تشرح إلا أجزاء من الأفكار. حلقة من الخيام، طريق مركزي وقائمة بالعروض والفقرات مخطوطة أسفل الجوانب، بعضها مشطوب والبعض الآخر محاط بدائرة.

قارئو الطالع

الأكروبات

الحواة

بهلوانات

راقصون

لاعبو النار

انكبت الأختان برجيس والسيد باريس على المخطط يقرؤون كل ملاحظة، واكتفت السيدة بادفا بالابتسام ورشفة من كأسها أما السيد أ ـ هـ ـ فلم يحرك ساكنًا، ظل كما هو بنفس التعبير الغامض الجامد على ملامحه. في الوقت الذي واصل فيه شاندرش حديثه:

- ما زلت في مرحلة الأفكار الأساسية، ولذا دعوتكم هنا الآن، كي تشاركوا بالإلهام والتطوير. الأمر يحتاج الطابع، الجرأة، الابتكارية في آلياته وهندسته، كي يكون متشربًا بالفتنة، وربما لمسة من الغموض، وأنا واثق أنكم المجموعة المثالية لتحقيق هذا. لو لم

يرغب أيكم في المشاركة فيمكنه المغادرة، ولكني سأطلب منه باحترام ألا يتحدث عن الأمر لأي شخص، أرجو أن تبقى هذه المخططات سرية تمامًا. على الأقل الآن، هذه نقطة غاية في الحساسية.

وتوقف ليسحب نفسًا طويلًا من سيجاره قبل أن ينفثه ببطء ويكمل:

- في النهاية، لو فعلنا كل شيء كما ينبغي فبلا شك سيخلق حياته الخاصة.

حل الصمت بعدما انتهى، ولم يُسْمَع في الحجرة لعدة دقائق سوى طقطقة نيران المدفأة، بينما ينظر الضيوف إلى بعضهم، ينتظر كل منهم أن يتكلم الآخر.

- هل لي بقلم رصاص؟

كان أول المتحدثين هو السيد باريس، فلبى ماركو طلبه، أخذ السيد باريس يرسم محولًا التخطيط المبدئي إلى تصميم معقد.

بقي ضيوف شاندرش معه حتى اقترب الفجر. وحينما غادروا كانت الرسوم والتصميمات والملاحظات قد تضاعفت ثلاث مرات القدر الذي كان حين وصلوا، وقد تناثرت وعلقت في أرجاء المكتب كأنها خريطة لكنز مجهول.

التعازي

نيويورك، مارس 1885

كان الخبر المنشور في الصحف يذكر أن هكتور بوين، المعروف باسم بروسبيرو الساحر، الفنان والساحر المسرحي الشهير، قد مات نتيجة أزمة قلبية، في منزله في الخامس عشر من مارس.

ويمضي النعي ذاكرًا أعماله ونجاحاته. كان العمر مذكورًا خطأً، كما بدا لبعض القراء المدققين، وتلك الفقرة الأخيرة القصيرة من التأبين التي تذكر أنه خلف ابنة ذات سبعة عشر عامًا، الآنسة سيليا بوين بدا الرقم فيها أكثر دقة. ورغم أن التنويه في النهاية أن مراسم الجنازة ستكون خاصة لكنه أضاف عنوان أحد المسارح المحلية لاستقبال رسائل العزاء.

جمعت الخطابات والبطاقات في أجولة، وحملها رسول إلى منزل بوين. وهو بيت في الضواحي، غمر بالفعل بالزهور التي أرسلت كتعبير عن العزاء الواجب، حتى أصبحت رائحة الزنبق خانقة، ولم تعد سيليا تتحملها. فقامت بتحويل كل الزهور إلى ورد.

تركت سيليا أكوام الخطابات في غرفة الطعام حتى فاضت عبر الغرفة. لم ترد أن تتعامل معها لكن قلبها لم يطاوعها أن تلقي بها دون قراءتها.

وحينما لم يعد من الممكن تجاهلها، أعدت إبريقًا من الشاي وبدأت في استطلاع جبل الأوراق. كانت الخطابات من حول العالم، بعضها خطابات طويلة حارة تفيض بالأسى الحقيقي، وبعضها مواساة خاوية مع مديح أجوف لمهارة والدها. كثير منها كان يحمل التعليق أنها المرة الأولى التي يعرف فيها أن الساحر العظيم كانت له ابنة. بينما يتذكرها البعض بمحبة متحدثين عن تلك الفتاة الصغيرة المرحة التي لا تتذكرها سيليا نفسها. البعض الثالث كان يحمل عروضًا مزعجة بالزواج.

هذه بالذات اعتصرتها سيليا في كرات ووضعتها واحدة تلو الأخرى في راحة يدها وركزت بها حتى انفجرت محترقة فلا يتبقى منها سوى الرماد الذي تنفخه هباءً منثورًا.

حدثت الهواء أمامها:

- أنا بالفعل متزوجة.

وهي تدير الخاتم في إصبعها الذي يغطي تلك الندبة القديمة المميزة.

بين الخطابات والبطاقات كان هناك واحد بمظروف رمادي صافٍ.

جذبته سيليا من كومة الخطابات وفتحته بفتاحة أظرف فضية، وهي تنوي أن تلقيه مع البقية.

لكن هذا المظروف تحديدًا كان على عكس البقية، موجهًا لوالدها مباشرة. برغم أن طابع البريد مؤرخ بعد تاريخ وفاته. لم تكن البطاقة بداخله تحمل كلمات المواساة أو العزاء. ولا حتى التحية، ولا توقيعًا. كانت الكلمة الوحيدة المكتوبة بخط اليد داخله هي:

- دورك!

ولا شيء آخر.

قلبت سيليا البطاقة لكن ظهرها كان خاويًا دون حتى نقطة حبر واحدة أو أثر لضغط القلم على السطح، ولا يوجد حتى عنوان راسل على المظروف.

قرأت سيليا الكلمة المكتوبة في الورقة الرمادية عدة مرات. لم تعرف هل القشعريرة التي اعتلتها الآن بسبب الحماس أم الذعر!

تركت بقية التعازي، وأمسكت بالبطاقة في يدها وغادرت الغرفة. صعدت السلم الداخلي الذي يقود لغرفة المعيشة، أخرجت سلسلة المفاتيح من جيبها بصبر نافذ، وفتحت ثلاثة أقفال مختلفة، ودخلت الغرفة الغارقة في شمس العصرية.

ما إن دخلت حتى مدت يدها بالبطاقة أمامها، وقالت:

- ما معنى هذه؟

التفت لها الجسد الطافي أمام النافذة، حيثما سقط عليه ضوء الشمس كان خفيًا، وكان جزء من أكتافه مفقودًا، أعلى رأسه متلاشٍ وسط شعاع الشمس الذي يجعل الغبار المعلق يتلألأ. وبقية جسده شفاف، كأنه انعكاس على زجاج.

قرأ ما تبقى من هكتور بوين البطاقة قبل أن يضحك بسعادة.

وشم البهلوانة

لندن، سبتمبر 1885

على الأقل مرة كل شهر كانت هناك مأدبة عشاء منتصف الليل يسميها ضيوفها بعشاء السيرك. كانت مزيجًا ليليًّا من أحاديث السمر والعمل.

لم تفوت السيدة بادفا إحداها. الأختان بيرجس كانتا تتناوبان إن لم تستطع كلتاهما الحضور. أما السيد باريس فقد كان يحضر كلما استطاع، فلم يكن جدول مواعيده مع كثرة أسفاره وأعماله مرنًا كي يحضر كما يحب.

أما السيد أ ـ هـ ـ فنادرًا ما كان يحضر، لكن تارا لاحظت أنهم ينجزون أفضل في حضوره، برغم أنه لا يقدم سوى القليل من الاقتراحات العرضية حول كيف سيتم تنظيم السيرك نفسه.

في إحدى الليالي لم تحضر سوى السيدات.

فاستفسرت السيدة بادفا:

- وأين صديقنا السيد باريس هذا المساء؟

وذلك حين وجدت الأختين برجيس حضرتا دون؛ حيث كان يصاحبهما عادة.

أتت إجابتهما:

- إنه في ألمانيا.

قالتها كلاهما معًا في نَفَسٍ واحد بتناغم كأنهما كورال يغني، مما أضحك شاندرش وهو يناولهما كأسيهما.

أكملت ليني:

- إنه يبحث عن صانع ساعات، شيء عن صنع قطعة خاصة للسيرك، كان متحمسًا جدًا للأمر.

لم يكن هناك مع العشاء هذه الليلة فقرة للتسلية، ولا حتى البيانو المعتاد، ولكن الفقرة أتت إلى الباب دون ميعاد رغم ذلك.

قدمت نفسها باسم تسوكيكو، وإن لم توضح إن كان اسمها الأول أم لقبها. كانت حجمها صغيرًا لكن ليس لدرجة الضآلة. بشعر أسود كبهيم الليل مضفر بعناية فوق رأسها، وترتدي معطفًا داكنًا أكبر منها بكثير، لكنها تمشي به فيبدو كأنه عباءة معلقة على أكتافها معطية مظهرًا أنيقًا.

تركها ماركو منتظرة في الردهة، أسفل التمثال الذهبي ذي رأس الفيل محاولًا شرح الأمر لشاندرش وهو ما جعل كل ضيوف العشاء ينزلون إلى الأسفل ليروا ما الخطب.

سألها شاندرش بقليل من الحيرة:

- ما الذي أحضرك في هذه الساعة؟

لم يكن حضور المؤدين المفاجئ هو أغرب ما يُرى في نزل آل لوفيفرا، كما أن عازفة البيانو أحيانًا ما كانت ترسل بديلًا عنها حينما لا تستطيع حضور إحدى المآدب.

لم ترد تسوكيكو سوى بقولها مبتسمة:

- أنا دومًا أعيش في الليل.

ولم تشرح أي تصاريف القدر التي أتت بها في هذا المكان هذه اللحظة تحديدًا. لكن ابتسامتها كانت ودودة ومعدية، فَرَجَتِ الأختان برجيس من شاندرش أن يتركها لتبقى.

قال شاندرش متجهمًا:

- سنجلس للعشاء بعد قليل، ولكن مرحبًا بك في حجرة الطعام لفعل... أي شيء تفعلينه.

انحنت تسوكيكو وهي تبتسم ثانية.

وبينما سبقهم البقية إلى غرفة الطعام، إذ أخذ ماركو معطفها ووقف مترددًا حينما رأى ما أسفله.

كانت ترتدي ثوبًا رقيقًا قصيرًا ربما يعتبر في مكان آخر فاضحًا، لكن زوار هذا المكان لا يتأثرون بالفضائح بسهولة. كان أقرب إلى شريط من الحرير الأحمر يلف بعض مواضع جسدها، ومثبتًا ببعضه بواسطة مشد ضيق من الأربطة أكثر مما هو لفستان أو زي.

لكن لم تكن ملابسها الكاشفة هي ما جعل ماركو يحدق إليها، بل الوشم الثعباني المنقوش على جلدها.

في البداية سيكون من الصعب أن تفسر ما هو، سيل من الخطوط السوداء تزحف حول كتفها وعنقها ليقف فوق منتصف صدرها من الأمام، بينما يختفي أسفل أربطة مشدها من الخلف. ومن المستحيل تقدير إلى أين يمتد هذا الوشم. الرؤية المدققة ستتبين أن هذا الوشم ليس مجرد خطوط سوداء متداخلة، بل كان شلالًا غامرًا من الرموز التنجيمية والخيميائية. إشارات قديمة للكواكب والعناصر مرصوصة جميعها بحبر أسود على بشرتها الناعمة. الزئبق، الرصاص، الأنتيمون.

قمر هلالي مرسوم خلف استدارة عنقها، مفتاح حياة مصري قرب الترقوة، رموز أخرى أيضًا، رونيات شمالية، حروف صينية، أوشمة لا تحصى لكنها مجتمعة معًا في تصميم واحد يزينها كأنها تشكل قطعة فريدة غير عادية من المجوهرات.

انتبهت تسوكيكو لنظرات ماركو، ورغم أنه لم يستفسر فقد قالت بهدوء:

- إنه جزء مما كنته، ومما أكون، ومما سأكون.

ثم ابتسمت ومضت نحو غرفة الطعام تاركة ماركو وحده في الردهة بينما بدأت دقات الساعة وبدأ تقديم الصحون.

خلعت حذاءها عند المدخل وانسلت حافية جوار البيانو وهو المكان الذي يصله أفضل إضاءة من الشمعدانات والثريات.

في البداية وقفت بهدوء صامتة في مكانها، بينما ينظر إليها الحضور بفضول، ثم فجأة أظهرت ما هي الفقرة التي تؤديها.

كانت تسوكيكو بهلوانة.

عادة البهلوانات يقدمنَ حركاتهم الأكروباتية، إما بالانحناء إلى الأمام أو إلى الخلف، كل على حسب مرونة عمودهم الفقري. لكن تسوكيكو كانت من النوع النادر الذي يمتلك مرونة فائقة في الاتجاهين.

كانت تتحرك بخفة راقصة بالية محترفة، وهو ما لاحظته فورًا السيدة بادفا وهمست به للأختين برجيس قبل أن تظهر رشاقتها المذهلة الحقيقية.

وحين رفعت تسوكيكو ساقها إلى أعلى بزاوية مستحيلة فوق رأسها، سألت تارا السيدة بادفا:

- هل كنت تستطيعين فعل شيء كهذا أثناء رقصك؟

ردت السيدة بادفا وهي تهز رأسها نافية:

- كنت سأصبح محبوبة أكثر بكثير لو استطعت فعل مثل هذا.

كانت تسوكيكو مؤدية بارعة، تقدم ما يبهر جمهورها، تحتفظ بوضعياتها وانحناءاتها للمدد المثالية، وبرغم أنها تلوي جسدها بزوايا تفوق الخيال وتبدو مؤلمة، لكن الابتسامة ظلت مرسومة على وجهها. حتى إن جمهورها الصغير نسوا نقاشهم وطعامهم وهم يشاهدونها. قالت ليني لشقيقتها أنها كانت واثقة من وجود موسيقى ما مع عرضها، برغم أنه لم يكن هناك صوت سوى انسياب الحرير وطقطقة النار في المدفأة.

ثم قطع شاندرش الصمت المفتون بضربة من قبضته على المنضدة، وهو يقول:

- هذا ما كنت أتحدث عنه.

كادت تارا أن تسقط الشوكة التي كانت تمسكها دون استخدام منذ بداية العرض لتلقفها قبل أن تقع في قلب طبقها نصف الممتلئ بمخفوق البيض والمحار، لكن تسوكيكو استمرت في حركاتها الرشيقة دون أن تتأثر، وإن كانت ابتسامتها قد اتسعت أكثر.

سألته مدام بادفا:

- هذا؟

رد ملوحًا نحو تسوكيكو:

- هذا! هذا هو المذاق الذي يجب أن يكون عليه السيرك. غير عادي ولكن فاتن، مثير ورغم ذلك يظل راقيًا، إنه القدر، أن تأتي إلى هنا الليلة. يجب أن نضمها، لن أقبل بأقل من هذا. ماركو أحضر كرسيًا للسيدة.

أعد مجلسًا لتسوكيكو، كانت ابتسامتها متحيرة حينما انضمت إليهم على المائدة. لم يكن الحوار عرضًا لوظيفة قدر ما كان إكراهًا مبطنًا على قبولها، كما أنه تفرع كثيرًا لمناقشة البالية، الموضة الحديثة، الأساطير اليابانية. وبعد خمسة أطباق والكثير من الخمر سمحت تسوكيكو لنفسها أن تقتنع بقبول الدعوة للعمل في سيرك لم ينشأ بعد.

قال شاندرش:

- حسنًا إذن! ها قد أنشأنا فقرة البهلوان، هذه بداية.

سألت ليني:

- ألا يجب أن يكون هناك أكثر من واحدة؟ خيمة كاملة مثل لاعبي الأكروبات؟

رد شاندرش:

- كلام فارغ، من الأفضل أن نحصل على شخص واحد مثالي عن أن نحضر حفنة من المتحجرين محدودي الموهبة. سنعد لها صندوق عرض خاصًّا، ونجعلها في المدخل أو ما شابه.

واعتُبِرَ الأمر محسومًا، وفي أثناء تناول الحلوى والشراب بعد الطعام كان الموضوع الوحيد المثار هو السيرك نفسه.

*****

تركت تسوكيكو بطاقة لماركو تشرح كيفية التواصل معها وهي تغادر، وسريعًا ما أصبحت من ثوابت مآدب السيرك. عادة ما تقدم عرضها إما قبل الطعام أو بعده، حتى لا تشتت انتباههم عنه. وقد ظلت مثال شاندرش المفضل لشرح ما يجب أن يكون السيرك عليه.

المواقيت

ميونخ 1885

في ورشته بميونخ تلقى هر فريديرك تايسن زيارة مفاجئة من رجل إنجليزي يدعى السيد إيثان باريس. اعترف السيد باريس أنه يبحث عنه منذ مدة طويلة بعدما أُعجب بعدة ساعات وقواق من صناعته حتى دله صاحب محل محلي على مكانه.

سأله السيد باريس إن كان مهتمًا بصنع قطعة خاصة بالعمولة، لدى الهر تايسن مجموعة كبيرة من الساعات المزخرفة، وأشار للسيد باريس إلى رف ممتلئ بساعات الوقواق التي تتراوح بين البساطة والزخرفة.

قال السيد باريس:

- يبدو أنك لم تفهمني جيدًا هر تايسن، ستكون هذه ساعة للعرض، لغزًا، ساعاتك رائعة لكن ما أطلبه هو شيء مذهل بحق. داس مايسترفيرك *Meisterwerk* *أو تحفة*. والمال لا يمثل أي مشكلة.

سأله الهر تايسن وقد اهتم بالأمر عن المواصفات والتفاصيل. لم يُعطَ الكثير، فباستثناء بعض القيود كمسألة الحجم (وإن ظل ضخمًا)، وأن يكون لونها حصرًا بالأسود والأبيض ودرجات الرمادي، فغير ذلك تركيبها وزخرفتها متروك له، على أن تكون قطعة فنية:

- كالحلم!

كان الوصف الوحيد الذي ذكره السيد باريس.

وافق الرجل وتصافحا على الاتفاق، وقال السيد باريس بأنه سيكون على تواصل، وبعد أيام قليلة وصله مظروف متخم بالنقود وتاريخ تسليم بعد بضعة شهور، وعنوان في لندن كي تشحن له الساعة بعد اكتمالها.

استغرق الأمر من الهر تايسن أغلب هذه المهلة كي يكمل الساعة، لم يعمل على غيرها أغلب الوقت، وإن كان المقابل المادي جعل الأمر مجزيًا.

استغرق أسابيع في وضع التصميم والآلية، واستأجر مساعدًا كي ينجز أعمال الخشب الأساسية، لكنه أشرف على كل تفصيلة بنفسه. فقد كان يحب هذا التحدي، وقد بنى تصميمه بالكامل على الكلمة الوحيدة التي حددها السيد باريس.. **كالحلم**.

كانت النتيجة النهائية رائعة، قد تبدو للنظرة الأولى مجرد ساعة، ساعة ضخمة سوداء بميناء أبيض وبندول فضي، بالطبع أطرافها الخشبية منقوشة ببراعة وميناؤها ناصع، لكنها مجرد ساعة.

لكن هذا قبل أن تبدأ في الدوران، قبل أن تتحرك ثانيتها الأولى، ويتذبذب بندولها ببطء منتظم. عندها ترى شيئًا آخر.

التغيرات بطيئة في البداية، أولًا تتغير ألوان ميناء الساعة، من الأبيض إلى الرمادي ثم تظهر سحب تطفو عبره، وتختفي حين تصل إلى الجانب المقابل. في نفس الوقت فإن جسم الساعة يتمدد وينكمش، كقطع البازل، الساعة تتفكك ببطء ورصانة.

كل هذا يأخذ ساعات.

ثم يتحول الميناء إلى رمادي داكن ثم إلى لون أسود حالك باستثناء نجوم متلألئة مكان الأرقام التي اختفت، وجسم الساعة –الذي انقلب

آليًّا ليصبح ما بداخله خارجه- قد أصبح ذا تدرج متقن من الأبيض إلى الرمادي. ولم يعد مكونًا من أجزاء، بل أصبح أشكالًا ومجسماتٍ، بنحت دقيق جسدت زهورًا ونباتات وكتبًا صغيرة بأوراق حقيقية يتم تقليبها، وتنينًا فضيًّا يحوم حول الأجزاء الداخلية التي أصبحت مكشوفة، وأميرة دقيقة منحوتة في برج منقوش تهرب في يأس منتظرة أميرها الغائب. أباريق شاي تصب في فناجين وتعلوها دوامات دقيقة من البخار ترتفع مع دقات الثواني. هدايا مغلفة تفتح، قطط صغيرة تطارد كلابًا أصغر، رقعة شطرنج تلعب لعبة كاملة.

وفي المنتصف؛ حيث يقيم طائر الوقواق في الساعات الاعتيادية، كان هناك بهلوان، يرتدي زي مهرجين، وقناعًا رماديًّا، ويلعب بكرات فضية لامعة عددها حسب الساعة، كلما مرت ساعة زادت كرة، حتى تصل في منتصف الليل لاثنتي عشرة ساعة في تشكيل معقد.

بعد منتصف الليل تعود الساعة ثانية لتنطوي على نفسها، يصبح الميناء فاتحًا وتعود السحب وتتناقص كرات البهلوان حتى يختفي، وعند الظهيرة تعود لتصبح ساعة ثانية، وليس حلمًا.

بعد أسابيع قليلة من شحنها تلقى خطابًا ثانيًا من السيد باريس، يقدم فيه خالص شكره وإعجابه من عبقريتها. **إنها الكمال** كما كتب يصفها. وأرفق بالخطاب مبلغًا ضخمًا ثانيًا يكفي هر تايسن كي يتقاعد في راحة إن أراد. لكنه لم يفعل، ظل يعمل على ساعاته في ورشته بميونخ.

لم يفكر ثانية بالأمر، باستثناء فكرة عابرة عن كيف تؤدي الساعة الآن، وأين يمكن أن تكون وضعت (برغم أنه افترض بالخطأ أنها ستبقى في لندن)، فقط حينما كان يعمل على ساعة معقدة تذكره بساعة الحلم العسير (the *Wunschtraum* clock) كما كان يسميها أثناء بناء الأجزاء المعقدة منها. ولم يسمع ثانية من السيد باريس بعد هذا الخطاب.

اختبار المواهب

لندن، أبريل 1886

شهد بهو المسرح تجمعًا فريدًا من الحواة. طيف من مرتدي الحلل اللامعة والمناديل الحريرية المرصوصة بإتقان في جوانبها. بعضهم كان يحمل معه صناديق وحرامل، وآخرون يحملون أقفاص طيور أو عِصِيًّا برؤوس فضية. لم يكلم أحدهم الآخر بينما ينتظرون أن ينادى عليهم -واحدًا تلو الآخر- ليس بالاسم أو اسم الشهرة، وإنما برقم مكتوب على رقعة ورق صغيرة أعطيت لهم عند وصولهم. كانوا يتنقلون بين مقاعدهم وهم يحدقون بجرأة إلى الفتاة.

بعضهم توهم أنها مساعدة حين وصلت، لكنها كانت تمسك برقمها الخاص في يدها، رقم 23.

لم يكن معها صندوق أو حرملة أو عصا أو قفص طيور، كانت ترتدي فستانًا ذا لون أخضر داكن، وفوقه أغلقت معطفًا ذا أكمام سوداء منتفخة، وضفائر مجدولة ومثبتة فوق رأسها أسفل قلنسوة سوداء صغيرة مزدانة بالريش. كانت ملامحها ما زالت طفولية، مع طول رموشها وزم شفتيها، برغم أنها من أن عمرها أكبر بوضوح من أن توصف بالطفولة، لكن من الصعب تخمين عمرها بالضبط، ولم يجرؤ

أحد على السؤال، لكنَّ الآخرين كانوا ينظرون إليها على أنها صغيرة، ويشيرون إليها في نقاشهم بعد انتهاء الأمر بالصغيرة، لكنها تجاهلت الجميع برغم جرأة النظرات التي تصل إلى التحديق أحيانًا.

واحدًا تلو الآخر نوديت أرقام المشعوذين، كان يناديهم رجل ممسك بقائمة في مذكرة. ويرافقهم عبر باب مُذَهَّب في جانب البهو، وواحدًا تلو الآخر يعود كل منهم قبل أن يغادر المسرح. بعضهم لم يقضِ سوى لحظات، والبعض الآخر انتظر لفترة طويلة، وأصحاب الأرقام الأخيرة تقدموا في صفوف المقاعد بنفاد صبر منتظرين الرجل ذا المذكرة كي يظهر وينادي بأدب صاحب الرقم التالي.

كان آخر حاوٍ دخل عبر الباب المذهب، رجلًا بدينًا بقبعة طويلة وحرملة زاهية، لم يقضِ سوى لحظات وعاد محتقنًا للبهو مندفعًا كالعاصفة نحو باب الخروج ليغلقه خلفه بعنف، كان صداه ما زال يتردد حينما عاد الرجل ذو المذكرة ناظرًا بشرود عبر الحجرة، ويتنحنح.

نادى ماركو:

- رقم ثلاثة وعشرون.

وهو يتفقد الرقم في قائمته.

تحولت كل العيون الباقية في الغرفة نحو الفتاة وهي تنهض من مقعدها وتتقدم نحوه.

نظر إليها ماركو، وهي تتجه نحوه متحيرًا، ولكن مع اقترابها تحولت الحيرة إلى شيء آخر تمامًا.

من مقعدها في طرف الغرفة كان جمالها ملحوظًا، لكن حين أصبحت قريبة من ناظريه المفتونتين، فإن ملامح وجهها وحدود شعرها مع بشرتها كانت تظهر شيئًا آخر.

كانت تتوهج، للحظة وهي تنظر إليه كما ينظر إليها، لم يستطع أن يتذكر ما الذي كان يفعله. ولا أن يفهم لماذا تناوله تلك الوريقة التي تحمل رقم ثلاثة وعشرين مخطوطًا بخط يده.

أخيرًا استطاع النطق بعدما أخذ رقمها وقال:

- من هنا آنستي.

وأبقى لها الباب مفتوحًا كي تمر، فانحنت أخف انحناءة ممكنة تعبيرًا عن الامتنان بينما علا الهمس في البهو والباب يغلق خلفها.

*****

كان المسرح ضخمًا وفاخرًا، صفوفًا تلو الأخرى بمقاعد مغطاة بالمخمل الأحمر. وحول الخشبة الخاوية تمتد أماكن الأوركسترا، الشرفة، والمقصورات، في أمواج من القرمزي. كان خاويًا عدا شخصين يجلسان على بعد عشرة صفوف من الخشبة. شاندرش كريستوف لوفيفرا يجلس مادًّا قدمه على المقعد المقابل، والسيدة آنا بادفا تجلس على يمينه تجذب ساعة من حقيبتها وهي تحاول كتمان تثاؤبها.

دخل ماركو من جانب الخشبة والفتاة ذات الفستان الأخضر تتبعه، أشار إليها كي تتقدم إلى منتصف الخشبة غير قادر على أن يرفع عينيه عنها، وهو ينوه عن وصولها المسرح شبه الخاوي قائلًا:

- رقم ثلاثة وعشرون.

قبل أن ينزل من سلم صغير معد بالقرب من الستار ويدور حول الحافة إلى الصف الأمامي واضعًا قلمه على مذكرته.

نظرت السيدة بادفا وابتسمت معيدة الساعة إلى حقيبتها، أما شاندرش فقد قال:

- ما هذا أيضًا؟

دون أن يوجه السؤال لشخص معين. ولم ترد عليه الفتاة.

كرر ماركو وهو يعيد النظر في مذكرته كي يتأكد من صحة الرقم:

- هذا هو رقم ثلاثة وعشرين.

قال شاندرش بصوت مجلجل تردد صداه في القاعة الخاوية:

- نحن نختبر الحواة يا عزيزتي، السحرة والمشعوذين وأصحاب الحيل، إلى آخره، لا نحتاج حاليًّا إلى مساعدات.

قالت الفتاة بصوت هادئ خفيض:

- وأنا حاوية سيدي، وأنا هنا لاختبار الموهبة.

قال شاندرش:

- كما أرى!

وهو يتفحص الفتاة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، كانت تقف بثبات وصبر في منتصف الخشبة كما لو كانت تتوقع رد فعله.

سألته السيدة بادفا:

- هل هناك خطأ ما؟

قال شاندرش وهو ينظر إلى الفتاة مفكرًا:

- لا أظن الأمر لائقًا.

- حتى بعد كل ما قلته عن اتخاذ البهلوانة كمثال؟

تجمد شاندرش للحظة دون أن يرفع عينيه عن الفتاة، كانت تبدو راقية نوعًا لكن لا توحي بأنها غير عادية.

لم يجد حجة سوى القول:

- هذه قصة أخرى!

قالت السيدة بادفا:



- حقًا يا شاندرش؟ ألا ندعها على الأقل تظهر مواهبها قبل أن نتحقق بأنه من غير اللائق استخدام حاوٍ أنثى؟

اعترض قائلًا:

- لكن لديها أكمام ضخمة لتخفي فيها خدعها!

استجابت إليه الفتاة ففتحت أزرار معطفها وألقت به دون اهتمام جوار قدميها، كان فستانها الأخضر دون أكمام أو حتى حمالات، فأصبحت مكشوفة الذراعين والأكتاف باستثناء سلسلة طويلة من الفضة حول عنقها.

ثم خلعت قفازيها وألقت بهما فوق المعطف المتكوم كذلك.

نظرت السيدة بادفا إلى شاندرش نظرة ذات مغزى، فتنهد وقال مخاطبًا ماركو:

- حسنًا إذن.. يمكنك الاستمرار.

رد ماركو:

- حسنًا سيدي.

والتفت للفتاة قائلًا:

- لدينا بعض الأسئلة الأولية قبل أن تقدمي العرض العملي. اسمك آنستي؟

- سيليا بوين.

سجل ماركو الإجابة في مذكرته وسألها:

- واسم الشهرة؟

ردت:

- ليس لدي اسم شهرة.

فسجل ماركو إجابتها كذلك.

- أين احترفتِ الأداء؟

- لَمْ أقدم عروضًا احترافية من قبل.

وهنا نهض شاندرش ليقاطعها لكن السيدة بادفا أوقفته.

سألها ماركو:

- إذن ممن تعلمتِ؟

أجابت سيليا:

- من والدي، هكتور بوين.

وصمتت لبرهة قبل أن تضيف:

- ولو أنه معروف باسم بروسبيرو الساحر.

أسقط ماركو قلمه.

أما شاندرش فقد سحب قدميه من فوق المقعد المقابل ومال إلى الأمام وهو يكرر:

- بروسبيرو الساحر؟

وحدق إلى سيليا كأنه يراها شخصًا آخر تمامًا.

- والدكِ يكون بروسبيرو الساحر؟

أوضحت سيليا:

- كان. إنه... رحل العام الماضي.

قالت السيدة بادفا:

- آسفة لمصابك عزيزتي، ولكن من هو بروسبيرو الساحر؟

قال شاندرش:

- ليس سوى أعظم ساحر في الجيل. كنت أحجزه كلما وضعت يدي عليه، مرت سنوات الآن. براعة مطلقة، يفتن أي جمهور، لم أر أبدًا له نظير، أبدًا.

قالت سيليا وعيناها تطرف نحو ظلال الستائر في ركن الخشبة:

- كان سيسعد بسماع رأيك هذا سيدي.

- قلت له هذا وأكثر، ولو أنني لم أره منذ دهور، كنت مفتونًا به لعدة سنوات وأنا أراه يتجاوز حدود ما يمكن أن يقدمه المسرح. مخترعًا شيئًا فائقًا. على الأرجح كان سيحب هذا المشروع بأكمله، تبًا يا للخسارة!

تنهد بحرارة وهو يهز رأسه قبل أن يقول:

- حسنًا، واصلي.

وعاد إلى مقعده وهو ينظر إلى سيليا باهتمام حقيقي هذه المرة.

أمسك ماركو بقلمه ثانية واستأنف قائمة الأسئلة.

- أ.. أتقدرين على الأداء دون خشبة؟

ردت سيليا:

- نعم.

- هل يمكن أن يشاهد الناس خدعك من كل الزوايا؟

ابتسمت سيليا قائلة:

- أنت تنظر إلى شخص يمكنه تقديم العرض في منتصف الزحام.

ونظرت متسائلة لشاندرش فأومأ موافقًا فقالت سيليا:

- حسنًا!

وبحركة سريعة، سريعة لدرجة أنها بدت كأنها لم تتحرك. التقطت معطفها وأطاحت به نحو المقاعد، وبدلًا من أن يهوي للأسفل حلق إلى الأعلى منطويًا على نفسه، وفي لمح البصر تحولت ثنايا الحرير إلى ريش أسود لامع، أجنحة ضخمة خافقة، كان من المستحيل تحديد اللحظة التي تحول فيها من ملابس إلى غراب ضخم بالكامل. حلق الغراب فوق المقاعد الحمراء المخملية ثم إلى أعلى؛ حيث المقصورات، حتى حام في دوائر عجيبة.

قالت السيدة بادفا:

- مبهر.

تمتم شاندرش:

- ما لم تكن قد أخفته في تلك الأكمام المهولة.

وعلى الخشبة اقتربت سيليا من ماركو وسألته:

- أيمكنني أن أستعير هذا للحظة؟

وأشارت إلى مذكرته، تردد قليلًا قبل أن يناولها إياها فقالت:

- شكرًا لك.

عادت إلى منتصف الخشبة، بالكاد نظرت إلى قائمة الأسئلة المكتوبة بخط يده المنمق قبل أن تطوح بالمذكرة في الهواء؛ حيث تشقلبت في الهواء عدة مرات وإذا بالصفحات المتقلبة تتحول إلى يمامة بيضاء ترفرف بجناحيها وتطير في دوائر حول القاعة ونعق الغراب فيها من مجثمه في المقصورة.

صاح شاندرش:

- ها!

متأثرًا باليمامة وبصدمة ماركو معًا.

حلقت اليمامة عائدة إلى سيليا لتستقر في يديها الممدودة، فضربت أجنحتها وتركتها تطير ثانية، فارتفعت هذه المرة بضعة أقدام فحسب فوق رأسها قبل أن تتحول أجنحتها إلى أوراق وتسقط المذكرة ثانية لتلتقطها بيد واحدة وتعيدها إلى ماركو، الذي كان شحوبه قد تزايد عدة درجات. ابتسمت سيليا وقالت لماركو ثانية:

- شكرًا لك.

فأومأ لها إيماءة خاوية دون أن يرفع نظره إلى عينيها وتراجع سريعًا إلى ركنه. قال شاندرش:

- روعة! هذه هي الروعة! هذا يفي بالغرض، هذا حتما يفي بالغرض.

ونهض من كرسيه ومشى في الممر بين المقاعد ثم توقف مفكرًا مواجهًا مكان الأوركسترا جوار المصابيح. نادته السيدة بادفا من مقعدها قائلة:

- لدنيا مشكلة الزي، لقد أعددت تصورات لبدلات رسمية، أظن فستانًا مشابهًا قد يفي بالغرض؟

سألت سيليا:

- ما نوع الأزياء التي تحتاجونها؟

ردت السيدة بادفا:

- لدينا يا عزيزتي نظام خاص للألوان، أو بالأحرى غيابها. لا شيء سوى الأبيض والأسود. لكن بالنسبة لك فستان أسود بالكامل سيكون جنائزيًا جدًا.

قالت سيليا:

- فهمت.

نهضت السيدة بادفا واتجهت نحو شاندرش الذي كان يخطو جيئةً وذهابًا مفكرًا، أخذت تهمس في أذنه والتفت إليها يستشيرها وقد رفع عينيه من على سيليا للحظات.

لم يكن هناك من يراقبها في هذه اللحظة سوى ماركو. كانت تقف بثبات تام على الخشبة، تنتظر بصبر، ثم ببطء شديد أخذ فستانها في التغير.

بدأ الأمر من الرقبة وتشرب إلى الأسفل كما لو كان بقعة من الحبر، الحرير الأخضر يتحول إلى ضباب أسود كبهيم الليل.

شهق ماركو فالتفت شاندرش والسيدة بادفا ليريا سبب الصوت، لتخطف عيناهما اللحظة التي تحول فيها السواد إلى بياض ناصع كالثلج في نهاية التنورة، فلم يعد هناك أثر للون الأخضر الذي كان عليه الفستان. قالت السيدة بادفا:

- حسنًا، هذا سيجعل من مهمتي أيسر بعض الشيء.

ولم تستطع إخفاء نبرة الانبهار في صوتها قبل أن تكمل:

- ولو أن شعرك أفتح من اللازم.

هزت سيليا رأسها فإذا بالخصلات البنية تصبح أدكن حتى قاربت السواد، لتلمع بنفس البريق الذي يلمع به ريش غرابها. قال شاندرش:

- مبهر.

وهو يكاد أن يكون محدثًا نفسه. اكتفت سيليا بالابتسام.

قفز شاندرش أعلى الخشبة، آخذًا درجات السلم في قفزتين فقط، وأخذ يتفحص فستان سيليا من كل النواحي. سألها:

- أتسمحين لي؟

أومأت سيليا فمد يده بحذر يتحسس نسيج الفستان، كان القماش بلا شك من الأبيض والأسود فقط، وبين الاثنين تدرج خفيف من الرمادي، خيوط مستقلة في كل لون داخل النسيج. سألها وهو ما زال يتفحص الفستان:

- اعذري تطفلي، ماذا حدث لوالدك؟

قالت:

- لا بأس، لم تجر إحدى خدعه تمامًا كما كان يريد.

قال وهو يتراجع:

- يا للخسارة المقيتة! آنسة بوين، هل أنت مهتمة بوظيفة فريدة من نوعها؟

فرقع أصابعه، فاقترب ماركو مع مذكرته ووقف بعيدًا بضع خطوات عن سيليا. كانت نظراته تنتقل بين فستانها إلى شعرها جيئة وذهابًا، مع توقف طويل بينهما.

قبل أن تجيب سيليا تردد نعيق الغراب الذي ما زال في مربضه بالمقصورة يشاهد العرض. قالت سيليا:

- لحظة واحدة.

ورفعت يدها في وضع رجاء للغراب، فنعق ثانية وبسط جناحيه الكبيرين، وحلق نحو الخشبة، يزيد في سرعته، منحدرًا في انقضاضه، متجهًا مباشرة نحو سيليا دون تردد أو تباطؤ، بل مقتربًا بسرعته الكبيرة.

جفل شاندرش قافزًا حتى كاد يسقط فوق ماركو، بينما اصطدم الغراب بسيليا محدثًا عاصفة من الريش.

واختفى!

لم يتبق منه ريشة واحدة، بينما سيليا واقفة مرتدية ثانية معطفها منفوخ الأكمام وأزراره مغلقة بالفعل فوق فستانها ذي اللونين الأبيض والأسود.

ومن أمام الأوركسترا صفقت السيدة بادفا، وانحنت لها سيليا وانتهزت الفرصة كي تأخذ قفازيها ثانية من فوق الأرضية.

قال شاندرش وهو يخرج سيجارًا من جيبه:

- إنها مثالية، مثالية تمامًا.

ورد عليه ماركو من خلفه:

- بالفعل سيدي.

بينما أصابعه ترتعش قليلًا.

*****

أما المشعوذون بالخارج فقد تعالَى استهجانهم عندما تم إبلاغهم أنهم مشكورون على وقتهم ولكن لا حاجة لهم الآن بالبقاء وصرفوا بتهذيب.

استراتيجية.

لندن، أبريل 1886

قال شاندرش:

- إنها أفضل من أن نضعها وسط الجمهور، ببساطة يجب أن تكون لها خيمتها الخاصة. سنضع المقاعد حولها في حلقة أو ما شابه، لنجعل الجمهور في قلب الحدث.

رد ماركو:

- حسنًا سيدي.

وهو يعبث بمذكرته، مارًّا بأصابعه على الصفحات التي كان لها أجنحة منذ لحظات.

قال له شاندرش:

- ماذا دهاك؟ لونك شاحب كالورق!

تردد صدى صوته في المسرح الخاوي، كانت السيدة بادفا قد أخذت الآنسة بوين خارجًا كي تمطرها بالأسئلة عن الأزياء وتسريحات الشعر.

رد ماركو:

- أنا بخير يا سيدي.

نفث شاندرش سيجاره وقال:

- تبدو في حال مريع، عد إلى منزلك.

نظر إليه ماركو مندهشًا، واعترض بقوله:

- لكن يا سيدي هناك الكثير من العمل الورقي لإتمامه.

- قم به غدًا، لدينا الكثير من الوقت لإنجاز هذه الأمور. أولًا أنا والعمة بادفا سنأخذ الآنسة بوين إلى البيت لنشرب معها الشاي، ويمكننا أن نتفق على التفاصيل، ونُعِدّ الأوراق فيما بعد. خذ بعض الراحة أو اشرب شيئًا أيًا ما كان تفعله.

ولوح إلى ماركو بلا اكتراث ودخان السيجار يتبعه في موجات من السحب.

- لو كنت مصرًّا يا سيدي.

- أنا مُصِرٌّ، وتخلص من أولئك الحمقى في البهو، لا داعي لرؤية المزيد من الحرامل والبدل ولديك شيء أكثر روعة بمراحل. وشديد الجاذبية أيضًا، حتمًا سيرى هذا كل من يميل لهذا الصنف.

تسللت بعض الحمرة إلى وجه ماركو الشاحب وهو يقول:

- بالفعل يا سيدي! إلى الغد إذن.

وأحنى رأسه بشدة تقارب الانحناء. ودار على عقبيه ممتنًا ومتجهًا نحو البهو.

سمع صوت شاندرش خلفه يناديه:

- لم اعْتَدْ منك أن تكون ممن تشلهم المفاجآت بسهولة يا ماركو.

لكن ماركو لم يلتفت له.

بتهذيب قام بصرف بقية الحواة والمشعوذين، معلنًا أن الوظيفة قد شغلت بالفعل، وشكرهم على وقتهم. لم يلاحظ أحدهم رجفة يده، ولا أنه يقبض بقوة عاصرة على قلمه حتى ابيضت مفاصلها، ولا حتى انتبهوا حينما انكسر إلى نصفين في قبضته لينسكب الحبر على معصمه.

وبعد أن رحل الحواة، جمع ماركو أشياءه ومسح الحبر المنسكب على يده ومعطفه، واعتمر قبعته قبل أن يغادر المسرح.

ومع كل خطوة يبتعد بها كان قلقه يزداد وضوحًا، حتى إن الناس كانت تبتعد من أمامه فوق الرصيف المزدحم.

وحين وصل إلى شقته، ألقى بحقيبته أرضًا ومال على الباب مطلقًا تنهيدة ثقيلة.

سألته إيزوبل الجالسة فوق المقعد المجاور للمدفأة الخاوية:

- ما الخطب؟

واضعة الخصلات التي كانت تجدلها في جيبها، عابسة لأنها تعرف أنها ستضطر للبدء من جديد بعدما فقدت تركيزها. كان هذا هو أصعب ما في الأمر بالنسبة لها: التركيز والانتباه.

أما الآن فقد تخلت عن الأمر وهي ترقب ماركو يقطع الغرفة نحو رفوف الكتب المرصوصة على الجدار.

قال ماركو:

- لقد عرفت خصمي.

وهو يجذب قدر ما تحمله ذراعه من الكتب ليبسطها عشوائيًّا على المناضد. تاركًا أكوامًا فوضوية منها على الأرض، أما تلك التي بقت في الرفوف فقد مالت، وسقط منها بعض المجلدات، لكن لم يبد على ماركو أنه قد لاحظها.

سألته إيزوبل:

- أهي هذه السيدة اليابانية التي أثارت فضولك؟

وهي تتأمل تنظيم ماركو الدقيق يتحطم في عاصفة من الفوضى. دومًا ما كانت الشقة مرتبة بشكل مثالي ولأول مرة تراها تضطرب بدوامة من الذعر.

قال ماركو وهو يقلب بين الصفحات:

- لا، بل هي ابنة بروسبيرو.

التقطت إيزوبل أصيصًا من البنفسج كان قد سقط بعدما دفعته الكتب المتساقطة وأعادته إلى رفه. سألته:

- بروسبيرو؟ الساحر؟ هذا الذي شاهدته في باريس؟

أومأ ماركو مجيبًا.

قالت:

- لم أعرف أن لديه ابنة.

قال وهو يرمي بالكتاب ليلتقط آخر:

- لم أعرف هذا الأمر أنا أيضًا، لقد عينها شاندرش كي تكون ساحرة السيرك.

تساءلت إيزوبل:

- أحقًا؟

لم يجبها ماركو فأكملت:

- إذن فستفعل مثل الذي كنت تحكيه عن والدها، ستمارس السحر الحقيقي على أنه خدع مسرحية، هل فعلت هذا في اختبار المواهب؟

قال ماركو دون أن يرفع عينيه من الكتب:

- نعم فعلت.

- أكانت جيدة؟

- كانت جيدة أكثر مما ينبغي.

وأسقط رفًا آخر من الكتب من أماكنها الهادئة إلى المنضدة. ليقع البنفسج ضحية له مرة أخرى. قال:

- ربما يكون هذا خطيرًا بحق.

كان يحدث نفسه في الأغلب، بينما انهارت كومة من المذكرات لتقع من المنضدة على الأرض مع صوت رفرفة يشبه خفقان أجنحة الطيور.

التقطت إيزوبل البنفسج ثانية ووضعته في طرف الغرفة.

- هل عرفت من تكون؟

قال ماركو:

- أظن لا.

سألته:

- أيعني هذا أن السيرك جزء من التحدي؟

توقف ماركو عن تقليب الصفحات ورفع رأسه نحوها. قال:

- حتمًا هذا، في الأغلب لهذا أرسلني لأعمل عند شاندرش، حتى أكون بالفعل منخرطًا في الأمر. السيرك هو ملعب التحدي.

ثم أعاد رأسه إلى الكتب. سألته ثانية:

- وهل هذا جيد؟

لكن ماركو لم يرد، فقد تاه بين الأحبار والأوراق ثانية.

وبيد أمسك بقماش كم اليد الأخرى، الذي تلوث بياضه الناصع بقعة من الحبر، وتمتم لنفسه:

- لقد غيرت الخيوط، كيف استطاعت تغيير الخيوط؟

تحركت إيزوبل نحو كومة متروكة من الكتب؛ حيث تحتفظ بأوراقها المارسيلية[1]. ونظرت نحو ماركو الذي كان غارقًا في أحد المجلدات. وبهدوء بسطت البطاقات على الطاولة في شكل صف.

أبقت عينيها على ماركو وهي تسحب بطاقة واحدة، فقلبتها فوق الطاولة ونظرت لترى ما ستخبره بها الأوراق عن هذا الأمر.

رجل يقف بين امرأتين، طفل مجنح بقوس وسهم يحوم فوق رؤوسهم. ورقة العشاق *L'Amoureux*.

سألته إيزوبل:

- هل هي جميلة؟

لم يجبها ماركو.

جذبت من الصف ورقة أخرى ووضعتها فوق الأولى. كانت ورقة البرج *La Maison Dieu*. فعبست وهي تنظر في صورة البرج المتهاوي والجسد الواقع. أعادت الورقتين إلى المجموعة ورتبت البطاقات في كومة منتظمة.

سألته:

- أهي أقوى منك؟

مرة أخرى لم يجبها ماركو وهو يقلب في صفحات مذكرة.

---

(1) الأوراق المارسيلية طبعة شهرية من أوراق التاروت تنسب لمدينة مارسيليا الفرنسية.

لسنوات كان متيقنًا أنه معدٌ جيدًا للتحدي. والتدرب مع إيزوبل اتضح أنه ميزة لصالحه، مكنه من اتقان حيله حتى بالنسبة إليها، وقد ألفت الأمر، لا تستطيع دومًا التمييز بين ما هو حقيقي وما هو سحري.

لكن مع رؤية خصمته، فقد تغير أمر التحدي بالنسبة إليه تمامًا. تحول يقينه لتوتر وحيرة.

كان شبه متوقع أنه سيعرف ما يجب عليه فعله حينما يأتي الوقت وأحيانًا كان يتسلى بخاطر أن هذا الوقت قد لا يأتي أبدًا، وأن قصة اللعبة الموعودة ربما لا تكون سوى محاولة لتحفيزه على الدراسة لا أكثر.

سألته إيزوبل:

- إذن فستبدأ المنافسة مع افتتاح السيرك؟

كان قد نسي وجودها تقريبًا. قال ماركو:

- أظنه افتراضًا منطقيًا، ولو أنني لا أفهم كيف سنتنافس بينما السيرك يرتحل. يجب أن أبقى في لندن. سيكون عليّ فعل كل شيء من بعيد.

قالت إيزوبل:

- يمكنني الذهاب.

نظر ماركو إليها ثانية متسائلًا:

- ماذا؟

- قلت إن السيرك ما زال بحاجة إلى قارئة طالع، أليس كذلك؟ يمكنني القراءة بأوراقي. صحيح أنني لم استخدمها إلا في القراءة لنفسي لكنني أتحسن في الأمر. ويمكنني أن أكتب لك خطابات بينما السيرك مرتحل، سيمنحني هذا مكانًا للعيش بما أنه يفترض ألا أكون معك أثناء خوضك اللعبة.

قال ماركو:

- لست واثقًا أنها فكرة سديدة.

لكنه لم يستطع تحديد سبب الرفض. لم يفكر من قبل في إشراك إيزوبل في حياته خارج حدود الشقة. أبقاها بعيدة عن شاندرش والسيرك؛ لأنه كان يريد شيئًا خاصًا به، ولأن هذا بدا له الشيء الصحيح. خاصة بعد نصيحة مدربه الغامضة حولها.

قالت إيزوبل:

- أرجوك، بهذه الطريقة أستطيع مساعدتك.

تردد ماركو خافضًا نظره إلى الكتب ثانية. وإن بقيت أفكاره مشغولة بصورة الفتاة في المسرح. أضافت إيزوبل:

- سيجعلك هذا أقرب إلى السيرك، وسيكون لدي ما أفعله أثناء خوضك لتحدياتك، وحين ينتهي الأمر يمكنني العودة إلى لندن.

قال ماركو:

- أنا لست متأكدًا حتى من كيف سيجرى التحدي.

سألته:

- لكنك متأكد أنني لا أستطيع البقاء هنا أثناء خوضك له؟

تنهد ماركو، كانا قد ناقشا الأمر من قبل، ليس بالتفصيل ولكن بما يكفي للاتفاق على أنه حين تبدأ المباراة فيجب أن تغادر.

- أنا بالفعل غارق في العمل مع شاندرش، وسأحتاج التركيز على التحدي دون... إلهاء.

قالها مستخدمًا كلمة مدربه، التي كانت أمرًا في صورة نصيحة. لم يعرف ما الذي يزعجه أكثر: إشراك إيزوبل في اللعبة أم التخلي عن العلاقة الوحيدة في حياته التي لم يتم اختيارها له. قالت إيزوبل:

- ولهذا لن أكون إلهاءً بل سأكون دعمًا. ولو كان من المفترض ألا تحصل على دعم، حسنًا، سأكتفي بمراسلتك. ما الخطأ في ذلك؟ يبدو لي حلًا مثاليًا.

قال مقترحًا:

- يمكنني أن أرتب لك لقاءً مع شاندرش.

سألته إيزوبل:

- أيمكنك..... أن تقنعه باختياري؟ أليس كذلك؟ إذا احتاج إلى إقناع؟

أومأ ماركو موافقًا، لم يقتنع بالفكرة كثيرًا لكنه كان في حاجة ماسة لأي خطة، استراتيجيةٍ ما يتعامل به مع حقيقة خصمه التي اكتشفها. كان يردد اسمها في ذهنه طوال الوقت. سألته إيزوبل وكأنها قد سمعت أفكاره:

- ما اسمها، ابنة بروسبيرو هذه؟

قال ماركو:

- بوين، اسمها هو سيليا بوين.

قالت إيزوبل:

- اسم جميل، هل هناك خطب ما بيدك؟

خفض نظره ليجد أن يسراه ما زالت تمسك بيمناه، وأنه دون أن يعي كان يفرك مكان الخاتم الذي أحرق جلده منذ زمن.

أطلق يده وأمسك بمذكرة أخرى كي يشغل يده قائلًا:

- لا، لا خطب.

بدا أن إيزوبل اكتفت بهذا الرد ورفعت كومة من الكتب المتساقطة من الأرض لتكومها على الطاولة.

وأحس ماركو بالارتياح أنها لم تمتلك المهارة الكافية كي ترى ذكرى الخاتم في عقله.

النار والنور.

تدلف إلى ساحةٍ واسعةٍ ساطعةٍ محاطة بالخيم المخططة.

طريق منحنٍ يبدأ من حدودها وينعطف بك إلى غموض غير مرئي من نقط الضوء المتلألئة.

هناك باعة يجولون بين الجمهور يبيعون المرطبات والطرائف، والأطعمة المحلاة بالفانيليا والعسل أو الشكولاتة والقرفة.

بهلوانة بزي أسود براق تتلوى على منصة قريبة وتثني جسدها لأشكال مستحيلة.

لاعب يقذف كرات بيضاء وسوداء وفضية عاليًا في الهواء حتى تبدو أنها تحلق قبل أن تسقط ثانية في يديه، وجمهوره المشدوه يصفق.

وكل شيء غارق في نور غامر.

كان الضوء ينبع من نار ضخمة في مركز الساحة.

ولو سِرْت بالقرب منها فسترى أنها موقدة في مرجل أسود واسعٍ ضخمٍ مستقرٌّ على أربعة أقدام ضخمة ذات مخالب. وحيث يفترض أن تكون حافة المرجل، فإنه ينشق إلى شرائط طويلة من الحديد المطاوع، كما يحدث لحلوى الطوفي حين تنصهر ويتم جذبها، وشرائط الحديد

المجدول هذه ترتفع لأعلى قبل أن تدور وتلتف حول نفسها ثانية فتبدو مثل القفص، وألسنة اللهب ظاهرة بين جدائل الحديد وتعلو فوقها بقليل. لا يخفيها المرجل إلا في القاع فقط؛ حيث يستحيل أن تعرف ما الذي يشتعل بالداخل أهو خشب أم فحم أم شيء آخر كلية.

لم تكن ألسنة اللهب صفراء أو برتقالية، بل كانت بيضاء تبدو كالثلج وهي تتراقص.

الأشياء المخبوءة

كونكورد، ماساشوستس، أكتوبر 1902

بدأ النقاش حول مستقبل بيلي مبكرًا ومتكررًا، وإن كان في البداية مجرد تكرار للعبارات المعتادة أو استخدام الصمت الثقيل.

كان يلقي باللوم على كارولين أنها من بدأت الأمر، رغم أن من أثار الأمر كانت جدته لأمه، لكن بيلي كان يحب جدته أكثر بكثير من شقيقته. لذا ألقى اللوم كله على كارولين. لو لم تستسلم ما كان عليه أن يقاتل بهذه الشدة.

كان واحدًا من تلك الطلبات التي تقدمها الجدة في شكل اقتراح، وقد بدا لها اقتراحًا لا حرج فيه أن تلتحق كارولين بكلية رادكليف[1].

بدت كارولين متشبعة بالفكرة طوال تناولها الشاي في غرفة جلوس جدتها الوثيرة الهادئة المزدانة بأوراق حائط بصورة الزهور على نمط كامبريدج.

ولكن كل الإصرار الذي كان لديها حول المسألة تبخر بمجرد عودتهم إلى كونكورد وسماع رأي الأب القاطع:

(1) كلية رادكليف كلية للبنات تأسست كمعادل لكلية هارفارد التي كانت قاصرة على الذكور بمدينة كامبريدج ماساشوستس بأمريكا.

- حتمًا لا!

لم تقاوم كارولين الأمر بأكثر من التجهم، وقد استقر في نفسها أن الأمر يحتاج كثيرًا من الجهد، وهي ليست من عشاق المدن الكبيرة على أي حال. كما أن صديقتها ميلي قد خُطبت وبدأت في التخطيط لزفافها وهو أمر تجده كارولين أكثر إثارة بكثير من التعليم.

وكان هذا نهاية الأمر.

ثم أتت الرسالة من كامبريدج، بقرار الجدة أنه لا بأس بهذا ولكن يجب بالطبع أن يذهب بيلي إلى هارفارد. ولم يكن الأمر هذه المرة متنكرًا في صورة اقتراح أو طلب أو أي شيء. كان أمرًا صريحًا، وقتلت حججهم المالية في مهدها بإعلانها أنها من ستتولى نفقات تعليمه. وبدأ الجدال حول الأمر دون حتى أخذ رأي بيلي بشأنه.

استغل فرصة التقاطهم الأنفاس في لحظة صمت كافية كي يتدخل في الحوار:

- أرغب في الذهاب.

كان رد والده:

- عليك أن تعتني بالمزرعة.

كان من الأسهل أن يترك العاصفة تمر ويثير الأمر لاحقًا، خاصة وأنه لم يبلغ السادسة عشر بعد، وما زالت هناك مهلة كافية قبل أن يقف في مفترق الطرق.

بدلًا من ذلك، ولسبب لا يعرفه، فقد أبقى النقاش متأججًا. فيثيره كلما أتيحت له الفرصة. مؤكدًا أنه من الممكن دومًا أن يعود في أي وقت إلى المزرعة بعد إتمام دراسته. أربع سنوات ليست دهرًا يطول انتظاره فوق الطاقة.

في البداية قوبلت هذه الحجة بالمواعظ الطويلة ثم تطور الأمر للصراخ والقرارات الصارمة وصفق الأبواب بعنف.

حاولت والدته التزام الحياد في الأمر قدر استطاعتها، ولكن حين ضُغط عليها وافقت زوجها وإن أكدت أن القرار النهائي يجب أن يكون لبيلي نفسه.

لم يكن بيلي واثقًا تمامًا من أنه يريد الذهاب إلى هارفارد. ولكنه كان يحب المدينة أكثر من كارولين، وبدا له أن هذا هو الخيار الذي يحمل الكثير من الغموض والكثير من الوعود. بينما البقاء في المزرعة لا يحمل له سوى الأغنام والتفاح وما هو معروف.

يمكنه من الآن أن يتوقع كيف سيكون الأمر، كل يوم، وكل فصل. متى سينضج التفاح ومتى ستحتاج الأغنام جزَّ صوفها، ومتى سيهطل الثلج، عامًا تلو العام.

حدث والدته عن تلك الدورة المتكررة بلا نهاية، آملًا أن يضيف هذا بعدًا جديدًا إلى مسألة السماح له بالرحيل.

لكن كان ردها عليه أن وجود دورة للحياة في المزرعة هو بالنسبة لها أمر مطمئن. وسألته إن كان قد انتهى من كل واجباته؟

أتت الدعوة إلى تناول الشاي مع الجدة في كامبريدج هذه المرة لبيلي وحده، تاركةً كارولين خارج الأمر. تمتمت كارولين بشيء حول أن لا وقت لديها لمثل هذه الأمور، ليذهب بيلي متمنيًا أنه سيستمتع بالرحلة دون ثرثرة كارولين التي لا تنقطع.

عند الظهيرة برغم أنه لم يثر الأمر معها، في الحقيقة كان يحاول تجنبه متصورًا أنه يعرف تمامًا في أي جانب هي، فقد قالت له جدته:

- لا يهمني كثيرًا ذهابك إلى هارفارد أو عدمه.

أضاف ملعقة أخرى من السكر منتظرًا منها توضيحًا.

أكملت:

- أظن أن الأمر يفتح لك مزيدًا من الفرص، وهذا ما أحبه لك، حتى لو لم يكن والداك متحمسَيْنِ للفكرة. هل تعرف لِمَ سمحت لابنتي بالزواج من والدك؟

رد بيلي:

- لا.

لم يكن أمرًا قد نوقش في حضوره، ولو أن كارولين أخبرته سرًا أنها سمعت أن هناك فضيحة ما في الأمر. وحتى بعد مرور عشرين عامًا لم يطأ والده منزل جدته ولم تأتِ هي أبدًا إلى كونكورد. قالت:

- لأنها كانت ستهرب لتتزوجه لو لم أفعل. كان هو أمنيتها. لم يكن من أختاره لها، لكن لا يجب أن ينفذ الأبناء فقط ما نختاره لهم. لقد سمعتك تقرأ الكتب بصوتٍ عالٍ لقططي، وحين أتممت الخامسة حولت دلو الغسيل إلى سفينة قراصنة وهاجمت بها زهور الأرطاسيا في حديقتي. لا تحاول إقناعي أنك تفضل الحياة في تلك المزرعة.

ردد بيلي تلك الكلمة التي بدأ يكرهها:

- لدي مسؤوليات.

أصدرت جدته صوتًا ربما يكون سعالًا أو ضحكًا أو مزيجًا منهما معًا. قالت له:

- اتبع أحلامك يا بيلي، سواء أكانت هارفارد أو شيئًا مختلفًا تمامًا عنها، لا يهم ما يقوله هذا الأب الذي حظيت به، ولا كم سيعلو صوته، لقد نسيَ أنه كان حلمَ شخص ذات يوم.

أومأ بيلي فاسترخت جدته في مقعدها وأخذت تثرثر عن مشاكلها مع الجيران دون أن تذكر والده أو أحلامه ثانية، بيد أنها قالت له وهو يستعد للمغادرة:

- لا تنس ما قلته لك.

فأكد لها:

- لن أنسى.

لم يخبرها أن لديه حلمًا واحدًا فقط، حلمًا غير عقلاني، مثلما كانت حياة قرصنته في الحديقة. وإن كان ظل يجاهد والده باستمرار.

سأل والده ذات مساء قبل أن ينتهي النقاش كالعادة بصفق الباب:

- أليس لرأيي أهمية؟

فرد والده:

- لا ليس له أهمية.

وبعدما غادر والده الغرفة قالت له والدته بخفوت:

- ربما من الأفضل أن تتخلى عن الأمر يا بيلي.

بدأ بيلي يقضي أطول وقت ممكن بعيدًا عن البيت، كانت ساعات الدراسة أقل مما يتمنى، لذا في البداية عمل أكثر في الأشجار البعيدة في البستان مختارًا أبعد نقطة ممكنة عن والده يمكن أن يعمل بها. ثم قرر أن يلوذ بالسير لمسافات طويلة، عبر الحقول والغابات والمقابر.

كان يتجول بين مدافن فلاسفة وشعراء وكتاب كان يعرف كتبهم من مكتبة جدته. إلى جانب عدد لا يحصى من شواهد قبور لا يعرف الأسماء المنقوشة عليها. وأخرى قديمة قد أبلاها المطر والريح فلم تعد مقروءة. لقد نُسي أصحابها منذ زمن بعيد.

كان يتجول بلا هدف، ولكن كثيرًا ما كانت تنتهي جولاته عند تلك الشجرة التي كان يجلس عليها مع كارولين وأصدقائها.

كان الأمر أسهل له الآن وقد زاد طوله فيتسلق لأعلى الفروع بسهولة؛ حيث الظل كافٍ ليشعر بالعزلة، والضوء كافٍ لكي يقرأ حينما يحمل معه كتبه، وهو ما أصبح جزءًا من روتينه اليومي.

كان يقرأ في التاريخ والأساطير والحكايات متسائلًا، لماذا يتاح للفتيات فقط أن يُنتزعن من عوالمهن البسيطة في المزارع ليخضن المغامرات مع الفرسان والأمراء والذئاب. كان يؤلمه أنه لا يمتلك مثل هذه الفرصة الخيالية، ناهيك عن أن يكون هو المنقذ.

وفي أثناء مرور الساعات التي يتأمل فيها الأغنام تتجول بلا هدى في حقولها، تراوده أمنية أن يأتي شخص ما ليأخذه بعيدًا. لكن مخاطبة الأغنام بالأمنيات ليس أكثر فاعلية من رجاء النجوم.

كان يخبر نفسه أنها ليست بالحياة السيئة، لا يوجد ما يعيبه أن يصبح مزارعًا، ولكن ضيقه لم يزل. حتى الأرض تحت حذائه تشعره بالضيق.

لذا استمر بالهروب إلى الشجرة.

وليجعل الشجرة مكانه، فقد تمادى حتى إنه نقل إليها هذا الصندوق الخشبي القديم الذي يحفظ فيه أغلى ممتلكاته. أخذه من مخبأه المعتاد أسفل هذا اللوح المخلخل من الأرضية أسفل فراشه إلى تلك الفجوة في شجرة البلوط. كانت فجوة وسط نتوء كبير يجعلها أكثر من مجرد فجوة بل مخبئًا يؤدي الغرض.

كان صندوقًا صغيرًا بمفصلات برونزية بسيطة ومشبك للقفل. وقد لفه داخل كيس من الخيش لكي يقيه الأجواء، وكان محكمًا بعناية حتى لا يعبث به أشد السناجب شقاوة.

كانت محتوياته هي رأس سهم مكسور وجده في الحقل، حينما كان في الخامسة، وحجرًا به ثقب في المنتصف يفترض أن يكون جالبًا للحظ، وريشة سوداء، وحجرًا لامعًا أخبرته والدته أنه من الكوارتز. عملة كانت أول مصروف يتلقاه على الإطلاق، والطوق الجلدي البني الذي كان لكلب العائلة قبل أن يموت وبيلي في التاسعة. وفردة قفاز بيضاء تحولت إلى اللون الرمادي بفعل كلٍّ من الزمن والأحجار التي حفظت معه في صندوق ضيق. وأوراق مصفرة مطوية ممتلئة بخط يده.

بعدما رحل السيرك، فقد كتب كل تفصيلة تذكرها عنه حتى لا تغيب عن ذاكرته: الفشار المغطى بالشكولاتة، والخيمة المكتظة بأناس على رصيف دائري معلق يقومون بألاعيب النار بنار بيضاء. والساعة السحرية المتغيرة الجاثية جوار كشك التذاكر، والتي تقدم ما هو أكثر بكثير من معرفة الوقت.

وبينما صنّف كل عنصر في السيرك بخط مهتز، لكنه لم يستطع أن يسجل مقابلته مع الفتاة ذات الشعر الأحمر، لم يخبر بها أحدًا أبدًا، وقد بحث عنها في السيرك في المرتين التاليتين التي ذهب فيهما خلال ساعات الليل المفتوحة، لكنه لم يستطع العثور عليها.

ثم اختفى السيرك، تلاشى فجأة كما ظهر، كحلم هارب ذهب ولم يرجع.

الدليل الوحيد لديه أن هذه الفتاة حقيقية ولم تكن خيالًا زاره، هو فردة القفاز.

لكنه لم يعد يفتح الصندوق ثانية، إذ يبقى هناك مغلقًا بإحكام في الشجرة.

كان يفكر أنه ربما من الأفضل أن يرميه، لكن قلبه لم يطاوعه. ربما من الأفضل أن يتركه هناك لينمو حوله لحاء الشجرة ويخفيه للأبد.

*****

كان ليوم الأحد نهار ذو سماء رمادية، وخرج بيلي على غير العادة مبكرًا عن بقية أسرته. أنجز مهامه بأسرع ما يستطيع وجمع بعض التفاح في حقيبته مع كتابه، واتجه مباشرة إلى شجرته. في منتصف الطريق بدا أنه من الأفضل لو كان قد التحف بكوفيته، لكن اليوم بدأ يزداد دفئًا مع الوقت، ولذا اطمئن لهذه الحقيقة وواصل طريقه، بدأ يتسلق الشجرة متجاوزًا تلك الفروع السفلى التي حكمت شقيقته وأصدقاؤها عليه بها لسنوات، هذا فرع ميلي كما أسماه في ذهنه، وهو يضع قدمه عليه، كان تسلقه فوق فرع كارولين ما زال يشعره بالرضا حتى بعد مرور كل هذا الزمن. ومحاطًا بالأوراق وحفيفها الذي يعزف مع هبات النسيم جلس بيلي في بقعته المفضلة، وقدماه ممتدان فوق مخبأ صندوق كنوزه شبه المنسية.

حينما رفع عينيه أخيرًا من بين صفحات كتابه، كادت المفاجأة تسقطه من فوق الشجرة حين وقع بصره على تلك الخيم المخططة بالأسود والأبيض التي تملأ الحقل.

الجزء الثاني

الإنارة

هناك الكثير من الوهج في السيرك من المصابيح وألسنة اللهب والنجوم. سمعت وصف «حيلة من الأضواء» يطلق كثيرًا على مشاهد سيرك الأحلام كثيرًا لدرجة أنني أحيانًا كنت أشك أن كينونة السيرك ذاتها هي وهم معقد من التلاعب بالأنوار.

فريدريك تايسن 1894.

ليلة الافتتاح 1: المولد

لندن، 13 و14 أكتوبر 1886

يوم الافتتاح أو بالأحرى ليلة الافتتاح كانت مميزة، كل تفصيلة صغيرة كان مخططة لها. واحتشد جمهور ضخم خارج البوابات من قبل الغروب بكثير، وتنقلوا بين خيمة وأخرى فلا تزداد عيونهم إلا انبهارًا.

كل عنصر من عناصر السيرك يجتمع ليشكل مع البقية مزيجًا رائعًا: مؤدون تدربوا في بلاد مختلفة في قارات مختلفة، اجتمعوا الآن في خيم متجاورة كل جزء منها يذوب في كل واحد لا يُجَزَّأ. كل زي، كل حركة كل لافتة على كل خيمة مثالية أكثر من التي تسبقها.

الهواء نفسه كان مثاليًا، صافيًا وطازجًا وباردًا، تتخلله الروائح والأصوات التي تغوي وتفتن الزائر تلو الآخر.

وعند منتصف الليل، أوقدت النار في احتفالية خاصة، كان المرجل قد ترك خاويًا في النصف الأول من الليل ليبدو للمارين مجرد تمثال من الحديد الملتوي. دلف اثنا عشر متلاعبًا بالنار إلى الساحة على منصات صغيرة أعدت لهم بنفس ترتيب عقارب الساعة. وصلوا بالضبط قبل دقيقة واحدة من منتصف الليل، صعد كل واحد منهم على منصته وأخرج من ظهره أقواسًا وسهامًا سوداء، وقبل ثلاثين ثانية من منتصف الليل

أشعلوا أطراف السهام بشعلات صفراء متراقصة. والآن فإن الجماهير التي لم تنتبه لهم من قبل، وينظرون إليهم متعجبين، قبل عشر ثوانٍ من منتصف الليل رفعوا أقواسهم وصوبوها نحو البئر الحديدي المنتظر. ومع دقة الساعة الأولى القادمة من البوابة يطلق الرامي الأول سهمه ليطير فوق رؤوس الجماهير محدثًا نافورة من الشرارات ليصيب هدفه.

وتوقد النار بفورة من الشعلات الصفراء.

ثم تأتي الدقة الثانية للساعة ويطلق الرامي الثاني سهمه في هذه الألسنة الصفراء لتتوهج تبلون أزرق سماوي صافٍ.

ومع الدقة الثالثة والسهم الثالث، تتوهج بلون وردي دافئ.

وتتحول إلى البرتقالي بلون القرع الناضج مع السهم الرابع.

والخامس تصبح حمراء دامية.

والسادس تتحول إلى لون قرمزي صريح.

والسابع اصطبغت النار بلون النبيذ المتأجج.

والثامن أصبح اللهب بنفسجيًا متلألئًا.

ومع التاسع تحول البنفسجي إلى النيلي.

ومع الدقة العاشرة والسهم العاشر تحولت النار إلى لون كحلي كالليل.

ومع الدقة قبل الأخيرة تغيرت النيران الراقصة من الكحلي إلى الأسود فلا تستطيع تمييز النار من المرجل.

ومع الضربة الأخيرة تتبدل الألسنة الداكنة بأبيض ممتزج. مع شلال من الشرارات البيضاء كأنها نتف الثلج يسيل حولها ودوامات ثقيلة من دخان أبيض تعلو نحو السماء المظلمة.

وكان رد فعل الجمهور صاخبًا، أولئك الذين كانوا ينوون المغادرة عند منتصف الليل قرروا البقاء مدة أطول قليلًا يتناقشون بحماس عن ألوان النار. أما الذين فاتهم المشهد فلا يكادون يصدقون ما يحكى لهم عنها.

أفاض الناس من خيمة إلى أخرى، متجولين عبر الممرات وينعطفون من واحد إلى آخر لا يجدونها تنتهي أبدًا. البعض يدخل كل خيمة تقابله والبعض الآخر أكثر انتقائية يختار الخيمة التي يدخلها بعدما يقرأ بعناية اللافتات. بعضهم وجد إحدى الخيم فاتنة حتى إنه لم يستطع مغادرتها، فيبقى بها طوال فترة زيارته. أخذ الزوار يتبادلون النصائح وسط الزحام مع من يقابلونهم ينصحونهم بالخيم المميزة التي زاروها، وهو ما كان يلقى عادة استحسانًا من متلقي النصيحة مع أنه في الأغلب سينجذب لخيم أخرى قبل أن يصل إلى الخيمة التي نُصح بها.

كان الخروج قاسيًا على الجمهور المتبقي عند اقتراب الفجر، عزاؤهم الوحيد أنه يمكنهم العودة عندما تغرب الشمس ثانية.

كان وصف الجميع لليلة الافتتاح أنها نجاح ساحق، لم تحدث سوى عثرة مؤسفة واحدة، نتيجة حادث غير متوقع، ولقد مر دون أن يشعر به أي من الجمهور، وحتى المؤدين لم يعرف أغلبهم بالأمر إلا بعد انتهاء اليوم.

فقبيل الغروب مباشرة، وأثناء تجهيزات اللحظات الأخيرة، كهندام الأزياء وإذابة الكراميل فاجأ المخاض زوجة مدرب السباع، وكانت تعمل في الوقت نفسه مساعدة لزوجها، مما أدى لتغيير فقرته نتيجة غيابها، وظهر أثر هذا في توتر السباع.

كانت تحمل توءمين، ولكن موعدهما لم ينتظر إلا قبل عدة أسابيع، فراجت مزحة أن التوءمين لم يُرِدَا أن يفوتا ليلة الافتتاح.

أحضروا طبيبًا بسرعة للسيرك قبل افتتاحه وأدخلوه مباشرة إلى الكواليس (حيث كان هذا أكثر سهولة بكثير من إخراجها هي للمستشفى) وقبل منتصف الليل بست دقائق ولد وينستون أيدن موراي وبعد منتصف الليل بسبع دقائق تبعته شقيقته بينلوبي إيزلين موراي.

وحين أُبرقت الأخبار إلى شاندرش كريستوف لوفيفرا، أحس بقليل من الإحباط أن التوءمين لم يكونا متماثلين. كان قد فكر في عدة أدوار مختلفة في السيرك يمكن تنفيذها بتوءمين متماثلين ما إن يكبر الطفلان بما يكفي. لكنَّ التوءمين غير المتطابق ليس جذابًا على المسرح بنفس القدر الذي كان يأمله. لكن على أي حال كلف ماركو بإرسال باقتين هائلتين من الورد الأحمر لهما.

كانا ضئيلين، ولهما شعر أحمر كثيف براق، نادرًا ما يبكيان، لكن يبقيان مستيقظين ومنتبهين بعيون متماثلة واسعة زرقاء. وقد لُفا في قطع متبقية من الحرير والساتان. الفتاة في الأبيض والصبي في الأسود.

وأتى لرؤيتهما فيض متصل من فناني السيرك بين الفقرات. كانوا يتبادلون حملهما وبالطبع لا يقاوم أحدهم التعليق على توقيتهما الدقيق، يعلق الجميع أنهما سينسجمان بسهولة لولا لون شعرهما. اقترح أحدهم أن يرتديا قبعات حتى يبلغا السن الآمن لصبغ الشعر. بينما رد آخر بأنه سيكون من السخيف صبغ مثل هذا اللون المميز، أحمر صادم مقارنة بشعر أمهما الأسود المحمر.

وصفته تسوكيكو:

- إنه شعر مبشر

ولكن رفضت أن توضح قصدها، قبلت كلا التوءمين على الجبهة وفيما بعد صنعت لهما شرائط من طيور من الورق المطوي لتعلق فوق مهدهما.

قرب الفجر وبينما يخلو السيرك، أخذوهما في جولة بين الخيام حتى وصلوا الساحة، يبدو أن هذا كان لتهدئتهما كي يناما لكنهما ظلا يقظين ينظران إلى الأضواء والأزياء والخيم المخططة حولهما. متنبهَيْن وهو أمر غريب لطفلين يبلغان من العمر بضع ساعات.

وأخيرًا بعدما أشرقت الشمس، أغلقا أعينهما، جنبًا لجنب في مهد أسود مصنوع من الحديد المطاوع ومفروش ببطانيتين مخططتين، كان المهد ينتظرهما برغم وصولهما مبكرًا فقد أتى منذ أسابيع قليلة هديةً، ولم يكن معه بطاقة أو اسم فافترض آل موراي أنه هدية من شاندرش ولو أنه حينما شكراه عليه قال إنه لا يعرف شيئًا عن الأمر.

لكنّ التوءمين أحباه، بغض النظر عن مصدره المجهول.

لم يعد أحد يذكر بعد ذلك من الذي أطلق عليهما بوبيت وويجيت، ومثل المهد لم ينسب أحد الفضل إلى نفسه في هذين اللقبين. لكن كعادة الألقاب فقد التصق اللقبان بهما.

ليلة الافتتاح 2: الشرارات

لندن، 13 و14أكتوبر1886

قضى ماركو الساعات الأولى من ليلة الافتتاح وهو يختلس نظرات متكررة في ساعته منتظرًا بنفاد صبر أن تصل عقاربها لمنتصف الليل.

كان الوصول المفاجئ للتوءمين موراي قد أربك جدوله بالفعل، ولكن لو أُشعلت النار في منتصف الليل كما هو مخطط فسيكون كافيًا.

كان هذا أفضل حل وصل إليه، عالمًا بأنه خلال أسابيع قليلة فسيكون السيرك على بعد مئات الأميال، تاركًا إياه وحيدًا في لندن.

وحتى لو استطاعت إيزوبل أن تثبت فائدتها فسيظل بحاجة إلى رابط أقوى.

منذ أن عرف أن السيرك هو ساحة التحدي، فقد أخذ على عاتقه المزيد من المسؤوليات المرتبطة بالسيرك. منفذًا كل ما يطلبه منه شاندرش وأكثر. حتى أصبح له الحرية في كل شيء من الموافقة على تصميم البوابات حتى طلب الأقمشة التي تحتاجها الخيام.

كان قلقًا من المدى الذي سيغطيه الربط، لم يجرب من قبل شيئًا بهذا الحجم، لكن لم يبد له منطقيًا أن يتخلى عن لعبة مبكرة بأقوى ما يستطيع.

النيران ستربطه بالسيرك، برغم أنه ليس متأكدًا تماما كيف سيعمل الأمر، وكيف سيكون في وجود كل هؤلاء الناس فبدا من المعقول أيضًا أن يضيف تدبيرًا وقائيًّا للحلبة.

استغرق هذا منه شهورًا لإعداده.

كان شاندرش أكثر من مُرَحِّب بتركه يتولى ترتيب مراسم الإيقاد دون الحاجة للكثير من الضغط. أثبت ماركو نفسه من قبل أنه أكثر من مفيد في العمل بتصميمات السيرك وهكذا بتلويحة من يد شاندرش أوكلت كل التفاصيل إليه.

والأهم أن شاندرش وافق على أن يكون الأمر سرًّا. عُرض الأمر في الهواء لعشاء منتصف الليل دون السماح بالسؤال عن المكونات والأدوات، لم تقدم إجابات تفسر ما وضع في الأسهم كي تعطي هذا التأثير المذهل، كيف أُعدت النار ليتغير لونها من شكل إلى آخر، كل من سأل عن الأمر سواء خلال التجهيز أو التدريبات كان الرد الوحيد عليه أن إفشاء الأمر سيفسده.

ولكن بالطبع لم يتمكن ماركو من التدريب على الجزء الأكثر أهمية.

كان من السهل عليه أن يتسلل بعيدًا عن شاندرش في زحام الساحة قبيل منتصف الليل.

شق طريقه نحو القلب الحديدي للساحة، مقتربًا قدر استطاعته من المرجل الخاوي، ليخرج من معطفه مجلدًا كبيرًا ذا غلاف من الجلد الطبيعي، نسخة مماثلة تمامًا لأخرى محفوظة في مكتبه. لم ينتبه إليه

أي من الجمهور المحتشد في الساحة وهو يلقي بها في جوف المرجل، لترتطم بالقاع محدثة طرقة أخفتها ضجة الجمهور.

انفتح الغطاء لتواجه شجرة الحبر المرسومة السماء المرصعة بالنجوم.

ظل قريبًا من حافة الحديد الملتوي، بينما يأخذ الرماة أماكنهم. ظل انتباهه منصبًا على اللهب، برغم ضغط الجمهور حوله، بينما تتضخم النار أثناء تحول الألوان.

ومع وصول السهم الأخير، أغلق عينيه، لتسطع الألسنة البيضاء بلون أحمر عبر جفونه المغلقة.

*****

قبل عرضها الأول توقعت سيليا أن تشعر أنها مجرد صورة مهزوزة من والدها، لكن التجربة أراحت قلبها أنها كانت شيئًا مختلفًا تمامًا عما شاهدت والدها يقدمه عشرات المرات في المسرح تلو المسرح.

كانت تقدم عرضها في مساحة صغيرة حميمية، كان عدد المشاهدين معقولًا بحيث يدون أفرادًا مستقلين وليس ضخمًا ليندمجوا في جمهور واحد صاخب، وجدت أنه من الأفضل أن تقدم كل مرة فقرة مختلفة عن سابقتها حتى ترى من ردود الأفعال ما الذي تختاره تاليًا.

وبرغم أن العروض أمتعتها أكثر مما توقعت، فقد كانت سعيدة لأن الاستراحة بين الفقرات كانت طويلة بما يكفيها، ولذا فمع اقتراب منتصف الليل قررت أن تبحث عن مكان تستطيع منه رؤية مراسم إشعال النار.

ولكن في أثناء سيرها فيما يسمونه بكواليس المسرح (برغم عدم وجود مسرح ليكون له كواليس) جذبتها الفوضى المحيطة باقتراب ميلاد التوءمين موراي.

كان الكثير من المؤدين والموظفين قد احتشدوا منتظرين بقلق، والطبيب الذي أحضروه بدا متعجبًا من الأمر بأكمله، والبهلوانة تذهب وتجيء، وإيدن موراي يحوم كواحد من سباعه.

حاولت سيليا أن تساعد قدر استطاعتها، وهو ما لم يعنِ سوى تقديم فناجين الشاي والبحث عن طرق إبداعية جديدة لقول أن كل شيء سيكون على ما يرام.

ذكرها هذا كثيرًا بزبائنها العجائز وقت عملها كوسيطة روحية؛ حيث فوجئت حين شُكِرَت بالاسم.

وأتى الصراخ الناعم قبل منتصف الليل بدقائق مريحًا، مطلقًا الكثير من التنهدات وصيحات البهجة.

وبعدها حدث شيء ما مختلف.

أحست به سيليا من قبل أن تسمع صفقات الجمهور تتردد قادمةً من الساحة. هذا الحركة التي انتشرت عبر السيرك كالموجة.

لقد سرت في جسدها مفلتة قشعريرة أصابت ظهرها. كادت تسقطها أرضًا. سمعت صوت من خلفها يقول:

- أأنتِ بخير؟

التفت لتجد تسوكيكو تمد يدها الدافئة إلى ذراعها لتسندها، ويعلوها هذا البريق الذي اعتادته سيليا في عيني البهلوانة المبتسمتين. قالت سيليا وهي تكافح لتلتقط أنفاسها:

- أنا بخير شكرًا لك.

قالت تسوكيكو:

- أنت شخص حساس، ليس من المستغرب أن يتأثر الأشخاص الحساسون بمثل هذه الأحداث.

علت صرخات أخرى من الحجرة المجاورة لتنضم للأولى في كورال متناغم. قالت تسوكيكو:

- توقيتهما متميز.

ملفتة للتوءمين المولودين حديثًا.

لم تستطع سيليا سوى أن ترد بإيماءة. أكملت تسوكيكو:

- من المؤسف أن فاتتك مراسم الإشعال. كانت مميزة أيضًا.

وبينما يبكي التوءمان موراي معًا حاولت سيليا أن تنفض عنها هذا الإحساس الذي ما زال يوخز جلدها.

ما زالت غير واثقة من هو خصمها، ولكن أيًّا ما كانت الحركة التي قام بها، فقد وترتها.

أحست أن كل السيرك حولها قد أحاط بها، كما لو أن شبكة ما قد ألقيت فوقه، لتصطاد كل شيء داخل السور الحديدي، مرفرفة كالفراش.

وأخذت تتساءل كيف يمكنها أن ترد.



ليلة الافتتاح 3، دخان ومرايا.

لندن، 13 و14 أكتوبر 1886

لم يدخل شاندرش كريستوف لوفيفرا خيمة واحدة في ليلة الافتتاح، بدلًا من ذلك تجول عبر الممرات والتقاطعات ومشى في قوس حول الساحة جارًّا خلفه ماركو ليسجل ملاحظاته كلما علّق شاندرش على شيء. كان شاندرش يشاهد الجمهور، متعرفًا كيف يختار الجمهور الخيم التي يدخلها، ملاحظًا بعض اللافتات التي تحتاج تعديلًا أو تغيير الموضع ليمكن قراءتها بوضوح أكبر. وأبواب ليست واضحة بما يكفي مقارنة بأخريات بارزة فلا يدخلها إلا أعداد قليلة من الجمهور.

لكن كانت هذه تفاصيل بسيطة في الحقيقة، مجرد رشة من الزيت لإصلاح صرير غير مسموع. لم يكن من الممكن جعله أفضل من ذلك، فالناس سعداء. طابور التذاكر يمتد كثعبان عملاق يلتف حول السياج. السيرك بأكمله يشع حماسًا.

وقبيل منتصف الليل وقف شاندرش عند حافة الساحة لمشاهدة مراسم الإيقاد، مختارًا مكانًا يسمح له بمتابعة النار مع أكبر جزء ممكن من الجمهور. سأل:

- كل شيء جاهز للإيقاد. صحيح؟

لم يجبه أحد. لم يجد خلفه سوى بعض الجمهور المدهوش يمر. صاح:

- ماركو!

لكن لم يكن ماركو موجودًا ليرد.

لمحته واحدة من الشقيقتين برجيس، فاقتربت منه شاقة طريقها بصعوبة عبر الساحة، وحين وصلت إليه سألته:

- أهلًا شاندرش، أهناك خطأ ما؟

قال:

- يبدو أنني أضعت ماركو، أمر غريب لكن لا يوجد ما يدعو إلى القلق عزيزتي ليني.

صححت له:

- بل تارا.

نفث سيجاره وقال:

- أنتما متشابهتان، هذا مربك، يجب أن تبقيا معًا كي نتجنب هذا الخلط.

- حقًّا! شاندرش نحن لسنا حتى توءمتين.

- إذن فمن منكما الكبرى؟

ابتسمت تارا وقالت:

- هذا سر، أيمكننا الآن أن نعلن الليلة ناجحة؟

- حتى الآن كل شيء على ما يرام، ولكن الليلة لم تمضِ بعد، كيف حال السيدة موراي؟

- أظنها بخير، ولو أنه مرت ساعة منذ وصلتني آخر الأخبار، سيكون هذا يوم ميلاد لا ينسى للتوءمين كما أظن.

- سيكون من المفيد لو كانا متشابهين مثلك وشقيقتك، يمكننا أن نجعلهما يرتديان أزياء متماثلة.

ضحكت تارا قائلة:

- على الأقل فلتنتظر حتى يتعلما المشي.

وحول المرجل الخاوي الذي يستعد لإشعاله اثنا عشر راميًا يأخذون مواقعهم، فتوقفا عن الحديث ليشاهدا.

بينما نظرت تارا إلى الرماة، إذ راقب شاندرش الزحام الذي بدأ يولي انتباهه للعرض. سرعان ما انتظم الزحام ليتحول من تكدس للزوار إلى جمهور من المشاهدين توزع كما كان مخططًا بحذاء الرماة الاثني عشر.

كل شيء يمضي تمامًا كما خططوا.

أطلق الرماة سهامهم واحدًا تلو الآخر، مرسلين الشعلات عبر قوس قزح من اللهيب الذي صبغ السيرك بأكمله بالألوان بينما تدق الساعة، اثنتي عشرة دقة تتردد عبر السيرك.

ومع الدقة الثانية عشر توهجت النار، بيضاء وساخنة، ليرتجف كل ما في الساحة للحظة، طارت الأوشحة من أصحابها برغم غياب النسيم وارتعشت أنسجة الخيم.

انفجر تصفيق الجمهور، صفقت تارا كذلك بينما شاندرش ذاهلًا بجوارها وأسقط سيجاره أرضًا.

سألته تارا:

- شاندرش، أأنت بخير؟

رد:

- بل أشعر بالدوار.

أخذت تارا بذراعه ليتزن، وجذبته إلى جانب أقرب خيمة، بعيدًا عن حركة الجمهور الذي عاد إلى التجول ثانية في كل اتجاه. سألها:

- هل شعرت بهذا؟

كانت قدماه ترتجفان وتارا تجاهد كي تدعمه، بينما المارة يتزاحمون. سألته:

- شعرت بِمَ؟

لم يرد عليها شاندرش وبدا من الواضح عدم اتزانه فتمتمت:

- لماذا لم يفكر أحد في تثبيت بعض المقاعد في الساحة؟

سألها صوت من خلفها:

- أهناك خطب آنسة برجيس؟

التفتت لتجده ماركو مقتربًا من الخلف، حاملًا مذكرته في يده وقد بدا عليه القلق. قالت تارا:

- أوه، ماركو، أنت هنا، شيء ما يحدث لشاندرش.

بدآ يجذبان أنظار الجمهور، فأخذ ماركو بذراع شاندرش وجذبه إلى مكان أكثر هدوءًا موليين ظهورهم شطر الساحة للحصول على القليل من الخصوصية. سأل ماركو تارا وهو يسند شاندرش:

- أهو في هذه الحالة منذ فترة؟

قالت:

- لا، لقد حدثت فجأة، أخشى أنه سيدخل في إغماءة.

طمأنها:

- أنا واثق أن الأمر بسيط، ربما بسبب الحرارة، سأتولى هذا آنسة برجيس لا داعي لأن تشغلي نفسك.

عقدت تارا حاجبيها ممانعة في الرحيل، فكرر ماركو بحزم:

- الأمر بسيط.

نظر شاندرش إلى الأرض كأنما يبحث عن شيء ضائع، وقد بدا ذاهلًا عن الحديث برمته. استسلمت تارا بقولها:

- لو أنك مُصِرٌّ.

قال ماركو:

- إنه في يد أمينة آنسة برجيس.

ثم التفت قبل أن ترد بكلمة أخرى. وسار هو وشاندرش بعيدًا وسط الزحام.

ظهرت ليني بجوار كتف شقيقتها وهي تقول:

- ها أنت هنا، كنت أبحث عنك في كل مكان، أشاهدت الإشعال؟ ألم يكن رائعًا؟

قالت تارا وهي ما زالت تبحث بعينيها وسط الجمهور:

- بالفعل.

سألتها ليني:

- ماذا بك؟ هل حدث أمر ما؟

ردت عليها تارا بسؤال:

- ما الذي تعرفينه عن مساعد شاندرش؟

قالت ليني:

- ماركو؟ ليس الكثير، يعمل لدى شاندرش منذ بضع سنوات، متخصص في المحاسبة وقبل ذلك كان باحثًا من نوع ما كما أظن. ليس بالثرثار في الحقيقة. لماذا تسألين؟ تريدين إضافة أسمر وسيم لقائمة غزواتك؟

أفلتت ضحكة من تارا برغم شرودها.

- كلا! ليس الأمر هكذا، فقط بعض الفضول.

وأخذت بذراع شقيقتها مكملة:

- دعينا نمضي ونبحث عن المزيد من الغوامض الآن.

ومتأبطتان كلٌّ منهما ذراع الأخرى، اخترقتا الزحام، ودارتا حول النار المتوهجة التي ما زالت تجذب أنظار العديد من الزائرين المفتونين بلهيبها الأبيض المتراقص.

الرجل المعلق

في هذه الخيمة، معلقان عاليًا فوقك، هناك بعض الناس.

هم فنانو الأكروبات والعقلة وألعاب الهواء. والإضاءة آتية من عشرات المصابيح المستديرة المعلقة في قمة الخيمة مثل الكواكب أو النجوم.

ولم تكن هناك شبكة أمان.

تشاهد العرض من موقع مميز، مباشرة أسفل اللاعبين لا يفصلك عنهم شيء.

هناك فتيات في أزياء من الريش يدورون في ارتفاعات مختلفة، معلقات بشرائط يمكنهن التلاعب بها، كأنهن عرائس ماريونت تتحكم في خيوطها بنفسها.

مقاعد عادية تُستخدم أرجلها وأظهرها باعتبارها بدائل عن العقلة المعتادة.

كرات مستديرة تشبه أقفاصًا ضخمة، تعلو وتهبط ولاعبو الهواء يتحركون من داخل واحدة إلى أخرى دون أن يقفوا على قمتها أو يتعلقوا بالقضبان في قعرها.

وفي مركز الخيمة هناك هذا الرجل الذي يرتدي بدلة سهرة، معلق بقدم واحدة مربوطة بحبل فضي، ويداه متشابكتان خلف ظهره.

بدأ يتحرك ببطء شديد. امتد ذراعاه من جانبيه، واحد ثم الثاني، حتى تأرجحتا خلف رأسه.

بدأ في الدوران، أسرع فأسرع، حتى بدا مجرد غشاوة ضبابية في نهاية الحبل.

ثم توقف فجأة وسقط.

تراجع الجمهور أسفله كاشفين الأرض الصلبة الجرداء.

لا تستطيع النظر ولا تستطيع إشاحة بصرك بعيدًا.

ثم توقف فجأة بمستوى أعين الجمهور، معلقًا بالحبل الفضي، الذي بدا طوله الآن بلا نهاية، قبعته العالية لم تتحرك من على رأسه. ذراعاه مبسوطتان بهدوء بجانبيه، وبينما عاد الجمهور إلى التزاحم حوله، إذ رفع يده ذات القفاز ورفع قبعته ولوى وسطه صانعًا انحنائه درامية.

الرؤيا

كونكورد، ماساشوستس، أكتوبر 1902

قضى بيلي النهار بأكمله منتظرًا غروب الشمس، لكنها عاندته وأبطأت من سيرها عبر السماء، هذه المسيرة التي لم تشغل بال بيلي من قبل، لكنه اليوم يجد بطأه قاسيًا. تمنى لو لم يكن يوم عطلة كي يجد في المدرسة شيئًا يزجي وقته. فكر في أن يأخذ قيلولة لكن كان هذا مستحيلًا مع الحماس الجارف الذي تملكه لرؤية الظهور المفاجئ للسيرك.

مر الغداء بنفس الطريقة التي اعتادها خلال الشهور الماضية، صمت ممتد لا يقطعه سوى محاولات أمه لبدء حوار مهذب وتنهيدات أخته كارولين المتكررة.

كانت أمه من ذكرت السيرك أو -لنكون أكثر دقة- التأثيرَ الذي سيجلبه السيرك على الناس.

توقع بيلي عودة الصمت لكن كارولين التفتت له متسائلة:

- ألم نتحداك أن تتسلل إلى السيرك في آخر مرة كان هنا يا بيلي؟

بدا صوتها مرحًا وفضوليًّا كأنها بالفعل ليست متأكدة أحدث هذا أم لا.

سألت الأم:

- ماذا؟ خلال النهار؟

أجابت كارولين بإيماءة خفيفة.

قال بيلي بهدوء:

- نعم.

متمنيًا لو عاد الصمت غير المريح.

قالت الأم:

- بيلي!

بلهجة حولت اسمه إلى مرادف لخيبة الأمل والعتاب، لم يفهم بيلي كيف يكون هذا خطأه فهو تلقى التحدي ولم يكن من اختاره.

لكن كارولين ردت أسرع من اعتراضه:

- أوه، لم يفعلها أصلًا.

كما لو كانت فجأة تذكرت الأمر بوضوح.

اكتفى بيلي بهز كتفيه.

قالت الأم:

- حسنًا، أتمنى بالفعل ألا يكون فعلها.

عاد الصمت، فحدق بيلي إلى السماء عبر النافذة متسائلًا عن شكل الغروب، فكر أنه من الأفضل لو ذهب إلى البوابة بمجرد أن يبدأ الغسق، وينتظر لو كان هذا ضروريًّا. كانت قدماه مضطربتين أسفل المنضدة، وكان يرجو أن تأتيه أول فرصة للهرب.

استغرق الأمر دهرًا كي يرفع الطعام، وتختفي كارولين في حجرتها ويمسك والده بالجريدة.

وضع وشاحه فسألته أمه:

- إلى أين أنت ذاهب؟

قال:

- سأذهب إلى السيرك.

قالت:

- لا تتأخر كثيرًا، ينتظرك عمل كثير.

رد:

- لن أتأخر.

وارتاح لكونها لم تحدد ساعة معينة للعودة، تاركة له تقدير متى سيكون الموعد المتأخر.

لكن أمه أضافت:

- خذ أختك معك.

كان السبب الوحيد الذي جعله يقف أمام باب حجرة شقيقته، إنه لا سبيل آخر لمغادرة البيت دون أن تلاحظ أمه أنه لم يأخذها معه.

طرق الباب فردت كارولين:

- اذهب بعيدًا.

قال بيلي بصوت رتيب:

- سأذهب إلى السيرك، هل تريدين الذهاب معي؟

كان يعرف بالفعل إجابتها من قبل أن تقولها:

- لا.

كان هذا متوقعًا مثله مثل الصمت غير المريح على العشاء.

وصاحت كارولين بازدراء:

- يا لك من طفولي!

غادر بيلي دون كلمة أخرى تاركًا الرياح تصفق الباب خلفه.

كانت الشمس بالكاد قد اتجهت إلى الغرب، ولكن كان هناك ناس أكثر من المعتاد في مثل هذا الوقت، كلهم يمشون في نفس الاتجاه.

وهو في الطريق بدأت حماسته تفتر، ربما كان طفوليًّا بالفعل، أو لعله لم يعد كما كان.

وحين وصل الحقل كان هناك تجمهر قد سبقه بالفعل، وأراحه أن الكثير من الزوار كانوا في مثل عمره أو أكبر، لم يكن هناك سوى القليل من الأطفال معهم، وقهقهت فتاتان في مثل عمره حين مر بجوارهما، محاولتين لفت أنظاره. لم يستطع أن يعرف أتعد هذه مغازلة أم لا.

وجد بيلي بقعة يقف فيها وسط الحشد، وانتظر مراقبًا البوابة الحديدية المغلقة ومتسائلًا إن كان السيرك قد تغير عما يتذكره.

وتساءل أيضًا في أعماقه إن كانت الفتاة ذات الشعر الأحمر والزي الأبيض في مكان ما بالداخل.

أتت أشعة الشمس البرتقالية المنخفضة لتصبغ كل شيء –بما في ذلك السيرك– بلون محترق، قبل أن تخبو آخر الأضواء تمامًا. كانت أسرع مما يتوقع، تلك اللحظة التي تحولت فيها من اللهب إلى الغروب، ثم اشتعال أنوار السيرك المتلألئة فوق كل الخيم.

انطلقت الصيحات من الجمهور:

- أوو!

- آهه!

أما القلة التي كانت في المقدمة، فأفلتت منها شهقات الانبهار مع اشتعال اللافتة العملاقة مطلقة شراراتها ووميضها، لم يتمالك بيلي نفسه من الابتسام حين اكتمل سطوعها، متألقة كالفنار: Le Cirque des Rêves. أو سيرك الأحلام.

وبينما كان مرور النهار بطيئًا مملًّا، إذ كان طابور الدخول سريعًا جدًّا. وسرعان ما وجد بيلي نفسه عند شباك التذاكر يشتري تذكرة فردية.

كان الممر الثعباني ذو النجوم يبدو بلا نهاية، وهو يتحسس طريقه عبر المنعطفات المظلمة، قلقًا من انتظاره للضياء المبهر في النهاية.

كان أول ما فكر فيه حين وصل الساحة المضيئة، أن رائحتها تمامًا كما كانت. الدخان والكراميل وشيء آخر لا يعرف كنهه.

لم يعرف من أين يبدأ، هناك الكثير من الخيام والكثير من الاختيارات، لذا فكر في السير قليلًا قبل أن يقرر أيها يدخل.

فكر كذلك أن الاكتفاء بالتجول في السيرك سيزيد فرصه في لقاء الفتاة ذات الشعر الأحمر، برغم أنه لم يعترف لنفسه بعد أنه يبحث عنها، من السخيف أن يبحث عن فتاة قابلها مرة واحدة في ظروف عجيبة منذ سنوات طويلة. لا يوجد ما يجعله يظن أنها ستتذكره أو حتى تتعرف إليه.

قرر أن يمشي عبر السيرك مخترقًا الساحة، ومتجاوزًا النار حتى الجانب الآخر ثم يبدأ عائدًا، بدت له كطريقة لا تختلف عن غيرها، كما أن الجمهور سيكون أقل ازدحامًا عما لو بدأ من الجوانب.

لكن أولًا ليشتري شراب التفاح، لم يستغرق الأمر طويلًا قبل أن يجد البائع في الساحة، دفع ثمن كوبه والأبخرة المتصاعدة تدور في دوامات

بيضاء وسوداء، ناصعة. تساءل إن كان سيكون بنفس الطعم اللذيذ القديم، لقد استعاد في ذهنه هذا الطعم القديم عشرات المرات ورغم أنه يعيش في منطقة بها وفرة من التفاح، فلم يتذوق أبدا شرابًا أو عصيرًا متبلًا أو غير متبل كان بنفس الطيب. تردد قليلًا قبل أن يرتشف بحذر أصغر رشفة ممكنة، كان ألذ حتى مما يتذكره.

اختار طريقًا وتبعه، يمضي بين مداخل الخيم المحيطة، كانت هناك مجموعة صغيرة تجمعت حول منصة مرتفعة وفوقها تقف امرأة ترتدي زيًا ضيقًا مغطى بحلزون أسود وفضي، كانت تلتوي وتنثني بطريقة تبدو راقية ومرعبة في آن واحد. توقف بيلي ليشاهد البهلوانة برغم أن مجرد المشاهدة تبدو مؤلمة.

رفعت البهلوانة حلقة فضية صغيرة من الأرضية، وأعطتها رجلًا في مقدمة الجمهور ليتأكد من صلابتها، وحين أعادها إليها مررت جسدها بأكمله عبرها ممددة أطرافها في حالة من السيولة الراقصة.

وبعدما تركت الحلقة، وضعت صندوقًا صغيرًا في منتصف منصتها. بدا الصندوق لا يزيد ارتفاعه ولا عرضه على قدم واحد. (القدم حوالي 30 سم) وإن كان في الحقيقة أكبر قليلًا من هذا.

وبرغم أن حقيقة دخول امرأة تامة النمو –حتى لو كانت ضئيلة الحجم– في هذا الحيز الضئيل هو أمر مثير للإعجاب في حد ذاته، أيًا ما كان نوع الصندوق، فقد فاق الأمر الانبهار كون الصندوق مصنوعًا من الزجاج الشفاف تمامًا.

الحافات معدنية مؤكسدة لتكتسب لونًا أسود، ولكن الجوانب والغطاء من الزجاج الصافي. فكانت مرئية بوضوح وهي تتلوى وتنثني وتطبق جسدها لتعبئ نفسها في هذا الحيز الصغير، فعلت هذا ببطء شديد، مظهرة كل حركة ضئيلة باعتبارها جزءًا من العرض حتى أصبح

جسدها ورأسها داخل الصندوق، ولم يتبق سوى يديها ممتدة فوقها. كان المشهد من ناحية بيلي يبدو مستحيلًا: جزء من قدمها هنا، وتقوس كتفها هناك، جزء من ذراعها أسفل قدمها.

لم تتبق سوى يد واحدة لوحت بمرح لهم قبل أن تغلق الغطاء فوقها، وقد سقط مزلاجه تلقائيًّا، ليصبح الصندوق مغلقًا دون مجال للشك، والبهلوانة ظاهرة تمامًا بداخله. ثم ببطء امتلأ الصندوق الزجاجي الذي يحتوي المرأة بدخان أبيض، يتسرب إلى الزوايا والشقوق الصغيرة المتبقية حول جسدها، وتنساب بين أصابعها المنضغطة في الزجاج. ازداد الدخان كثافة، حتى أخفى البهلوانة تمامًا، لم يبق ما يُرى سوى الدخان الأبيض الذي يتزايد ويدور ويصنع الدوامات خلف الزجاج.

وفجأة علت صوت طقطقة، لقد تحطم الصندوق، ألواح الزجاج سقطت على الجوانب، والغطاء انهار إلى الأسفل، وانطلقت دوامة الدخان في هواء الليل. والصندوق أو بالأحرى كومة الزجاج التي كانت صندوقًا، أصبحت خاوية. لقد اختفت البهلوانة.

انتظر الجمهور بضع دقائق لكن لم يحدث شيء، ومع تلاشي آخر موجة من الدخان بدأ الناس في الانصراف.

اقترب بيلي ليلقي نظرة متفحصة وهو يتساءل إن كانت البهلوانة مختفية داخل أرضية المنصة. لكنها كانت من الخشب الصلب ومفتوحة من الأسفل. لقد تلاشت تمامًا برغم الأدلة الواضحة أنه لا يوجد مكان لتختفي فيه.

أكمل بيلي سيره في الممر الملتوي، أنهى مشروبه ووجد سلة ألقى فيها الكوب، ولو أنه ما إن وصل القاع المظلم حتى بدا كأنه قد تلاشى.

أكمل سيره وهو يقرأ اللافتات، محاولًا أن يقرر أي خيمة يدخل، كان بعض اللافتات كبيرًا ومزخرفًا ومكتوب عليه شرح طويل منمق لما تحتويه الخيم. لكن تلك التي لفتت انتباهه واحدة أصغر مثل الخيمة المعلقة عليها، بحروف بيضاء مائلة على أرضية سوداء كتب:

أروع الخدع الحواة

كان المدخل مفتوحًا، وطابور من المشاهدين يدخل إلى خيمة الحاوي. انضم إليهم بيلي.

كان داخلها مضاءً بشمعدانات حديدية سوداء مصفوفة بحذاء الجدران، وخاويًا إلا من دائرة من المقاعد الخشبية غير المدهونة. كانت فقط عشرين مقعدًا مرصوصة في صفين فقط كي تكون الرؤية ممتازة من أي مقعد، اختار بيلي مقعدًا في الصف الداخلي يواجه المدخل. وسرعان ما امتلأت بقية المقاعد عدا اثنين، المقعد المجاور على يساره وآخر في الناحية الأخرى من الدائرة.

لاحظ بيلي أمرين على الفور.

الأول أنه لم يعد يقدر على رؤية المدخل، تلك الفجوة التي دخل منها المتفرجون قد تلاشت وأصبح مكانها جدارًا مصمتًا لا يمكن تفريقه عن بقية الخيمة.

الثاني أن هناك الآن امرأة داكنة الشعر بمعطف أسود تجلس إلى يساره، كان واثقًا أنها لم تكن موجودة قبل اختفاء الباب.

ثم تحول انتباهه من هذين الأمرين إلى هذا الكرسي الذي يتوسط الدائرة وانفجرت منه ألسنة لهب.

وانتشر الذعر فورًا، أولئك القريبون من الكرسي المشتعل تركوا مقاعدهم وهرعوا إلى الباب ليجدوا أنه لم يعد موجودًا، مجرد حوائط مصمتة تحيط بهم.

ارتفعت النار بثبات، ما زالت فوق الكرسي تسيل حول الخشب برغم أنه لا يبدو محترقًا.

نظر بيلي ثانية إلى الامرأة التي على يساره فغمزت له، ثم نهضت من المقعد واتجهت إلى مركز الدائرة. ووسط الذعر فكت أزرار معطفها بهدوء وخلعته ثم ألقته بحركة درامية نحو الكرسي المشتعل.

وما كان يبدو كأنه معطف صوفي ثقيل تحول إلى قطعة طويلة من الحرير الأسود تتموج كالماء لتغطي الكرسي، اختفت النار ولم يتبق لها أثر سوى بعض نفخات الدخان الساكن، والرائحة القوية للخشب المتفحم، التي لم تلبث أن تحولت ببطء إلى رائحة مطمئنة لمحطة المطافئ ممتزجة بشيء يبدو كالقرفة أو القرنفل.

المرأة الواقفة في مركز الدائرة انتزعت بتلويحة من يدها الحرير الأسود ليظهر أسفله الكرسي سليمًا تمامًا. وقد استقر فوقه الآن مجموعة من اليمام الأبيض كالثلج، وبتلويحة أخرى انطبق الحرير على نفسه وتحول إلى قبعة طويلة سوداء. وضعتها المرأة فوق رأسها متوجة ما يبدو كفستان سهرة مستوحى من سماء الليل: حرير أسود مرصع ببلورات بيضاء متلألئة. وحَيَّت جمهورها بانحناءة لبقة.

لقد قدمت الساحرة دخولًا مبهرًا.

القليل من المتفرجين –من بينهم بيلي– هم من تمكنوا من التصفيق، أولئك الذين كانوا غادروا مقاعدهم عادوا إليها وقد ظهر عليهم مزيج من الاضطراب والفضول.

واستمر العرض، توالت الفقرات التي يصعب على بيلي أن يصدق أنها خدع واحدة تلو الأخرى. اختفت اليمامات لتظهر ثانية فوق القبعة أو أسفل الكرسي، وهناك أيضًا غراب أسود، أكبر بكثير من أن يمكن إخفاؤه بمجرد البراعة. فقط بعد انتهاء العرض أدرك بيلي ببطء أن ترتيب المقاعد في دائرة وشكل ومساحة المكان كل هذا لا يترك مساحة لاستخدام المرايا أو الخدع البصرية، كل شيء كان فوريًّا ومحسوسًا. بل إنها حولت ساعة واحد من الجمهور إلى كومة من الرمال، قبل أن تعيدها كما كانت. وفي لحظة ما طفت كل المقاعد فوق الأرض ورغم أن الارتفاع كان بطيئًا غير محسوس، فإن أصابع قدم بيلي كانت بالكاد تلامس الأرض مما جعله يمسك بجانبي مقعده قلقًا.

وفي نهاية العرض انحنت المشعوذة وهي تستدير حول نفسها لتحيي الدائرة بأكملها بينما يصفق الجمهور. وحين أتمت الدائرة لم تعد موجودة. لم يبق منها سوى بعض الشرارات اللامعة كصدى للبلورات في فستانها.

وعاد الباب ظاهرًا في جدار الخيمة وغادر الجمهور الصغير. تأخر بيلي عنهم، يحدق إلى المكان الذي كانت تقف فيه المشعوذة.

حين خرج وجد هناك منصة عالية لم تكن موجودة من قبل، ولكنها تشبه كثيرًا المنصة التي كانت البهلوانة تقدم عليها عرضها. لكن الشخص الذي فوقها لا يتحرك، حتى إن بيلي في البداية تصوره تمثالًا تم إلباسه فستانًا أبيض، وأُلْصِقَ عليه فرو بنفس اللون ينزل حتى خلف المنصة ويمتد إلى الأرض. شعرها وبشرتها وحتى رموشها كبياض الثلج.

لكنها تتحرك ببطء شديد جدًا جدًا، ببطء لدرجة أن بيلي لا يستطيع إدراك كل حركة وحدها. فقط يشعر بالتغير الطفيف، وندفات ثلج بيضاء تسقط منها كما تتساقط الأوراق من الشجر.

دار بيلي حولها ينظر إليها من كل زاوية. تابعته عيناها برغم أن تلك الرموش البيضاء كالثلج لم تطرف لحظة واحدة.

كان هناك صحيفة معدنية، وإن غطاها الفرو النازل، كان مكتوب عليها: **تكريمًا لذكرى**

وإن لم تحدد ذكرى من.

قواعد اللعبة

من 1887 حتى 1889

أصبحت الآن مآدب عشاء السيرك قليلة، بعدما أصبح السيرك نفسه قائمًا وعاملًا ويكتسب «**زخمه الذاتي**»، كما أسماه شاندرش في عشاء تلا ليلة الافتتاح بقليل. المخططون الأصليون ما زالوا يجتمعون للعشاء أحيانًا، خاصة عندما يكون السيرك قريبًا، ولكن مع الوقت كانت تلك اللقاءات تصبح أكثر ندرة.

السيد أ ـ هـ ـ لم يعد للظهور برغم الدعوة القائمة.

وبما أن هذه اللقاءات كانت الفرصة الوحيدة التي يلتقي فيها ماركو بمدربه فقد أثار هذا الغياب الدائم غيظه.

وبعد مرور عام كامل دون أثر أو لمحة لتلك القبعة الرمادية قرر ماركو أن يتصل به.

لم يكن يعرف أين يقيم مدربه حاليًّا، وقد خمن تخمينًا صائبًا أنه أيًا ما كان فسيكون مأوى مؤقتًا، وحالما يتتبعه فسيكون مدربه قد انتقل إلى مكان جديد.

بدلًا من ذلك نقش ماركو مجموعة من الرموز على الثلج فوق نافذة شقته المواجهة للشارع. مستخدمًا أعمدة المتحف الموجود قبالته كأسطر. أغلب الرموز لم تكن مرئية ما لم يسلط عليها الضوء بزاوية محددة، ولكنها في النهاية تشكل معًا حرف A كبير.

وفي اليوم التالي كانت هناك طرقات على بابه.

وكالعادة رفض الرجل ذو البدلة الرمادية أن يدخل الشقة، اكتفى بالوقوف في البهو مجمدًا ماركو بنظرة باردة رمادية.

سأل:

- ما الذي تريده؟

قال ماركو:

- أريد أن أعرف إن كنت أؤدي جيدًا.

نظر إليه مدربه للحظة صامتًا وتعابير وجهه جامدة مثلما هي دومًا.

قال:

- أداؤك كافٍ.

سأل ماركو:

- هل هذا هو ما سيمضي عليه التحدي؟ كل منا يتلاعب بالسيرك؟ وكم سيطول الأمر؟

قال مدربه:

- لقد منحت مسرحًا لتعمل فيه، ستعرض مهاراتك بأفضل ما يمكنك، وسيفعل خصمك نفس الشيء. لن يتدخل أحدكما في عمل الآخر. وسيستمر الأمر هكذا حتى يكون واحد منكما منتصرًا، الأمر ليس معقدًا.

قال ماركو:

- لستُ متأكدًا من أنني أفهم القواعد.

- لستَ بحاجة لفهم القواعد، أنت بحاجة فقط إلى اتباعها. كما قلت لك فعملك حتى الآن كافٍ.

وهمّ بالمغادرة قبل أن يقف مترددًا.

أشار إلى النافذة المتجمدة خلف ماركو قائلًا:

- لا تفعل هذا ثانية.

ثم التفت وغادر مبتعدًا.

والرموز التي كانت منقوشة على الثلج ذابت لتصبح خطوطًا بلا معنى.

*****

في وسط النهار والسيرك نائم في هدوء، وقفت سيليا أمام دوامة الخيل تشاهد المخلوقات السوداء والبيضاء والفضية تمر، معلقة في تناسق بالأشرطة دون راكبين.

قال صوت من خلفها:

- لا أحب هذا الشيء.

لم يبق من هكتور بوين سوى شبح غائم في الخيمة ضعيفة الإضاءة.

حلته السوداء ذابت وسط الظلال، وقميصه يلمع ويختفي مع تذبذب الضوء، مثل شعره الرمادي. أما وجهه فقد علا عليه الضيق وهو ينظر إلى الدوامة وراء كتف ابنته.

ردت سيليا:

- ولِمَ لا بحقك؟! هي رائجة جدًا، وقد احتاجت قدرًا كبيرًا من العمل، يجب أن يحسب هذا بتقدير بابا.

لم يبق من لهجته الصارمة المتهكمة الآن سوى صدى لما كان عليه في الماضي، وأحست سيليا بارتياح أنه لا يستطيع رؤية ابتسامتها التي أحدثتها رقة صوته.

- لا تكوني بهذا التهور بينما أنا ...

ولوح بيده الشفافة أمام ذراعها.

قالت سيليا:

- لا تحمِّلني أنا نتيجة هذا، أنت من فعل بنفسك هذا، وليس ذنبي أنه ليس بقدرتك إلغاؤه، لا يمكن وصفي بالمتهورة.

سألها والدها:

- وكم أخبرت مهندسك هذا؟

ردت سيليا:

- أخبرته قدر ما يحتاج.

تجاوزها والدها ليتفحص اللعبة الدورة بينما تكمل:

- إنه شغوف بتجاوز حدود قدراته، وقد عرضت عليه مساعدتي في تجاوزها. هل السيد باريس هو خصمي؟ سيكون هذا خداعًا مذهلًا منه أن يبني لي هذه الدوامة فقط ليبعد عنه الشك.

رد هكتور وهو يهز نفسه باستنكار:

- هو ليس خصمك.

رفرفت الزخارف الدانتيل في قميصه فبدت كأجنحة العثة.

أكمل والدها:

- ولكن مثل هذا الأمر يمكن اعتباره غشًّا.

- كيف يكون الاستعانة بمهندس لتنفيذ فكرة خروجًا عن مجال التحدي يا بابا؟ لقد ناقشتها معه، هو تولى أمر التصميم وأنا... قمت بتحسينها. أتحب أن تركبها؟ أنها أكثر بكثير من مجرد اللف والدوران.

رد هكتور وهو ينظر إلى النفق المظلم الذي تختفي فيه الكائنات:

- هذا واضح، وما زلت لا أحبها.

تنهدت سيليا وهي تمشي نحو حافة الدوامة وتداعب رأس غراب متعملق مرت عليه.

قالت:

- السيرك يحوي بالفعل عناصر تفوق الحصر تعمل معًا في تكامل. لماذا لا استخدم هذا لصالحي؟ تُصِرُّ دومًا على أنني يجب أن أفعل ما هو أكثر من فقراتي، ولذا عليّ أن أخلق الفرص لأتمكن من هذا. السيد باريس كان مفيدًا للغاية لتحقيق هذا الغرض.

- العمل مع الآخرين سينحدر بك فحسب، أولئك الناس ليسوا أصدقاءك، إنهم غير ذوي صفة. وأحدهم هو خصمك فلا تنسَىْ هذا.

سألته سيليا:

- أتعرف من هو؟

- لدي شكوكي.

- لكنك لن تخبرني إياها؟

- هوية خصمك لا تهم.

- تهمني أنا.

تجهم هكتور وهو يشاهدها تعبث بالخاتم على يدها اليمنى، وقال:

- يجب ألا يهمك.

- لكن خصمي يعرف هويتي؟

- بالتأكيد، ما لم يكن خصمك بالغ الغباء، ولم أعهد من ألكسندر أنه يختار بالغي الغباء كطلبة. لكن هذا لا يهم، من الأفضل لك أن تقومي بدورك دون أن تتأثري بأفعال خصمك. ودون أي **تكامل** كما تسمينه.

ولوح بذراعه نحو الدوامة فارتجفت الشرائط كما لو أن النسيم يهب داخل الخيمة.

سألته سيليا:

- وكيف يكون هذا أفضل لي؟ كيف يكون أي شيء أفضل من أي شيء آخر هنا؟ كيف تكون خيمة أفضل من أخرى؟ كيف يمكن التحكيم بين أي من هذه الأشياء؟

- هذا ليس دورك.

- كيف أتفوق في اللعبة وأنا لا أعرف قواعدها؟

حولت الكائنات المعلقة رؤوسها نحو الشبح الواقف بينهم، حيوانات الجريفين والثعالب والتنانين حدقت إليه بأعين سوداء مصقولة.

قفز هكتور نحو ابنته وهو يقول:

- أوقفي هذا.

عادت الكائنات للتحديق بالأمام، وإن أصدر أحد الذئاب زمجرة قبل أن يعود لحالته المتجمدة.

أكمل هكتور:

- أنتِ لا تتعاملين مع الأمر بالجدية اللازمة.

قالت سيليا:

- هذا سيرك، من الصعب أن آخذه بجدية.

- السيرك ليس سوى الحلبة.

- إذن فهذه ليست لعبة بل معرضًا.

- إنها أكثر من ذلك.

طالبته سيليا بالتوضيح سائلة:

- كيف؟

لكن والدها اكتفى بهز رأسه قائلًا:

- لقد أخبرتك بالقواعد التي تحتاجين لمعرفتها، ستتجاوزين حدود قدراتك باستخدام السيرك باعتبارها مكانًا لعرضها. تُثْبِتِينَ نفسك أنك الأفضل والأقوى، وتقومين بكل ما تستطيعينه لتتفوقي على خصمك.

- ومتى ستختار من منا الأفضل؟

قال هكتور:

- أنا لا أختار أي شيء، كُفِّي عن الأسئلة. قومي بالمزيد، وتوقفي عن التكامل.

وقبل أن تستطيع الرد اختفى، تاركًا إياها واقفة وحيدة في أضواء الدوامة اللامعة.

*****

في البداية، كانت خطابات إيزوبل تصل إلى ماركو بانتظام، ولكن مع ارتحال السيرك إلى مدن متباعدة ودول مختلفة، فقد أصبحت الأسابيع وربما الشهور تمر دون تواصل بين كل خطابين.

وأخيرًا وصله خطاب منها، لم يصبر حتى يخلع معطفه قبل أن يمزق المظروف.

تجاوز سريعًا الصفحات الأولى المشغولة بأسئلة رقيقة عن أحواله في لندن، وحديثها عن افتقادها للمدينة وافتقادها له.

كما طلب منها، فقد حدثته عن يوميات السيرك، لكن لم تسجل له الأمر بالدقة والتفاصيل الغزيرة الكافية كي يتخيله بالوضوح الذي يتمناه. مرت سريعًا بالأمور التي اعتبرتها ثانوية، مثل السفر والقطار، ولو أن ماركو متيقن أنهم لا يستطيعون السفر بالقطار وحده.

كان إحساسه بالبعد عن السيرك يتزايد برغم الرابط الواهي الذي شكله الحبر والورق.

وهناك أقل القليل **عنها**. لم تذكر إيزوبل حتى اسمها في تلك الصفحات، أشارت إليها عفوًا فقط بلقب الحاوية. كان هذا الاحتياط بناءً على طلبه لكنه الآن يندم عليه.

كان يريد أن يعرف كل شيء عنها.

كيف تمضي وقتها بين العروض؟

كيف تتفاعل مع جمهورها؟

كيف تشرب الشاي الخاص بها؟

لكنه لا يستطيع أن يجبر نفسه على طلب هذا من إيزوبل.

وحين كتب رده لها، طلب منها أن تستمر في الكتابة له قدر ما تستطيع، وأكد على أن خطاباتها تعني له الكثير.

أخذ الصفحات التي تصف بخطها الخيم المخططة والسماء المرصعة بالنجوم وثناهم لشكل طيور جعلها تطير حوله في الشقة الخاوية.

*****

كان أمرًا نادرًا أن تنصب خيمة جديدة، حتى إن سيليا فكرت في إلغاء فقرتها كي تتفحصها.

لكنها فضلت الانتظار، أدت عروضها المعتادة، وانتهت قبل ساعات قليلة من الفجر لتبدأ بعدها في شق طريقها عبر الممر الخاوي كي تجد أحدث إضافة للسيرك.

كانت اللافتة تسميها بالحديقة الثلجية، ولم تستطع أن تمنع ابتسامتها وهي تقرأ الحاشية أسفلها بالاعتذار عن أي إساءة حرارية.

ورغم قراءتها الاسم فلم تكن مستعدة لما ينتظرها بداخل الخيمة.

كانت بالفعل ما ذكرته اللافتة. لكنها أيضًا أكثر بكثير من هذا.

لم تكن هناك خطوط على الجدران، كل شيء كان أبيض متلألئًا. لم تستطع تقدير حجمها الحقيقي، فحدود الخيمة محجوبة بالصفصاف المتدلي، والكروم المتشابكة. كان الهواء نفسه سحريًّا، طازجًا وحلوًا في رئتيها حين تستنشقه، يرسل برعشة نحو أنامل قدمها لم يكن سببها الوحيد الانخفاض الحاد في الحرارة الذي حذرت منه اللافتة.

لم يكن هناك زوار في الخيمة حينما استكشفتها. تدور وحدها حول تكعيبة مغطاة بزهور شاحبة ونافورة فائرة رقيقة منحوتة.

وكل شيء، باستثناء بعض الأشرطة الحريرية البيضاء المعلقة في شكل باقات الزهور، كان مصنوعًا من الثلج.

ويفضول، قطفت زهرة من فوق فرع شجرة. انكسر الساق بسهولة لكن طبقات البتلات تفتت وسقطت من أصابعها أرضًا لتختفي وسط نصال العشب العاجي بالأسفل.

وحين نظر ثانية للفرع وجدت برعمًا مماثلًا تمامًا قد ظهر مكانه.

لم تستطع سيليا تخيل حجم القوة والمهارة التي يحتاجها الأمر، ليس فقط لإنشاء مثل هذا المكان بل أيضًا الحفاظ عليه.

وشغفت بمعرفة أنى لخصمها أن يأتي بمثل هذه الفكرة. كيف ينتبه لكل تفصيلة مثالية في الأشجار المشذبة، كل ملمح في الأحجار التي يتشكل منها الطريق كاللؤلؤ المرصوص، كل هذا لا بد أنه خطط له بعناية.

إنها لضريبة ثقيلة أن تلزم بفعل شيء مماثل، أحست بالتعب من مجرد التفكير في الأمر. حتى إنها كادت أن تتمنى لو أن والدها هنا بعدما بدأت تتفهم لِمَ كان دومًا شديد الإلحاح عليها أن تزيد قوتها وقدرتها على التحكم.

ولو أن رغبتها على شكره لهذا ليست يقينية.

أحبت كونها في المكان وحدها، وسط هذا السكون والهدوء العذب مع شذى الزهور الثلجية.

ظلت سيليا في الحديقة الثلجية حتى بعد شروق الشمس وإغلاق البوابات مع شروق النهار.

*****

وصل السيرك قريبًا من لندن للمرة الأولى منذ مدة، وفي ظهيرة اليوم السابق على الافتتاح أتت طرقات على باب شقة ماركو.

فتح الباب قليلًا ممسكًا به بحذر حين وجد إيزوبل واقفة أمامه.

قالت:

- لقد غيرت الأقفال.

سألها ماركو:

- لماذا لم تخبريني بقدومك؟

قالت إيزوبل:

- ظننت أنك ستعجب بالمفاجأة.

لم يقبل ماركو أن يدخلها الشقة، بدلًا من ذلك تركها تنتظر لدقائق في الردهة قبل أن يعود حاملًا قبعته.

كانت الجو باردًا ولكن مشمس. وأخذها لتناول الشاي.

وأثناء مشيهما، نظر ماركو إلى معصم إيزوبل وسألها:

- ما هذا؟

قالت:

- لا شيء.

وأنزلت أكمامها لتداري عن نظراته تلك الأسورة، كانت كضفيرة مغزولة بعناية لتماثل ضفيرة شعرها.

لم يسألها ثانية.

برغم أن إيزوبل لم تخلع تلك الإسورة، فقد اختفت حينما عادت إلى السيرك هذا المساء. تلاشت من فوق بشرتها كأنها لم تكن موجودة أبدًا.

التذوق

ليون، سبتمبر 1889.

هر فريدريك تايسن كان في إجازة في فرنسا، عادة ما يذهب في الإجازات إلى فرنسا في الخريف، فقد كان عاشقًا للنبيذ. يختار منطقة ويتجول في الريف مدة أسبوع أو اثنين، يزور الكرمات والخمارات ويجمع الزجاجات المعتقة كي يشحنها عائدًا إلى ميونيخ.

كان هر تايسن ودودًا مع الكثير من صناع النبيذ الفرنسيين وصنع عدة ساعات لعدد منهم ساعات. وفي هذه الزيارة ذهب خصيصًا إلى أحدهم كي يلقي التحية ويجرب أحدث زجاجته، وبينما يشربان كأسًا من البراندي اقترح صانع النبيذ عليه أن يلقي نظرة على السيرك الموجود في المدينة، والذي نصب في حقل على بعد بضعة أميال وهو سيرك غير معتاد يفتتح فقط خلال الليل.

لكنها الساعة، تلك الساعة ذات اللونين الأبيض والأسود المنصوبة على البوابة هي ما اعتقد الرجل أنها ستجذب انتباه هر تايسن.

قال صانع النبيذ:

- تذكرني بأعمالك.

مشيرًا بكأسه نحو الساعة المعلقة على الجدار فوق المشرب. والتي صنعت على شكل عنقود من العنب يتدلى ليسقط داخل زجاجة خمر ممتلئة بالنبيذ حتى حافة الشعار (نسخة طبق الأصل من شعار الكرمة) بدلًا من دقات الثواني.

أحس هر تايسن بالفضول، وبعد عشاء مبكر، اعتمر قبعته وارتدى قفازيه وبدأ في السير في الاتجاه الذي أشار إليه صديقه الخمَار. لم تكن وجهته غامضة لأن الكثير من سكان المدينة كانوا ذاهبين في نفس الاتجاه. وما إن غادر المدينة ووصل إلى الحقول فلم يكن من الممكن أن يغفل عن السيرك.

إنه متوهج! كان هذا هو الانطباع الأوليّ لهر تايسن عن سيرك الأحلام عندما رآه على مسافة نصف ميل من قبل، حتى أنه يعرف اسمه. مشى نحوه في هذا الليل البارد في هذا الريف الفرنسي كما تنجذب العثة للضوء.

حينما وصل أخيرًا إلى البوابة كان هناك جمهور كبير بالفعل، ورغم الزحام لكنه تعرف على ساعته فورًا، حتى لو لم يكن عرف مكانها، كانت بادية بجوار كشك التذاكر، بعد البوابات الحديدية الكبيرة مباشرة، وكانت تدق دقات الساعة السابعة. وتوقف ليشاهدها تاركًا صف المشاهدين يتجاوزه. كان رامي الكرات يتلاعب بالكرة السابعة في الهواء وذيل التنين يهتز مع سبع نغمات من الساعة. بالكاد مسموعة وسط صخب السيرك.

ابتهج هر تايسن، فقد بدت الساعة تعمل بدقة مثالية، ومن الواضح أنه يتم الاعتناء جيدًا بها برغم أنها معروضة في الهواء. تساءل عمَّ إذا كانت بحاجة إلى دهان عازل أقوى، وتمنى لو كان يعرف أنها ستستغل في العرض الخارجي قبل أن ينهيها. برغم أنها لا تبدو بحالة سيئة.

ظلت عينه معلقة بها، وهو يتقدم في الصف وهو في حيرة عما إذا كان من الأفضل أن يحاول الاتصال بالسيد باريس حول هذا الأمر، هذا إذا كان ما زال مقيمًا في نفس عنوان لندن المحفوظ في ملفاته بميونخ.

وحين أتى دوره أخرج الفرنكات ليدفع ثمن التذكرة للعاملة، وهي شابة حسنة المظهر في ثوب أسود تبدو كأنها تدعوهم للأوبرا أكثر منها قاطعة تذاكر في سيرك. وبينما تمنحه تذكرته استفسر منها عمن يتواصل معه بشأن الساعة، في البداية بالفرنسية ثم بالإنجليزية حين أدرك أنها لم تفهمه. لم ترد عليه لكن وجهها تهلل حينما عرّف بنفسه أنه الرجل الذي تولى صنعها. أعادت إليه نقوده مع التذكرة برغم اعتراضه، ثم فتشت في صندوق صغير وأخرجت بطاقة أعمال قدمتها إليه.

شكرها هر تايسن وخرج من الصف ليقف بالجانب متأملًا البطاقة، كانت بطاقة فاخرة من ورق مصقول بخلفية سوداء وحروف فضية تكتب:

سيرك الأحلام

المالك: شاندرش كريستوف لوفيفرا

وفي الخلف عنوان في لندن. وضع هر تايسن البطاقة في جيب معطفه، مع التذكرة والفرنكات، وأخذ خطواته الأولى في السيرك.

اكتفى في البداية بمجرد التجول في السيرك ليتعرف إلى هذا البيت الغريب لساعة أحلامه فونزشتراوم كما يسميها *Wunschtraum*.

أحس بالألفة والارتياح في السيرك، ربما بسبب الشهور التي استهلكها في صنع الساعة. كان بألوانه الأحادية ودوائره التي لا تنتهي يشبه الساعة. وأثار هذا إعجابه كيف أصبحت مناسبة تمامًا لهذا السيرك وكيف كان هذا السيرك مناسبًا لها.

في الليلة الأولى لم يدخل إلا جزء بسيط من الخيام، وتوقف لمشاهدة لاعبي النار والراقصين بالسيوف، وتذوق نبيذًا ثلجيًّا رائعًا في خيمة كتب عليها: **المشارب، للزوار البالغين فقط**. وحينما سأل الساقي عنه (وهو الشخص الوحيد في السيرك الذي رد عليه حينما خاطبه حتى وإن كان قليل الكلام) فقد أخبره أنه خمر كندي وأخبره بالسنة التي حصد فيها.

وحينما غادر هر تايسن السيرك، مدفوعًا فقط بالإرهاق، كان مخمورًا تمامًا وكلية، وقد عاد لزيارته مرتين أخيرتين قبل العودة إلى ميونيخ دافعًا ثمن التذكرة كاملًا في المرتين.

عندما عاد كتب خطابًا لمسيو لوفيفرا ليشكره على منح هذا البيت الرائع لساعته وعلى تجربة السيرك ذاتها. وأطال في الحديث عن روعتها، وقال إنه لم يجد في خط سير السيرك هدفًا أو اتجاهًا لكنه يأمل لو أنه سيأتي إلى ألمانيا.

بعد بضعة أسابيع أتى خطاب من مساعد مسيو لوفيفرا يذكر أن مسيو لوفيفرا يقدر كثيرًا رأي هر تايسن، وخاصة أنه رأيٌ آت من فنان موهوب مثله، ومدح الخطاب الساعة وذكر أنه لو حدثت بها أي مشكلة فسيتم التواصل مع هر تايسن فورا.

لم يذكر الخطاب شيئًا عن المكان الحالي للسيرك، ولا عن إمكانية ذهابه إلى ألمانيا وهو ما أحبط هر تايسن.

كان يفكر أحيانًا في السيرك، في الأغلب أثناء عمله، وهو ما ظهر أثره على إنتاجه.

الكثير من ساعاته الجديدة أصبحت بالأبيض والأسود، بعضها مخططة وتحمل مشاهد من السيرك، مثل لاعبي أكروبات دقيقين، نمر ثلجي مصغر، وعرافة تاروت ضئيلة تقرأ ورقة كل ساعة.

ورغم هذا كان يشعر أنه لا يعطي السيرك حقه في تلك الساعات التكريمية.

المُرافقة

القاهرة نوفمبر 1890

بينما من المسموح به نوعًا للتوءمين موراي بالجري الحر في الأركان المخفية التي تسمى عادة بالكواليس، (وهي مساحة هائلة بحجم ساحة قلعة مقسمة لزوايا وطرق يشغلها المقيمون في السيرك حينما تنتهي فقراتهم) فإنه غير مسموح لهما بالخروج أو بدخول السيرك في أثناء ساعات العمل إلا بوجود مرافق. كثيرًا ما احتجّا على هذه القاعدة بالصراخ والإلحاح، ولكنَّ والديهما كان مُصِرًّا أنها ستبقى قائمة حتى يبلغا الثامنة من العمر على أقل تقدير. كثيرًا ما كانا يتحججان بأن مجموع عمريهما قد تجاوز الثامنة، وهو ما يعني أنهما قد حققا الشرط.

كان يتم تذكيرهما باستمرار بأنه يجب أن يكون هناك توجيه في أوقاتهم المسائية، وأنهما الطفلان الوحيدان في منزل غير عادي.

يتم الآن التناوب على مرافقتهما، والليلة ستتولى الحاوية دورها في مراقبة التوءمين. لم تكن تأخذ هذا الدور كثيرًا برغم حب الطفلين لها، لكنها في تلك الليلة كان لديها وقت كافٍ بين عروضها كي ترافقهما بعض الوقت.

لم يتعرف أحد الزوار إلى سيليا دون قبعتها العالية وفستانها الأبيض والأسود. حتى أولئك الذين شاهدوها منذ ساعات قليلة هذا المساء، لو أن أحد المارة توقف لينظر إليها فسيكون لتعجبه كيف يكون لها أطفال بشعر أحمر ناري كهذا، بينما شعرها فاحم السواد. وباستثناء هذا فقد بدت امرأةً شابةً بمعطف أزرق تتجول في السيرك مثل بقية الزوار.

بدؤوا بالحديقة الثلجية، برغم من تململ الطفلين من التمهل الذي تتجول به سيليا حول الأشجار المجمدة في المكان. وقبل أن يقطعوا نصف الطريق داخله ترجوها أن تأخذهم لركوب الدوامة بدلًا منها.

تشاجرا على من سيركب الجريفن، لكن ويجيت أذعن بعدما حكت لهما سيليا قصة الثعلب ذي التسعة ذيول القابع خلفه. فبدا له فجأة أكثر جاذبية.

وما إن نزلا من الدوامة حتى طلبا دورًا ثانيًا. وفي تلك الرحلة الثانية خاضا عبر المنعطفات الدوارة والأنفاق فوق ثعبان وأرنب دون أن تصدر منهما شكوى.

بعد ركوب الدوامة أراد ويجيت أن يأكل شيئًا لذا توجها نحو الساحة، وحينما أحضرت له سيليا كيس فيشار ورقيًّا مخططًا بالأبيض والأسود، لكنه قال إنه لن يأكله دون إضافات وأصرَّ على أن يضاف له الكراميل.

رق له العامل الذي يغمس التفاح الموضوع على عصي في الكراميل الداكن اللزج، ليمرر السيخ فوق كيسه ليمطر الكراميل فوق قمته، عدد من المشترين المجاورين رأوا الأمر فطلبوا مثله.

زعمت بوبي أنها ليست جائعة. بدت مشتتة، لذا فحينما مشوا عبر ممر أقل ازدحامًا مبتعدين عن الساحة، سألتها سيليا إن كان هناك ما يضايقها.

قالت بوبيت وهي تسحب برقة ذيل فستان سيليا:

- لا أريد أن تموت السيدة اللطيفة.

توقفت سيليا ومدت يدها لتوقف ويجيت الذي بدا ذاهلًا عن أي شيء باستثناء الفشار وتجاوزها.

سألت بوبيت:

- ماذا تعنين يا عزيزتي؟

شرحت بوبيت:

- سيضعونها في الأرض، هذا يحزنني.

سألتها سيليا:

- أي سيدة لطيفة؟

اعتصرت بوبيت وجهها وهي تفكر قبل أن تقول:

- لا أعرف، كلهن متشابهات.

جذبت سيليا التوءمين نحو فجوة، وانحنت لتواجه بوبيت وجهًا لوجه وقالت لها:

- بوبيت يا حلوتي، أين هذه السيدة في الأرض؟ أين ترينها أعني؟

قالت بوبيت:

- في النجوم.

وأشارت إلى الأعلى وهي تشب على أطراف أقدامها.

نظرت سيليا إلى السماء المرصعة بالنجوم وشاهدت القمر يختفي خلف السحب قبل أن تعود لتنتبه إلى بوبيت.

سألتها:

- هل ترين أشياء في النجوم كثيرًا؟

قالت بوبيت:

- بعض الأحيان، أما ويجيت فهو يراها على الناس.

التفتت سيليا إلى ويجيت الذي يأكل ملء يده الملطخة فشارا بالكراميل.

سألته:

- أترى أشياء على الناس؟

رد بفم مليء:

- أفيانا!

سألته سيليا:

- أي أشياء؟

هز ويجيت كتفيه وقال:

- أماكن كانوا فيها، أشياء فعلوها.

واغترف قبضة أخرى من الفشار اللزج ليملأ فمه ثانية.

قالت سيليا:

- مشوق.

كان الطفلان كثيرًا ما يحكيان لها أشياء عجيبة لكن هذه المرة يبدو أن الأمر يتجاوز خيال الأطفال.

سألت ويجيت:

- أيمكنك أن ترى شيئًا ما عليّ؟

حدق ويجيت إلى وجهها وهو يمضغ الفشار:

- حجرات برائحة مثل المساحيق وملابس قديمة، سيدة تبكي طوال الوقت. رجل شبح بقميص لامع يتبعك في كل مكان و...

توقف ويجيت فجأة متجهمًا.

- لقد أخفيت كل شيء، لم يعد هناك شيء عليك. كيف فعلت هذا؟

قالت سيليا:

- بعض الأشياء لا يحق لك رؤيتها.

مط ويجيت شفته السفلى علامة على الامتعاض، ولكنه امتعاض لم يطل أكثر من وقت أخذ قبضة أخرى من الفشار اللزج.

حولت سيليا نظرها بين التوءمين والساحة في الخلف؛ حيث تتأجج النار لتلقي بضوئها على حافات الخيم صانعة ظلال راقصة للزوار على القماش المخطط.

تلك النار لا تذهب أبدًا، لا تذوي أبدًا.

حتى حينما يرتحل السيرك فإنها لا تطفأ، بل تؤخذ كما هي من مكان لآخر. متأججة طوال رحلة القطار لا يؤمنها سوى مرجلها، ظلت تشتعل بثبات منذ مراسم الإشعال في ليلة الافتتاح.

وسيليا متيقنة أنه في نفس تلك اللحظة شيء ما تحرك ليؤثر على السيرك بأكمله وتأثر به كل شخص داخله ما إن أُشْعِلَت تلك النار.

بما في ذلك التوءمان حديثا الولادة.

ويجيت وُلِدَ قبيل منتصف الليل في نهاية اليوم القديم، وبوبيت تبعته بدقائق مع بداية اليوم الجديد.

التفتت سيليا إلى الفتاة الصغيرة التي كانت تلعب بطرف معطفها وقالت:

- بوبيت، لو شاهدت في النجوم شيئًا تظنينه مهمًّا، فأريد منك أن تخبرينني به. هل تفهمين؟

أومأت بوبيت في سكون، وشعرها الأحمر يتموج، ومالت نحو سيليا لتسألها وعيناها تحدقان بجدية مخيفة:

- هل يمكن أن آخذ تفاحًا بالكراميل؟

فتذمر ويجيت مادًا كيسه الفارغ:

- وأنا نفد مني الفشار.

أخذت سيليا منه الكيس وثنته في شكل مربع يصغر شيئًا فشيئًا، حتى اختفى تمامًا وحينما صفق الطفلان لم تعد يد ويجيت ملوثة بالكراميل برغم أنه لم ينتبه لهذا.

تأملت سيليا التوءمين للحظات، بينما يحاول ويجيت البحث عن المكان الذي ذهب له الكيس، وبينما تطيل بوبيت نظراتها المتأملة نحو نجوم السماء.

ليست فكرة جيدة، هي تعرف هذا، إنها ليست فكرة جيدة، ولكن يجب عليها أن تبقيهما قريبين منها. أن تراقبهما بعناية أكبر في ضوء الظروف والمواهب البادية عليهما.

سألتهما سيليا:

- ألا تحبان أن تتعلما كيف تفعلان أشياء كهذه؟

أومأ ويجيت موافقًا فورًا بحماس، حتى إن قبعته انزلقت على عينيه. أما بوبيت فقد ترددت قليلًا قبل أن تومئ بالمثل.

قالت سيليا:

- إذن فعندما تكبران قليلًا بعد، سأعطيكما دروسًا. لكن يجب أن يكون هذا سرنا، هل تستطيعان كتمان السر؟

أومأ التوءمان معًا واضطر ويجيت أن يعدل قبعته ثانية.

وتبعا سيليا بسعادة وهي تقودهما عائدة إلى الساحة.

أمنيات ورغبات

باريس، مايو 1891

حينما اهتزت الستارة المصنوعة من الخرز لتصدر صوتًا يشبه تساقط المطر، كان ماركو هو من دخل حجرة قارئة الفنجان، وأزاحت إيزوبل فورًا النقاب عن وجهها. ليطفو الحرير الأسود شديد الرقة فوق رأسها كأنه ضباب.

سألته:

- ماذا تفعل هنا؟

تجاهل سؤالها قائلًا:

- لماذا لم تخبريني عن هذا؟

ومد يده بمذكرة مفتوحة، وعلى الضوء الخافت، ميزت إيزوبل شجرة عارية سوداء. ليست مثل الأشجار التي يكثر رسمها في كتبه، بل كانت هذه مغطاة بشموع بيضاء تسيل، تحيط بالرسم الرئيسي، كما لو كانت فروعًا متشابكة مرسومة من عدة زوايا.

قالت إيزوبل:

- هذه هي شجرة الأماني، إنها جديدة.

قال ماركو:

- أعرف أنها جديدة، لماذا لم تخبرينني عنها؟

قالت إيزوبل:

- لم يكن لدي الوقت الكافي لأكتب لك، كما أنني لم أكن متأكدة إن كانت من صنعك أم لا، إنها تبدو كشيء تصنعه أنت. إنها لطيفة، الأمنيات الجديدة تضاف إلى الشجرة بإشعال شمعة من أخرى قديمة في الشجرة، الأمنيات القديمة تصنع الجديدة.

قال ماركو وهو يجذب مذكرته ثانية:

- إنها لها.

قالت إيزوبل:

- وكيف تكون متأكدًا؟

صمت ماركو وهو ينظر إلى الرسم بضيق؛ حيث لا يستطيع تسجيل جمال هذا الشيء برسمته المتعجلة الطائشة.

قال:

- أشعر بهذا، الأمر مثلما نشعر بعاصفة قادمة، التغيير في الهواء حولها. ما إن دخلت الخيمة حتى أحسست به، وازداد قوة حين اقتربت من الشجرة نفسها. لست متأكدًا أن الأمر يمكن إدراكه لشخص لم يعرف هذا الشعور من قبل.

سألته إيزوبل:

- هل تظن أنها تستطيع الإحساس بما تفعله بنفسه الطريقة؟

لم يفكر ماركو في هذا الأمر من قبل، ولكن بدا له منطقيًا. ولدهشته أحس أن هذا الأمر يسعده.

لكنه اكتفى بالرد على إيزوبل قائلًا:

- لا أعرف.

دفعت إيزوبل النقاب الذي انزلق على وجهها لترفعه خلف رأسها ثانية وقالت:

- حسنًا، أنت تعرف بالأمر الآن، ويمكنك أن تفعل به ما تشاء.

قال ماركو:

- لا يعمل الأمر هكذا، لا يمكنني استخدام أي شيء تصنعه لصالحي. يجب على الجانبين أن يبقيا منفصلين. لو كانت هذه لعبة شطرنج فلن يكون بإمكاني أن آكل قطعها. خياري الوحيد أن أعتمد على قطعي عندما تحرك قطعها.

قالت إيزوبل:

- ولكن هذا يعني أنه لن تكون هناك نهاية للعبة، كيف يمكنك أن تقول كش ملك في السيرك؟ هذا ليس منطقيًّا.

قال ماركو مجاهدًا كي يشرح شيئًا بالكاد بدأ يفهمه بالرغم من عجزه على تحديد وصفه:

- الأمر ليس مثل الشطرنج.

نظر نحو أوراقها التي ما زال بعضها مكشوفًا على الطاولة ولفت انتباهه أحدها.

قال:

- إنها مثل هذه.

وأشار إلى السيدة التي تحمل السيف والميزان وكتب تحت قدميها **(العدالة)**.

وأكمل:

- مثل الميزان، كفة لي وكفة لها.

وظهر على الطاولة بين البطاقات ميزان فضة متزن بدقة وكل كفة فيه بها مجموعة من الألماس الذي يلمع في ضوء الشموع.

سألته إيزوبل:

- إذن فالهدف أن تنزل كفة الميزان لصالحك.

أومأ ماركو وهو يقلب في مذكرته ثم لا ينفك أن يعود ليتأمل رسم الشجرة.

قالت إيزوبل:

- لكن لو ظل كلاكما يضيف لكفته في الميزان، ليزيد من الوزن في جانبه كلما حان دوره، وأنتما تراقبان الكفة تتأرجح يمينًا ويسارًا، ألن تنكسر في النهاية؟

قال ماركو:

- لا أظن أنني قصدت مقارنة متماثلة تمامًا.

واختفى الميزان.

سألته:

- وحتى متى سيستمر الأمر؟

قال ماركو:

- لا فكرة لدي.

ثم أضاف:

- هل تريدين الرحيل؟

في داخله لا يعرف أي إجابة يتمناها منها.

قالت إيزوبل:

- لا، أنا... أنا لا أريد الرحيل، لكنني أريد أن أفهم. ربما إذا فهمت أفضل أستطيع أن أفيدك أكثر.

قال ماركو:

- أنت مفيدة بالفعل، ربما تكون الميزة الوحيدة التي لدي هي أنها لا تعرفني، كل ما لديها أن تتفاعل مع السيرك بينما أنت لدي تراقبينها.

اعترضت إيزوبل:

- لكنني لم أستطع رؤية أي تفاعل، إنها تبقي نفسها منعزلة، تقرأ أكثر من أي شخص رأيته في حياتي. التوءمان موراي يعشقانها، ولم تظهر لي سوى الطيبة، ولكني لم أرها تقوم بأي شيء خارق سوى في عروضها. كيف تتأكد أن هذه الشجرة ليست من صنع السيد إيثان باريس؟

- السيد باريس يصنع آلات رائعة لكن هذا ليس من صنعه، برغم أنها حسنت دوامته، أنا واثق من هذا، فأشك أن حتى لو مهندس بموهبة السيد باريس الكبيرة سيكون قادرًا على جعل جريفين من الخشب المدهون **يتنفس**. الشجرة لها جذور في الأرض، إنها شجرة حية، برغم أنها دون أوراق.

عاد ماركو إلى رسمه متتبعًا خطوط الشجرة بأنامله.

سألته إيزوبل بهدوء:

- هل طلبت أمنية؟

أغلق ماركو مذكرته دون أن يجيب.

سألها:

- هل ما زالت تؤدي عروضها في الربع الثاني من كل ساعة؟

سألته إيزوبل:

- نعم ولكن... المكان بالكاد يكفي عشرين شخصًا في خيمتها. ستلاحظك، ألا تظن أنها ستتعجب لحضورك؟

قال ماركو والساعة تختفي من يده:

- لن تستطيع حتى التعرف إليّ. ومتى ظهرت خيمة جديدة فسأقدر أن تعلميني بها.

والتفت إلى الخلف ليغادر بسرعة حتى إن لهب الشموع تراقص من دفعه للهواء.

قالت إيزوبل:

- افتقدتك.

لكن الكلمة تاهت مع صوت حركة الخرز في الستارة ينغلق خلفه.

وشدت النقاب الأسود فوق وجهها.

*****

بعدما غادر آخر سائليها في الساعات الأولى من الصباح، أخرجت إيزوبل بطاقاتها المارسيلية من جيبها. كانت تحملها معها دومًا برغم أنها تستخدم مجموعة أخرى لأعمال السيرك، واحدة صنعت خصيصًا بالأبيض والأسود والرمادي فقط.

من المجموعة المارسيلية أخرجت بطاقة واحدة، عرفتها من قبل أن تقلبها على وجهها. هذا الملاك الرضيع المرسوم في وجهها كان يؤكد لها فحسب ما تشك فيه بنفسها.

ولم تعده إلى المجموعة.

الأجواء

لندن، سبتمبر 1891

وصل السيرك مقتربًا من لندن، القطار يزحف بعد نزول الليل دون أن يجذب إليه انتباه، تفككت عربات القطار، وانزلقت أبوابها ونوافذها لتتحول في صمت إلى سلسلة من الحجرات المقفلة. بسطت فوقها أقمشة مخططة وفردت حبال شدتها فجأة على الرصيف لتجمع نفسها أسفل ستارة تغطيها بعناية.

(افترضت الشركة أن هناك طاقمًا ينفذ هذه المهام بينما يفرغون عربات الشحن. برغم أن بعض خطوات النقل تبدو بوضوح ذاتية، كانت هذه هي الحقيقة سابقًا، أما الآن فلم يعد هناك طاقم، لا توجد أيد خفية لعمال وراء الستار يحركون الديكورات لموقعها الصحيح بالمسرح. لم تعد هناك حاجة لهم).

نُصِبَت الخيم وسط الهدوء والظلام، ولن يفتح السيرك أبوابه للجمهور حتى الغروب التالي.

بينما قضى معظم المؤدين الليلة في المدينة يزورون أصدقاءهم القدامى وحاناتهم المفضلة، فقد جلست سيليا بوين وحيدة في مسكنها بالكواليس.

كانت حجراتها متواضعة مقارنة بتلك المختفية أسفل خيم السيرك، لكنها ممتلئة بالكتب، والأثاث المتهالك. وشموع مختلفة الأحجام موضوعة في كل مكان، تضيء لليمام النائم في أقفاصها المعلقة بين الستائر الكبيرة المزخرفة بألوان مبهرجة.

وأتت الطرقات على بابها مفاجئة.

كانت تسوكيكو تسألها:

- أهكذا تنوين قضاء ليلتك بأكملها؟

وهي تنظر في الكتاب الذي بين يدي سيليا.

سألتها سيليا:

- أعتقد أنك أتيت لتقترحي بديلًا

لم تكن زيارات البهلوانة في العادة بغرض التزاور فقط.

قالت تسوكيكو:

- لدي بعض النشاطات الاجتماعية، وفكرت أن تنضمي إليّ، فأنت تنعزلين أكثر من اللازم.

أرادت سيليا الاعتراض، لكن تسوكيكو كانت مصرّة. وأخرجت أجمل فساتين سيليا، واحد من القلة الملونة، من المخمل الأزرق الداكن المزين بلون ذهبي فاتح.

سألتها سيليا:

- أين سنذهب؟

لكن تسوكيكو رفضت الإجابة، وكان الوقت متأخرًا لتكون وجهتهما المسرح أو الباليه.

وضحكت سيليا عندما وصلتا إلى منزل آل لوفيفرا.

قالت لتسوكيكو:

- كان يمكنك إخباري.

ردت تسوكيكو:

- إذن كانت ستضيع المفاجأة.

لم تحضر سيليا حفلة في المنزل قبل ذلك سوى مرة واحدة، وكان حفل إطلاقٍ لليلة الأولى وليس مأدبة منتصف الليل. ولكن برغم زياراتها القليلة للمنزل في الفترة بين تجربة أدائها وليلة الافتتاح، فقد تعرفت إلى كل المدعوين.

كان وصولها مع تسوكيكو مفاجأة للبقية، لكن شاندرش حياها بحرارة وأسرع إلى البهو ليضع في يدها كأسًا من الشامبانيا قبل أن تستطيع الاعتذار عن حضورها المفاجئ.

قال شاندرش لماركو:

- اذهب وتأكد من إعداد مكان إضافي للمائدة.

ثم أخذ بيدها في جولة عبر الغرفة ليتأكد أنها قابلت الجميع. وأحست سيليا أن من الغريب أنه لا يبدو متذكرًا.

كانت السيدة بادفا أنيقة كعهدها دومًا، بفستان مرصع بأوراق خريف نحاسية تلمع في ضوء القناديل. الأختان برجيس والسيد باريس كانوا يتضاحكون بالفعل، فثلاثتهم يرتدون درجات مختلفة من الأزرق، دون اتفاق مسبق، وتلاهم فستان سيليا ليثبت أنها أصبحت الموضة.

وكان هناك حديث عن ضيف آخر ربما يأتي أو لا، لكن سيليا لم تعرف اسمه.

أحست بالغربة قليلًا كونها في هذا التجمع الذي يعرف أعضاؤه بعضهم منذ زمن طويل. لكن تسوكيكو حرصت على إشراكها في

الحديث، والسيد باريس أولى اهتمامًا لكل كلمة تقولها حتى إن ليني بدأت تغيظه حول الأمر.

برغم معرفة سيليا العميقة بالسيد باريس، كونهما التقيا كثيرًا، وتبادلا عشرات الخطابات، فقد أدى دوره ببراعة متظاهرًا أنه يعرفها معرفة سطحية، فهمست في أذنه حين بدا أنه لا أحد يسمعهما:

- يجب أن تحترف التمثيل.

رد بحزن صادق:

- أعرف، إنه من المؤسف أنني أضعت موهبتي الحقيقية.

لم يسبق لسيليا أن أطالت الحديث من قبل مع الشقيقتين برجيس. كانت ليني أكثر ثرثرة من تارا واللية تعرفت منهما الكثير عن اللمسات التي أضافتاها للسيرك. فبينما كان دور السيدة بادفا في التصميم ودور السيد باريس في الهندسة لا يغفله أحد، فإن دور الشقيقتين كان أكثر دقة، برغم أنه تناول كل شيء في السيرك تقريبًا.

الروائح والموسيقى وجودة الإضاءة وحتى ثقل الستائر المخملية في المدخل. لقد أعدا كل عنصر بما يجعله سلسًا متناغمًا.

قالت ليني:

- نحب أن نستهدف كل الحواس.

أضافت تارا:

- بعضها أكثر من البعض.

وافقتها شقيقتها:

- بالفعل، الشم حاسة يتم تجاهلها كثيرًا، في حين أنها قد تكون الأكثر تحريكًا للمشاعر.

تدخل شاندرش في المحادثة مخاطبًا سيليا:

- إنهما عبقريتان في إعداد الأجواء.

وصب في كأسها الفارغ المزيد من الشامبانيا مكملًا:

- كلتاهما، عبقرية خالصة.

همست ليني:

- تكمن الحيلة في أن تجعل الأمر يبدو تلقائيًا غير مقصود، هذا يجعل ما هو صناعي يبدو طبيعيًّا.

وأكملت تارا:

- فتربط كل العناصر معًا.

بدا لسيليا أن لهما دورًا مشابهًا في تلك الصحبة التي تحضرها، من المستبعد في نظرها أن يستمر هذا اللقاء طوال هذه المدة بعد انطلاق السيرك، لولا أن الأختين بيرجس وقدرتهما على إحداث عدوى الضحك. وتمكنهما من طرح الأسئلة المناسبة التي تبقي الحديث شيقًا منسابًا محميًا من لحظات الصمت.

أما السيد باريس فكان يمثل النقيض المثالي، كان جادًّا ويقظًا ويبقي حيوية المجموعة في حالة اتزان.

ثم حدثت حركة في البهو لفتت انتباه سيليا، وبينما البقية سيعتبرون ما حدث مجرد انعكاس نتج من المرايا والقناديل المتعددة إلا أن سيليا أدركت حقيقته.

تسللت نحو البهو، منزوية في الظلام نحو المكتبة المظلمة المواجهة لغرفة الجلوس. كان مصدر الضوء الوحيد بها هو نافذة زجاجية ملونة تحتل أحد الجدران، مشكِّلة مشهد الغروب ليمر منها أشعة ضوء دافئ ملون ينحدر على الرفوف القريبة ويبقي البقية في ظلام.

همست سيليا في الظلام:

- ألا يمكنني أن أستمتع بليلة واحدة لنفسي دون أن تتبعني؟

قال والدها:

- لا أظن أن مثل هذه النشاطات الاجتماعية هي الاستغلال الأمثل لوقتك.

سقط ضوء الغروب على جزء من وجهه وقميصه ليلونهما بالأحمر.

- ليس من حقك أن تقرر كيف أقضي كل لحظة من حياتي بابا.

رد هكتور:

- أنت تفقدين تركيزك.

قالت سيليا:

- لا أستطيع أن أفقد تركيزي، بين الخيم الجديدة أو تطوير القديمة فأنا أسيطر بالفعل على جزء مهم من السيرك. ولكنه مغلق الآن لو لم تنتبه إلى هذا. وكلما فهمت أولئك الناس أكثر كلما أمكنني أن أتلاعب أفضل بما صنعوه هم، فهم من خلقوا السيرك في النهاية.

قال هكتور:

- أظن أن لديك وجهة نظر سديدة.

ظنت سيليا أنه رغم اعترافه ما زال متجهمًا، ولكن من المستحيل في هذا الظلام التأكد.

أكمل هكتور:

- ولكن تذكري جيدًا أنه لا يجب لأي سبب كان أن تثقي في أي شخص في تلك الغرفة.

قالت سيليا وهي تتنهد:

- اتركني وحدي بابا.

- آنسة بوين؟

أتاها صوت من خلفها فالتفتت لتفاجئ بمساعد شاندرش يقف عند الباب ويراقبها.

- نحن على وشك تقديم العشاء، لو أمكنك الانضمام إلى بقية الضيوف في حجرة الطعام؟

قالت سيليا:

- تقبَّل اعتذاري.

وعيناها تمحصان الظلام بحثًا عن الشبح لكن والدها كان قد اختفى.

أكملت:

- لقد جذبني حجم هذه المكتبة، لم أظن أن هناك من سيفتقدني.

قال ماركو:

- بكل تأكيد سيفتقدونك، برغم أنني انجذبت إلى المكتبة أنا أيضًا أكثر من مرة.

الابتسامة الساحرة التي صاحبت كلماته هذه باغتت سيليا، فلم تره من قبل إلا ناظرًا بتحفظ أو في أحيان قليلة بملامح متوترة.

قالت:

- شكرًا لك على المجيء لإحضاري.

وهي تأمل أنه ليس من المستغرب أن يقف ضيوف المأدبة في بيت لوفيفرا ليتحدثوا إلى أنفسهم بينما يزعمون أنهم يتأملون الكتب وسط الظلام.

رد ماركو وهما يسيران نحو غرفة الطعام:

- على الأرجح يتصورون أنك تلاشيت في الهواء. أما أنا ففكرت أنه ربما يكون أمرًا آخر.

كان يفتح لها الأبواب وهو يرافقها في الطريق نحو غرفة الطعام.

جلست سيليا بين شاندرش وتسوكيكو.

سألتها تسوكيكو:

- هذه أمسية أفضل من قضاء الوقت وحيدة، أليس كذلك؟

وابتسمت حينما اعترفت سيليا بأنها محقة.

وبين نزول الأطباق، حينما لم يلهها المذاق المذهل للطعام، تسلت سيليا بتحليل العلاقات بين الضيوف، فتقرأ كيف يتفاعلون معًا، تستشف المشاعر المخبأة أسفل الضحك والثرثرة، تصطاد اللحظات التي تطول فيها النظرات.

كانت نظرات شاندرش لمساعده الشاب تزداد حدّة مع كل كأس من الخمر، وخمنت سيليا أن السيد أليسادير منتبه لها برغم حفاظه على وجوده الهادئ في طرف الغرفة.

احتاج الأمر نزولَ ثلاثة أطباق مختلفة قبل أن تخمن مَن مِن الأختين برجيس هي المفضلة لدى السيد باريس. ولكن مع نزول هذا الطبق الفني الذي يحوي ما يبدو أنه حمامة كاملة متبلة بالقرفة تيقنت من الإجابة، وإن لم تتأكد أن ليني نفسها تعرف.

السيدة بادفا يناديها الجميع بالعمة، برغم أنها تبدو أقرب للحاكمة عن العمة. وحينما خاطبتها سيليا بلقب (مدام) التفت إليها الجميع متفاجئين.

قالت السيدة بادفا والزهو في عينيها:

- جميل من فتاة السيرك، ربما علينا أن نخفف تلك الأحزمة لو نوينا أن نبقيك ضمن دائرة المأدبة.

قالت سيليا بلطف:

- أعتقد أن الأحزمة ستفك حتمًا بعد كل هذا الطعام.

لتتسبب في تفجر الضحكات بدعابتها.

قال شاندرش:

- سنبقي الآنسة بوين في دائرتنا أيًا ما كانت حالة حزامها. اكتب ملاحظة بهذا عندك.

وأشار بيده إلى ماركو.

رد ماركو:

- حزام الآنسة بوين ملحوظ جدًا.

ليعلو الضحك على المائدة ثانية.

والتقطت نظرات سيليا ماركو يبتسم للمرة الثانية قبل أن يلتفت بعيدًا ويختفي في الخلف بسلاسة لا تختلف كثيرًا، عن قدرة والدها على الاختفاء في الظلال.

قدم الطبق التالي وعادت سيليا إلى المراقبة والملاحظة، وسط ما كنت تحاول أن تعرف هذه الوجبة المقدمة المتنكرة وسط فطير خفيف ومرق مختمر رقيق هي من الضأن أم من شيء أكثر غرابة.

كان هناك شيء في تصرفات تارا وجدته سيليا موترًا، شيء ما يتسلل بين تعبيراتها فيظهر ويختفي، في لحظة ما تكون مندمجة في الحديث وتضحك مع ضحكات شقيقتها، في اللحظة التالية تبدو شاردة تحدق عبر الشموع المنصهرة.

فقط حينما أطلقت ضحكة بدت لها أقرب إلى البكاء أدركت سيليا أن تارا تذكرها بأمها.

وأتى طبق التحلية ليُوقِفَ الحديث تمامًا. كرات منفوخة من السكر الرقيق موضوعة في أطباق ويجب أن تكسرها كي تصل إلى طبقات الكريمة بالداخل.

وبعدما بدأت سيمفونية تحطيم السكر، أدرك الضيوف أن ما بدا لهم ككرات متشابهة من الخارج في الحقيقة كل منها يحوي نكهة مختلفة تمامًا فريدة.

بودلت معالق كثيرة، وبينما كان بعضها من السهل معرفته كالزنجبيل بالخوخ أو جوز الهند المتبل فقد بقيَ سر مذاق بعضها اللذيذ غامضًا.

كانت كرة سيليا بالعسل، ولكن مع بعض البهارات الذائبة في حلاوته لا يستطيع أحد تمييزها.

بعد العشاء استمر السمر مع القهوة والبراندي في غرفة الجلوس، حتى ساعة بدت متأخرة جدًّا لأغلب الضيوف، وإن أشارت تسوكيوكو أن الوقت ما زال مبكرًا لفتاتيّ السيرك.

وحينما بدؤوا في توديع بعضهم عانقوا سيليا تمامًا مثل بقية المجموعة وتلقت دعوات عديدة لشرب الشاي أثناء بقاء السيرك في لندن.

وحينما غادرتا قالت سيليا لتسوكيكو:

- شكرًا لك، لقد استمتعت بهذا أكثر بكثير مما كنت أتوقع.

رد تسوكيكو:

- أجمل المتع هي تلك التي تأتي بغير توقع.

*****

راقب ماركو انصراف الضيوف من النافذة، ليحظى بنظرة أخيرة لسيليا قبل أن تختفي في الليل.

قام بدورته في غرفة الجلوس وغرفة الطعام والمطبخ ليتأكد أن كل شيء مرتب. كان بقية الخدم قد غادروا بالفعل، فأطفأ بعض الأنوار المتبقية قبل أن يصعد عدة أدوار ليطمئن على شاندرش.

وصل ماركو إلى جناحه الذي يحتل الطابق الخامس بأكمله، وكل غرفة فيه مضاءة بمصابيح مراكشية تلقي بظلال متعددة على الأثاث الوثير. وحينها سأله شاندرش:

- عشاء رائع الليلة، ألا تظن هذا؟

رد ماركو:

- بالفعل يا سيدي.

- لا شيء في جدولي غدًا، أو لعله فيما بعد اليوم أيًّا ما كانت الساعة الآن.

- هناك لقاء عند الظهيرة بشأن جدول موسم الباليه القادم.

قال شاندرش:

- آهه! نسيت أمره، الغه، هلا فعلت؟

قال ماركو:

- بالطبع يا سيدي.

وأخرج مذكرته من جيبه ليسجل الأمر.

- أوه، واطلب دستة صناديق من هذا البراندي الذي أحضره إيثان، جودة ممتازة كان.

أومأ ماركو وهو يضيف الملاحظة.

سأله شاندرش:

- لن تغادر؟ أليس كذلك؟

قال ماركو:

- لا يا سيدي، أظن أن الوقت قد تأخر كثيرًا كي أرجع إلى البيت.

كرر شاندرش:

- **البيت!**

كما لو كانت كلمة عجيبة وأضاف:

- هذا بيتك تمامًا مثل هذه الشقة التي تصر على الاحتفاظ بها. بل أكثر منها حتى.

قال ماركو:

- سأتذكر هذا بِجِدٍّ يا سيدي.

غير شاندرش الحديث فجأة سائلًا:

- الآنسة بوين هي امرأة فاتنة، ألا تظن هذا؟

والتفت ليرى رد الفعل على سؤاله.

مأخوذًا بالمفاجأة لم يستطع ماركو إلا أن يتلجلج قائلًا شيئًا يشابه موافقته المحايدة المعتادة.

أضاف شاندرش:

- يجب أن ندعوها إلى العشاء كلما كان السيرك قريبًا، حتى يتسنى لنا أن نتعرف إليها بشكل أفضل.

قالها بوضوح ضاغطًا على الأمر بابتسامة متلذذة.

قال ماركو وهو يجاهد كي يحافظ على تعبيراته الجافة:

- نعم سيدي، هل هذا كل شيء الليلة؟

ضحك شاندرش ولوح له بيده ليذهب.

قبل أن يعود إلى غرفته، التي تقع في جناح أكبر من شقته ثلاث مرات، ذهب ماركو بهدوء نحو المكتبة.

وقف بعض الوقت في نفس البقعة التي وجد فيها سيليا منذ ساعات. مدققًا في رفوف الكتب المألوفة والجدار الزجاجي المصبوغ.

لم يستطع أن يخمن ماذا كانت تفعل.

ولم يستطع أن يلاحظ العينين اللتين تراقبانه وسط الظلال.

الحالمون

1892-1891

تلقى هر فريدريك تايسن البطاقة وسط بريده: ظرف عادي وسط فواتيره وطلبات العمل، لم يكن الظرف يحوي خطابًا أو ملاحظة، فقط بطاقة سوداء من ناحية وبيضاء من الناحية الأخرى. سيرك الأحلام مطبوعة على الأمام بحبر فضي، وعلى الظهر الأبيض كتابة باليد بالحبر الأسود تقول:

التاسع والعشرون من سبتمبر

خارج درسدن، ساكسونيا

لم يستطع هر تايسن أن يكتم فرحته، رتب أموره مع عملائه وأنهى ساعاته التي في طور التصنيع في وقت قياسي، وأجَّر شقة لمدة قصيرة في درسدن.

وصل درسدن في الثامن والعشرين من سبتمبر وقضى اليوم في التجول بمحيطها، متسائلًا أين سيقام السيرك. لم يكن هناك أثر للاستعداد لوصوله، فقط بعض الشرارات في الهواء ولو أنه لا يظن أن

هناك أحدًا غيره قادر على الإحساس بها. أحس بالفخر أنه خص بمعرفة موعده مسبقًا.

وفي 29 سبتمبر نام مبكرًا كي يتجهز لليلة القادمة، وحينما غادر شقته في الظهيرة كي يشتري شيئًا يأكله كانت الشوارع بالفعل تموج بالأخبار، سيرك غريب وصل في الليل في الغرب جوار المدينة. شيء مهول بخيم مخططة كما سمع حين وصل الحانة، لم يروا شيئًا مثله من قبل، لم يتدخل هر تايسن في الحديث مكتفيًا بالاستمتاع بالحماس والفضول من حوله.

وقبيل الغروب اتجه هر تايسن غربًا، كان العثور على السيرك سهلًا؛ حيث احتشد جمع كبير لرؤيته. وبينما ينتظر مع الجمهور تساءل: كيف أقيم السيرك بهذه السرعة، إنه واثق أن هذا الحقل القابع فيه الآن – ويبدو كأنه كان هناك دومًا– كان خاويًا تمامًا حين مر به وهو يتجول حول المدينة. سمع أحدهم يصف الأمر بأن السيرك تجسد فجأة في المكان كما لو كان سحرًا. ولم يملك هر تايسن إلا أن يوافقه.

وحينما فتحت البوابات أحس هر تايسن كأنه يعود إلى بيته بعد غياب طويل.

كان يقضي كل ليلة معظم وقته في السيرك، أما في النهار فكان يجلس في شقته أو في الحانة مع كأس من النبيذ، ودفتر يكتب فيه عنه. صفحات تلو الصفحات تسجل ملاحظاته وتستعيد ما أُخبر به. في الأغلب كي لا ينساها ولكن أيضًا كي يحتفظ بشيء من روح السيرك في الورق، شيءٍ يستطيع الاحتفاظ به.

كان أحيانًا يتناقش حول السيرك مع زوار الحانة. أحدهم كان محررًا في صحيفة المدينة، وبعد بعض الإلحاح والكثير من كؤوس النبيذ نجح

في إقناع فريدريك أن يريه دفتره. وبعد بعض البربون أقنع فريدريك بأن يقتبس منه للنشر في الجريدة.

غادر السيرك درسدن في نهايات أكتوبر، لكن المحرر التزم بكلمته، ولاقى المقال صدى طيبًا. وتبعه مقال ثانٍ وثالث.

استمر هر تايسن في الكتابة. وفي الشهور التالية أعيد نشر بعض مقالاته في صحف ألمانية أخرى، ثم ترجمت ونشرت في السويد والدانمارك وفرنسا. وأحد المقالات وجد طريقه إلى صحيفة لندنية تحت عنوان (**ليال في السيرك**).

هذه المقالات هي ما حولت هر تايسن إلى الزعيم غير الرسمي، الرئيس والمرجع لأكثر متابعي السيرك المتحمسين.

بعضهم لم يتعرف إلى سيرك الأحلام إلا من مقالاته، بينما البعض الآخر أحس بارتباطه به بمجرد أن قرأ الكلمات، ألفة مع هذا الرجل الذي تذوق السيرك بنفس الطريقة التي أحسوها. أنه شيء مذهل بلا مثيل.

بحث بعضهم عنه، وبعد بعض الدعوات والوجبات كانت باكورة إنشاء نادٍ من نوع فريد، منظمة لعشاق السيرك.

اسم Rêveurs أو «**الحالمون**» قيل في البداية باعتباره مزحةً، لكنه استمر. كان موفقًا جدًا في وصفهم فاحتفظوا به.

استمتع هر تايسن بالأمر بطريقة تفوق الوصف، أن يكون محاطًا بكل هذه الأرواح المتآلفة من كل أنحاء أوربا، وأحيانًا من خارجها يتحدثون عن السيرك بلا نهاية. نسخ قصص الحالمين الآخرين ليضمها إلى كتاباته، وصنع ساعات تذكارية لهم تحاكي فقراتهم وعروضهم المفضلة. (واحدة منها كانت للاعب أكروبات ضئيل مذهل معلق بشريط،

لامرأة شابة قضت جل وقتها في السيرك في الخيمة العملاقة ناظرة إلى أعلى).

بل إنه بغير قصد أطلق مواصفات موحدة لملابس الحالمين. فقد ذكر في عشاء بميونخ –حيث أقيمت مآدب كثيرة قريبة من موطنه إلى جانب بعض الاجتماعات في لندن وباريس ومدن لا تحصى– أنه حين يزور السيرك يفضل ارتداء معطف أسود ليشعر بالاندماج مع المحيط، ويحس أنه جزء من السيرك. ولكن معه يرتدي وشاحًا ذا لون أحمر قرمزي صارخ كي يفصل نفسه عن المكان، ليتذكر في قلبه أنه متفرج، مشاهد.

ولأن الكلمات تنتقل سريعًا في مثل هذه الدوائر المختارة، فقد أصبح تقليدًا لدى الحالمين أنهم حين يزورون سيرك الأحلام يتشحون بالسواد أو البياض أو اللون الرمادي مع شذوذ واحد أحمر: ربما وشاح أو قبعة أو لو كان الطقس دافئًا وردة حمراء مثبتة في طية السترة أو خلف الأذن.

وكان هذا أيضًا مفيدًا للتعرف إلى الحالمين الآخرين، إشارة بسيطة يفهمها من يعرفها فقط.

كان هناك أيضًا من يمتلكون القدرة، أو من لا يمتلكونها لكنهم يبدعون في التصرف، كي يتابعوا السيرك من مكان لآخر.

ليس هناك دليل منشور للعامة، السيرك ينتقل من مكان إلى مكان كل بضعة أسابيع مع بعض الإجازات الطويلة. ولا أحد يعرف حقًا أين سيظهر حتى تعلو الخيم بالفعل في ميدان جوار ميدان أو حقل في ريفها أو شيء بين الاثنين.

لكن هناك قلة من الناس، حالمون مختارون، يعرفون السيرك وطرقه، والذين صنعوا صداقات مع الأشخاص المناسبين، ويتم إبلاغهم بالمواقع القريبة منهم وبدورهم يبلغون الآخرين في المدن الأخرى والدول الأخرى.

كانت وسيلة الإبلاغ الأكثر شيوعًا سواء في اللقاء أو بالبريد هي إرسال بطاقة. بطاقة مربعة صغيرة تشبه طابع البريد. تختلف البطاقات لكنها دومًا سوداء من جانب وبيضاء من الجانب الآخر. البعض يستخدم بطاقات جاهزة والبعض يصنعها بنفسها والبطاقة لا تحوي سوى:
السيرك قادم

وقائمة بالأماكن وأحيانًا –ليس دائمًا– التواريخ.

كانت معرفة السيرك تعتمد أكثر على التقريب من التفاصيل المحددة. لكن التنويه والمكان عادة ما يكفيان. أغلب الحالمين مرتبطون بأوطانهم ولا يحبون السفر بعيدًا جدًا. الحالم الذي يعيش في كندا سيتردد كثيرًا قبل أن يذهب إلى روسيا، لكنه سيقوم بسهولة بزيارة ممتدة إلى بوسطن أو شيكاغو. أما هذا المقيم بالمغرب فربما يسافر إلى أوربا ولكن ليس إلى الصين أو اليابان.

ولكن بعضهم مهما كان الأمر يتبعون السيرك أينما ذهب، سواء بإنفاق المال أو استغلال الحظ أو الحصول على خدمات كريمة من الحالمين الآخرين. لكنهم يظلون جميعًا حالمين، كل واحد منهم بطريقته، حتى من لا يزور السيرك إلا حينما يأتيه السيرك. يبتسمون حين يقابلون بعضهم، يتقابلون معًا في الحانات المحلية فيشربون معًا ويثرثرون بينما ينتظرون بفارغ الصبر أن تغرب الشمس.

هؤلاء المخلصون، هؤلاء الحالمون، الذين يرون تفاصيل الصورة الكبيرة للسيرك، الذين يلاحظون الفروق في أزيائه، والتعقيد في

لافتاته، الذين يشترون زهورًا من السكر فلا يأكلونها بل يلفونها بالورق ويأخذونها بحرص معهم للبيت، إنهم مخلصون موالون مدمنون لشيء يثيره السيرك في أرواحهم، ويتألمون من أجله في غيابه.

كانوا يبحثون عن بعضهم، عن الناس الذين يفكرون مثلهم، يتحدثون عن كيف تعرفوا إلى السيرك، كيف كانت تلك الخطوات الأولى القليلة ذات تأثير كالسحر، كأنهم يخطون في حكاية خرافية تحت ستارة من النجوم، يتحدثون بإجلال عن عظمة الفشار ولذة الشكولاتة.

يقضون الساعات يتحدثون عن جودة الإضاءة، وحرارة النار يجلسون مع مشروباتهم يبتسمون كالأطفال يستمتعون بصحبة نفوس متآلفة. حتى ولو لليلة واحدة. حينما يغادرون يتصافحون ويتعانقون كالأصدقاء القدامى، حتى لو كانت المرة الأولى التي يلتقون فيها. ويذهب كل منهم في طريقه وقد أحس بأنه لم يعد وحيدًا كما كان.

وقد عرفهم السيرك، واهتم بهم، عادة حين يقترب شخص من كشك التذاكر في معطف أسود ووشاح أحمر فقد يشيرون إليه بالدخول مجانًا، أو يعطونه كوبًا من عصير التفاح أو كيسًا من حبوب الفشار مجانًا. يتعرفهم المؤدون وسط الجمهور فيقدمون أفضل الفقرات.

بعض الحالمين يتجول في السيرك باستمرار ويزور بطريقة منظمة كل خيمة فيه، ويشاهد كل العروض. أما البعض فيذهبَ لأماكنه المفضلة التي نادرًا ما يغادرها. يختار أن يقضي الليلة كلها في معرض الوحوش أو قاعة المرايا. وهؤلاء هم من يبقون حتى النهاية في تلك الساعات القليلة التي يغادر فيها بقية الزوار السيرك ساعين للنوم في أسرتهم.

وعادة قبيل الفجر لا يرى لون واحد في سيرك الأحلام عدا بقعهم الحمراء الصغيرة.

*****

يتلقى هر تايسن عشرات الخطابات من الحالمين الآخرين ويرد على كل واحد منها. وبينما بعضها يظل خطابًا واحدًا، يحتفظ برد واحد، فبعضها يتطور إلى تراسل طويل وينمو لمحادثة مستمرة.

اليوم يرد على خطاب محدد يجده مشوقًا للغاية، الكاتبة تكتب عن السيرك بتفصيل مذهل، والخطاب شخصي أكثر من أغلب الخطابات الأخرى، تحدثه عن كتاباته هو وتتحدث عن ساعة الأحلام بتفاصيل تحتاج ساعةً على الأقل من التأمل كي تلم بها. قرأ الخطاب ثلاث مرات قبل أن يجلس على مكتبه ليؤلف ردًا.

كان خاتم البريد من نيويورك، لكنه لم يميز التوقيع لأي من الحالمين الذين يعرفهم في هذه المدينة أو أي مدينة أخرى.

وبدأ يكتب رده مخاطبًا إياها

عزيزتي الآنسة بوين ....

كان يأمل أن يتلقى خطابًا ثانيًا منها.

التكامل

سبتمبر–ديسمبر 1893

وصل ماركو مكتب السيد باريس في لندن قبل دقائق قليلة من موعده، ليفاجئ بأن المكان المرتب عادة غارق في الفوضى، ممتلئ بأكوام من الصناديق نصف الممتلئة. حتى اختفى سطح المكتب بعد أن دفن أسفل الفوضى.

حينما طرق ماركو على الباب رد عليه السيد باريس متسائلًا:

- هل تأخر الوقت لهذه الدرجة بالفعل؟ كان يجب أن أترك الساعة خارجًا، إنها في أحد هذه الصناديق.

وأشار نحو صف كبير من الصناديق الخشبية، بحذاء الحائط، وإن كانت الساعة في أحدها فمن المستحيل معرفة أي الصناديق يدق.

أضاف السيد باريس:

- وعليّ أيضا أن أخلي طريقًا للمرور.

وأخذ يدفع الصناديق جانبًا ويلتقط أكوامًا من المخططات.

قال ماركو:

- عذرًا على وقاحتي، أريد تأن أحادثك قبل أن تغادر المدينة، ربما كان من الأنسب لو انتظرت حتى تستقر ثانية، لكن ظننت أنه من الأفضل أن يجري هذا الحديث وجهًا لوجه.

قال السيد باريس:

- بالطبع، كنت أريد أن أعطيك النسخ الاحتياطية من الرسوم الهندسية للسيرك. إنها هنا في مكان ما.

وأخذ يقلب في كومة من اللفائف الزرقاء يتفحص التواريخ والعناوين.

انغلق باب المكتب بهدوء دون أن يمسه أحد.

استأذنه ماركو:

- أيمكنني أن أسألك سؤالًا سيد باريس؟

رد السيد باريس دون أن يتوقف عن البحث في الرسوم:

- بالتأكيد.

- ما مقدار ما تعرفه؟

وضع السيد باريس الرسوم جانبًا ورفع نظارته إلى أعلى كي يلقي نظرة أكثر وضوحًا على تعابير ماركو.

سأله بعدما طال الصمت أكثر من اللازم:

- ما مقدار ما أعرفه عن ماذا؟

رد ماركو:

- ما مقدار ما أخبرتك به الآنسة بوين؟

نظر إليه السيد باريس بفضول للحظات قبل أن يتكلم.

قال:

- أنت خصمها؟

أومأ ماركو برأسه، فَعَلَتِ ابتسامة وجه السيد باريس وهو يضيف:

- لم أكن لأخمن أبدًا.

قال ماركو:

- أأخبرتك عن المنافسة؟

قال السيد باريس:

- فقط الخطوط العريضة العامة. أتت لي منذ بضع سنوات وسألتني ما الذي سأقوله لو أنها أخبرتني أن كل ما تفعله حقيقي؟ قلت لها إنني إما أن أصدقها أو اعتبرها كاذبة ولا يمكنني أن أتخيل أن فتاة رائعة مثلها ستكون كاذبة. وحينها سألتني ما الذي يمكنني أن أصممه لو لم يكن لدي قيود مثل الجاذبية عليّ أن أحسب حسابها؟ وكانت هذه هي بداية دوامة الخيل لكن أخمن أنك تعرف هذا بالفعل.

قال ماركو:

- لقد خمنت هذا بالفعل، ولكنني لم أكن واثقًا إلى أي حد كانت مساهمتك مبنية على علمك بالأمر.

- أنا في وضع يجعلني مفيدًا، أظن أن سحرة المسرح يستعينون بالمهندسين دومًا لكي يظهروا خدعهم على أنها شيء آخر. في هذه الحالة أقوم بالعكس، أساعد في جعل السحر الحقيقي يبدو وكأنه تصميم عبقري. تسمي الآنسة بوين هذا بالتأسيس: أي تحويل ما لا يمكن تصديقه إلى واقعي مصدق.

سأله ماركو:

- هل كان لها يد في مراقب النجوم؟

قال السيد باريس:

- لا، مراقب النجوم ميكانيكي بالكامل. يمكنني أن أريك مخططاته لو استطعت العثور عليها وسط هذه الفوضى. لقد استلهمته من رحلتي إلى المعرض الكوليمبي في شيكاغو في أوائل هذا العام. الآنسة بوين أصرت أنه لا يوجد ما يمكن فعله لجعله أفضل برغم أنني أشك أنها تقوم بما تستطيع كي يبقى عاملًا بسلاسة.

قال ماركو:

- إذن فأنت ساحر بطريقتك يا سيدي.

قال السيد باريس:

- ربما نحن نقوم بالشيء نفسه بطرق مختلفة. كنت أفكر أن معرفتي بأن الآنسة بوين لها خصم فهو يتربص في مكان ما، وأنه أيًّا من كنت أنت فلم تكن بحاجة إلى المساعدة. الحيوانات الورقية كانت مذهلة على سبيل المثال.

قال ماركو:

- شكرًا لك. كان على الارتجال بعض الشيء كي أستطيع صنع خيم لا تحتاج إلى مخططات.

سأله السيد باريس:

- ألهذا أنت هنا؟ لعمل شيء يحتاج إلى مخطط؟

قال ماركو:

- في الأساس كنت أريد أن أتأكد أنك على علم بالمباراة. يمكنني أن أجعلك تنسى هذه المحادثة بالكامل، أتفهمني.

قال السيد باريس وهو يهز رأسه بعنف:

- أوه، لا داعي لمثل هذه الاحتياطات، أؤكد لك أنه بمقدوري أن أبقى على الحياد. لست مغرمًا بالتحيزات. يمكنني أن أساعدك أنت أو

الآنسة بوين بالمقدار القليل الذي يرغب أي منكما فيه، ولن أكشف لأي منكما ما قد يدور بيني وبين الطرف الآخر سرًّا. ولن أقول كلمة عن الأمر لأي شخص آخر. يمكنك أن تثق بي.

أعاد ماركو ترتيب كومة من الصناديق المائلة وهو يفكر في الأمر. قال:

- حسنًا، برغم أنه يجب أن أعترف سيد باريس أنني مندهش من تقبلك لكل هذا.

كتم السيد باريس ضحكته وقال:

- أعترف أنه فيما بيننا فيجب أن أكون الأقل اندهاشًا بقبول الأمر عنكما. العالم قد أصبح أكثر تشويقًا من أحلامي بكثير بعدما حضرت أول عشاء منتصف ليل. هل لأن الآنسة بوين حركت مخلوقًا خشبيًّا جامدًا في دوامة أم لأنه يمكنك أن تتلاعب بذاكرتي؟ أم لأن السيرك نفسه قد حطم حدودًا ما ظننته ممكنًا حتى من قبل أن أستمتع بفكرة أن السحر موجود في الحقيقة؟ لا أعرف، ولكني لن أبادل هذا بأي شيء آخر مهما كان.

- وستبقي هويتي سرًّا عن الآنسة بوين؟

قال السيد باريس:

- لن أخبرها، لك كلمتي.

قال ماركو:

- في هذه الحالة، فسأقدِّر لو أنك ساعدتني في شيء ما.

*****

حينما وصل الخطاب، فقد خشي السيد باريس للحظة أن الآنسة بوين ستكون غاضبة من تحول الأحداث أو أنها ستسأله عن هوية خصمها، بما أنها ستستنتج بسهولة أنه يعرف شخصيته.

لكن حين فتح الظرف كان به تعليق صغير فحسب يقول:

- هل يمكنني أن أضيف إليه؟

كتب لها أنه تم تصميمه خصيصًا ليمكن التلاعب به عن طريق الطرفين لذا يمكنها أن تضيف إليها أيًّا ما كانت تريد.

*****

مشت سيليا في منتصف قاعة ثلجية، والندف اللامعة تمسك بشعرها أو تتأرجح على فستانها، مدت يدها وابتسمت بينما البلورات تذوب في راحتها.

كانت القاعة محاطة بأبواب. واختارت تلك التي في النهاية تاركة خلفها مسارًا ذائبًا من أنفاس الثلج، بينما تدلف إلى غرفة علَّها أن تنحني لتتفادى الاصطدام بشلال من الكتب المعلقة في السقف، صفحات تهوي في موجات متجمدة.

مدت يدها كي تمسح على الورق، الغرفة بأكملها تهادت بلطف مع حركتها تمر من صفحة لأخرى.

احتاج الأمر منها بعض الوقت كي تجد بابًا آخر. مختفيًا في ركن مظلم وضحكت حين غاص حذاؤها في الرمال التي تملأ الحجرة التالية.

وقفت سيليا في صحراء بيضاء متلألئة أسفل سماء مرصعة بالنجوم، تمتد في كل اتجاه، الإحساس بالفراغ كان مهولًا، حتى إنها احتاجت أن تمد يدها أمامها كي تتحسس الجدار الخفي وسط النجوم، ورغم ذلك أحست بالمفاجأة حين اصطدمت يدها بالجدار الصلب. تحسست

طريقها بحذاء الجدار المرصع بالنجوم تبحث في المحيط عن مخرج آخر.

قال صوت والدها الذي لا تستطيع رؤيته في الضوء الخافت:

- هذا مقيت، يفترض أن تعملا منفصلين، وليس كهذا... كهذا التلاصق الفاضح. حذرتك من التكامل مسبقًا، ليست هذه هي الطريقة الصحيحة لإظهار مواهبك.

تنهدت سيليا.

قالت:

- أظن الأمر ذكي، ما هو الأفضل من التنافس داخل نفس الخيمة؟ ولا يمكنك أن تسمي هذا تكاملًا بالضبط. كيف يمكنني أن أتعاون مع شخص هويته مجهولة لي؟

التقطت لمحة من وجهه حين حملق بها، ثم جرت مبتعدة عنه وهي تستمر في تحسس الجدار.

سألته:

- أيهما الأفضل إذن؟ الغرفة الممتلئة بالأشجار أم تلك الممتلئة بالرمال؟ هل تعرف حتى أيتهما لي؟ الأمر أصبح مملًا يا بابا، من الواضح أن منافسي يمتلك مهارات مقاربة لي، كيف سيمكنك تحديد الفائز؟

أتاها فحيح والدها أقرب لأذنها مما تحب:

- هذا ليس شأنك، لقد خيبت أملي، كنت أتوقع منك ما هو أكثر. يجب أن تقومي بالمزيد.

اعترضت سيليا:

- فعل المزيد يرهقني، لا أستطيع التحكم بأكثر من هذا.

قال والدها:

- هذا ليس كافيًا.

سألته سيليا:

- ومتى سيكون كافيًا؟

لكن لم يأتها الرد، كانت تقف وحيدة وسط النجوم.

غاصت في الأرض، والتقطت حفنة من الرمال التي في بياض اللؤلؤ وتركتها تسقط ببطء بين أصابعها.

*****

وحيدًا في شقته، كان ماركو يصنع غرفًا صغيرة من قصاصات الورق، قاعاتٍ وأبوابًا مشكلة من صفحات الكتب، وبعض المخططات، وقطع من ورق الحائط وأجزاء من خطابات.

كان يبني غرفًا تقود إلى أخرى صنعتها سيليا، وسلالم تدور حول قاعاتها.

تاركًا لها فراغات كي ترد.

دقات الساعة

فيينا، يناير1894

كان المكتب كبيرًا لكنه يبدو أصغر بسبب كثرة محتوياته، وبينما جزء كبير من جدرانه مبني من الزجاج المصنفر، فإن أغلبها محجوب بالخزائن والرفوف. منضدة الرسم منصوبة جوار النافذة، لكنها مغطاة بالكامل بفوضى مرتبة من الأوراق والمخططات والرسوم. والرجل ذو النظارة الجالس خلفها بالكاد مرئي، وقد امتزج بما حوله. وصوت قلمه وهو يحتك بالورق منتظم ودقيق مثل دقات الساعة التي في الركن.

أتت طرقات على الباب الزجاجي المعتم وتوقف صوت القلم وإن استمرت دقات الساعة.

نادى مساعده عبر الباب المفتوح:

- آنسة برجيس تريد رؤيتك سيدي، وتقول إنها لن تضايقك لو كنت مشغولًا.

رد السيد باريس:

- لا ضيق على الإطلاق.

ووضع القلم ونهض من مقعده:

- رجاء أدخلها.

أفسح المساعد المدخل لتدخل منه امرأة شابة بفستان أنيق.

قالت تارا:

- أهلا إيثان. أعتذر لمروري دون سابق إنذار.

قال السيد باريس:

- لا داعي للاعتذار عزيزتي تارا، تبدين جميلة كعادتك.

وقبل وجنتهيا.

ردت تارا:

- وأنت لم تكبر في السن يومًا واحدًا.

ابتسم لإطرائها ثم التفت وتحرك ليغلق الباب خلفها.

سألها:

- ما الذي أحضرك إلى فيينا؟ وأين شقيقتك؟ من النادر ألا أراكما مجتمعتين.

قالت تارا وهي تتأمل محتويات الغرفة:

- ليني في دبلن مع السيرك. أنا... أنا لم أكن في المزاج المناسب لذا فكرت في القيام ببعض السفريات وحدي. وبدت لي زيارة أصدقاء بعيدين عنا هي البداية المناسبة. كنت سأرسل إليك تلغرافًا ولكن كان الأمر برمته تلقائيًا. ولم أكن واثقة تمامًا أنني سأكون موضع ترحيب.

قال السيد باريس:

- أنت دومًا موضع ترحيب يا تارا.

وقدم لها كرسيًّا لكنها لم تنتبه مجذوبة بالطاولات المغطاة بتفاصيل كثيفة لعدة مبانٍ. وتقف هنا وهناك كي تستطلع تفصيلة ما أكثر: **القوس فوق بوابة، دوران سلم.**

قالت تارا:

- أظن في حالتنا أصبح من الصعب التفريق بين الأصدقاء القدامى وشركاء العمل. أنحن من أولئك الناس الذين يتبادلون الأحاديث المهذبة حفاظًا على أسرار مشتركة أم نحن أكثر من ذلك. هذه رائعة.

أضافت الملاحظة الأخيرة وهي تتوقف أمام نموذج يوضح عمودًا مفتوحًا وبه ساعة معلقة في مركزه.

قال السيد باريس:

- شكرًا لك، ما زالت أبعد ما تكون عن الاكتمال. عليَّ أن أرسل الخطط النهائية لفريديك كي يستطيع بناء الساعة، أظنها ستكون أكثر روعة بكثير حين تصنع بالحجم الحقيقي.

سألته تارا وهي تتأمل الرسوم المعلقة على الجدران:

- هل لديك خطط السيرك هنا؟

- لا ليست لدي، تركتها مع ماركو في لندن. كنت أنوي الاحتفاظ بنسخة في ملف ولكن لا بد أنني نسيت.

سألته تارا وهي تمر بأصبعها على صف الخزائن المجهزة برفوف رفيعة:

- هل نسيت الاحتفاظ بنسخة من أي من مخططاتك الأخرى؟

قال السيد باريس:

- لا.

قالت تارا:

- هل تجد، هل تجد هذا غريبًا؟

قال السيد باريس:

- لا، ليس بالضبط، هل تجدين هذا غريبًا؟

قالت تارا وهي تعبث بطرف أكمامها:

- أظن أن الكثير من الأشياء حول هذا السيرك غريبة.

جلس السيد باريس على مقعد مكتبه مرجعًا ظهره إلى الوراء.

سألها:

- هل ستناقشين معي أيًّا ما يكون ما تريدين مناقشته بدلًا من الرقص حوله؟ أنا لم أكن راقصًا بارعًا أبدًا.

قالت تارا:

- أعرف يقينًا أن هذا غير حقيقي.

وجلست على المقعد المقابل له، وإن ظلت نظراتها تجول في الغرفة، وقالت:

- لكن سيكون من اللطيف أن نتصارح على سبيل التغيير. أنا أتساءل إن كان أيٌّ منا يتذكر كيف ولماذا تركت لندن؟

- أخمن أنني غادرت لندن لنفس السبب الذي جعلك وشقيقتك تكثران من السفر، الكثير من التلميحات والنظرات الفضولية، أشك أن أي شخص قد أدرك أن اليوم الذي توقف فيه شعري عن التساقط كان نفس يوم افتتاح السيرك، لكنهم بدأوا الملاحظة بعد بعض الوقت. وبينما العمة بادفا قد توصف بأن العمر لا يؤثر فيها

وكل شيء يتعلق بشاندرش هو غريب، فنحن نوضع تحت منظار مختلف كوننا أقرب إلى الأشخاص العادية.

قالت تارا وهي تحدق من النافذة:

- الأمر أسهل لأولئك الذين يختفون مع السيرك، ذات مرة اقترحت ليني أن نتبعه بنفسينا لكن أظن أن هذا مجرد حل مؤقت، إن حجم معجزتنا أكبر من صالحنا.

قال السيد باريس بهدوء:

- ربما يمكنك أن تتجاهلي الأمر فحسب.

- كم من السنوات ستمضي قبل أن يصبح الانتقال بين المدن لا يكفينا، ما الحل بعد هذا؟ أنغير أسماءنا؟ أنا... أنا لا أحب أن أتورط في هذا النوع من الخداع.

رد السيد باريس:

- لا أعرف.

قالت تارا وهي تتنهد:

- هناك الكثير الذي يحدث أكثر مما نخفيه أنا واثقة من هذا، حاولت الحديث مع شاندرش ولكن كان الأمر كأننا نتحدث بلغتين مختلفتين. لا أحب أن أجلس في صمت بينما هناك شيء ما غير صحيح إطلاقًا. أنا أشعر... لست أنني محبوسة ولكن أمر قريب من هذا، وأنا لا أعرف ماذا أفعل بشأنه.

قال السيد باريس:

- وأنتِ تبحثين عن إجابات؟

ردت تارا:

- أنا لا أعرف ما الذي أبحث عنه.

وللحظة اختنق وجهها كأنها على وشك الانفجار بكاءً. لكنها تمالكت نفسها وأكملت:

- إيثان! أتشعر أحيانًا أنك في حلم مستمر طوال الوقت.

- لا، لا أستطيع القول إن هذا يحدث لي.

قالت تارا وهي تعبث بكمها ثانية:

- أنا أجد صعوبة في التفريق بين اليقظة والمنام، وأنا أكره تركي في الظلام، أنا لست الشخص الذي يحب التصديق في المستحيلات.

قبل أن يرد خلع السيد باريس نظارته ومسحها بمنديل قماشي وأمسك بها يتأملها في النور بحثًا عن أي لطخة هاربة.

- لقد رأيت الكثير من الأشياء العظيمة التي كنت فيما مضى أعتقد أنها مستحيلة أو لا يمكن تصديقها، لكنني الآن لا أجد حدودًا ومعايير كافية لاستخدام هذا الوصف، اخترت أن أؤدي عملي بأفضل ما يمكنني وأترك الآخرين يفعلون ما يشاؤون.

وجذب درجًا مفتوحًا، وبحث فيه للحظات ثم أخرج بطاقة عمل لا تحوي سوى الاسم، وحتى وهي مقلوبة استطاعت تارا أن تميز بسهولة الأحرف الأولى أ. هـ وأمسك السيد باريس بقلمه وخط عنوانًا في لندن أسفل الاسم المطبوع.

ثم قال:

- لا أظن أن أيًّا منا كان يعرف بالضبط في تلك الليلة ما الذي تورط فيه، لو أنك مصرة على التعمق أكثر في كل هذا، فأظن أنه الوحيد منا الذي ربما يقدر على مساعدتك. رغم أنني لا أضمن لك أنه سيكون مرحبًا بالضبط.

ودفع بالبطاقة لتنزلق على المنضدة تجاه تارا، فتمعنت فيها قبل أن تضعها في حقيبتها كما لو كانت ليست متأكدة أنها حقيقية بالفعل.

قالت دون أن تنظر إليه:

- شكرًا لك إيثان، أقدر هذا حقًا.

قال السيد باريس:

- على الرحب عزيزتي، آمل... آمل أن تجدي ما تبحثين عنه.

أومأت تارا بشرود ثم أكملا الحديث حول أمور أقل خطورة، بينما الساعة تدق قاطعة وقت النهار، وبدأ الضوء القادم من الزجاج المعتم يخفت. ورغم أنه دعاها إلى العشاء فقد اعتذرت بلباقة وتركته وحده.

عاد السيد باريس إلى طاولة الرسم ليتناغم صوت قلمه ثانية مع دقات الساعة.

مظلة الساحر

براج، مارس 1894

كانت اللافتة فوق بوابة سيرك الأحلام هذه الليلة كبيرة، معلقة بشرائط ومثبتة فوق الساعة وحروفها كبيرة كي تُقْرَأ من بعيد، برغم ذلك اقترب الناس كي يقرؤوها من الجوار.

كان مكتوب عليها

مغلق بسبب الطقس السيئ

وحول الكلمات رسومات مرحة لغيوم رمادية.

كان الناس تقرأ اللوحة ربما مرتين قبل أن ينظروا للسماء البنفسجية الصافية والشمس الغاربة، ويحكون رؤوسهم في دهشة. بقوا على مقربة وانتظر بعضهم ليرى إن كانت اللافتة ستزال والسيرك سيفتح. لكن لم يظهر أي شخص على مدى البصر وفي النهاية تشتت الجمع الصغير ليبحث عن أنشطة أخرى لقضاء الليلة.

وبعد ساعة واحدة بدأ الأمر، سيول من الأمطار تنهمر ورياح تعصف بين الخيم المخططة واللافتة على البوابة ترقص مع الرياح وتهتز وتبتل.

*****

في الطرف الثاني من السيرك وفي جزء من السياج لا يبدو كبوابة لكنه مفتوح على أي حال، خرجت سيليا بوين من الخيم المظلمة نحو الأمطار، فتحت مظلتها ببعض الصعوبة، كانت مظلة كبيرة بذراع ثقيل منحنٍ، وما إن استطاعت فتحها حتى مثلت غطاءً جيدًا من الأمطار. ولو أن النصف السفلي من فستانها الخمري سرعان ما تشرب الماء إلى الدرجة التي بدا بها أسود.

مشت دون أن يلاحظها أحد في المدينة، لم تمر سوى بحفنة من المارة في الطرقات المرصوفة بالحصى، وكل منهم مختبئ أسفل مظلة.

وأخيرًا وقفت سيليا أمام مقهى ذي ضوء ساطع، مزدحم ونشط برغم الطقس السيئ، وضعت مظلتها مع الكومة المتجمعة أمام الباب.

كان هناك بعض الطاولات الخاوية، لكن المقعد الشاغر الذي لفت انتباه سيليا كان ذلك المجاور للمدفأة أمام إيزوبل التي تشرب كوبًا من الشاي وتدفن أنفها في كتاب.

لم تسبر سيليا أبدًا غور قارئة الطالع، برغم أن غريزتها لا تثق أبدًا في أي شخص يعمل في إخبار الناس ما يحبون، كما أن إيزوبل أحيانًا تنظر إليها بنفس تلك النظرة التي تراها في عين تسوكيكو، التي تشي بأنها تعرف أكثر مما تظهر. ولو أن هذا ليس بالمستغرب في شخص عمله هو إخبار الناس بمستقبلهم.

سألتها سيليا:

- أيمكنني الانضمام إليك؟

نظرت إليها إيزوبل وقد ظهرت المفاجأة في وجهها. لكن المفاجأة تبدلت سريعًا إلى ابتسامة واسعة.

قالت إيزوبل:

- بالطبع.

ووضعت علامة على الصفحة التي تقف عليها قبل أن تضع الكتاب جانبًا قائلة:

- لا أصدق أنك خاطرت بالخروج في هذا الطقس، أنا بالكاد خرجت قبل أن يبدأ، وكنت أنوي البقاء حتى ينتهي. كان يفترض أن أقابل البعض ولكن على الأرجح لن يأتي أحد الآن.

قالت سيليا وهي تخلع قفازيها المبللين:

- لا يمكنني لومهم.

هزت القفازين قليلًا فجفا فورًا وأكملت:

- الأمر يشبه السير في مجرى نهر بالخارج.

- هل تتفادين حفلة الطقس السيئ؟

- أريتهم نفسي قبل أن أهرب، لست في مزاج للحفلات الليلة. إلى جانب أنني لا يمكنني أن أترك فرصة مغادرة السيرك لتغيير الأجواء. حتى لو كان هذا يعني أن أوشك على الغرق كي أفعل هذا.

قالت إيزوبل:

- أحب الهروب كل حين وآخر أنا أيضًا. هل تسببت أنت في الأمطار كي تأخذين اليوم إجازة؟

قالت سيليا:

- بالطبع لا! ولو أنني لو فعلت هذا فسأكون قد بالغت في فعله.

وبينما كانت تتكلم كان فستان سيليا الغارق بالمطر يجف، واللون شبه الأسود يعود إلى حالته الخمرية. ولو أنه من غير الواضح هل هذا بسبب نيران المدفأة القريبة أم هو تغير تقوم به بنفسها.

ثرثرت سيليا مع إيزوبل عن الطقس وبراج والكتب، لم يتعمدا تجنب الحديث عن السيرك ولكن أبقيا المواضيع البعيدة عنه حية. كان من على الطاولة هما سيدتان تثرثران وليستا ساحرة وقارئة طالع. وهي فرصة نادرًا ما تأتي لأيهما.

انفتح باب المقهى، مرسلًا هبة من الرياح الممطرة اللاسعة إلى الداخل أطلقت صيحات ضيق من الجالسين وقعقعة من كومة المظلات المسندة على الحامل.

توقفت نادلة متعجلة عند طاولتهما فطلبت سيليا شايًا بالنعناع وما إن رحلت النادلة حتى جالت سيليا بعينيها بين الحضور كأنما تبحث عن شخص معين دون أن يبدو أنها قد توقفت عند أحدهم.

سألتها إيزوبل:

- ما الأمر؟

قالت سيليا:

- أوه لا شيء، مجرد إحساس أننا مراقبتان، لكنه في الأغلب من خيالي.

قالت إيزوبل:

- ربما تعرف أحدهم إليك.

قالت سيليا:

- أشك في هذا.

وبحثت بعينيها ثانية فلم تجد عين واحد تحملق فيها فأكملت:

- الناس ترى ما تريد أن تراه، أظن أن هذا المقهى قد أخذ حظًّا طيبًا من الزوار الغرباء بوجود السيرك في المدينة. وهو ما يسهل علينا الاختلاط بينهم.

قالت إيزوبل:

- يدهشني دومًا أنه لا يتعرف إليّ أحد خارج العمل. قرأت الطالع لحفنة من الناس الموجودين في هذه الغرفة خلال الليالي الماضية، ولم يحاول أحدهم حتى إلقاء نظرة ثانية عليّ. ربما لا أبدو بهذا الغموض حين لا تحيطني الشموع والقطيفة. أو لعلهم يولون انتباههم إلى البطاقات أكثر مني.

قالت سيليا:

- أتحملين البطاقات معك؟

أومأت إيزوبل:

- أتودين... أتودين أن أقرأ لك؟

- لو لم تمانعي.

- لم يحدث من قبل أن طلبت مني قراءة الطالع.

قالت سيليا:

- أنا عادة لا أكون في مزاج يسمح بمعرفة أي شيء عن مستقبلي. لكنني الليلة أحس بقليل من الفضول.

ترددت إيزوبل وهي تنظر إلى الزبائن حولهما. كان أغلبهم مجموعة بوهيمية ترتشف إكسير الأفسنتين وتتجادل حول الفن.

قالت سيليا:

- لن يلاحظونا حتى، أعدك.

نظرت إيزوبل ثانية إلى سيليا ثم أخرجت المجموعة من حقيبتها، ليس مجموعتها الخاصة بالسيرك ذات اللونين الأبيض والأسود، ولكن مجموعتها الأصلية المصنوعة في مرسيليا، وقد بليت وبهتت.

قالت سيليا بينما إيزوبل تخلط الأوراق وهي تراقب البطاقات التي تتحرك سريعًا:

- هذه رائعة.

- شكرًا لك.

- لكنهم فقط سبعة وسبعون.

ارتعشت يد إيزوبل للحظة. فسقطت بطاقة واحدة على الطاولة.

التقطتها سيليا، وتأملت الكوبين المرسومين على سطحها قبل أن تعيدها لإيزوبل، التي أعادتهم إلى المجموعة وأكملت خلط الأوراق. كانت البطاقات تسقط بسلاسة من يد إلى أخرى.

أوضحت سيليا:

- إحدى البطاقات .... في مكان آخر.

ولم تسألها سيليا عنها ثانية.

أحضرت النادلة الشاي بالنعناع دون حتى أن تلقي نظرة واحدة على البطاقات قبل أن تغادر.

فسألت إيزوبل:

- هل فعلت هذا؟

قالت سيليا وهي تنفخ البخار الساخن من فنجانها:

- شتت انتباهها؟ نعم فعلت.

لم يكن هذا بالضبط ما فعلته لكن بدا لها من الصعب أن تشرح هذا الغطاء الخفي الذي حمت به الطاولة من الأنظار. كما أن إحساسها بوجود من يراقبهما لم يتركها برغم ضيقها منه.

أنهت إيزوبل الخلط ووضعت البطاقات على ظهرها فوق الطاولة.

قسمت سيليا المجموعة لثلاثة أكوام دون أن تنتظر تعليمات إيزوبل، أمسكت بالأوراق من طرفها بحذر هي تضع الكومات في صف على الطاولة.

سألتها إيزوبل:

- أيها؟

نظرت سيليا إلى الأكوام الثلاثة بتمعن وهي ترتشف من شايها، بعد لحظات أشارت إلى الكومة في المنتصف. أعادت إيزوبل البطاقات ككومة واحدة بعد أن جعلت تلك في المنتصف بالأعلى.

البطاقات التي أظهرتها على المائدة لم تبد واضحة تمامًا. عدة أكواب وسيفين، بطاقة الحبر الأعظم *La Papessa*، بالكاد حبست إيزوبل شهقتها وهي تكشف بطاقة الحاوي فوق البطاقات السابقة. لم يبد على سيليا أنها لاحظت انفعالها.

قالت إيزوبل بعد لحظات صمت حدقت فيها إلى البطاقات:

- أعتذر، أحيانًا أحتاج بعض الوقت كي أترجم الأمر جيدًا.

قالت سيليا:

- خذي وقتك.

دفعت إيزوبل البطاقات إلى المائدة وهي تختار واحدة منها كل مرة.

- أنت تحملين أعباءً كبيرة، قلب مثقل، أشياء فقدتيها، لكنك تمضين نحو التغير والاكتشاف، هناك تأثير خارجي يدفعك إلى الأمام.

لم يظهر أي تعبير على وجه سيليا، كانت تنظر إلى البطاقات ثم إلى إيزوبل بانتباه ولكن بحذر.

- أنت... لا تصارعين، هذه ليست الكلمة الصحيحة، لكن هناك مواجهة مع شخص غير مرئي، شيء في الظلام يختبئ لك.

اكتفت سيليا بالابتسام.

وضعت إيزوبل بطاقة أخرى على المائدة.

ثم قالت:

- لكنه سينكشف قريبًا.

أثار هذا انتباه سيليا فقالت:

- قريبا إلى أي حد؟

- لا تشير البطاقات إلى توقيت واضح، لكن الأمر قد اقترب كثيرًا، إنه تحت السطح ينتظر ليجذبك أسفله.

علقت سيليا:

- مشوق.

قالت إيزوبل:

- إنه شيء لا يمكنني وصفه بالجيد أو السيئ، لكنه قوي.

دفعت إيزوبل بطاقتي الحاوي والكاهنة في حركة دائرية، وبين الصولجانات النارية والأكواب المائية يتماشيان مع طقطقة النار جوارهما ودبيب المطر بالخارج.

قالت إيزوبل بعد لحظات:

- إنه كما لو كان يعارض نفسه، الأمر كما لو كان هناك حب وفقد في الوقت نفسه، معًا في مزيج من الألم الجميل.

قالت سيليا بمرح:

- حسنًا هذا يبدو كأنه شيء نتطلع له!

فابتسمت إيزوبل، وهي تحدق إليها لكنها لم تجد ما يمكن قراءته في ملامح سيليا.

قالت إيزوبل:

- أعتذر لو لم يكن بإمكاني أن أوضح أكثر، لو أتاني شيء ما فيما بعد فسأخبرك به، أحيانا أحتاج تأملَ البطاقات قبل أن يأتيني إحساسها الحقيقي، إنهم ليسوا .... واضحين أو دقيقين ولكنهم معقدون، وهو ما يجعل هناك قدرًا هائلًا من الاحتمالات يجب تمحيصها.

- لا داعي للاعتذار، لا يمكنني القول إنني فوجئت حقًّا، وشكرًا لك، أقدر حقًّا تلك القراءة.

ثم غيرت سيليا مجرى الحديث، برغم أن البطاقات ظلت على الطاولة، ولم تحركها إيزوبل من مكانها. تناقشا في أمور أقل حدة، حتى أصرت سيليا على أن وقت العودة إلى السيرك قد حان.

اعترضت إيزوبل:

- ألا ننتظر حتى يتوقف المطر؟

- لقد أخذت من وقتك ما هو أكثر من كافٍ، والمطر ليس سوى مطر في النهاية. أتمنى لو أن هذا البعض الذي تنتظرينه يأتيك.

- أشك في هذا ولكن شكرًا لك، وشكرًا لمرافقتي هذا الوقت.

قالت سيليا:

- على الرحب والسعة.

ونهضت ترتدي قفازيها وشقت طريقها بسهولة بين الزوار وجذبت مظلتها الداكنة من الحامل جوار الباب ولوحت مودعة لإيزوبل قبل أن تعد نفسها للعودة وسط المطر المنهمر نحو السيرك.

ضغطت إيزوبل على البطاقات المصفوفة فوق الطاولة قليلًا.

لم تكن تكذب تمامًا، في الحقيقة تجد من المستحيل على نفسها الكذب حول البطاقات، لكن المنافسة كانت واضحة جدًا، واضحة لدرجة أن كل شيء متعلق بها، الماضي والمستقبل.

لكن في الوقت نفسه بدت القراءة متعلقة بالسيرك أكثر منها بسيليا، لكن المشاعر فياضة حتى تغمر التفاصيل، أعادت سيليا جمع وخلط الأوراق. مرة أخرى طفت ورقة الحاوي على السطح، تجهمت إيزوبل وهي تنظر إلى البطاقة ثم نظرت حولها، ورغم وجود بعض القبعات المستديرة حولها لكنَّ أيًّا منها لم يكن تلك التي تبحث عنها.

أعادت الخلط حتى ذابت ورقة الحاوي في أعماق المجموعة، ثم وضعت الأوراق وعادت إلى كتابها لا تنتظر سوى المطر.

*****

في الخارج كان المطر سيلًا منهمرًا، وقد أظلمت الشوارع وكادت أن تُهجر، النوافذ المضاءة تبدو كنقاط بعيدة عبر الشوارع لكن لم يكن الجو باردًا للدرجة التي توقعتها سيليا برغم الرياح الباردة. لم تكن تجيد قراءة التاروت بنفسها جيدًا، فدومًا هناك احتمالات أكثر من قدرتها، معانٍ أكثر مما يجب، لكن ما إن تشير إيزوبل إلى عنصر محدد حتى استطاعت رؤية المشاعر المعقدة، الكشف الوشيك، فلم تدر ماذا تفعل بالأمر، فبرغم تشككها لكنها آملت أن تعني أنها ستعرف يقينًا أخيرًا من هو خصمها.

كانت مشتتة الانتباه وهي تمشي تفكر في البطاقات، لكن ببطء بدأت تدرك أنها تشعر بالدفء، على الأقل تمامًا كما كانت تشعر وهي تجلس بجوار النار مع إيزوبل. والأكثر من هذا فإن ملابسها ما زالت جافة، المعطف والقفازات وحتى حافة الفستان. لا توجد فوقها نقطة مطر واحدة برغم انهماره. الرياح تجعل الأمطار تنحرف في اتجاه مخالف

لما يجب أن تكون عليه بفعل الجاذبية، النقاط تتساقط كما لو كانت تشكل بركة في كل جانب لكن سيليا لا تشعر بها فوقها، حتى حذائيها لا يوجد بهما أقل بلل.

توقفت سيليا بعدما وصلت ميدانًا مفتوحًا، ووقفت بجوار ساعة مهولة تخرج كل ساعة أحد الحواريين غير مهتم بالطقس.

وقفت أسفل الماء المنساب. كان الماء ينهمر حولها حتى إنها بالكاد ترى بضع خطوات حولها لكنها ما زالت تشعر أنها دافئة وجافة. مدت يدها إلى الأمام، خارج مظلتها، وأبقتها لفترة، دون أن تسقط عليها قطرة واحدة، تلك التي اقتربت منها غيرت اتجاهها فجأة قبل أن تصطدم بقفازها. ترتد كأنما هي محاطة بشيء خفي ومنيع، قط عندها تأكدت سيليا أن المظلة التي تحملها ليست لها.

- من فضلك يا آنسة بوين.

سمعت الصوت يناديها، صوت تعرفته من قبل أن تلتفت له لترى ماركو يقف خلفها غارقًا في المطر وقبعته المستديرة تتساقط منها النقاط وفي يده مظلة سوداء مغلقة تشبه تمامًا تلك التي معها.

قال لها:

- أظن أنك تحملين مظلتي.

كان صوته منهكًا لكن يكشف أسنانه في ابتسامة بدت تحمل إقبالًا أكثر منها خجلًا.

حدقت إليه سيليا مندهشة. في البداية كانت تتساءل ما الذي يفعله مساعد شاندرش في براج بحق السماء، فهي لم تره أبدًا خارج لندن، ثم أتاها التساؤل عن كيف لشخص مثله أن يمتلك مثل هذه المظلة.

وبينما تنظر له مرتبكة، إذ بدأت قطع الأحجية تجتمع معًا، تذكرت الآن كل لقاء جمعها مع هذا الرجل الواقف أمامها تحت المطر، تذكرت اضطرابه عندما رأى تجربة أدائها، سنوات التحديق والتعليقات التي لم تفسرها سوى بأنها غزل خجول. وهناك هذا الانطباع الذي يتركه دومًا كأنه ليس موجودًا، يمتزج في الخلفية دومًا حتى تنسى أنه معها في الغرفة.

قبل ذلك كانت تعتبر هذا علامة على براعته كمساعد. لم تفكر أبدًا في كم يدل هذا على القدرة على الخداع.

أحست بالغباء أنها لم تفكر ولو لمرة أن هذا هو من يمكن أن يكون خصمها.

ثم فجأة بدأت سيليا في الضحك. ضحكة مجلجلة تتناغم مع صوت المطر. تلاشت ابتسامة ماركو وهو ينظر إليها، ومسح الماء من على عينه.

ما إن تمالكت سيليا نفسها حتى حيته بانحناءة مهذبة، أعطته المظلة وارتعشت بعدما أدركتها الرياح في نفس اللحظة التي تخلت فيها عن المظلة. وأعطاها هو مظلتها الشبيهة.

قالت:

- أقدم اعتذاري الخالص. والضحك ما زال باديًا في عينيها.

قال ماركو:

- أود حقًا أن أتكلم معك، لو كنت ترغبين في مشاركتي مشروبًا ما.

كانت قبعته قد بدأت تجف بالفعل، بينما يحاول هو عبثًا أن تغطي المظلة المفتوحة كليهما. حولت الرياح خصلات شعر سيليا إلى حبال

مبتلة تطير أمام وجهها وهي تحدق إلى ماركو تراقب عينيه بينما الماء يتبخر من فوق رموشه.

بعد كل سنوات الحيرة فإن الوقوف في مواجهة خصمها لم يبد لها كما توقعته.

كانت تتوقع أن يكون شخصًا تعرفه، شخصًا ممن حولها داخل السيرك وليس خارجه حتى ولو كان مرتبطًا به.

كان لديها الكثير من الأسئلة، الكثير من الأشياء التي تتوق لمناقشتها برغم تذمر والدها المستمر أنها يجب ألا تشغل نفسها بالخصم. لكنها في نفس الوقت أحست فجأة أنها مكشوفة، مدركة أنه كان يعرف منذ البداية أين يقف كل منهما. يعرف في كل مرة يفتح فيها الباب لها أو يسجل ملاحظات لشاندرش، يعرفها كما تعرفه الآن في كل مرة نظر إليها نفس النظرة التي يمنحها لها الآن بهاتين العينين المرتبكتين الخضراوتين.

ورغم ذلك كانت الدعوة مغرية.

ربما لو تكن الأمطار تغرقها لقبلتها.

ردت ابتسامة ماركو بواحدة مماثلة وهي تقول:

- بالطبع أريد هذا، ربما في فرصة أخرى.

فتحت مظلتها ببعض العناء، وهزت الغطاء الأسود الحريري فوق رأسها، ثم اختفت هي ومظلتها. تاركة فقط قطرات الماء تتساقط على الرصيف الخاوي.

ووحيدًا في المطر تأمل ماركو الفراغ الذي كانت تحتله سيليا منذ لحظات قبل أن يمضي بعيدًا وسط الليل.

انعكاسات وتحورات

اللافتة تقول: قاعة المرايا.

لكن حين تدخلها تجد ما هو أكثر من القاعة، أنت لا تواجه بامتداد من أسطح المرايا كما تتوقع، بل بمئات المرايا مختلفة الأحجام والأشكال، كل منها بإطار مختلف.

بينما تتحرك تمر بمرآة تعكس حذائيك لكن المرآة التالية لا تعكس سوى الفراغ والمرايا المقابلة، وشاحك غير ظاهر في مرآة ثم يعود إلى الظهور في التالية.

الانعكاس خلفك به رجل ذو قبعة مستديرة، لكن حين ترجع إلى الخلف لا يمكنك أن تراه. برغم أنك ترى حولك من الزوار عددًا أكبر مما تراه في انعكاسات المرايا حولك.

القاعة تقودك إلى غرفة مستديرة، الضوء فيها يسطع بمجرد أن تدخلها. يأتي من عمود نور طويل يقف في مركزها، حديد أسود شاهق بمصباح من الزجاج المعتم، يبدو مثل الذي تراه في بيتك في شوارع المدينة أكثر من الذي تراه في خيمة سيرك.

الجدران هنا مرايا بالكامل، كل مرآة طويلة وُضِعَت بحذاء الخطوط الموجودة في سقف الخيمة بالأعلى والخطوط المدهونة لتناسبها على الأرض.

وحين تتوغل بالغرفة تجدها تحولت إلى غابة لا تنتهي من أعمدة الإنارة، والخطوط تتكرر في نمط متكرر مرة تلو الأخرى تلو الأخرى.



استنباء البطاقات

كونكورد، ماساشوستس أكتوبر 1902

بينما يتجول في السيرك قادت الممرات بيلي للعودة إلى الساحة. فتوقف قليلًا ليشاهد النار المتوهجة ثم توقف عند أحد الباعة كي يشتري كيسًا من الشكولاتة يعوض به عشاءه الذي يلم يأكل أغلبه. كانت الشكولاتة على شكل فأر بأذنين من اللوز وذيل من العرقسوس، أكل منها اثنين فورًا ووضع الباقي في جيب معطفه متمنيًا ألا ينصهر.

اختار اتجاهًا آخر لمغادرة الساحة، مبتعدًا ثانية عن النار، فمر بعدة خيم ذات لافتات مشوقة لكن لم ينجذب لدخول إحداها بعد، وما زال أداء الساحرة يدور في عقله، ومع انعطاف الممر أتى لخيمة أصغر بلافتة أنيقة واضحة:

قارئة الطالع

كان يمكنه قراءة هذا بسهولة لكن بقية الكلمات كانت بحروف متشابكة حتى إنه اضطر أن يقف أمامها كي يقرأها

معرفة الأقدار وتحقيق أعمق الرغبات

نظر بيلي حوله، لم يكن هناك شخص آخر في أي من الاتجاهين، وقد بدا السيرك خاويًا كما رآه عندما تسلل له في منتصف النهار، كما لو كان أُخلي خصيصًا له وللأشياء والناس الذين هم دومًا به.

تردد الجدل المستمر حول مستقبله في أذنه وهو يدخل الخيمة، فوجد بيلي نفسه في غرفة تذكره بغرفة جلوس جدته، هناك مقاعد لكن كلها خاوية، وشمعدان لامع خطف أبصاره لبعض الوقت قبل أن ينتبه إلى الستارة المصنوعة من الخرز.

أتاه الصوت من خلفها:

- هلم بالدخول من فضلك.

صوت امرأة هادئ، ويأتي كما لو كانت تجلس إلى جواره، برغم من ثقته أنها في الغرفة التالية.

مترددًا مد يده لتزيح حبات الخرز التي كانت ناعمة وباردة، فوجد ذراعه ينساب بسهولة بينها، كأنما الستارة مصنوعة من الماء أو العشب الطويل، طقطقت الخرزات وهي تصطدم ببعضها، فبدا الصوت الذي يتردد صداه كوقع المطر.

كانت الغرفة التي دخلها الآن أبعد ما تكون عن غرفة جلوس جدته، ممتلئة بالشموع، وهناك منضدة في مركزها وكرسي خاوٍ في مواجهة سيدة ترتدي السواد وتغطي وجهها بنقاب رقيق. على المنضدة توجد مجموعة أوراق وكرة زجاجية كبيرة.

قالت السيدة:

- تفضل بالجلوس أيها الشاب من فضلك.

فخطا بيلي نحو المقعد الخاوي وجلس عليه. كان المقعد لدهشته مريحًا جدًا، وليس مثل المقاعد الصلبة التي عند جدته، برغم أنه يشبهها جدًا.

للمرة الأولى أدرك بيلي أنه باستثناء الفتاة ذات الشعر الأحمر، فهذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها أحد عاملي السيرك يتحدث. حتى الحاوية كانت صامتة طوال عرضها برغم أنه لم ينتبه إلى هذا حينها.

قالت السيدة:

- أخشى أنه يجب عليك الدفع أولًا قبل أن نبدأ.

أحس بيلي بالامتنان أنه احتفظ بجزء من مصروفه تحسبًا للطوارئ.

سأل:

- وكم أدفع؟

قالت قارئة الطالع:

- الذي يبدو لك مناسبًا مقابل إلقاء نظرة على مستقبلك.

تجمد بيلي وهو يفكر في الأمر، كان تقديرًا غريبًا للثمن لكنه عادل، فأخرج من محفظته ما رجى أن يكون مبلغًا معقولًا ووضعه على الطاولة، لم تأخذه قارئة الطالع وإنما مررت يدها فوقه فاختفى.

سألته:

- والآن ماذا تريد أن تعرف؟

- مستقبلي، جدتي تريد مني الذهاب إلى هارفارد، ولكن والدي يريدني أن أتولى أمور المزرعة.

قالت قارئة الطالع:

- وماذا تريد أنت؟

قال بيلي:

- لا أعرف.

ضحكت لرده ولكن بطريقة ودية. وهو ما أشعر بيلي بالمزيد من الراحة، كما لو كان يتحدث إلى شخص طبيعي وليس لكائن ينتمي للغموض أو السحر.

قالت:

- لا بأس، فلنر ما ستقول البطاقات حول هذا الأمر.

التقطت قارئة الطالع البطاقات وبدأت في خلطها. تلقي بالمجموعة من يد إلى أخرى فتختلط وتعود لتنضم إلى بعضها فيما يشبه الموجات.

وبحركة واحدة سلسلة بسطتها على المائدة في شكل قوس من الأوراق ذات الظهر المتماثل بالأبيض والأسود.

قالت:

- اختر بطاقة واحدة. خذ وقتك، فهذه ستكون بطاقتك، التي تمثلك.

نظر بيلي إلى القوس وتجهم، كانوا يدون جميعًا متشابهين. أشكال فضية بعضها أكثر عرضًا من البعض والبعض الآخر ليس متراصًّا مع البقية. نظر إليهم من البداية إلى النهاية ومن الأمام والخلف حتى لفت أحدها نظره. كان مختفيًا أكثر من البقية، يكاد لا يظهر أسفل بطاقة أخرى، فقط طرفه هو الظاهر، مد يده نحوه ثم تردد قبل أن يلمسه وسأل:

- أيمكنني لمسه؟

كان يشعر بنفس الإحساس الذي راوده حين سمح له لأول مرة بإعداد المائدة بالأطباق النفيسة، كما لو أنه في الحقيقة لا يجب عليه أن يلمس هذه الأشياء ممتزجًا بالهلع الحاد أن يتسبب في كسر شيء ما.

لكن قارئة الطالع أومأت، فوضع بيلي إصبعه على البطاقة وسحبها بعيدًا عن زميلاتها لتصبح وحيدة في المائدة.

قالت قارئة الطالع:

- يمكنك أن ترى وجهه.

فقلب بيلي البطاقة.

على الوجه لم تكن مثل بطاقات اللعب ذات اللونين الأحمر والأسود التي اعتادها، بالقلوب والبستوني والديناري والسباتي. بدلًا من هذا كانت هناك صورة، من الحبر الأسود والأبيض ودرجات الرمادي.

كانت رسمًا لفارس على ظهر حصان، مثل الفرسان في القصص الخيالية، حصانه أبيض ودرعه رمادي والسحب المظلمة خلفه. كان الحصان يرفع قائمتيه الأماميتين والفارس يميل إلى الأمام نحو السرج، والسيف مشهورًا كما لو كان في طريقه لمعركة كبرى من نوع ما. حدق بيلي إلى البطاقة متسائلًا عمَّا سيفعل الفارس؟ وماذا تعني هذه البطاقة؟ كان مكتوبًا أسفلها بخط منمق *Cavalier d'Épées* الفارس السياف.

سأل بيلي:

- أيفترض أن يكون هذا أنا؟

ابتسمت المرأة وهي تعيد جمع قوس الأوراق في كومة منتظمة.

قالت:

- يفترض أن يمثلك، قد يعني الحركة أو الترحال، البطاقة لا تعطي دومًا نفس المعنى في كل مرة، تتغير مع كل شخص.

قال بيلي:

- لا بد أن هذا يجعل من الصعب قراءتها.

ضحكت المرأة ثانية.

قالت:

- أحيانًا، هل نجرب مرة أخرى على أي حال؟

أومأ بيلي فأخذت السيدة تخلط الأوراق ثانية إلى فوق وإلى أعلى ثم قسمتها إلى ثلاثة أكوام ووضعتهم أمامه. فوق بطاقة الفارس. وقالت:

- اختر الكومة التي تجذبك أكثر من غيرها.

تمعن بيلي في الأكوام الثلاثة، واحدة أقل انتظامًا من البقية بينما أخرى أكبر من الاثنتين الأخرتين، لكن عينه انجذبت دومًا لتلك التي على يمينه.

قال بيلي:

- هذه.

وبرغم أن الأمر لا يعدو مجرد تخمين لكنه أحس أنه الاختيار الصحيح.

أومأت قارئة الطالع وأعادت البطاقات في كومة واحدة تاركة التي أختارها بيلي على القمة. أخذت تقلبها واحدة تلو الأخرى، تضعهم على وجوههم في تشكيل واضح على الطاولة. بعضها يتداخل والبعض الآخر في صفوف، حتى كشفت ما يقرب من الدستة. كانت صورًا من الأبيض والأسود مثل صورة الفارس وإن كان بعضها أبسط والبعض الآخر أكثر تعقيدًا، الكثير منها يظهر أشخاصًا في أوضاع مختلفة، والقليل منها حيوانات بينما البعض الآخر كؤوس أو عملات. وانعكاسهم ملأ السطح الممطوط للكرة الزجاجية بجوارهم.

لبضع لحظات أخذت قارئة الطالع تتأملهم، وتساءل بيلي إن كانت تنتظر منهم أن يحدثوها بشيء ما، وأحس أنها تبتسم ولكنها تحاول إخفاء ذلك.

قالت قارئة الطالع:

- هذا مشوق.

ولمست بطاقة معينة، بها سيدة في عباءة فضفاضة تمسك بميزان وأخرى لم يرها بيلي جيدًا لكنها بدت كقلعة متهدمة.

سألها بيلي:

- ما المشوق؟

ما زال متحيرًا تجاه الأمر برمته، لم يعرف من قبل سيدات معصوبات الأعين ولم يزر قلاعًا متهدمة من قبل. بل إنه لا يظن أنه توجد أي قلاع في نيوإنجلاند.

قالت قارئة الطالع:

- هناك رحلة تنتظرك، الكثير من التنقل وقدر هائل من المسؤوليات.

ودفعت بطاقة ونظرت في أخرى لتتجهم بعض الشيء برغم أن بيلي ما زال معتقدًا أنها تخفي ابتسامتها. كان رؤية تعبيرها الآن أسهل أسفل النقاب، وقد أصبحت عيناها في مستوى إضاءة الشموع.

أكملت:

- أنت جزء من أحداث كبيرة، برغم أنك لن ترى كيف ستؤدي أفعالك لتغيير النهاية.

سألها بيلي:

- سأفعل شيئًا مهمًا ولكن يجب أن أذهب إلى مكان ما أولًا؟

لم يتوقع أن تكون قراءة الطالع بهذا الغموض. جزء الرحلة يبدو موافقًا لرأي جدته برغم أن مدينة كامبريدج ليست بهذا البعد.

لم ترد عليه قارئة الطالع فورًا بل قلبت بطاقة أخرى، وهذه المرة لم تخف ابتسامتها.

قالت:

- أنت تبحث عن بوبيت.

سألها:

- ما بوبيت؟

لم تجبه قارئة الطالع بل رفعت عينيها من البطاقات نحوه تستنطقه، أحس بيلي أنها تتمحص كل ملامحه، بل أكثر من ذلك كانت عيناها تتأمل وجهه وتنتقل إلى قبعته ووشاحه، فتحرك في مقعده.

سألته:

- هل اسمك بيلي؟

شحب وجه بيلي وعاد له كل التوتر والقلق الذي كان عليه في البداية. احتاج لبلع ريقه قبل أن يحمل نفسه على الإجابة بصوت أقرب للهمس.

قال:

- نعم؟

وقد حملت إجابته تساؤلًا أكثر من الإيجاب، كما لو كان ليس متأكدًا تمامًا من أن هذا يجب أن يكون اسمه.

ابتسمت له قارئة الطالع، ابتسامة واسعة جعلته يدرك أنها ليست عجوزًا كما تصورها، ربما لا تكبره سوى ببضعة أعوام.

قالت:

- هذا مشوق.

تمنى لو اختارت كلمة مختلفة.

أكملت:

- بيننا صديق مشترك يا بيلي.

ونظرت إلى الأسفل نحو البطاقات على المنضدة.

- أنت هنا في هذه الليلة تبحث عنها كما أظن، ولو أنني أقدر لك أنك عرجت أيضًا على خيمتي.

رمش بيلي بعينه ناظرًا نحوها محاولًا استيعاب كل ما قالته، ومتسائلًا بحق السماء كيف عرفت السبب الحقيقي لزيارته للسيرك. السبب الذي لم يخبر به أحدًا بل لم يعترف به إلى نفسه.

قال:

- أتعرفين الفتاة ذات الشعر الأحمر؟

غير مصدق أنها من تقصدها قارئة الطالع حقًا. لكنها أومأت بالإيجاب.

قالت:

- عرفتها هي وشقيقها طوال حياتهما. لأنها فتاة متميزة حقًّا بشعر جميل جدًا.

سألها بيلي:

- هل هي... هل ما زالت هنا؟ أنا لم أقابلها سوى مرة واحدة، في آخر مرة كان السيرك فيها بالبلدة.

قالت قارئة الطالع:

- هي هنا.

ودفعت بالمزيد من البطاقات حول المائدة تلمس واحدة تلو الآخر برغم أن بيلي فقد انتباهه أي البطاقات ذهبت لأين، وأكملت:

- ستراها ثانية يا بيلي، لا شك هنالك.

قاوم بيلي رغبته في جدالها، وفضل الانتظار ليرى إن كان لديها ما ستضيفه من البطاقات. أخذت قارئة الطالع بطاقة من هنا وهناك والتقطت بطاقة الفارس من مكانها ووضعتها فوق بطاقة القلعة المتهدمة.

سألته وهي ترفع عينيها نحوه ثانية:

- هل تحب السيرك يا بيلي؟

قال بيلي:

- إنه ليس مثل أي مكان زرته من قبل، وإن كنت لم أزر الكثير.

ثم أضاف سريعًا:

- لكني أظن أن السيرك مذهل، أحبه كثيرًا.

قالت قارئة الطالع:

- هذا سيكون مفيدًا.

سألها بيلي:

- مفيد لماذا؟

لكن قارئة الطالع لم تجبه، بدلًا من ذلك قلبت بطاقة أخرى من الكومة، ووضعتها فوق بطاقة الفارس. كانت صورة لسيدة تصب الماء في بحيرة، وفوق رأسها نجم لامع ساطع.

ما زال من العسير معرفة ملامحها أسفل النقاب، ولكن بيلي كان واثقًا أنها تجهمت للبطاقة وهي تضعها على المنضدة، برغم أنها حين نظرت إلى أعلى نحوه كان هذا التجهم قد اختفى.

قالت قارئة الطالع:

- ستكون بخير، هناك قرارات لتتخذها، ومفاجآت تنتظرك، الحياة تأخذنا إلى أماكن غير متوقعة أحيانًا، والمستقبل ليس منقوشًا على الحجر. تذكر هذا.

قال بيلي:

- سأتذكر.

وبدت له قارئة الطالع حزينة بعض الشيء وهي تجمع البطاقات من فوق المنضدة، وتجعلهم في كومة منتظمة ثانية. تركت بطاقة الفارس للنهاية لتضعها بأعلى المجموعة.

قال بيلي:

- شكرًا لك.

لم يحصل على إجابة واضحة لمستقبله كما كان ينتظر، لكن لسبب ما لم يؤرقه الأمر بنفس القدر الذي كان قبلًا. احتار في أمر المغادرة لا يعرف ما هي آداب قراءة الطالع.

قالت قارئة الطالع:

- على الرحب يا بيلي، كان من الممتع أن أقرأ طالعك.

مد بيلي يده إلى جيبه وأخرج كيس شكولاتة الفئران وقدمه لها.

سألها:

- أتودين فأرًا.

سرعان ما وبخ نفسه على فعل شيء بهذا القدر من السخف. ابتسمت له قارئة الطالع برغم أنه للحظة ظن أن هناك حزنًا وراء الابتسامة.

- لماذا؟ نعم، سأحب.

قالتها وهي تمسك بأحد الفئران الشكولاتة من ذيله المصنوع من العرقسوس، ووضعته فوق الكرة الزجاجية وهي تؤكد:

- إنها من المفضلات لي، شكرًا يا بيلي، تمتع ببقية وقتك في السيرك.

قال بيلي:

- سأفعل.

ثم نهض واتجه نحو الستارة الخرز، وقبل أن يزيح خيوط الخرز توقف فجأة والتفت.

سأل قارئة الطالع:

- ما اسمك؟

- أتعرف، لا أظن أن أيًا من زبائني قد سألني أبدًا هذا من قبل، اسمي إيزوبل.

قال بيلي:

- سعدت بلقائك يا إيزوبل.

قالت إيزوبل:

- وأنا أيضًا سعدت بلقائك يا بيلي، وأظن أنك ستريد أن تسلك الممر على يمينك بعد أن تغادر.

أومأ لها بيلي والتفت ليزيح خيوط الخرز نحو الدهليز الذي ما زال خاويًا، لم تكن عودة الخرز لوضعها صاخبة، وحينما توقفت، بدأ كل شيء ناعمًا وساكنًا كما لو لم تكن هناك غرفة خلفهم، ولا قارئة طالع جالسة على منضدتها.

أحس بيلي براحة غريبة، كما لو كان قد أصبح أقرب إلى الأرض ولكن أطول في الوقت نفسه، لم يعد قلقه من المستقبل يثقل روحه بعدما غادر الخيمة، منعطفًا إلى اليمين مع طريق ملتوٍ يمر بين الخيام المخططة.

الساحر في الشجرة

برشلونة، نوفمبر 1894

المساحات المختفية خلف الخيم العملاقة لسيرك الأحلام كانت على النقيض من السيرك الأبيض والأسود، حية بالألوان، دافئة مضاءة بالمصابيح الصفراء.

والمسكن الذي يعيش فيه التوءمان موراي كان أشدهم حيوية، مشهد من الألوان يتوهج بالقرمزي والمرجاني والكناري، حتى إن الحجرة تبدو كما لو كانت مشتعلة بالنيران المبرقشة بقطيطات مزغبة سوداء كالسخام ولامعة كالشرارات.

كثيرًا ما طُرح أمر إرسال الصبيين إلى مدرسة داخلية كي يحصلا على تعليم جيد، لكنّ والديهما أصرا على أنهما يتعلمان من الحياة في مثل هذه الصحبة الثرية والسفر حول العالم أكثر بكثير مما سيحصّلانه من الانكباب على الكتب والفصول.

وقد كان التوءمان سعيدين بهذا الأمر، يدرسان دروسًا غير منتظمة حول مواضيع لا تحصى ويقرآن كل كتاب يقع في أيديهما. أكوام منها حفظت في المهد الحديدي الذي لم يتخليا عنه بعدما كبرا عليه.

كانا يعرفان كل بوصة من السيرك، ينتقلان من الملون إلى الأبيض والأسود بسهولة، ويشعران براحة متساوية بين الجانبين.

الليلة يجلسان في خيمة مخططة أسفل شجرة كبيرة حقًا، فروعها سوداء وعارية من الأوراق.

في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فتلك الخيمة تحديدًا لا يرتادها الزوار المتأخرون وليس من المتوقع أن أيًّا من رواد السيرك سيأتي لها حتى مرور الساعات المتبقية للفجر.

جلس التوءمان موراي في مواجهة الجذع الهائل يرتشفان من شربات التفاح الساخن.

كانا قد أنهيا فقراتهما لهذه الأمسية وما تبقى من ساعات الليلة، فهو لهما يقضيانه كيفما شاءا حتى الفجر.

سأل ويجيت شقيقته:

- هل تريدين القراءة الليلة؟ يمكننا التمشي قليلًا فالجو ليس باردًا حقًّا.

وأخرج ساعة جيب من معطفه ليعرف الوقت قبل أن يضيف:

- ولم يتأخر الوقت كذلك.

وإن كان تعريفهما لكلمة متأخر هي ما يعتبره الآخرون مبكرًا جدًا.

عضت بوبيت شفتيها وهي تفكر قليلًا قبل أن تجيب:

- لا، المرة الأخيرة كان كل شيء أحمر ومربكًا، أظن أنه يجب أن أنتظر قليلًا قبل أن أحاول مرة أخرى.

- أحمر ومربك؟

أومأت بوبيت.

ثم شرحت له:

- كانت مجموعة من الأشياء المتداخلة، النار مع شيء ما أحمر، ولكن ليس في نفس الوقت، رجل دون ظل، إحساس أن كل شيء يتفكك أو يتشابك تمامًا كما تلعب القطط بكرات الصوف فتفكها وتعقدها، ولا يمكنك معرفة أين تبدأ وأين تنتهي.

سألها ويجيت:

- هل أخبرت سيليا عن هذا؟

قالت بوبيت:

- ليس بعد، لا أحب أن أخبرها بأشياء بلا معنى، في أغلب الأوقات تتضح الأشياء من نفسها في النهاية.

قال ويجيت:

- هذا حقيقي.

قالت بوبيت:

- أوه، وشيء آخر، هناك صحبة قادمة، كان هذا هناك في مكان ما أيضًا، لا أعرف أكان هذا قبل أم بعد الأشياء الأخرى، أو ربما بينهم.

قال ويجيت:

- أتستطيعين معرفة من هو؟

اكتفت بوبيت بالقول:

- لا.

ولم يفاجئ هذا ويجيت.

سألها:

- ماذا كان هذا الشيء الأحمر؟ أتستطيعين وصفه؟

أغلقت بوبيت عينيها لتتذكر وقالت:

- يبدو كالدهان.

التفت ويجيت لها وسألها:

- دهان؟

أجابت بوبيت:

- مثل الدهان المسكوب، على الأرض.

أغلقت عينيها ثانية لكن فتحتهما سريعًا وقالت:

- أحمر قانٍ، كل شيء مشوش وأنا لا أحب هذا الأحمر إطلاقًا، حينما رأيته، فقد آذى رأسي، كان جزء الصحبة ألطف.

قال ويجيت:

- الصحبة شيء لطيف، أتعرفين متى؟

هزت بوبيت رأسها:

- بعضها أشعر به قريبًا والبعض الآخر يبدو بعيدًا.

جلسا في صمت يرتشفان الشربات قليلًا، مميلان إلى جذع الشجرة.

ثم بعد برهة قالت بوبيت:

- أخبرني قصة رجاءً.

سألها ويجيت:

- أي نوع من القصص؟

كان دومًا ما يسألها، يمنحها الفرصة للاختيار حتى لو كان لديه قصة جاهزة في ذهنه، لكن حين يكون جمهوره محبوبًا ومفضلًا فيجب أن تكون له معاملة مميزة.

قالت بوبيت وهي تنظر للفروع السوداء الملتوية فوقهم:

- قصة عن شجرة.

صمت ويجيت قليلًا قبل أن يبدأ، تاركًا الخيمة والشجرة يؤديان استهلالًا صامتًا بينما تنتظر بوبيت في صبر.

بدأ ويجيت:

- للأسرار قوة، وتلك القوة تذوي حينما تُفشى، لذا يجب أن تكتم وتكتم تمامًا، إفشاء الأسرار، الأسرار الحقيقية، الأسرار المهمة، حتى مع شخص واحد فقط، سوف يغيرها. كتابتها أسوأ من ذلك، فلا أحد يعرف كم عدد العيون التي ربما تراها مخطوطة في الورق، لا يهم كم تعتنين بها، لذا فمن الأفضل حقًا لأسرارك حينما تملكين بعضها، أن تصونيها. من أجلها ومن أجلك أنت أيضًا.

هذا جزئيًّا سببٌ، لأن السحر أقل في عالم اليوم، السحر سر والأسرار سحرٌ في النهاية. ومرور أعوام تلو الأعوام من تعليم السحر والأسوأ من هذا كتابته في كتب فاخرة تراكم التراب مع مرور الزمن جعله يتناقص، نزع قوته شيئًا فشيئًا، كان هذا محتومًا.

ربما لم يكن من المستحيل تجنبه، فالجميع يرتكب الأخطاء.

أعظم ساحر في التاريخ ارتكب خطأ إفشاء أسراره، وكانت أسراره سحرية وأيضًا مهمة، لذا كان خطؤه جسيمًا.

فقد قالها لفتاة، كانت شابة وماهرة وجميلة...

نفخت بوبيت في كوبها فتوقف ويجيت.

قالت له:

- آسفة، أكمل من فضلك يا ويج.

أكمل ويجيت:

- كانت شابة وماهرة وجميلة، فلو لم تكن الفتاة جميلة وماهرة لكان من السهل عليه مقاومتها وما كانت ستكون هناك قصة.

كان الساحر كهلًا وشديد البراعة هو أيضًا بالطبع، وقد أمضى زمنًا طويلًا جدًا جدًا جدًا دون أن يخبر أي شخص أيًّا من كان عن أسراره، ربما مرور السنوات أنساه أهمية حفظها، أو من المحتمل أنه ارتبك من جمالها أو براعتها أو لعله كان تعبًا أو ربما شرب من الخمر ما أسكر إدراكه فلم يعِ ما يفعله. أيًّا ما كانت الظروف فقد أفشى أعمق أسراره للفتاة، المفاتيح الخفية لكل سحره.

وحينما مُررت الأسرار من الساحر إلى الفتاة فقد خسرت جزءًا من قوتها، لكنها ما زالت قوية وفعالة وسحرية، واستخدمتها الفتاة ضد الساحر، لقد خدعته حتى تأخذ أسراره وتصبح لها، لم تبالِ كثيرًا بكتمانها، ولعلها كتبتها في مكان ما أيضًا.

أما عن الساحر فقد حبسته في شجرة بلوط كبيرة، شجرة مثل هذه، والسحر الذي استخدمته كان قويًّا، فقد كان من سحر الساحر نفسه، قديمًا وقويًّا ولم يستطع أن يلغيه.

تركته هناك ولم ينقذه أحدٌ لأن أحدًا لم يعلم أنه داخل الشجرة، لكنه أيضًا لم يمت، كانت الفتاة ستقتله على الأرجح لو استطاعت، بعدما استخرجت منه السحر، لكنها لم تكن تستطيع قتله بسحره. ولكن من المحتمل أنها لم ترغب في قتله أصلًا، كانت مهتمة بالقوة أكثر منه لكن لعلها اهتمت به قليلًا بما يكفي كي تبقي على حياته. على أي حال لقد سجنته إلى الأبد وكان هذا يؤدي نفس الغرض.

لكن في الحقيقة لم تنجح بالقدر الذي تصورته، كانت مهملةً في صون أسرارها السحرية الجديدة، لقد تباهت بها، وعامة لم تعتنِ بها، لذا فقد اختفت الأسرار مع الوقت كما اختفت هي.

أما الساحر فقد أصبح جزءًا من الشجرة، والشجرة نمت وأينعت، فروعها امتدت في السماء وجذورها تعمقت في الأرض. أصبح جزءًا من الأوراق واللحاء والعصارة والجوز الذي حمل بعيدًا على يد السناجب، ليصنع أشجارًا جديدة في أماكن أخرى، وعندما نمت تلك الأشجار أصبح في فروعها وأوراقها وأشجارها أيضًا.

لذا فبفقدانه أسراره اكتسب الساحر الخلود، بقيت شجرته أطول بكثير من بقاء الفتاة حتى بعدما أصبحت عجوزًا وفقدت جمالها. وبطريقة ما أصبح أعظم وأقوى مما كان في السابق، برغم أنه لو منحت له الفرصة للعودة بالزمن، فسيكون أكثر حرصًا على أسراره.

ومع ختام ويجيت للقصة غرقت الخيمة في الصمت ثانية، ولكن بدت الشجرة أكثر حياة مما كانت عليه قبل أن يبدأ.

قالت بوبيت:

- شكرًا لك، كانت هذه قصة جيدة، حزينة نوعًا ما لكنها ليست كذلك نوعًا ما أيضًا.

قال ويجيت:

- على الرحب والسعة.

وارتشف من شرباته الذي أصبح دافئًا وليس ساخنًا، أمسك بكوبه بين يديه ووضعه أمام عينيه وحدق إليه حتى عادت البخار الساخن يتصاعد منه.

مدت له بوبيت كوبها قائلة:

- وكوبي أيضًا أرجوك. لن أستطيع فعلها أبدًا الآن.

قال ويجيت:

- حسنًا وأنا لا أستطيع حتى الآن أن أرفع الأشياء، لذا فنحن متعادلان.

لكنه أخذ كوبها دون أن يشكو ووضع تركيزه عليه حتى عاد ساخنًا يطلق الأبخرة.

حرك يده ليعيده لها، فطفا من يده إلى يدها. كان سطح الشربات يهتز من الحركة لكن باستثناء هذا كان انتقال الكوب هادئًا وسلسًا كما لو كان ينزلق على مائدة.

قال ويجيت:

- متباهية!

جلسا يرتشفان الشراب الساخن، وينظران إلى الفروع المتشابكة التي تمتد حتى سقف الخيمة.

بعد صمت طويل قالت بوبيت متسائلة:

- ويج؟

- نعم!

- أوليس سيئًا تمامًا أن تحبس في مكان إذن؟ أيعتمد الأمر على المكان الذي حبست فيه؟

قال ويجيت:

- أظن الأمر يعتمد على كم ستحبين المكان الذي حبست فيه.

أضافت بوبيت:

- وأيضًا على كم ستحب أيًّا من كانوا الذين سيرافقونك هناك.

وهي تركل حذاءه الأسود بحذائها الأبيض.

ضحك شقيقها وتردد صدى ضحكاته في الخيمة ليعلو فوق الفروع المغطاة بالشموع، وكل شعلة منها تهتز بلهب أبيض.

أماكن مؤقتة

لندن أبريل 1895

لم تدرك تارا بيرجس حتى عادت إلى لندن أن العنوان الذي أعطاه لها السيد باريس لم يكن مسكنًا خاصًّا وإنما هو لفندق ميدلاند جراند.

تركت البطاقة على المنضدة في غرفة جلوسها لبعض الوقت، تلمحها كلما دخلت الحجرة، ونستها لمدة طويلة حتى تذكرتها ثانية.

كانت ليني تحاول إقناعها أن تنضم إليها في عطلة طويلة في إيطاليا لكنها رفضت، أخبرت تارا شقيقتها القليل فحسب عن زيارتها لفيينا، مكتفية بالقول إن إيثان قد سألها عنها. اقترحت ليني أن يفكرا في الانتقال، وربما يناقشان الأمر أكثر عندما تعود.

اكتفت تارا بالإيماء وأعطت شقيقتها عناقًا حارًّا قبل رحيلها.

ووحيدة في منزلهما بدأت تارا تتجول بغير هدى، تاركة روايات لم تقرأ سوى نصفها متروكةً على المقاعد والطاولات.

أما دعوات السيدة بادفا لها كي تشرب معها الشاي أو تصاحبها لمشاهدة الباليه فقد اعتذرت عنها بأدب.

قلبت كل المرايا في بيتها لتواجه الجدران، تلك التي لم تستطع قلبها غطتها بالأفرشة حتى بدت في الغرف الخاوية كأنها أشباح.

وعانت من قلة النوم.

وذات نهار، بعدما ظلت البطاقة تجمع الغبار في صبر لشهور، أخذتها ووضعتها في جيبها. وخرجت من بيتها لتركب القطار من قبل أن تقرر حتى أهي فكرة جيدة أم سيئة.

لم تزر تارا مسبقًا هذا الفندق الذي تعلوه ساعة والملاصق لمحطة سانت بانكراس. لكنها أحسته مكانًا مؤقتًا، برغم حجم المكان ورسوخه فقد بدا إلى زوال. يسكنه طابور مستمر من الضيوف والمسافرين في طريقهم لمكان آخر. لا يتوقفون فيه إلا لمدة قصيرة قبل أن يذهبوا إلى وجهات أخرى.

سألت في الاستقبال لكنهم ردوا أن هذا الشخص ليس ضمن قائمة الضيوف، كررت الاسم أكثر من مرة؛ حيث كان الموظف يخطئ في سماعه كل مرة، حاولت نطقه بأكثر من طريقة فقد كانت الكلمات على البطاقة التي حصلت عليها من السيد باريس مطموسة ولم تستطع أن تتذكر نطقها الصحيح. وكلما طال بقاءها تزايد شكها أنها سمعت أصلًا الاسم المطموس على البطاقة ينطق.

بأدب سألها الموظف إن كانت ترغب في ترك رسالة فربما السيد الذي تبحث عنه قد يأتي في وقت آخر اليوم، لكنها رفضت. شكرت الموظف على وقته ووضعت البطاقة في جيبها.

تجولت في البهو، متسائلة إن كان هذا العنوان صحيحًا، برغم أنه ليس من عادة السيد باريس أن يعطي أي معلومة ما لم تكن دقيقة تمامًا.

أتاها صوت من جوارها يقول:

- صباح الخير آنسة برجيس.

لم تنتبه إليه وهو قادم، ولكن الرجل الذي لم تتذكر بعد النطق الصحيح لاسمه يقف جوار كتفها ببدلته الرمادية المميزة.

رددت:

- مساء الخير.

سألها:

- أكنت تبحثين عني؟

قالت تارا:

- في الحقيقة نعم.

وبدأت بالشرح أن السيد باريس أرسلها إلى هنا ومدت يدها إلى جيبها فلم تجد البطاقة فتوقفت متحيرة.

سألها الرجل ذو البذلة الرمادية:

- أهناك خطب ما؟

قالت:

- لا.

وبدأت تتساءل هل أحضرت البطاقة معها أم أنها ما زالت على المنضدة بغرفة الجلوس في بيتها.

قالت:

- كنت أريد الحديث عن السيرك.

قال:

- حسنًا جدًا.

وصمت منتظرًا أن تبدأ وأظهر تعبيرًا ضئيلًا جدًا يمكن تفسيره بالاهتمام.

بذلت قصارى جهدها كي تشرح ما يقلقها. أن هناك ما يجري في السيرك أكثر مما يتم إطلاع أغلبهم عنه. هناك عناصر لا تجد لها تفسيرًا منطقيًا، كررت بعض الأشياء التي ذكرتها للسيد باريس. قلقها من أنها لا تستطيع التأكد من أي شيء حقيقي أم لا، كم هو مربك أن تنظر في المرآة لترى نفس الوجه دومًا دون أدنى تغيير مع مرور السنوات.

كثيرًا ما كانت ترتبك، وتجد صعوبة في التعبير بوضوح عن المعاني التي تقصدها.

لم يتغير تعبير الاهتمام الواهي هذا.

سألها بعدما انتهت:

- ما الذي ترغبين فيه مني آنسة بيرجس؟

قالت:

- أريد تفسيرًا.

نظر إليها بنفس التعبير الذي لا يتغير لبعض الوقت.

قال:

- السيرك هو مجرد سيرك، عرض مبهر، لكنه ليس أكثر من ذلك، ألا توافقين؟

أومأت تارا من قبل أن تستوعب الرد.

سألها:

- ألا تريدين اللحاق بالقطار آنسة برجيس؟

قالت تارا:

- نعم.

لقد نسيت موعد قطارها، تساءلت ما الوقت، لكنها لم تجد ساعة كي تعرف.

- أنا ذاهب إلى المحطة أنا أيضًا لو كنت لا تمانعين مرافقتي.

مشيا تلك المسافة القصيرة من الفندق حتى رصيف القطار معًا، فتح لها الباب وقال تعليقًا نمطيًّا عن الطقس. ثم قال لها عندما وصلا إلى القطار.

- أظن أنه من الأفضل لك أن تجدي شيئًا آخر ليشغل وقتك، شيئًا يبعد ذهنك عن السيرك، ألا توافقين؟

أومأت تارا ثانية.

قال لها وهو يميل لها قبعته:

- طاب يومك يا آنسة برجيس.

رددت:

- طاب يومك.

تركها على الرصيف وحينما التفتت خلفها لترى في أي طريق ذهب لم تجد أثرًا للبدلة الرمادية وسط الزحام.

وقفت تارا على حافة الرصيف تنتظر قطارها. لم تستطع أن تتذكر أنها أخبرت السيد أ. هـ أي قطار ستأخذ، لكنه رغم ذلك أوقفها على الرصيف الصحيح.

كانت تشعر أن هناك شيئًا آخر كانت تريد السؤال عنه، لم تستطع أن تتذكر أي شيء عن حديثهما، فقط إحساسها أن هناك شيئًا آخر يجب عليها أن تشغل وقتها به، أمر آخر يستحق أن توليه انتباهها.

كانت تتساءل ما هذا الشيء الآخر حينما لمحت لمحة خاطفة لظل رمادي في الرصيف المقابل.

السيد أ. هـ يقف في ركن مظلم، ورغم بعد المسافة والظلام كانت تارا ترى أنه يتجادل مع شخص آخر لا تستطيع رؤيته.

لكنَّ كلّ من يمر بهما لا يلقي حتى عليهما نظرة.

وحين تحرك الضوء من النافذة بالأعلى استطاعت تارا رؤية من الذي يتجادل مع السيد أ. هـ.

لم يكن طويلًا جدًّا، بدت قبعته كأنها محاكاة لتلك الرمادية حتى إن تارا في البداية تصورت أنه انعكاس للسيد أ. هـ وتساءلت، لِمَ يتجادل مع صورته في وسط محطة القطار، لكن الحلة الأخرى كان داكنة أكثر، وهذا الانعكاس له شعر أطول، برغم أنه بدرجة مماثلة من الرمادي.

وبرغم الدخان والزحام لاحظت تارا أجزاء لامعة من الدانتيل عند أكمام القميص، والأعين الداكنة التي أظهرها الضوء أكثر من بقية الوجه، بدا الشكل واضحًا للحظات قبل أن يضمحل مرة أخرى لظل . هـ وتسائلت لم يتجادل مع صورتهءي

غير واضح ولم يثبت لأكثر من لحظة واحدة.

الضوء المتسلل من الأعلى تحرك ثانية واضطربت تلك الهيئة كأنها تراها عبر دخان ساخن برغم أن السيد أ. هـ ظل واضحًا وثابتًا. خطت تارا إلى الأمام، وقد ثبتت نظراتها على هذا الشكل في الرصيف المقابل، ولم تر القطار القادم.

حركة

ميونيخ، أبريل 1895.

يسعد هر تايسن دومًا كلما مر السيرك ببلده الأم ألمانيا، لكن هذه المرة كان فرحًا أنه وصل قريبًا من ميونخ، لذا فهو ليس بحاجة كي يبحث عن سكن في مدن أخرى.

كذلك فقد تلقى وعدًا بالزيارة من الآنسة سيليا بوين. لم يقابلها من قبل برغم أنها قد مرت سنوات منذ أن بدآ التراسل، وقد أبدت اهتمامًا بزيارة ورشته إن لم يمانع.

وكان رد فريدريك إن عدم الممانعة هو أقل ما يقال، وأنها مرحب بها في أي وقت.

وبرغم الخطابات الكثيرة المحفوظة بعناية في ملفات مكتبه، فلم يعرف بالضبط ما الذي يتوقعه حينما تصل.

ذهل حين رأى المرأة التي يعرف أنها حاوية السيرك تقف على بابه. كان لا يمكنه أن يخطئها برغم أنها ترتدي فستانًا ذا لون وردي باهت بدلًا من ذاك الأسود والأبيض الذي اعتاد رؤيتها به. بدت بشرتها أكثر دفئًا وشعرها مجدولًا وقبعتها لا تشبه إطلاقًا تلك الحريرية السوداء المميزة. لكنه سيعرف وجهها في أي مكان.

قال كنوع من التحية:

- إن هذا لتشريف.

قالت سيليا وهو يمسك يدها:

- أغلب الناس لا تتعرف إليَّ خارج السيرك.

قال:

- إذن فمعظم الناس حمقى.

ورفع يدها لشفتيه ليقبل ظهر قفازها وأكمل:

- ولو أنني أشعر بالحماقة أنا الآخر أنني لم أعرف من أنت كل هذا الوقت.

قالت سيليا:

- كان يجب أن أخبرك، أعتذر منك.

- لا داعي للاعتذار، أنا من كان يجب أن يخمن أنك لست مجرد حالمة من طريقة كتابتك عن السيرك، فأنت تعرفين كل ركن فيه أفضل من الأكثرية.

- أنا على معرفة بالكثير من الأركان وليس كلها.

- ما زال هناك أركان غامضة في السيرك على حاويته؟ هذا مبهر.

ضحكت سيليا وأخذها فريدريك في جولة في ورشته.

كانت الورشة مرتبة بحيث إن أولها مشغول في الأغلب بالمخططات والرسومات ثم يتبعها مناضد طويلة مغطاة بمختلف الأجزاء والكثير من نشارة الخشب، أدراج ممتلئة بالأدوات والمعدات. استمعت إليه سيليا بانتباه شغف وهو يصف العملية بأكملها وسألت أسئلة عن المسائل التقنية والإبداعية.

فوجئ بأنها تتكلم الألمانية بطلاقة، برغم أنهما لم يتراسلا إلا بالإنجليزية.

أوضحت:

- أنا أتحدث باللغات بسهولة أكبر بكثير من قراءتها. إنه شيء يرتبط بالإحساس بالأصوات، ربما أحاول أن أكتبها على الورق لكني متأكدة أن النتيجة ستكون بشعة.

برغم شعره الرمادي فقد بدا هر فريدريك شابًّا وهو يبتسم، لم تستطع سيليا أن ترفع عينيها عن يديه وهو يشرح التفاصيل الدقيقة لميكانيكية الساعات، تخيلت تلك الأصابع وهي تكتب كل خطاب وصلها وقرأته عدة مرات حتى إنها باتت تتذكرها، وتجد غرابة في شعورها بالخجل من شخص تعرفه حق المعرفة.

بينما أولاها هو اهتمامًا مماثلًا وهما يجوبان رفوف آلات المواقيت وهي تتشكل في مختلف مراحل التصنيع.

كانت تنظر إلى مجموعة من التماثيل الصغيرة دقيقة التفاصيل القابعة في صبر وسط نشارة الخشب، تنتظر ضمها لبيوتها الجديدة داخل الساعات وذلك حين سألها:

- أيمكنني أن أسألك عن شيء ما؟

برغم من خشيتها أن يسألها عن كيف تؤدي سحرها، وهي تكره كثيرًا أن تكذب عليه، فقد قالت سيليا:

- بالطبع.

- كنت في نفس المدينة التي كنت بها في عدة مناسبات، وبرغم هذا هذه هي المرة الأولى التي تطلبين فيها مقابلتي، فلِمَ هذا؟

نظرت سيليا ثانية إلى التماثيل الدقيقة قبل أن ترد بينما التقط فريدريك راقصة باليه سقطت من الجانب وأعادها لتقف متزنة على حذائها الشريطي.

قالت سيليا:

- قبل هذا لم أرد أن تعرف من أنا، تصورت أن نظرتك لي ستختلف لو فعلت. لكن مع مرور كل هذا الوقت أحسست أنني غير أمينة معك، وأردت منذ فترة إخبارك بالحقيقة ولم أستطع مقاومة الفرصة لرؤية ورشتك. أتمنى أن تستطيع مسامحتي.

قال فريدريك:

- لم تفعلي ما يتطلب المسامحة، امرأة تصورت أنني أعرفها جيدًا وامرأة طالما تصورتها غامضة اتضحا أنهما نفس الشخص. هذا مفاجئ لكني لا أكره المفاجآت الطيبة. برغم أن الفضول يراودني عن السبب الذي جعلك تكتبين لي خطابك الأول.

قالت سيليا:

- استمتعت بكتاباتك عن السيرك، إنها من منظور لا يمكنني أن أراه من ناحيتي جيدًا، لأنني... لأنني أفهمه بطريقة مختلفة، لذا أحببت أن أراه عبر عينيك.

وحين نظرت إليه كانت عيناه الزرقاوتان الصافيتان تلمعان مع ضوء العصاري الآتي من النافذة ليضيء غبار الخشب المعلق في الهواء.

قال فريدريك:

- شكرًا آنسة بوين.

صححت له:

- بل سيليا.

انحنى لها بامتنان قبل أن يكملا الجولة.

كانت الجدران الخلفية مغطاة بمواقيت منتهية أو شبه منتهية، ساعات تنتظر فقط الغطاء الأخير أو الدهان أو بعض التفاصيل البسيطة. والساعات القريبة من النافذة تتحرك بالفعل، كل منها بطريقتها الخاصة، ولكن معًا في نفس الإيقاع المتناغم. سيمفونية من الدقات المعدة بإتقان.

كانت تلك التي جذبت انتباه سيليا موضوعة على منضدة بدلًا من أن تعلق على الجدار، أو توضع على رف.

كانت قطعة جميلة، أقرب إلى التماثيل منها للساعات، وبينما أغلب الساعات من الخشب كانت هذه في أغلبها من المعدن الأسود المؤكسد، غلاف معدني مستدير كبير يستقر على قاعدة خشبية نقشت في شكل ألسنة لهب بيضاء دوامية. وبينها تتداخل أقواس معدنية مؤشرة بالأرقام والرموز ومعلقة من الأعلى. مربوطة بين التروس الظاهرة مع مجموعة من النجوم المتساقطة عبر ثقوب في التاج بالأعلى.

لكن الساعة كانت ساكنة لا تتحرك.

قالت سيليا:

- هذه الساعة تذكرني بنار الساحة، أهي غير مكتملة؟

رد فريديريك:

- لا، هي مكتملة ولكن معطلة، كانت تجربة ولكن مكوناتها من الصعب أن تتزن معًا بطريقة صحيحة.

وأدارها ليريها كيف أن أجزاءها الداخلية تمتد لتملأ الغلاف بأكمله، ممتدة في كل اتجاه.

- إن ميكانيكياتها معقدة، فهي تتتبع حركة النجوم أيضًا، يجب أن أزيل القاعدة وأفككها كلية كي أصلحها، لكن ليس لدي الوقت الكافي لذلك بعد.

سألته سيليا:

- أتسمح لي؟

وهي تمد يدها لتلمسها.

حينما أومأ لها موافقًا خلعت واحدًا من قفازيها وأراحت يدها على قضبان الغلاف المعدني، نظرت إليها بتمعن دون أن تحاول تحريكها. بدا الأمر لفريدريك كأنها تنظر عبرها وليس فقط تنظر إليها.

في الداخل فإن محركها بدأ في العمل، الدواليب والتروس تراقصت معًا بينما الأقواس التي تحمل الأرقام تدور لمكانها الصحيح، انزلقت العقارب إلى نحو الوقت السليم وترتيب النجوم رتب نفسه بصورة صحيحة.

كل ما هو داخل الغلاف المعدني كان يدور ببطء، والنجوم الفضية تلمع وهي تعكس الضوء وما إن بدأت الدقات البطيئة المنتظمة للثواني في الدق حتى رفعت سيليا يدها.

لم يستفسر فريدريك عن كيف فعلتها.

بدلًا من ذلك دعاها إلى العشاء، تكلما قليلًا عن السيرك ولكن أغلب الوقت تناقشا في الكتب والفن والنبيذ ومدنهما المفضلة. لم تأتهما لحظات صمت محرجة برغم من بذلهما مجهودًا للوصول إلى نفس التناغم في الحديث الذي كانت عليه مراسلاتهما، فكان كلٌّ منهما يغير لغة الحديث إلى لسان الآخر.

حينما تأكدت سيليا أنه لا يكتم تساؤلاته بدافع من الذوق فحسب، سألته:

- لماذا لم تسألني كيف أؤدي حيلي؟

فكر فريدريك طويلًا قبل أن يجب.

قال لها:

- لأنني لا أحب أن أعرف، أفضل ألا تتم استنارتي كي أستطيع تذوق الظلام.

أعجبت عاطفته سيليا لدرجة أنها لم تعرف كيف تجيبه. فاكتفت بالابتسام وهي تحييه بكأسها.

أضاف فريدريك:

- إلى جانب أنه من المؤكد أنك تُسألين عن الأمر باستمرار، أما أنا فأجد الأكثر تشويقًا لي هو التعرف إلى المرأة وليس الساحرة. أتمنى أن هذا يلائمك.

قالت سيليا:

- إنه مثالي.

مشيا معًا نحو السيرك بعد العشاء، مارين بالمباني ذات الأسطح الحمراء في أضواء الغروب الزائلة، ولم ينطلق كل منهما في طريقه إلا بعدما وصلا للساحة.

وأحس فريدريك بالحيرة لماذا لا يتعرفها أحد وهي تمشي وسط الجمهور.

حينما شاهد عرضها لم تلتقط عيناه علامة على معرفتها به سوى ابتسامة واحدة خاطفة.

فيما بعد، بعدما تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير، ظهرت بجواره وهو يتمشى، مرتدية معطف كريمي ووشاح أخضر داكن.

علق فريدريك:

- يجب أن يكون وشاحك أحمر.

قالت سيليا:

- أنا لست من **الحالمين** بالضبط لا يبدو هذا صحيحًا.

برغم ذلك بينما تتكلم كان وشاحها يتغير إلى لون خمري زاه وأضافت:

- أهذا أفضل؟

قال فريدريك:

- إنه مثالي.

برغم أن نظراته لم ترفع عن عينيها.

أعطته ذراعها ومشيا معًا في الطرقات الملتوية، بين الجمهور المتناقص.

كررا هذا الروتين في الأمسيات التالية، ولو أن السيرك لم يبق طويلًا بعدما أتت الأخبار من لندن.

في الذكرى العطرة لتارا برجيس

جلاسكو أبريل 1895

برغم الحضور الكبير كانت الجنازة هادئة، لم يكن هناك نواح أو شقٌّ للجيوب، ووسط بحر السواد كان هناك القليل من الألوان المتناثرة، حتى المطر الطفيف الذي نزل عليهم لم يدفع بهم إلى مملكة المأساة، بل استقروا في الطفو على بحر الحزن الجليل.

ربما سبب ذلك الإحساس أن تارا برجيس لم تغادرهم بالكامل طالما أختها حية وبصحة جيدة. ما زال نصف هذا الزوج المتلازم يتنفس ويتحرك.

ولكن في الوقت نفسه بدا لكل من يضع عينيه على الأخت الناجية أن هناك خطبًا ما يحسونه فيها، شيئًا لا يستطيعون تحديده بالضبط لكنه خارج الطبيعي.

كانت بعض الدموع تهرب من ليني برجيس لكنها حافظت على هدوئها وهي تحيي كل معز بابتسامة وتشكر حضوره. ربما ألقت بعض النكات أيضًا عن كيف أن تارا ربما تعلق بمرح أنها ليست معها في هذا التابوت الخشبي الجميل. لم يرافقها أي من أفراد العائلة، لكن أولئك الذين معرفتهم بها سطحية خمنوا أن هذه السيدة ذات الشعر الأبيض

والرجل الذي نادرًا ما يتركها هما أمها وزوجها، بالطبع كان تخمينًا خاطئًا لكنه لم يلق ضيقًا من السيدة بادفا والسيد باريس.

كانت هناك زهور بلا عدد، حمراء وبيضاء ووردية بل أيضًا كانت هناك زهرة سوداء بين البراعم لم يعرف أحد من وضعها. شاندرش أكد أنه لم يحضر سوى البيضاء، وقد ثبت واحدة منها في ياقة معطفه، ظل يعبث بها بعصبية طوال الشعائر.

وحينما ألقت ليني رثاءها لأختها قوبلت كلماتها بالتنهدات والابتسامات والضحكات الحزينة.

قالت:

- لن أرثي فقداني لأختي لأنها ستبقى معي دومًا في قلبي. ورغم ذلك يضايقني أن عزيزتي تارا تركتني أعاني معكم وحدي، لا أرى جيدًا دونها، لا أسمع جيدًا دونها، لا أشعر جيدًا دونها، سأكون في حال أفضل لو فقدت يدًا أو قدمًا عن حالي الآن وقد فقدت شقيقتي. فحينها على الأقل كانت ستهدئ من روعي وتسخر من شكلي قائلة إنها أصبحت الأجمل لمرة على سبيل التغيير. كلنا فقدنا تارا لكني فقدت معها جزءًا من نفسي.

خلال المراسم كانت هناك مؤدية شكلها مألوف للجميع حتى من لم يعرف سيرك الأحلام. واحدة متشحة بالبياض من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وأيضًا أضافت زوجًا من أجنحة الريش ينزلان على ظهرها، ويخفقان برقة مع النسيم بينما هي ثابتة كالصخر. كثير من الحضور أدهشهم حضورها لكنهم أدركوا من تعابير ليني أنها سعيدة بمشهد وقوف ملاك حي على قبر شقيقتها.

كانت الشقيقتان برجيس في النهاية هما من أدخلتا هذا التقليد في السيرك، التمثال الحي؛ حيث يقوم مؤدون بالوقوف في ثبات تام مع أزياء خاصة وبشرة مدهونة على منصات متنقلة بين الخيم. لو راقبتهم لساعات ستجد وضعياتهم تتغير، ولكن بحركة بطيئة لا تُلَاحظ، للدرجة التي تجعل الكثير من المتفرجين يؤكدون أنها تماثيل متحركة وليست بشرًا حقيقيين.

كان السيرك يحوي الكثير من هؤلاء المؤدين وتلك التي تقف على مشهد تارا برجيس كانت تلقب بملكة الثلج.

انطلقت آهات خافتة والتابوت ينزل إلى الأرض، لكن من الصعب تحديد من أطلقها أم إن كانت نتيجة اجتماع صوت التنهدات والرياح وحركة الأقدام.

ازداد المطر وفتحت المظلات لتبدو كعش الغراب حول القبر. والتراب الرطب سرعان ما تحول على وحل وبقية مراسم الدفن أجريت سريعًا لتلافي الطقس السيئ.

لم ينته العزاء وإنما فَتُر تدريجيًا، تناقصت أعداد المعزين من صفوف متقاربة إلى جمع صغير تدريجيًا. أراد الكثير أن يعبروا ثانية عن عزائهم للايني ولكن أراد الباقون البحث عن ملجأ من المطر من قبل أن يكتمل الدفن.

إيزوبل وتسوكيكو وقفتا جنبًا لجنب على مسافة من قبر تارا. تتشاركان مظلة سوداء كبيرة تمسكها إيزوبل بيدها ذات القفاز الأسود. أصرت تسوكيكو أنها لا تمانع في التعرض للمطر لكن إيزوبل أظلتها على أي حال ممتنة للصحبة.

سألت تسوكيكو:

- كيف ماتت؟

كان هذا هو السؤال الذي تهامس به الناس طوال الظهيرة، ليلقى إجابات متعددة القليل منها مرض، فمن يعرفون التفاصيل ليسوا قريبين.

قالت إيزوبل بخفوت:

- قيل لي إنه كان حادثًا، صدمها قطار.

أومأت تسوكيكو وهي تفكر مخرجة علبة سجائر فضية وقداحة متناسقة من جيب معطفها.

سألت:

- كيف ماتت حقًّا؟

قالت إيزوبل:

- ماذا تعنين؟

ونظرت حولها لترى إن كان هناك من هو قريب منهما ليسمع الحوار، لكن أغلب المعزين شتتهم الأمطار. فلم يبقَ إلا جماعة قليلة منهم سيليا بوين مع بوبيت موراي متشبثة في فستانها. وقد بدا على الطفلة تعبير تجهم يبدو غضبًا أكثر منه حزنًا.

ليني والسيد باريس يقفان بجوار قبر تارا، والملاك تقف قريبًا منهما بما يكفي كي تغطي رأسيهما بيديها.

قالت تسوكيكو:

- لقد رأيتِ أشياء تتحدى المنطق، أليس كذلك؟

أومأت إيزوبل.

- أتظنين أنه ربما تكون تلك الأشياء أصعب في استيعابها إن لم تكوني جزءًا منها؟ ربما للدرجة التي تدفعك إلى الجنون؟ إن العقل شيء هش.

قالت إيزوبل وهي تحاول أن تخفض صوتها قدر استطاعتها:

- لا أظن أنها ألقت بنفسها أمام القطار عامدة.

قالت تسوكيكو:

- ربما لا، لكن لا أستبعد الأمر حتى ولو مجرد احتمال.

وأشعلت سيجارتها التي التقط اللهب بسهولة برغم رطوبة الجو.

قالت إيزوبل:

- ربما كانت مجرد حادثة.

سألتها تسوكيكو:

- هل تعرضت لأي حادث مؤخرًا؟ أي كسور أو حروق أو جروح أيًّا ما كانت؟

قالت إيزوبل:

- لا.

- هل مرضت؟ أو حتى أصابها زكام خفيف؟

أجابت إيزوبل:

- لا.

وهي تبحث في ذاكرتها عن المرة الأخيرة التي تعرضت فيها لطقس سيئ أصابها بالبرد وكان أحدث ما تذكرته بعض الصداع منذ نحو العقد. في الشتاء الذي سبق لقائها بماركو.

قالت تسوكيكو:

- لا أظن أن أيًّا منا تعرض لمثل هذا منذ بدأ السيرك. ولم يمت أحد منذ وقتها حتى الآن. ولم يولد أحد أيضًا بعد التوءمين موراي برغم أن المحاولات ليست بالقليلة تتوقف إذا أخذنا في الاعتبار نشاط بعض لاعبي الأكروبات.

فتحت إيزوبل فمها قائلة:

- أنا ...

ولم تستطع الإكمال، إن الأمر أكبر من قدرتها على الاستيعاب وليست واثقة من أنها تريد أن تفهمه حقًا.

تكلمت تسوكيكو وسيجارتها تتدلى متأرجحة من شفتيها:

- نحن أسماك في حوض عزيزتي، أسماك تحت سيطرة شديدة، مراقبون من كل الاتجاهات، فإذا طفت إحدانا إلى الأعلى فإنها ليست بالحادثة، ولو كانت حادثة فهذا يقلقني أن المراقب ليس بالحرص الذي يجب أن يكون عليه.

خيم الصمت على إيزوبل، تمنت لو كان ماركو أتى برفقة شاندرش برغم شكها أنه سيقبل التحدث إليها في أي شيء، كل قراءة حاولت سرًّا تفسيرها عن الأمر كانت تجدها معقدة، لكن قوة مشاعره كانت دومًا واضحة. كانت تعرف كذلك أنه مهتم بالسيرك، لم يساورها شك في هذا قط.

سألتها تسوكيكو:

- هل جربت أبدًا أن تقرأي أوراقك لشخص لا يستطيع أن يفهم ماذا تعني هذه الأوراق حتى عندما تتحدث لك بوضوح وتكون صورها قاطعة؟

قالت إيزوبل:

- نعم.

قابلها هذا مئات المرات، المستفسرون الذين لا يستطيعون رؤية الأشياء كما هي. يعمون عن الخيانة وكسر القلوب ودومًا ما يكونوا عنيدين رافضين مهما حاولت أن تشرح لهم بلطف.

قالت تسوكيكو:

- من الصعب دومًا أن نرى الصورة حين نكون جزءًا منها، التفاصيل تكون مألوفة أكثر من اللازم ومعتادة أكثر من اللازم.

صمتت تسوكيكو وحلقات الدخان المتصاعدة من سيجارتها تتخلل المطر لتبدو كأنها تلتف حول رأسها متصاعدة للهواء.

ثم أضافت:

- لعل الآنسة برجيس الراحلة كانت قريبة من الحافات بما يكفي كي ترى الأمر بصورة مختلفة.

تجهمت إيزوبل وهي تنظر نحو قبر تارا، كانت ليني والسيد باريس قد التفتا وبدآ في الابتعاد ببطء وقد وضع ذراعه على كتفيها.

تساءلت إيزوبل:

- هل وقعتِ في الحب من قبل يا كيكو؟

تصلب كتفا تسوكيكو وهي تزفر ببطء، وللحظة ظنت إيزوبل أنها لن تجيبها على السؤال لكنها تكلمت أخيرًا.

- كانت لي علاقات بعضها دام لعقود وبعضها لساعات، أحببت أميرات وفلاحات وأظن أن كلًّا منهم أحبني بطريقته الخاصة.

كانت هذه طريقة تسوكيكو المعتادة في الإجابة، أن تعطي ردًّا لا يجيب السؤال. فلم تستفسر إيزوبل عن المزيد.

بعد برهة قالت تسوكيكو:

- سيبدأ التفكك.

لم تحتج إيزوبل لسؤالها عما تعنيه بينما أضافت تسوكيكو:

- الشقوق بدأت في الظهور، وعاجلًا أم آجلًا سيحدث الانكسار.

وصمتت لتأخذ نفسًا أخيرًا من سيجارتها قبل أن تسأل:

- أما زال قلبك يميل؟

قالت إيزوبل:

- نعم لكن لا أظن أن هذا يساعد.

- من الصعب كما تعرفين معرفة أثر هذه الأشياء، إن نظرتك من الداخل في النهاية، ربما كان أبسط السحر هو أكثره فاعلية.

- لا يبدو لي فعّالًا على الإطلاق.

- ربما تسيطرين على الفوضى بوجود مشاعرك أكثر مما قد تفعلين دونها.

لم ترد إيزوبل واكتفت تسوكيكو بهز كتفيها ولم تضف شيئًا.

وبعد قليل رحلتا معًا دون المزيد من النقاش.

ولم تبقَ سوى بياض الثلج الملائكية، تقف فوق مثوى تارا برجيس الجديد ممسكة بزهرة سوداء واحدة في إحدى يديها دون حراك، متجمدةً تمامًا لا تطرف حتى بعينيها، وملامحها المدهونة بالبياض متجمدة على تعبير الأسى.

ومع تزايد المطر تفكك بعض الريش من جناحها ليتساقط على الطين أسفلها.

التيه

تمضي في قاعة مغطاة بأوراق اللعب، صفوف فوق صفوف من القلوب والبستوني ومصابيح مصنوعة من أوراق إضافية تتدلى من الأعلى وتتأرجح بهدوء حين تمر بها. وباب في نهاية القاعة يقودك لسلم حديدي ملتوي.

السلم يمضي إلى الأعلى والأسفل. تذهب إلى أعلى لتجد بابًا مسحورًا في السقف يفتح لك على غرفة ممتلئة بريش متطاير، حين تمشي عبره يتساقط كالثلج فوق الباب والأرضية ليخفيه عن الأنظار.

هناك ستة أبواب متماثلة. تختار أحدها عشوائيًّا جاذبًا خلفك بعض الريش، رائحة الصنوبر تفرض نفسها مع دخولك الغرفة التالية، فتجد نفسك في غابة من الأشجار مستديمة الخضرة، لكن هذه الأشجار ليست خضراء بل بيضاء متألقة تشع في الظلام المحيط بها.

من الصعب أن تعرف اتجاهك، فبمجرد أن تخطو بضع خطوات ستذوب الجدران وسط الظلال والفروع المتشابكة.

هناك صوت يبدو كضحكة امرأة قريبة، أو لعله حفيف الأوراق التي تدفعها لتشق طريقك، باحثًا عن الباب التالي والغرفة التالية.

تشعر بحرارة الأنفاس على رقبتك لكن حين تلتفت لا تجد أحدًا.

ما تتكهن به القطط

كونكورد- ماساشوستس، أكتوبر 1902

بعدما غادر حجرة قارئة الطالع وذهب يمينًا عملًا بنصيحتها، وجد بيلي نفسه أمام جمع صغير يشاهد عرضًا. لم يستطع معرفة ما هو في البداية فلم يكن مقامًا على منصة عالية. نظر عبر فجوة بين الجمهور ليرى حلقة أكبر من التي تستخدمها البهلوانة مرفوعة في الهواء، وحين اقترب لمح قطة سوداء تقفز عبرها دون أن يرى إلى أين، ثم التفتت أمامه امرأة ترتدي قبعة كبيرة لتكشف له شابًّا في مثل عمره ولكن أقصر منه يرتدي زيًّا أسود مصنوعًا من مختلف أنواع الأقمشة، وقبعة سوداء أيضًا. وعلى كتفيه يجلس زوج من القطط البيضاء، وحين رفع يده ذات القفاز الأسود باسطًا راحته قفزت واحدة من القطتين من كتفه لترتكز على راحته وترتد منها قافزة عبر الحلقة، مؤديةً شقلبةً رائعةً في قمة قفزتها.

ضحك أغلب الجمهور بينما القليل ومنهم بيلي صفق. تحركت السيدة ذات القبعة الكبيرة تمامًا لتكشف لبيلي المشهد بأكمله. فتجمدت يداه وسط التصفيق حين رأى الفتاة الشابة التي أمسكت بتلك القطة البيضاء وترفعها لتجلس على كتفها مع السوداء.

كانت أكبر سنًّا بالطبع، وشعرها الأحمر قد اختفى أسفل قبعة بيضاء، لكن زيها كان مماثلًا تمامًا للزي الذي رآه بها في آخر مرة: فستان مصنوع من مختلف الرقع البيضاء من كل أنواع الأقمشة الممكن تصورها، كلها بلون بياض الثلج، ومعطف أبيض بأزرار كثيرة، وزوج من القفازات البيضاء الناصعة.

حركت رأسها وتلاقت عيناهما فابتسمت له. ليس بالابتسامة التي توجهها عشوائيًّا للجمهور حين يُفاجأ أحدهم ببراعة الخدع التي تؤديها قططها، بل ابتسمت ابتسامة توجهها لشخص تعرفه لم تَرهُ منذ زمن. كان بيلي يستطيع رؤية الفارق وحقيقة أنها تذكرته أدخلته في حالة غريبة من السعادة. وأحس بحرارة في أذنيه برغم الليل البارد.

شاهد بقية الفقرة مشتتًا، فقد أولى انتباهه إلى الفتاة أكثر من القطط برغم أن الأخيرة مبهرة بطريقة لا يمكن تفويتها. واستطاعت سرقة انتباهه ثانية. وحين انتهت الفقرة انحنت الفتاة والفتى والقطط محيين الجمهور الذي رد بالتصفيق والصياح.

تساءل بيلي ما الذي يمكن أن يقوله؟ إن كان سيقول شيئًا أصلًا. وبينما بدأ المشاهدون في التفرق، إذ دفع رجل أمامه سيدة أخرى حجبت عن ناظريه الفتاة تمامًا، انطلق يدفع الجمهور حوله ليخترقهم لكنه حين خرج من بينهم لم يكن هناك أثر للفتاة أو الصبي أو القطط.

وسرعان ما تحول الجمع الذي كان حوله لمجرد أفراد متفرقة تمضي إلى الأمام والخلف، لم يكن هناك طريق آخر يستطيع تبينه، لا يوجد حوله سوى الجدران العالية المخططة. فدار حول نفسه ببطء باحثًا عن أي مكان يمكن أن يكونا قد ذهبا عبره، ركن منزوٍ أو باب. وبدأ يركل أرضًا في حنق أنه اقترب لهذه الدرجة فقط ليفشل بعدما أصبح أمله في متناول يده.

- أهلا بيلي.

أتته تحية الفتاة التي كانت تقف خلفه مباشرة. كانت قد خلعت قبعتها ليسيل شعرها الأحمر على كتفيها وقد استبدلت معطفها الأبيض بأسود مع وشاح أنيق ذي لون بنفسجي متوهج. لم يبق من زيها ما يدل على أنها نفس الفتاة التي أدت العرض منذ قليل سوى حافات أكمام فستانها وحذائها الأبيض. غير ذلك لا تميزها عن الزوار العاديين.

رد بيلي:

- أهلًا، لا أعرف اسمك.

قالت:

- أوه، آسفة، نسيت أننا لم نتعرف أبدًا كما يجب.

خلعت قفازيها الذين بديا له أكبر من ذلك الذي منحته له كدليل لجرأته منذ دهر بعيد.

قالت:

- أنا بينلوبي ولكن لم ينادِني أحد بهذا أبدًا، وأنا لا أحب الاسم على أي حال، لذا فاسمي الذي تحتاجه هو بوبيت.

امسك بيلي بيدها مصافحًا، كانت دافئة أكثر مما يتوقع حتى بحساب طبقات قفازها.

رد بيلي:

- بوبيت، أخبرتني قارئة الطالع بهذا لكني لم أفهم أنه اسمك.

ابتسمت له الفتاة وسألته:

- أرأيت إيزوبل؟

أومأ لها مجيبًا فأكملت:

- أليست لطيفة؟

أومأ مجددًا وإن لم تبد له الإيماءة ردًّا مناسبًا.

سألته بوبيت هامسة بلهجة درامية:

- هل أخبرتك بشيء عن مستقبلك؟

اعترف بيلي:

- لقد أخبرتني بالكثير لكني لم أفهمه.

هزت بوبيت رأسها متفهمة وقالت:

- تفعل هذا دومًا لكن نواياها طيبة.

سألها بيلي:

- أمسموح لك أن تخرجي هنا هكذا؟

مشيرًا إلى الزوار الذين يمرون بهم دون أن ينتبه إليهما أحد.

قالت:

- نعم بالطبع، بشرط أن نكون متخفين.

مشيرة إلى معطفها

وأكملت:

- في الحقيقة لا أحد يلقي بنظرة ثانية نحونا، أليس كذلك يا ويجيت.

التفتت إلى شاب يقف قريبًا منها، حتى بيلي لم يتعرف أنه رفيقها في العرض كان قد استبدل معطفه الأسود بآخر بني رياضي، واعتمر قبعة مماثلة يظهر من أسفلها شعره الذي يحمل نفس اللون الأحمر الصارخ لشعر بوبيت.

قال ويجيت:

- الناس لا تنتبه إلى أي شيء ما لم تمنحهم سببًا لهذا، وإن كان الشعر يساعد نوعًا كي نبدو أننا لا ننتمي للسيرك الأبيض والأسود.

قالت بوبيت:

- بيلي، هذا شقيقي وينسون.

قال مصححًا:

- ويجيت.

قالت بصوت غاضب:

- كنت سأقول هذا، وويجي، هذا هو بيلي.

مد بيلي يده قائلًا:

- سعيد بلقائك.

أجاب ويجيت:

- وأنا أيضًا. كنا سنخرج للمشي لو أحببت أن تنضم إلينا.

أضافت بوبيت:

- تعال رجاء. من النادر أن نجد صحبة.

قال بيلي:

- بالطبع، أحب هذا.

لم يكن ليخطر بباله سببًا للرفض وقد بدا سعيدًا من تبسطهما في الحديث معه.

سألهما:

- هل ما زال عليكما ... آآآآآه. القيام بأفعال السيرك؟

قال ويجيت وهو يقودهما:

- لا، ليس قبل ساعات على الأقل، تحتاج القطيطات للنوم، فالعرض يصيبهم بالنعاس.

قال بيلي:

- إنها بارعة للغاية، كيف علمتها كل تلك الخدع؟ لم أر قبلًا قطة تتشقلب في وسط الهواء هكذا.

لم يملك إلا أن يلاحظ أنه يمشي معهما بنفس الخطى كأن ثلاثتهم مجموعة واحدة، كان هذا غير ما اعتاد أن يسير متأخرًا بضع خطوات.

قالت بوبيت:

- أغلب القطط ستفعل أي شيء تريده منها لو طلبت بلطف، لكن التدريب مبكرًا يساعد كثيرا.

أضاف ويجيت:

- وتكافئهم بالكثير من الحلوى، الحلوى تساعد دومًا.

قالت بوبيت:

- هل رأيت عرض القطط الكبيرة؟

هز بيلي رأسه بالنفي، فأضافت:

- أوه يجب أن تراه، والدانا يقدمان عرض القطط الكبيرة، خيمتهما في نهاية هذا الممر.

وهي تشير نحو اليمين.

قال ويجيت:

- يشبه عرضنا ولكن بقطط أكبر.

أوضحت بوبيت:

- أكبر بكثير، الفهود ونمور الثلج الجميلة المبرقشة. إنهم رائعون حقًا.

أضاف ويجيت:

- ولهم خيمتهم الخاصة.

سأل بيلي:

- ولماذا ليس لكما خيمة؟

قالت بوبيت:

- لا نحتاج واحدة، نستطيع تقديم القليل من العروض في الليل وكل مما نحتاجه هو القطط والحلقات والخيوط وبعض الأشياء. كل من لا يحتاج لخيمة يؤدي في أي فراغ متاح.

قال ويجيت:

- هذا يعزز الأجواء، فأنت ترى القليل من السيرك حتى من قبل أن تختار خيمة لتدخلها. فقط بمجرد تجوالك قليلًا تشاهدنا.

قال بيلي:

- هذا رائع حقًّا للأشخاص المترددين، من يجدون من الصعب اختيار خيمة في وجود الكثير منها.

وابتسم حينما أضحكت كلمته بوبيت وويجت.

قالت بوبيت:

- هذا حقيقي.

كانوا قد وصلوا إلى النار في وسط الساحة. كان المكان مزدحمًا وهو ما زاد من دهشة بيلي أن لا أحدًا قد لاحظهما على الإطلاق، ويبدو

أن الجميع افترض أنهم مجموعة مثل أي شلة من الشباب الذين يزورون السيرك في المساء.

قال ويجيت:

- أنا جائع.

تذمرت بوبيت:

- أنت دومًا جائع. أنحضر شيئًا لنأكله؟

رد ويجيت:

- نعم.

أخرجت بوبيت لسانها له وقالت:

- كنت أسأل بيلي، هل نحضر شيئًا لنأكله يا بيلي؟

بدا له أن الألفة بين بوبيت وويجيت أفضل كثيرًا من حاله مع كارولين. وافترض أن هذا بسبب تقارب عمريهما. بديا له أقرب ما يكونا للتوءمين لكنه خشي أن سؤاله سيبدو وقحًا.

قالت بوبيت:

- هل جربت هٰذا الشيء بالقرفة؟ إنه جديد، ماذا كان يسمى يا ويجي؟

هز ويجيت كتفيه وقال:

- تلك الأشياء الرائعة اللذيذة بالقرفة؟ لا أظن أن كل الأشياء الجديدة قد سميت بعد.

قال بيلي:

- لم أجربها بعد لكن تبدو رائعة.

قال ويجيت:

- إنها كذلك. طبقات من العجين والقرفة والسكر كلها ملفوفة في شطيرة ومغطاة بالمثلجات.

علق بيلي:

- واو!

رد ويجيت:

- بالضبط! وعلينا أن نحصل على بعض الكاكاو وشكولاتة الفئران.

قال بيلي:

- لدي بعض شكولاتة الفئران، اشتريتها مبكرًا.

قال ويجيت:

- جيد، أنت تفكر جيدًا، من الجيد أن تكون مستعدًا. يبدو أنكِ على حق بشأنه يا بوبيت.

نظر بيلي متسائلًا لبوبيت لكنها اكتفت بالابتسام.

سألت ويجيت:

- أنذهب أنا وبيلي لنحضر الكاكاو بينما تشتري أنت الشيء بالقرفة؟

أومأ ويجيت موافقًا على خطتها قائلًا:

- بالتأكيد، أنلتقي عند النار؟

أومأت موافقة فرفع بوبيت قبعته محييًا وغاص وسط الزحام.

استمر بيلي وبوبيت في السير حول النار، وبعد قليل من الصمت الودود قرر بيلي أن يسألها رغم توتره، لكنه كان يكره سؤالها أمام أخيها.

- أيمكنني سؤالك عن شيء؟

قالت بوبيت:

- بالطبع.

كان هناك طابور طويل أمام بائع الكاكاو لكنه انتبه لبوبيت التي أشارت إليه بثلاثة أصابع فابتسم لها وأومأ لها مجيبًا.

تلعثم بيلي وهو يبحث عن الكلمات:

- عندما... هممم... حين كان السيرك هنا في المرة الأخيرة، وأنا... حسنًا...

أحسَّ بالضيق فقد كان السؤال واضحًا في رأسه.

قالت بوبيت:

- نعم؟

سأل بيلي:

- كيف عرفت اسمي؟ وكيف عرفت أنني كنت هناك؟

قالت بوبيت:

- همممممم.»

وبدا أنها تبحث عن رد مناسب.

قالت:

- ليس من السهل شرح الأمر، أنا أرى الأشياء قبل حدوثها، رأيتك قادمًا، ليس قبل وصولك بكثير، وليس من المعتاد أن أرى الكثير من التفاصيل ولكني حين رأيتك عرفت اسمك، تمامًا مثلما عرفت أن وشاحك أزرق.

وصلا إلى بداية الصف ليجدا أن البائع قد أعد بالفعل ثلاثة أكواب مخططة من الكاكاو في انتظارهما بإضافة من الكريمة المخفوقة، فناولت بوبيت واحدًا لبيلي وحملت الاثنين الآخرين. ولاحظ بيلي أن

البائع لَوَّح لهما دون أن يأخذ ثمنها، فافترض أن الكاكاو المجاني من مميزات العمل في السيرك.

برغم أنه لم ينتظر ردًّا معينًا فلم تكن إجابة بوبيت متوقعة، فسألها:

- إذن فأنت ترين كل شيء قبل أن يحدث؟

هزت رأسها:

- كلا، ليس كل شيء، أحيانًا أرى لمحات من الأمر كما لو كانت مقتطفات وصور من كتاب، لكن هذا الكتاب ينقصه الكثير من الصفحات، وقد سقط في بركة فأصبحت بعض صفحاته مطموسة والبعض الآخر واضحًا، هل يبدو هذا مفهوما؟

أجابها بيلي:

- ليس بالفعل.

ضحكت قائلة:

- أعرف أن الأمر غريب.

قال بيلي:

- ليس كذلك.

نظرت بوبيت إليه وقد بدا تشككها في إنكاره واضحًا فقال:

- حسنًا، نعم، ربما غريب نوعًا ما، لكنها غرابة الاختلاف وليست غرابة منفرة.

قالت بوبيت:

- شكرًا لك يا بيلي.

دارا حول الساحة، عائدين إلى النار؛ حيث كان ويجيت ينتظرهما ممسكًا بكيس ورقي ويتأمل ألسنة اللهب البيضاء المتأججة.

سألهما:

- لماذا تأخرتما؟

ناولته بوبيت كوبه قائلة:

- كان أمامنا طابور. ألم تقف في واحد؟

قال ويجيت وهو يهز الكيس:

- لا، يبدو أن الناس لم تعرف بعد روعة هذه الأشياء. أنحن جاهزون الآن؟

قالت بوبيت:

- أظن ذلك.

سأل بيلي:

- إلى أين سنذهب؟

تبادلت بوبيت النظرات مع ويجيت قبل أن تجيب:

- نحن نقوم بجولات، ندور في السيرك، كي.. كي نبقي أنظارنا حول الأمور. تريد المجيء معنا أليس كذلك؟

قال بيلي:

- بالطبع.

وقد أحس بالارتياح أنه لا يفرض نفسه عليهما.

مَشَوْا في دوائر حول السيرك، يرتشفون من الكاكاو ويمضغون فئران الشكولاتة ومعجنات القرفة بالسكر التي كانت طيبة بالفعل. حكا له بوبيت وويجيت قصصًا عن السيرك وهما يشيران إلى الخيم أثناء مرورهم بها، بينما أجاب بيلي عن أسئلتهما حول مدينته، وقد تعجب من اهتمامهما بأشياء يعتبرها مملة. كانوا يتحادثون بتبسط كما لو كان

يعرفهما منذ سنوات، تبسط ممتزج بحماس التعرف على صديق جديد يحمل قصصًا جديدة.

ولو كان ويجيت وبوبيت ينظران إلى شيء آخر غيره هو والكاكاو فإن بيلي لم يعرفه.

وبينما يلقون بالأكواب الفارغة في القمامة لمح بيلي لافتة لم يرها من قبل فسألهما:

- ما هو مرقاب النجوم؟

قال بوبيت متسائلًا:

- أنصعد لقليل من المراقبة بوبيت؟

توقفت لحظة قبل أن تشير إليه بالإيجاب فأوضح لبيلي:

- بوبيت تقرأ النجوم، وهذا هو أسهل مكان لمعرفة المستقبل.

قالت بوبيت بخفوت:

- لم يكن الأمر بهذه السهولة مؤخرًا، لكن فلنذهب، فهو لا يفتح إلا في الليالي الصافية فلا نعرف متى ستأتي الفرصة ثانية كي تراه ونحن هنا.

تقدموا إلى الداخل كي يلحقوا بطابور صاعد لتلك السلالم الملتوية حول الخيمة يفصلهم عن داخلها ستارة سوداء ثقيلة.

كانت الجدران مغطاة برسوم توضيحية من نقط بيضاء وخطوط على ورق أسود توضح المجموعات النجمية.

تساءل بيلي:

- هل الأمر مثلما تفعل قارئة الطالع باستخدام تلك الصور؟

لم يكن قادرًا بعد على استيعاب مفهوم قراءة المستقبل.

قالت بوبيت:

- نوعًا ما لكن مختلف عنه، لا أستطيع قراءة أوراق التاروت نهائيًّا، لكن ويجيت يستطيع.

هز ويجيت كتفيه:

- إنها قصص على ورق، عليك أن ترى كيف تمضي القصة على كل بطاقة مع الأخرى، ليس الأمر بهذه الصعوبة ولكن تكمن المشكلة في كل تلك الاحتمالات والطرق المختلفة لتسلكها. أما بوبيت فهي ترى الأشياء التي تحدث فعلًا.

أضافت بوبيت:

- لكنها لا تكون واضحة، لا يوجد سياق وفي أغلب الأحيان لا أفهم ماذا تعني حتى تحدث بالفعل. أحيانًا بعد فوات الأوان.

قال ويجيت وهو يقرص شقيقته في كتفها:

- حق الرفض مكفول يا بيت، يمكننا الاكتفاء بالجولة لو أحببت.

في نهاية السلالم وصلوا إلى رصيف أسود وكل ما عليه غارق في سواد لا متناهٍ عدا مرشد السيرك المتشح بالبياض. ابتسم هذا الأخير لبوبيت وويجيت مع نظرة فضولية لبيلي وهو يقودهم وسط الظلمة لشيء يشبه الزلاجة أو العربة.

كانت أريكة مبطنة بظهر وجوانب عالية والباب في الجانب أغلق بمزلاج خلفهم بعدما جلست بوبيت بين بيلي وويجيت. وزحفت ببطء دون أن يستطيع بيلي رؤية شيء سوى الظلام.

ثم أتى صوت تكة من حولهم وهبطت العربة قليلًا وفي الوقت نفسه تأرجحت للخلف ليجدوا أنفسهم ينظرون إلى أعلى بدلًا من الأمام.

كانت الخيمة دون قمة، فالجزء العلوي منها مفتوح، وسماء الليل واضحة لهم.

كان إحساسًا مختلفًا عن رؤية النجوم وأنت راقد أرضًا في الحقل. وهو أمر اعتاد بيلي فعله، لم يكن حوله أشجار تزحف على المشهد والتأرجح الهادئ للعربة جعله يشعر بفقدان الوزن.

وكان الصمت تامًّا. بينما تتحرك العربة فيما بدا له مسارًا دائريًّا فلا يمكنه سماع أي شيء عدا صرير خافت وصوت أنفاس بوبيت بجواره. كأنما السيرك بأكمله قد ابتلعه الظلام.

ألقى نظرة جواره على بوبيت التي كانت تتأمله بدلًا من السماء. كشرت له ثم أشاحت بوجهها.

تردد بيلي في سؤالها عما تراه في النجوم.

لكن ويجيت استبق السؤال:

- ليس عليك إن لم ترغبي.

نظرت إليه نظرة ذات مغزى ثم عادت للتحديق بالأعلى، ناظرة إلى سماء الليل الصافية، راقبها بيلي بحذر، بدت كأنها تحاول تفسير رسمٍ أو لافتة بعيدة عنها وقد ضيقت عينها بعض الشيء.

توقفت فجأة واضعة يداها على وجهها ضاغطة بأصابعها على عيناها ووضع ويجيت يده على كتفها.

سأل بيلي:

- أأنت بخير؟

أخذت بوبيت نفسًا عميقًا قبل أن تومئ. مبقية يداها على وجهها.

قالت بصوت مكتوم:

- أنا بخير، كان .... ساطعًا جدًّا، آلم رأسي.

خفضت يداها وهزت رأسها وبدا أن أيًّا ما كان ما جعلها مضطربة قد مضى.

وحتى نهاية الجولة لم يرفع أحدهم ناظريه نحو السماء ثانية.

وبينما ينزلون السلالم الملتوية نحو المخرج قال بيلي بخفوت:

- آنا آسف.

قالت بوبيت:

- ليس خطأك. كان يجب أن أتوقع هذا فالنجوم تفعل هذا مؤخرًا. لا توضح شيئًا وتسبب الصداع. ربما من الأفضل أن أتوقف لفترة.

قال ويجيت وقد عادوا لبقية السيرك:

- تحتاجين بعض المرح، متاهة السحب؟

أومأت بوبيت وقد أرخت كتفيها قليلًا.

سأل بيلي:

- ما متاهة السحب؟

هز ويجيت رأسه وقال:

- أنت لم تعثر على أفضل الخيم حتى الآن! أليس كذلك؟ سيكون عليك العودة مرة أخرى، لا يمكننا أن نفعلها في ليلة واحدة، ربما هذا هو ما سبب الصداع لبيت فقد رأتنا نتحرك عبر كل خيمة كي ترى ما يفوتك.

قالت بوبيت فجأة مغيرة مجرى الحديث:

- ويجي يستطيع رؤية الماضي، وربما لهذا حكاياته دومًا جيدة.

قال ويجيت:

- الماضي أسهل، فهو دومًا موجود.

سأله بيلي:

- في النجوم؟

قال ويجيت:

- لا، على الناس. الماضي يظل عالقًا بك تمامًا مثلما يعلق مسحوق السكر بأصابعك. بعض الناس يستطيعون نفضه لكنه يظل موجودًا، الأحداث والأشياء التي أتت بك لتكون هنا الآن. أنا أستطيع ... حسنًا.. القراءة ليست الكلمة الصحيحة، لكنها ليست الكلمة الصحيحة لما تراه بوبيت في النجوم كذلك.

قال بيلي:

- إذن فأنت تستطيع رؤية ماضيَّ عليّ؟

قال ويجيت:

- أستطيع، لكني أحاول ألا أفعل هذا دون استئذان ما لم يقفز شيء ما لي من تلقاء نفسه. أتسمح لي؟

هز بيلي رأسه قائلًا:

- على الرحب والسعة.

حدق ويجيت إليه للحظة، ليست طويلة كي يضيق بيلي بوقع نظراته وإن اقتربت من ذلك.

قال ويجيت:

- هناك شجرة، شجرة بلوط هائلة عجوز هي بالنسبة إليك كالمنزل أكثر من بيتك. لكن ليس مثل هذا.

وأشار لما حولهم من خيم وأضواء.

أكمل:

- تشعر بالوحدة حتى وأنت بين الناس. والتفاحات. تبدو شقيقتك كجوهرة نادرة!

قالها بسخرية، فضحك بيلي وقال:

- هذا يبدو صحيحًا.

قالت بوبيت:

- ما التفاحات؟

أوضح بيلي:

- عائلتي لديها مزرعة بها بستان تفاح.

قالت بوبيت:

- أوه يبدو هذا جميلًا.

لم تبد تلك الأشجار القصيرة الملتوية جميلة أبدًا في نظر بيلي.

قال ويجيت وهم ينعطفون:

- ها قد وصلنا.

برغم أن بيلي لم يزر السيرك إلا قليلًا فقد اندهش أنه لم ير هذه الخيمة من قبل، كانت عالية جدًّا، تقريبًا بنفس ارتفاع خيمة لاعبي الأكروبات لكنها أضيق منها، توقف ليقرأ اللافتة على الباب.

متاهة السحب

رحلة عبر الأبعاد

صعود في لعنان السماء

لا توجد بداية

لا توجد نهاية

ادخل حينما تحب

غادر حينما تريد

ولا تخش السقوط.

بالداخل كانت الخيمة ذات جدران سوداء مع مركز به منشأة هائلة بيضاء تتلألأ ولم يعرف بيلي كيف يسميها. كانت تعلو عبر الخيمة بأكملها إلى طريق يرتفع مع محيطها. لولب ملتوٍ يبدأ من مدخل الخيمة ويدور حولها، الأرضية خلف هذا الطريق مغطاة بكرات بيضاء، الآلاف منها متكومة كفقاقيع الصابون.

والبرج نفسه مكون من سلسلة من المنصات تطفو بأشكال غريبة شفافة، بدت لبيلي كالسحب المتراكمة في طبقات مثل الكعكة. والفراغ بين الطبقات المختلفة يتنوع بين مساحة كفاية كي تمشي فيها واقفًا، وأخرى تستطيع بالكاد الزحف فيها. وهنا وهناك بضعة أجزاء تكاد تطفو منفصلة عن البرج الرئيسي لتنجرف في الفراغ.

وفي كل مكان هناك زوار يصعدون أو يتسلقون أو يتعلقون بالحافات ويمشون عبر الممرات الصاعدة والنازلة. بعض المنصات تتحرك مع ثقل الناس والبعض الآخر يبدو قويًّا متحملًا. والمنشأة بالكامل تتحرك باستمرار، حركة خفيفة كأنها تتنفس.

سأل بيلي:

- لماذا تسمى بالمتاهة؟

رد ويجيت:

- سترى

ساروا عبر الممر الذي يتأرجح بهدوء كطوف فوق الماء وجاهد بيلي كي يحافظ على اتزانه بينما ينظر إلى أعلى.

بعض المنصات كانت معلقة من أعلى بالحبال أو السلاسل. وفي المستويات السفلية كانت هناك صوارٍ تخترق عدة منصات متتابعة، ولو أن بيلي لم يستطع معرفة إن كانت تمتد حتى القمة. بعض الأماكن محددة بالشباك والبعض الآخر حبال تشبه الشرائط.

وقفوا عند الطرف البعيد؛ حيث يتأرجح الممر كي يقترب من المنصة التي بأسفلهم.

التقط بيلي واحدة من الكرات البيضاء. كانت أخف مما تبدو، وناعمة كالقطط. وفي أرجاء الخيمة كان الناس يقذفونها على بعضهم، مثل كرات الثلج، وإن كانت لا تتفتت مثلها بل ترتد عن أهدافها وتطفو بنعومة أرضًا.

ألقى بيلي بالكرة من يده وأسرع يتبع بوببيت وويجيت.

ما إن قطعوا بضع خطوات في المنشأة حتى أدرك سبب تسميتها بالمتاهة. كان يتوقع جدرانًا ومنعطفات وطرقًا مسدودة، لكن كانت متاهة مختلفة. منصات معلقة في مختلف الارتفاعات بعضها منخفض حتى مستوى ركبته أو وسطه والبعض يعلو فوق رأسه ويتداخلون في نمط عشوائي يجعلها متاهة تمضي بك إلى أسفل وإلى أعلى مثلما تمضي يمينًا ويسارًا.

قال ويجيت:

- أراكما فيما بعد.

ولوح لهما وهو يقفز من المنصة المجاورة كي يصعد المنصة أعلاهما.

قالت بوبيت:

- ويجي دومًا يصعد مباشرة إلى أعلى القمة وهو يعرف كل الطرق المختصرة إلى هناك.

ـخذ بيلي وبوببيت طريقًا أكثر تمهلًا، مختارين المنصات التي يتسلقونها عشوائيًّا، زاحفين عبر الشبكات البيضاء أو يناوران بين الطرقات الضيقة حتى لم يعد بيلي يعرف أين طرف البناء أو في إلى أي ارتفاع قد تسلقا. لكن ما خفف قلقه أن بوببيت لم يبدُ عليها التوتر الذي صاحبها منذ كانا في مرقاب النجوم، فهي الآن تضحك وتساعده في المنعطفات الصعبة.

في النهاية سألها بيلي وقد أصابه الشك في قدرته على معرفة طريق العودة:

- كيف سننزل إلى الأسفل؟

قالت بوببيت:

- أسهل طريق هو القفز.

ثم جذبته نحو منعطف خفيٍّ يكشف حافة المنصة، كانا على ارتفاع أعلى بكثير مما ظن، برغم أنهما لم يصلا إلى القمة بعد.

قالت بوببيت:

- لا تخش شيئًا، إنه آمن.

حدق بيلي من الحافة وقال:

- هذا مستحيل.

ردت بوببيت:

- لا يوجد مستحيل.

وابتسمت له وقفزت ليرفرف شعرها الأحمر فوقها وهي تسقط قبل أن تختفي في بحر من الكرات البيضاء أسفله.

ابتلعتها الكرات بالكامل قبل أن تظهر ثانية، كان شعرها يظهر صارخًا وسط البياض المحيط وهي تلوح له، لم يتردد بيلي سوى للحظة وقاوم الرغبة الملحة بغلق عينيه وهو يقفز، وبدلًا من ذلك انفجر في الضحك وهو يتقلب في الهواء.

كان إحساسه حينما وصل لبركة الكرات يمكن مقارنته بالسقوط وسط سحابة ناعمة خفيفة مريحة.

وحينما خرج بيلي منها وجد كلا من بوبيت وويجيت ينتظرانه على الممر القريب، وبوبيت جالسة على الحافة تأرجح قدميها.

قال ويجيت وهو يخرج ساعة من جيبه:

- علينا العودة، يجب أن نجهز القطط لعرض آخر فقد اقترب منتصف الليل.

قال بيلي:

- أحقًّا؟ لم أتصور أن الوقت قد مر هكذا. يجب أن أعود إلى البيت الآن.

قالت بوبيت:

- لنمشي معك حتى البوابة يا بيلي. فهناك شيء أريد أن أحضره لك.

مَشَوْا معًا عبر الممرات الملتوية ليقطعوا الساحة نحو البوابة. أخذت بوبيت بيد بيلي وهم يعبرون النفق المظلم قاطعة طريقها بسهولة. لم يعد الميدان أمام البوابة مزدحمًا في هذه الساعة المتأخرة وإن ظل يتوافد عبره قليل من الزوار.

قالت بوبيت:

- انتظر هنا. سأعود حالًا.

وجرت مسرعة نحو كشك التذاكر وبيلي يراقب بتوتر دقات الساعة المقتربة من منتصف الليل وعادت بوبيت حاملة في يدها شيئًا فضيًّا.

قال ويجيت حين رآها:

- أوه، فكرة ذكية بيت.

نظر بيلي لهما متحيرًا، كانت قطعة ورق فضية في مثل حجم تذكرته وحين ناولتها بوبيت له أوضحت:

- هذا تصريح خاص للزوار المهمين، فلا تحتاج للدفع كلما أتيت للسيرك، فقط تريه لكشك التذاكر وسيدعونك تمر.

حدق بيلي إليه بعيون واسعة، كان على وجهه قد كتب بحبر أسود: **هذه البطاقة تتيح لحاملها دخولًا غير محدود.**

وعلى الوجه الآخر سيرك الأحلام

المالك: شاندرش كريستوف لوفيفرا

بدا بيلي مدهوشًا يحدق إلى البطاقة الفضية اللامعة فقالت بوبيت بصوت أقلقه نظراته الجامدة:

- ظننت أنها ستعجبك. إن كنت تريد العودة ونحن ما زلنا هنا.

رفع بيلي رأسه قائلًا:

- هذا رائع، شكرًا جزيلًا لك.

ابتسمت بوبيت قائلة:

- على الرحب، وقلت لهم أن يخبرونني أنا وويجيت حينما تأتي، حتى نعرف ونستطيع العثور عليك. لو أحببت.

قال بيلي:

- هذا رائع حقًا، شكرًا لك.

قال ويجيت وهو يمد يده:

- إذن فسنراك قريبًا؟

أجاب بيلي وهو يصافحه:

- بالتأكيد، أستطيع العودة مساء الغد.

قالت بوبيت:

- سيكون هذا جميلًا.

وما إن ترك بيلي يد أخيها حتى مالت عليه وطبعت قبلة على خده وهي تقول:

- ليلة سعيدة.

أحس بيلي بالحرارة تصعد لوجنتيه وقال:

- وأنننننت. أأ نت. أيضًا، ليلة سعيدة.

ولوح لهما قبل أن يخترقا الستارة الثقيلة، وما إن اختفيا حتى اتجه إلى منزله.

بدا أن دهرًا قد مر منذ قطع هذا الطريق ذاهبًا للسيرك برغم أنه لم يمض سوى بضع ساعات. بل أكثر من هذا بدا أن بيلي الذي دخل السيرك هو شخص مختلف تمامًا عن هذا الذي يغادره الآن حاملًا بطاقة فضية في جيبه. تساءل أيهما هو بيلي الحقيقي، فبالتأكيد إن بيلي الذي يقضي ساعات وحيدًا فوق الأشجار ليس نفس الشخص الذي يحمل تصريحًا خاصًا لسيرك مذهل، والذي يصنع صداقات مع شخصيات مبهرة دون جهد.

حينما وصل المزرعة كان واثقًا أن بيلي الذي هو عليه الآن هو الأقرب لما يجب أن يكونه، وليس بيلي الذي كان عليه منذ يوم. ربما لا يفهم بالضبط ما الذي يعنيه هذا لكنه لم يعد يفكر في الأمر.

وفي أحلامه كان فارسًا على صهوة جواد ممسكًا بسيف فضي، ولم يبد له حلمًا غريبًا.

وجهًا لوجه

لندن أغسطس 1896

كانت مأدبة منتصف الليل هذه المرة باهتة برغم عدد الحضور. كان السيرك يستعد لأن يقام بالقرب من لندن بعدما غادر دبلن، لذا تواجد عدد من المؤدين. كذلك كان السيد باريس آتيًا من فيينا في زيارة.

قضت سيليا بوين أغلب الوجبة محدثة السيدة بادفا، الجالسة على يسارها في زي من الحرير الأزرق اللازوردي. كانت سيليا ترتدي فستانًا من تصميم بادفا كان في الأصل معدًّا لعروضها لكنه بدا غير ملائم، فقد كان القماش الفضي يعكس الإضاءة مع كل انحناء أو التفات حتى أصبح واضحًا أنه يشتت الانتباه. لكن هذا التأثير كان رائعًا فلم تتخل عنه سيليا واحتفظت به لارتدائه في المناسبات خارج السيرك.

علقت السيدة بادفا:

- هناك من لا يستطيع رفع عينيه بعيدًا عنك عزيزتي.

وأمالت بنظارتها في اتجاه الباب؛ حيث يقف ماركو في صمت بجانبه عاقدًا يداه خلف ظهره.

قالت سيليا دون أن تلتفت:

- لعله معجب بتصميمك الرائع.

ردت:

- أراهن أنه مهتم بما في الداخل أكثر من الفستان نفسه.

اكتفت سيليا بالضحك لكنها كانت تعرف أن السيدة بادفا على حق، فقد كانت تشعر بنظرات ماركو تخترق ظهرها طوال الأمسية. وأحست بصعوبة تجاهلها.

لم يبتعد نظره عن سيليا سوى مرة واحدة، حينما أسقط شاندرش كأس نبيذ من الكريستال الثقيل بالكاد تفادت الاصطدام بأحد الشمعدانات لينسكب النبيذ الأحمر على الديباج الذهبي الذي يغطي المائدة.

ولكن قبل أن يتحرك ماركو قفزت سيليا من مكانها، وأعادت الزجاجة لوضعها دون أن تلمسها، وهو الأمر الذي لم يمكن لأحد سوى شاندرش أن يراه، وحين رفعت يديها كانت الكأس ممتلئة ثانية والمائدة خالية من البقع.

تمتم شاندرش:

- أخرق، أخرق.

وألقى نظرة حذرة على سيليا قبل أن يستأنف حديثه مع السيد باريس.

قالت السيدة بادفا:

- يمكنك أن تصبحي بالرينا، تملكين قدمين موهوبتين.

قالت سيليا:

- أنا موهوبة حتى دون قدمي.

كاد السيد باريس يسقط كأسه هو الآخر بيننا قهقهت السيدة بادفا.

لبقية الأمسية حرصت سيليا على إبقاء عينها لمراقبة شاندرش. لكن الأخير قضى أغلب الوقت يناقش تجديدًا ما يريد تنفيذه في المنزل مع السيد باريس.

وكعادته، تظاهر السيد باريس أنه لم يلاحظ شيئًا. أما شاندرش فلم يمس كأسه ثانية وظلت ممتلئة حتى رُفعت مع نهاية الوجبة.

بعد العشاء كان سيليا آخر من غادر، فقد نسيت شالها ورفضت أن ينتظرها أحد بيننا تبحث عنه ولوحت لهم مودعة متمنية ليلة سعيدة.

وجدت صعوبة في العثور على الشال العاجي وسط زحام بيت آل لوفيفرا، برغم أنها تتبعت مسارها عبر المكتبة وحجرة الطعام لكنها فشلت في العثور عليه.

في النهاية أيست من البحث وعادت للبهو؛ حيث كان ماركو يقف منتظرًا حاملًا الشال على ذراعه وسألها:

- أتبحثين عن هذا آنسة بوين.

وتحرك ليضعه على كافيها، لكنّ الشال تفتت بين يديه إلى تراب.

وحين رفع عينيه إليها وجدها ترتدي الشال معقودًا بالفعل كما لو كان لم يسقط من عليها أصلًا.

قالت:

- شكرًا لك، ليلة طيبة.

ومرقت من جواره قبل أن يستطيع الرد.

هرع خلفها وهي تهبط درجات المدخل الأمامي مناديًا عليها:

- آنسة بوين؟

التفتت لترد بعدما وصلت إلى الرصيف:

- نعم؟

قال ماركو:

- كنت أطمع لو أثقل عليك بتناول هذا الشراب الذي لم نحظ به في براج.

وتعلقت عيناه بعينيها وهي تفكر.

كان وقع نظراته أشد وطأة مما كان أثناء المأدبة، هذا الوقع الذي كانت تحسه مُكرِه لها، وهو تكنيك كان والدها مغرمًا بممارسته عليها. لكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد، لقد أحست أن رجاءه حقيقي، أقرب إلى المناشدة ولذا مع فضولها القوي وجدت نفسها تومئ بالموافقة.

ابتسم والتفت عائدًا للمنزل تاركًا الباب مفتوحًا خلفه. تبعته بعد لحظات لينغلق الباب خلفها. كانت حجرة الطعام قد نظفت لكن ما زالت الشموع الذائبة تشتعل في شمعداناتها ويوجد كأسان من النبيذ معدان على المائدة.

سألت سيليا:

- أين ذهب شاندرش؟

والتقطت أحد الكأسين ومشت إلى الجانب المقابل من المائدة لتواجه ماركو.

قال ماركو وهو يأخذ كأسه:

- انتقل إلى الطابق الخامس، لقد جدد جناح الخدم القديم ليجعله جناحه الخاص لأنه يحب المشهد من أعلى، ولن ينزل منه حتى الصباح. بقية العاملين قد غادروا، لذا فأغلب البيت لنا كيفما نحب.

سألته سيليا:

- أأنت معتاد على إحضار ضيوفك هنا بعدما يذهب.

- أبدًا.

تأملته سيليا وهي ترتشف من كأسها. كان هناك شيء ما فيه يضايقها لكنها لم تعرف ما هو بالتحديد.

سألته سيليا بعد قليل:

- أحقًا أصر شاندرش أن تكون كل النار في السيرك بلون أبيض كي تتناسب مع ألوانه؟

قال ماركو:

- بالفعل، طلب مني أن أبحث عن كيميائي أو ما شابه. واخترت أن أتولى الأمر بنفسي.

ومرر أصابعه فوق لهب الشمعة ليتغير من الذهبي الدافئ إلى الأبيض البارد مع لمسة من لون فضي أزرق في المركز، مرر أصابعه في الاتجاه العكسي ليعود اللهب لحالته.

سألها ماركو:

- ماذا تسمينه؟

لم تحتج سيليا للسؤال عن قصده بل أجابت فورًا:

- التلاعب، كنت أسميه وأنا صغيرة سحرًا، واحتاج مني الأمر زمنًا حتى كففت عن هذا، ولو أن والدي لم يهتم أبدًا بتسميته، يلقبه أحيانًا أثارة الفتنة أو التلاعب القهري بالكون حينما لا يكون مزاجه مناسبًا للإيجاز.

رد ماركو:

- الفتنة؟ لم أفكر فيه بهذا الشكل من قبل.

قالت سيليا:

- غير معقول، الكلمة تصف ما تفعله أنت بالذات، أنت تفتن. وببراعة أيضًا، لقد أوقعت الكثيرين في حبائلك، إيزوبل وشاندرش وحتمًا هناك آخرين.

سألها:

- كيف عرفتِ بأمر إيزوبل؟

- إن طاقم السيرك كبير حقًّا لكنهم جميعًا يتحدثون معًا، من الواضح إخلاصها لشخص لم يقابله أحدنا، ولاحظت من البداية أنها توليني اهتمامًا خاصًّا، حتى تصورت للحظة أنها ربما تكون خصمي. وبعدما ظهرت أنت في براج بينما كانت هي تنتظر **شخصًا ما** كان من السهل استنتاج البقية. لا أعتقد أن هناك أحدًا آخر يعرف. لدى التوءمين موراي نظرية عن أنها تحب طيف شخص ما وليس شخصًا حقيقيًّا.

قال ماركو:

- يبدو أن التوءمين موراي ذكيان حقًّا. لو أنني **أفتن** حقًّا بهذه الطريقة فهو أمر غير مقصود عادة، كان هذا مفيدًا للحصول على الوظيفة لدى شاندرش، فلم يكن لدي سوى توصية واحدة والقليل من الخبرة، وإن كان من الواضح أنني عاجز عن التأثير عليك.

أنزلت سيليا كأسها لا تدري ماذا تصنع معه، تذبذب ضوء الشموع كان يساعد على إبراز وسامته لذا أشاحت بنظرها قبل أن ترد محولة انتباهها إلى محتويات رف الموقد.

قالت:

- اعتاد والدي على فعل شيء مشابه، هذا الإغواء الجاذب الفاتن. أمضيت السنوات المبكرة من عمري أراقب حنين أمي له، العشق والشغف الذي استمر طويلًا بعدما ذهب من قلبه هذا الاهتمام الواهن الذي كان يكنه لها. حتى أتى هذا اليوم وعمري خمس سنوات حينما قتلت نفسها. وحينما كبرت بما يكفي كي أفهم عاهدت نفسي ألا أسبب لي معاناة لأجل أي شخص، لذا سيحتاج الأمر منك لأكثر من ابتسامتك الفاتنة كي تغويني.

حينما عادت بنظرها إليه وجدت تلك الابتسامة قد اختفت.

قال ماركو:

- آسف لفقدانك أمك بهذه الطريقة.

أجابته سيليا وقد فاجأها صدق تعاطفه:

- كان هذا منذ زمن بعيد. لكن شكرًا لك.

سألها:

- أتذكرين الكثير عنها؟

- أتذكر الانطباعات أكثر من الأحداث، أتذكر بكاءها المستمر، أتذكر كيف كانت تنظر إليّ كما لو كنت شيئًا تخاف منه.

قال ماركو:

- لا أتذكر أي شيء عن والديّ. لا أذكر شيئًا قبل الميتم الذي تم إخراجي منه فقط لأنني أحظى بصفة ما غير محددة. طُلب مني الكثير من القراءة، سافرت ودرست وجُهزت كي ألعب لعبة خفية. وهذا كل ما أفعله بجوار الحسابات وإعداد الدفاتر وأيًّا ما كان يطلبه شاندرش مني. وهكذا قضيت معظم حياتي.

سألته سيليا:

- لماذا تصارحني هكذا؟

قال ماركو:

- لأنه من المريح أن أكون صريحًا تمامًا مع شخص ما على سبيل التغيير. أعتقد كذلك أنك ستعرفين لو حاولت الكذب عليك. وآمل أن أتلقى منك نفس المعاملة.

فكرت سيليا في الأمر قليلًا قبل أن توافق.

قالت:

- أنت تذكرني قليلًا بوالدي.

سألها ماركو:

- كيف؟

قالت:

- الطريقة التي تتلاعب بها بالإدراك. لم أجِد هذا أبدًا. أنا أفضل في التعامل مع الأشياء الحسية. بالمناسبة لا حاجة لك لتفعل هذا معي.

وقد أدركت أخيرًا ما الذي يوترها في ملامحه.

سألها:

- أفعل ماذا؟

- أن تبدو هكذا! إنه متقن لكن أستطيع معرفة أنه غير حقيقي، لا بد أنه أمر خانق أن تستمر في فعل هذا طوال الوقت.

تجهم ماركو ثم ببطء شديد بدأ وجهه في التغير. اللحية المشذبة بهتت واختفت، الملامح المنحوتة أصبحت أنعم وأصغر، وعيناه ذات اللون الأخضر اللامع تحولتا إلى الرمادي المخضر.

الوجه الزائف كان وسيمًا بالفعل، لكن وسامته متعمدة، بدا أنه يولي اهتمامًا كبيرًا لجاذبيته وهو الأمر الذي كان منفرًا لسيليا.

وأمر آخر، الفراغ الذي نتج عن هذا الوهم، الإحساس بأنه غير موجود حقًّا داخل الغرفة.

لكن الآن، الآن هناك شخص مختلف يقف أمامها. شخص حاضر بالفعل، كما لو أن حاجزًا ما بينهما تمت إزالته. لم تتغير المسافة بينهما لكنه بدا أكثر قربًا. وما زال وجهه وسيمًا أيضًا.

بدت قوة نظراته أوقع مع عينيه الحقيقيتين. وحين تنظر إليهما الآن تستطيع النظر في أعماقه دون أن يشتتها لونهما.

أحست سيليا بحرارة قلبها تتصاعد ونجحت بالكاد أن تجعل احمرار وجنتيها غير ظاهر في ضوء الشموع.

ثم أدركت أن هناك شيئًا ما مألوفًا أيضًا.

قالت وقد عثرت على ذكرى ملامحه الحقيقية:

- لقد رأيت هذه الهيئة من قبل، لقد شاهدت عرضي بهذه الهيئة.

سألها ماركو:

- أتتذكرين كل جمهورك؟

قالت سيليا:

- ليس جميعهم، لكني أتذكر أولئك الذين ينظرون إليّ بنفس الطريقة.

- أي طريقة؟

- طريقة من لا يعرف إن كان عليه أن يخاف مني أم يريد تقبيلي!

قال ماركو:

- أنا لا أخاف منك.

تبادلا النظرات لبرهة على ضوء الشموع المتراقص.

كسرت سيليا الصمت:

- يبدو مجهودًا مبالغًا فيه لأجل أن تظهر بصورة أكثر أناقة.

- إن له مميزاته.

قالت سيليا:

- أظن أنك تبدو أفضل دونه.

بدت الدهشة على وجهه فأضافت:

- لقد وافقتك على أن أكون صريحة أليس كذلك؟

قال:

- تمدحينني آنسة بوين، كم مرة دخلت فيها هذا البيت؟

قالت سيليا:

- على الأقل دستة.

- ورغم ذلك لم تأخذي جولة به أبدًا.

- لم تُعرض عليّ جولة من قبل.

- لا يحب شاندرش أن يأخذ الناس في جولة في البيت، يفضل أن يجعله لغزًا في نظرهم، وإذا لم يعرف الزوار أين حدود المكان، فسيبدو لهم البيت كأنه لا نهائي. كان في الأصل مبنيان مختلفان لذا فالاتجاهات فيه مربكة بعض الشيء.

قالت سيليا:

- لم أعرف هذا.

- كان في الأصل بنايتان متلاصقتان كلّ منهما صورة مرآة للآخر. اشتراهما وقام بتجديدهما ليصبحا منزلًا واحدًا به عدد من الأجنحة. لا أظن أن لدينا الوقت الكافي لجولة كاملة لكن يمكنني أن أريك بعض الغرف المحجوبة لو أحببت.

وضعت سيليا كأسها الفارغ على الطاولة جوار كأسه وقالت:

- أحب هذا، هل من عادتك أن تقدم جولات ممنوعة في منزل رئيسك؟

- فعلتها مرة واحدة، وفقط لأن السيد باريس كان لحوحًا جدًا.

*****

خرجا من حجرة الطعام للردهة أسفل ظل التمثال ذو رأس الفيل، ليمرا بالمكتبة ويتوقفا عند النافذة الزجاجية المرسومة بمشهد الغروب التي تمتد على جدار كامل.

أزاح ماركو الزجاج كاشفًا الغرفة التالية وهو يقول:

- هذه غرفة الألعاب.

- اختيار موفق.

اللعب كان نمطًا للغرفة أكثر منه وظيفة، هناك عدة رقع للشطرنج بقطع ناقصة، وقطع مرصوصة دون رقعة عند عتبة المائدة، ورفوف الكتب. لوحات تهديف معلقة بجوار ألعاب طاولة مثبتة في منتصف لعبة. وطاولة البلياردو في المنتصف مغطاة بلباد ذي لون أحمر دموي.

مجموعة من الأسلحة مصطفة على أحد الجدران. مرتبة في أزواج. سيوف ومسدسات وشيش المبارزة من كل نوع زوج متقابل مجهزة لعشرات المبارزات.

شرح ماركو لسيليا مشيرًا إليهم:

- لدى شاندرش شغف خاص للأسلحة الأثرية. هناك قطع في غرف أخرى لكن هذه هي أكثرية المجموعة.

تأملها بعناية وهي تتجول في الغرفة، بدت كأنها تخفي ابتسامة وهي تنظر إلى أدوات اللعب الموزعة ببراعة حولهما.

قال لها:

- تبتسمين كما لو كنت تخفين سرًّا.



قالت:

- لديّ الكثير من الأسرار.

ثم التفتت إليه ناظرة من فوق كتفها وهي تسأله:

- متى عرفت أنني خصمك؟

قبل أن تعود بنظرها إلى الجدار.

- لم أعرف حتى تقدمت لتجربة أدائك. كنت سرًّا مجهولًا لسنوات قبل هذا. وأنا واثق أنك لاحظت مفاجأتي حينها.

صمت برهة ثم أضاف:

- لا أستطيع الجزم أن هذا كان ميزة لي، منذ متى عرفت؟

قالت سيليا:

- عرفت تحت المطر في براج، وأنت تعرف جيدًا أنني عرفت حينها. كان يمكنك ترك المظلة لي كي تخفي الأمر. لكنك أصررت على مطاردتي، لماذا؟

قال ماركو:

- كنت أريد استعادتها، أحب هذه المظلة كما أنني سئمت من الاختباء منك.

قالت سيليا:

- شككت من قبل في كل شخص وأي شخص، برغم أنني رجحت أنه شخص من قلب السيرك، كان عليّ أن أعرف أنه أنت.

سألها ماركو:

- ولِمَ هذا؟

قالت:

- لأنك دومًا ما تتظاهر أنك أقل شأنًا من حقيقتك. هذا أمر ظاهر حتى اليوم، وأعترف أنني لم أفكر أبدًا في أن أسحر مظلتي.

قال ماركو:

- عشت معظم حياتي في لندن، ما إن تعلمت سحر الأشياء كانت واحدة من أوائل الأشياء التي سحرتها.

خلع معطفه وألقاه على أحد المقاعد الجلدية في الركن وأخذ مجموعة من أوراق اللعب وبدأ في خلطها. لم يعرف هل سترغب في مجاراته لكن فضوله كان أقوى من ألا يجرب.

سألته سيليا:

- أتريد لعب الورق؟

أجاب ماركو:

- ليس بالضبط.

وبعد أن خلطها بما يكفي وضعها على طاولة البلياردو.

كشف بطاقة، كانت الشايب البستوني. رفع يده ووضع البطاقة ثانية وبسط أصابعه فوق البطاقة داعيًا لها أن تقوم بالحركة التالية.

ابتسمت سيليا وفكت الشال من فوق كتفيها وغطت به معطفه الملقى على الكرسي ووقفت ويداها معقودتان خلف ظهرها.

وإذا بورقة شايب القلوب تنقلب، وقفت على حافتها للحظات قبل أن تنقسم ببطء عمدًا إلى نصفين. ظل النصفان واقفين منفصلين للحظات قبل أن يسقطا ظهريهما لأعلى. ومقلدة حركة ماركو نقرت سيليا على البطاقة لتلتحم ثانية، جذبت يدها وقلبت البطاقة لتظهر ملكة الديناري. ثم طارت المجموعة بأكملها في الهواء للحظات قبل أن تسقط على الطاولة وقد تبعثرت أوراقها على اللباد الأحمر.

اعترف ماركو:

- أنتِ أفضل مني في التلاعب بالأشياء المادية.

قالت سيليا:

- لدي ميزة، ما يسميه والدي موهبة فطرية. كنت أجد صعوبة في ألا أغير الأشياء المحيطة، كنت أحطم الأشياء باستمرار في طفولتي.

سألها ماركو:

- وكيف هي قدرتك على الكائنات الحية؟

قالت سيليا

- يعتمد الأمر على الكائن موضع الاختبار، الجماد أسهل، استغرق الأمر مني أعوامًا كي أجيد التعامل مع أي كائن متحرك. وأنفذه بطريقة أفضل على حمامتي أكثر بكثير مما قد أفعله على أي حمامة عجوز أخذتها من الطريق.

- ماذا يمكنك أن تفعلي بي؟

قالت سيليا:

- ربما يمكنني أن أغير شعرك، من المحتمل أن أغير صوتك. ليس أكثر من هذا دون رضاك وإدراكك. ورضاك الحقيقي أمر من الصعب منحه مهما تصورت، لا أستطيع علاج الجروح، من النادر أنني استطعت فعل ما هو أكثر من تأثير سطحي مؤقت وهو أسهل مع الأشخاص الذين ألفتهم. وحتى معهم فالأمر ليس سهلًا.

- وماذا عن نفسك.

كان رد سيليا أن ذهبت للجدار وأنزلت خنجرًا عثمانيًّا ذا مقبض من اليشم وقبضت عليه بيدها اليمنى، ووضعت يدها اليسرى على طاولة البلياردو فوق الأوراق المبعثرة. ودون تردد غرست النصل في ظهر يدها ليخترق الجلد واللحم والأوراق حتى وصل للسطح الأحمر للطاولة. أجفل ماركو لكنه لم ينطق.

رفعت سيليا الخنجر ونصله ما زال مغروسًا في يدها وبطاقتي بستوني وقد بدأ الدم يسيل على معصمها. رفعت يدها وأدارتها ببطء لتظهرها جيدًا لماركو كي يعرف أن الأمر ليس وهمًا. بيدها الأخرى نزعت الخنجر، وطارت البطاقتان الداميتان إلى الأسفل ثم بدأت قطرات الدماء ترجع كما كانت. متسربة عبر الشق في راحتها وتنكمش وتختفي حتى لم يعد بيدها سوى شق أحمر رفيع تحول إلى لا شيء.

نقرت على البطاقتين الداميتين لتختفي الدماء ويلتئم الثقب الذي أحدثه النصل، وتحولت البطاقتان إلى القلوب الآن.

التقط ماركو بطاقة ودار بأصابعه على سطحها المرمم ثم بدورة حذقة من يده اختفت البطاقة لتحفظ بأمان في جيبه.

قال:

- من المريح أنه لم يتم دعوتنا لمواجهة جسدية، كنت ستمتلكين تفوقًا علي.

قالت سيليا وهي تعيد الخنجر إلى موقعه في الجدار:

- اعتاد والدي أن يشق أطراف أصابعي واحدًا تلو الآخر حتى أعالج العشرة كاملة، الأمر في أغلبه أن أشعر من الداخل كيف يجب أن يكون الأمر، لم أقدر على فعل هذا لأي شخص آخر.

- أظن أن دروسك كانت أقل أكاديمية بكثير من دروسي.

- كنت سأفضل المزيد من القراءة.

قال ماركو:

- أظن أنه من الغريب أن يتم إعدادنا بطريقتين مختلفتين تمامًا لأجل نفس التحدي.

ونظر نحو يد سيليا التي بدت طبيعية تمامًا بلا أثر للطعنة التي اخترقتها منذ لحظات.

قالت:

- أخمن أن هذا جزء من الهدف. مدرستان فكريتان تتواجهان معًا لتعملا في نفس البيئة.

قال ماركو:

- أعترف أنني لم أفهم بالكامل ما الهدف حتى بعد مرور كل هذا الوقت.

اعترفت سيليا بدورها:

- ولا أنا، أظن أن تسميته بالتحدي أو المباراة ليس بالأمر الدقيق، بدأت أتصوره أنه أقرب للعرض المزدوج، ماذا ستريني أيضًا في جولتي؟

سألها:

- أتحبين أن تري شيئًا ما زال قيد التطوير؟

كان تصورها للسيرك أنه نوع من العرض مفاجأة سعيدة له فقد تخلى هو عن رؤيتها كخصم معاٍد منذ مدة طويلة.

قالت سيليا:

- أود هذا خاصة لو كان هو المشروع الذي تحدث عنه السيد باريس طوال العشاء.

- هو بالفعل.

قادها ماركو من غرفة الألعاب عبر باب ثانٍ ليمرا من الردهة إلى غرفة الرقص الواسعة في مؤخرة المنزل؛ حيث يتسرب نور القمر عبر الأبواب الزجاجية للحائط الخلفي.

*****

في الخارج في ذلك الفراغ الذي كانت تحتله الحديقة خلف الشرفة، كانت الأرض قد حفرت لطابق سفلي، غاطس تحت الأرض، كان الطابق في هذه اللحظة ليس سوى مجموعة من الأحجار المرصوصة وأكوام التراب التي تشكل جدرانًا عالية لكنها بدائية. نزلت سيليا بحذر الدرجات الحجرية وتبعها ماركو. ما إن وصلت للقاع حتى بدت الجدران تشكل متاهة تاركة مساحة صغيرة من الحديقة ظاهرة.

شرح ماركو:

- فكرت أنه من المفيد لشاندرش أن يشغله هذا المشروع، فهو نادرًا ما يغادر المنزل هذه الأيام، وتجديد الحدائق يبدو كبداية طيبة. أتحبين أن تَرَيْ كيف يبدو المكان بعد انتهائه؟

قالت سيليا:

- أحب هذا، هل لديك المخططات هنا؟

كان رد ماركو أن رفع إحدى يديه وأشار به حولهما.

ما كان منذ لحظات أكوامًا من الصخور والتراب أصبح الآن مبنيًا في شكل أقواس مزينة وممرات مغطاة بالكرم المتسلق ومضاءة بفوانيس صغيرة ساطعة منقوطة. الزهور معلقة في تعريشات مقلمة، وسماء الليل تظهر من بين البراعم.

وضعت سيليا يدها على فمها لتكتم شهقتها. كان المشهد بأكمله مع عطر الزهور ودفء الفوانيس مذهلًا. كان يمكنها سماع قرقرة ماء ينبوع قريبة وحين انعطفت عبر الممر المغطى الآن بالحشائش وجدته.

تبعها ماركو وهي تستكشف المكان. آخذة منعطفًا تلو الآخر في الطرقات الملتوية. كان النبع في المنتصف يصب في جدار حجري مزخرف يفيض في بركة ممتلئة بأسماك الكايو الملونة. كانت قشورها تلمع في ضوء القمر فتظهر كنقط ساطعة من البرتقالي والأبيض وسط الماء المظلم.

مدت سيليا يدها ليتدفق ماء الينبوع عبر أصابعها وهي تضغط على الحجر البارد أسفله.

سمعت خطوات ماركو قريبة خلفها فسألته:

- أنت تفعل هذا داخل عقلي أليس كذلك؟

قال:

- أنت تسمحين لي بهذا.

قالت سيليا ملتفتة لتواجهه:

- على الأرجح يمكنني أن أوقفه كما تعرف.

مال عبر أحد الأقواس الحجرية ليواجهها.

- متأكد من أنك تستطيعين. لو قاومته بأي شكل فلن ينفع، ويمكن صده بالكامل، وبالطبع فالاقتراب هو المفتاح للتأثير.

قالت سيليا:

- لا يمكنك فعل هذا في السيرك؟

هز كتفيه قائلًا:

- المسافة كبيرة جدًا للأسف، إنها واحدة من مواهبي لكن لا توجد فرصة كافية لاستخدامها. كما أنني لست بارعًا بما يكفي لإظهار تلك الحيل لأكثر من شخص واحد في نفس الوقت.

قالت سيليا وهي تشاهد الأسماك الملونة أسفل قدميها:

- إنه مذهل، لا يمكنني أن أفعل شيئًا بهذا التعقيد، يسمونني بالحاوية بينما لقب الحاوي يناسبك أكثر.

- أظن أن لقب الحسناء التي تستطيع التلاعب بالعالم بعقلها ليس رائجًا.

- لا أظن اللافتة خارج خيمتي ستكفيه.

كانت ضحكته خافتة دافئة بينما التفتت سيليا لتخفي ابتسامتها، مبقية انتباهها على الماء الجاري.

قالت:

- إحدى مواهبي غير نافعة أيضًا، أنا بارعة جدًّا في التلاعب بالخيوط والأنسجة ولكن هذا غير ضروري مع ما تستطيعه السيدة بادفا.

وأدارت فستانها ليعكس لونه الفضي الضوء بتألق يضاهي الفوانيس.

قال ماركو:

- أراها كالساحرات، وأعني بالوصف هنا المديح الخالص.

قالت سيليا:

- أظنها ستعتبره مديحًا، هل ترى هذا كله مثلما أراه تمامًا؟

قال ماركو:

- إلى حد كبير، التفاصيل تصبح أدق كلما اقتربت من المتفرج.

دارت سيليا حول البركة إلى الجهة المقابلة؛ حيث يقف وأخذت تتفحص الأحجار المزخرفة والفروع المتسلقة حوله، لكن نظراتها ظلت تتعلق به. وكلما حاولت التهرب تفشل حين تتلاقى عيناه بعينيها. والنظر بعيدًا يزداد صعوبة في كل مرة.

قالت وهي تحاول أن تولي انتباهها إلى فانوس مضيء:

- من الذكاء استغلالك لنار الساحة كرابط محفز.

قال ماركو:

- لا يدهشني اكتشافك للأمر، كان عليَّ أن أجد طريقة كي أبقي على اتصالي بالسيرك رغم عدم قدرتي على السفر معه، مراسم الإشعال بدت فرصة مثالية لإنشاء اتصال دائم. فلم أكن أريد أن أترك لك السيطرة الكاملة في كل الأحوال.

قالت سيليا:

- كان لها آثارها.

- ماذا تعنين؟

- دعنا نقول إن هناك ما يميز التوءمين موراي غير شعرهما.

سألها ماركو:

- وأنت لن تخبريني ما هو أليس كذلك؟

قالت سيليا:

- الفتاة لا تكشف كل أسرارها أبدًا.

جذبت زهرة من فرع متدلٍ، وأغلقت عينيها وهي تشم الرائحة، وأحست بنعومة البتلات على بشرتها. كانت التفاصيل الحسية لهذا الوهم ممتعة، تكاد تسكرها.

سألته:

- من الذي فكر في حديقة غاطسة؟

- شاندرش، لقد استلهمها من حجرة أخرى في المنزل، يمكنني أن أريك إياها لو أحببت.

أومأت سيليا مجيبة، فعادا عبر الحديقة وهي تتبعه من مسافة قريبة بما يكفي كي تلمسه، برغم أنه أبقى يديه معقودتين خلف ظهره. وحين وصلا إلى الشرفة التفتت سيليا للحديقة لتجد أن الزهور والفوانيس قد عادت لتصبح صخورًا وترابًا.

*****

في الداخل قاد ماركو سيليا عبر حجرة الرقص ووقف تجاه الجدار في طرفها ليجذب إحدى اللوحات الخشبية ليكشف سلمًا حجريًا حلزونيًّا ينزل إلى الأسفل.

سألت سيليا وهي تهبط:

- أهي زنزانة؟

قال ماركو:

- ليس بالضبط.

وصلا في النهاية إلى باب مُذَهَّب فتحه لها وهو يقول:

- انتبهي إلى خطواتك.

كانت الحجرة صغيرة لكنها ذات سقف عالٍ. وهناك ثريا ذهبية مزدانة بالكريستال تتدلى في المنتصف. والجدران المستديرة والسقف مطليان بلون أزرق داكن حي مزركش بالنجوم.

هناك ممر يدور حول الغرفة يشبه الرصيف بينما بقية الأرضية مغطاة وممتلئة بوسائد مزخرفة مصنوعة من الحرير الملون بألوان قوس قزح.

قال ماركو:

- يزعم شاندرش أنها مستوحاة من غرفة محظية في بومباي، أجدها مكانًا رائعًا للقراءة.

ضحكت سيليا وانسابت خصلة من شعرها على وجنتها. همّ ماركو بإزاحتها من على وجهها لكن قبل أن تمسها أصابعه دفعت نفسها بعيدًا عن الرصيف لتسقط على كومة الوسائد المزدانة بالجواهر وقد بدا فستانها الفضي كسحابة طافية.

تأملها للحظات قبل أن يقلدها ليغوص في قلب الغرفة بجوارها.

رقدا يتأملان الثريا التي كان ضوؤها يتشتت عبر الكريستالات ليحول السقف إلى سماء ليل دون الحاجة إلى الأوهام السحرية.

سألته سيليا:

- أتزور السيرك كثيرًا؟

- ليس بالقدر الذي أرغب فيه، كلما آتى إلى لندن طبعًا، أحيانًا أحاول الذهاب له وهو في أوربا لو استطعت الهرب من شاندرش لوقت كافٍ. أشعر أحيانًا أن لدي قدمًا في كل جانب. أعرف أكثره جيدًا ورغم ذلك يدهشني دومًا.

- أيها خيمتك المفضلة؟

- صدقًا؟ خيمتك.

التفت له وسألته:

- لماذا؟

- إنها مناسبة لذوقي على ما أظن. أنت تفعلين علنًا الأشياء التي تعلمتُها سرًا. ربما لهذا أقدرها أكثر من الآخرين. كذلك أستمتع كثيرًا بخيمة التيه. لم أكن واثقًا هل سترغبين حقًا في التعاون فيها.

قالت سيليا:

- تلقيت محاضرة لوم خاصة على هذا التعاون بالذات، أسماها والدي تلاصقًا فاضحًا! لا بد أنه بحث لأيام عن تشبيه مهين يستحقه الأمر. له نظرة مزدرية بشأن تكامل المهارات ولم أفهم أبدًا السبب. أعشق التيه، واستمتعت إلى أقصى حد بإضافة الغرف له، أعجبتني خصيصًا الردهة التي جعلتها تثلج كي تستطيع رؤية آثار أقدام الآخرين فتدلك على الطريق.

قال ماركو:

- لم أتصورها من قبل بهذا القدر من المتعة، أتطلع إلى زيارتها ثانية واضعًا هذا في حسباني، ولكن كنت أظن أن والدك لم يعد قادرًا على إلقاء الأحكام؟

التفتت سيليا للسقف ثانية وقالت:

- هو لم يمت، من الصعب أن أشرح الأمر.

قاوم ماركو الرغبة في أن تحاول الشرح وفضل العودة للحديث عن السيرك.

- ما هي خيمتك المفضلة؟

أجابت سيليا فورًا دون لحظة من تفكير:

- الحديقة الثلجية.

سألها ماركو:

- ولِمَ؟

قالت:

- لأجل ما تشعرني به. الأمر يشبه السير في حلم، كما لو أنها مكان مختلف تمامًا وليست مجرد خيمة أخرى. أو ربما لأنني أحب الثلج كثيرًا. كيف أتتك فكرتها؟

أخذ ماركو يتذكر الخطوات ويعكسها في ذهنه، فلم يُطلب منه قبلًا أن يشرح من أين أتت أفكاره.

قال:

- ظننت أنه من المشوق وجود مشتل في المكان، لكن بالطبع يجب أن يخلو من الألوان، درست الكثير من الخيارات قبل أن أستقر

على صنع كل شيء من الثلج. يسرني وصفك لها بالحلم، فهذا هو الجوهر الذي أتت منه الفكرة.

قالت سيليا:

- إنها السبب الذي جعلني أصنع شجرة الأماني، اعتقدت أن شجرة مغطاة بالنار هي الرد المناسب على تلك المصنوعة من الثلج.

استعاد ماركو المرة الأولى التي رأى فيها شجرة الأماني، حينها اعتراه مزيج من الانزعاج والدهشة والحيوية. لم يعرف إن كان سيستطيع إشعال شمعته، وأمنيته، وخشيَ أن يكون هذا مخالفًا للقواعد.

سألها:

- هل تتحقق كل الأمنيات؟

قالت سيليا:

- لست واثقة، لا يمكنني متابعة كل شخص تمنى فيها أمنية. هل تمنيت؟

- ربما.

- هل تحققت أمنيتك؟

- لست متأكدًا بعد.

قالت سيليا:

- لو تحققت أبلغني، أتمنى أن تتحقق، بدرجة أو بأخرى فأنا صنعتها لأجلك.

قال ماركو وهو يستدير نحوها:

- أنت لم تعرفينني حينها.

ظلت عيناها معلقتين بالثريا لكن تلك الابتسامة المراوغة التي تشي بالأسرار عادت.

- لم أعرف هويتك، لكن كان لدي انطباع عن خصمي، فقد كنت محاطة بكل تلك الأشياء من صنعك، وقد ظننت أنها ستعجبك.

قال ماركو:

- تعجبني بالفعل.

خيم صمت مريح بينهما. كان يتوق لمد يده كي يلمسها لكنه قاوم رغبته، خشية أن يدمر تلك المودة الهشة التي يبنيانها الآن. اكتفى باستراق النظر، متأملًا سقوط الضوء على بشرتها، وعدة مرات يمسك بها تفعل مثله، فكانت أعينهما تتلاقى في لحظات قصيرة ساحرة.

بعد برهة سألته سيليا:

- كيف استطعت أن توقف تقدم العمر للجميع؟

أجاب ماركو:

- بحذر شديد، كما أن العمر يتقدم بهم ولكن ببطء بالغ، كيف تنقلين السيرك؟

- بالقطار.

- قطار؟ كل هذا السيرك يتحرك بقطار واحد؟

قالت سيليا:

- إنه قطار ضخم.

ثم أضافت:

- وسحري.

فجر تعليقها الأخير ضحكه فقال:

- أعترف يا آنسة بوين أنك غير ما توقعت تمامًا.

- أؤكد لك أن الشعور متبادل.

نهض ماركو ووقف في الرصيف جوار الباب ومدت سيليا له يدها كي يساعدها على الوقوف.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتلامسان فيها مباشرة دون حاجز. وكان التفاعل ظاهرًا في الهواء، صاعقة لامعة هشة سرت عبر الغرفة وأخذت الثريا في الاهتزاز.

الإحساس الذي سرى من بشرة ماركو كان قويًّا وحميميًّا. بدأ من حيث تلامس كفيهما لكنه انتشر أكثر وأعمق من ذلك.

جذبت سيليا يدها بعيدًا، ما إن استعادت توازنها وتراجعت لتستند على الجدار، وبدأ هذا الشعور ينحسر ما إن تركته.

قالت بخفوت:

- تقبل اعتذاري.

كانت أنفاسها مأخوذة وهي تكمل:

- لقد فاجأتني دون استعداد.

سمعها بالكاد وسط دقات قلبه الصاخبة فقال:

- أعتذر لك ولو أنني لا أفهم ما الذي حدث بالضبط.

قالت سيليا «

- لدي حساسية خاصة للطاقة، الذين يفعلون الأشياء التي تفعلها أنت وأنا، يحملون نوعًا محسوسًا من الطاقة، وأنا... أنا لست معتادة على طاقتك بعد.

- أتمنى أن يكون ما شعرت به جميلًا مثلما شعرت أنا.

لم ترد سيليا، وكي يبقي نفسه بعيدًا عن يدها فتح الباب وسار أمامها عبر السلم الملتوي.

****

سارا في ضوء القمر عبر غرفة الرقص وصدى خطواتهما يتردد في المكان. ثم حاولت سيليا كسر الصمت كي تشغل نفسها عن الإحساس القوي الذي ما زالت يدها تهتز بسببه. فسألته، وقد تذكرت الكوب الذي سقط خلال العشاء:

- كيف حال شاندرش؟

تنهد ماركو:

- إنه يذوي، منذ افتتاح السيرك يفقد تركيزه دومًا، وأنا، أنا أفعل ما أستطيع كي أبقيه مستقرًّا، وإن كنت أخشى من الآثار الجانبية على ذاكرته. لم أنوِ هذا في البداية ولكن بعد ما حدث مع الراحلة الآنسة برجيس ظننت هذا هو التصرف الأصوب.

قالت سيليا:

- لقد كانت في وضع خاص يجعلها مشاركة في كل شيء دون أن تصبح جزءًا من السيرك نفسه. ليس هذا بالوضع الذي يمكنك السيطرة عليه، على الأقل فأنت تراقب شاندرش.

قال ماركو:

- بالفعل، وإن كنت أتمنى لو وجدت طريقة تحمي من هم خارج السيرك مثلما تحمي نار الساحة من بداخله.

تساءلت سيليا:

- نار الساحة؟

- إنها تقوم بعدة أدوار، في الأساس هي رابطتي مع السيرك، لكنها أيضًا تعمل كشبكة حماية خاصة تحمي من في السيرك، لكنني غفلت عن حقيقة أن حمايتها لا تمتد وراء السياج.

قالت سيليا:

- وأنا غفلت عن أهمية عمل شبكة حماية، في الأغلب لم أُقدر عدد الأشخاص الذين سيتورطون في مباراتنا.

ثم توقفت في منتصف غرفة الرقص، فتوقف ماركو بدوره لكنه لم يتكلم منتظرًا حديثها.

قالت بخفوت:

- لم يكن خطأك، ما حدث لتارا، الظروف كانت ستؤدي لاحتمال حدوث الأمر مهما فعلت أنت أو أنا. لا يمكنك أبدًا سلب الإرادة الحرة لأي إنسان، هذا واحد من دروسي الأولى.

اكتفى ماركو بالإيماء ثم اقترب خطوة منها ومد يده إلى يدها وشبك أصابعه بين أصابعها.

كان شعوره بنفس قوة المرة الأولى حين لمسها، لكن كان هناك شيء ما مختلفًا، الهواء حولهما تغير لكن الثريا فوقهما ظلت ثابتة هادئة.

سألته:

- ماذا تفعل؟

قال:

- ذكرت الطاقة من قبل، لذا فأنا أركز طاقتي مع طاقتك كي لا نحطم الثريات.

قالت سيليا:

- لو أنني كسرت شيئًا فأنا قادرة على إصلاحه.

لكنها لم تسحب يدها.

دون القلق من تأثير طاقتها على ما يحيط بهما شعرت بالاسترخاء مع هذا الإحساس بدلًا من مقاومته. كان شعورًا أخاذًا، كان نفس الشعور الذي انتابها وهي تدخل الكثير من خيام السيرك، نشوة تنتج عندما تحاط بالعجائب والغرائب، لكنها الآن متضخمة ومركزة عليها. تردد

الإحساس ببشرته على بشرتها في كل جسدها، وظلت أصابعه معقودة في أصابعها حين رفعت عينيها له لتقع في تلك العينين الرماديتين المخضرتين، لكنها لم تبعد ناظريها هذه المرة.

وقفا ينظران إلى بعضهما في صمت دام دقائق مرت عليهم كالساعات، حتى دقت الساعة في البهو وقفزت سيليا جافلة. ما إن تركت يد ماركو حتى أحست بالرغبة في إمساكها ثانية. لكن الليلة كانت طاغية بما يكفي.

قالت:

- أنت تجيد إخفاءها، أشعر بطاقتك تشع كالدفء في كل خيمة من خيمك، ولكن وجهًا لوجه فأنت تخفيها تمامًا.

قال ماركو:

- التضليل هو واحد من نقاط قوتي.

- لن يكون الأمر سهلًا بعدما أوليتك انتباهي.

قال:

- وأن توليني اهتمامك هو ما أحب، شكرًا لك، على البقاء.

ابتسمت قائلة:

- أسامحك على سرقة الشال.

ضحك ليجدها قد اختفت، خدعة بسيطة لتشتيت الانتباه كانت كافية لتنسل خارج القاعة كاتمة رغبتها الشغوفة بالبقاء.

*****

عثر ماركو على الشال الخاص بها كما تركته في حجرة الألعاب، ما زال فوق معطفه.

الجزء الثالث

التقاطعات

أحب بكل إعزاز أن أقرأ التعليقات، كل ملاحظة من جميع من سار عبر بوابة سيرك الأحلام، أن أعرف ماذا رأوا وسمعوا وأحسوا، لأرى كيف تتداخل تجربتهم مع تجربتي وكيف تختلف عنها. كنت محظوظًا بتلقي الكثير من خطابات التي تحمل هذه المعلومات، وبأن شاركني الحالمون بكتاباتهم في الصحف أو قصاصات الأوراق.

نحن نضيف قصصنا. كل زائر في كل زيارة، كل ليلة نقضيها في السيرك. أظن أنه لن ينقصنا أبدًا مواضيع السمر ولا القصص التي تحكى ونتشاركها.

فريدريك تايسن 1895

العاشقان

واقفان على منصة وسط الجمهور، عالية بما يكفي كي نراها من كل الزوايا، جسدان يبدوان كالتماثيل.

المرأة ترتدي فستانًا يبدو كما لو كان فستان زفاف أعد لراقصة باليه، أبيض منفوشًا ومزينًا بشرائط سوداء ترفرف في نسيم الليل. رجلاها مغطتان بجوارب مخططة طويلة، وقدماها في أحذية سوداء ذات رقبة طويلة. شعرها الأسود مجموع في أمواج فوق رأسها مزدان بريش أبيض منثور.

رفيقها كان رجلًا وسيمًا، أطول منها قليلًا، في حلة سوداء أنيقة وقميص أبيض ناصع، مع ربطة عنق معقودة وقبعة سوداء مستديرة على رأسه.

يقفان متقاربين لكن لا يتلامسان. شفاتهما متجمدة على تلك اللحظة قبل (أو بعد) القبلة.

برغم أنك شاهدتهما لفترة لكنهما لا يتحركان، لا يزحزحان إصبعًا أو جفنًا واحدًا، لا يبدو عليهما أنهما يتنفسان حتى.

تسمع شخصًا بالجوار يعلق:

- لا يمكن أن يكونا حقيقيين.

الكثير من الزوار يكتفون بإلقاء نظرة قبل أن يمرون بهما، ولكن كلما راقبتهما أكثر كلما أدركت حركتهما الدقيقة، هذا التغير في انحناء اليد وهي معلقة جوار الذراع، ذلك التغير في زاوية القدم التي تستند عليها، لكن يظل كلٌّ منهما يميل إلى الآخر.

ومع ذلك لا يتلامسان أبدًا.

ثلاثة عشر

لندن، الجمعة، 13 أكتوبر 1899

الاحتفالية العشرية لسيرك الأحلام لم تقم كما هو معتاد عند مرور عشر سنوات على افتتاح السيرك، بل بعد مضي ثلاثة عشر عامًا على بدء العمل والسفر. يزعم البعض أن هذا بسبب مرور الذكرى العاشرة دون أن ينتبه إليها أحد حتى مرت.

أقيم الحفل في بيت شاندرش كريستوف لوفيفرا يوم الجمعة الثالث عشر من أكتوبر 1899. كانت قائمة المدعوين حصرية، تقتصر فقط على العاملين بالسيرك وبعض الضيوف المميزين. لم يعلن عنها بالطبع، ورغم أن البعض توقع أن الحفلة لها علاقة بالسيرك، ولكن من الصعب التأكد كما أنه من الصعب تصور أن السيرك الذي اشتهر بالأبيض والأسود سيرتبط بحدث ملون كهذا.

كانت حفلة صاخبة الألوان، كلٌّ من البيت والحضور تزين بكل الأطياف، وكل غرفة مضاءة بألوان مختلفة، واحدة بالأخضر والأزرق، وأخرى بالأحمر والبرتقالي. الموائد المصطفة في غرفة الطعام مكسوة بأغطية ذات ألوان مبهجة. وسط كل مائدة زُين بالزهور التي اختيرت من أكثر البراعم نضارة. أعضاء الفرقة التي تعزف أنغامًا غريبة راقصة

مرحة، ارتدوا أزياء من المخمل الأحمر. حتى الشامبانيا كانت ذات لون أزرق داكن والخدم يرتدون الأخضر بدلًا من الأسود التقليدي.

شاندرش نفسه ارتدى بذلة بلون أرجواني ساطع بصدرية ذهبية مزركشة. وخلال الأمسية دخن سيجارًا خاصًا ينفث دخانًا بنفسجيًا يتماشى مع ملابسه.

وفي حجر التمثال الذهبي ذي رأس الفيل في البهو، وضعت وردات من كل الألوان الطبيعية أو التي لا يمكن تخيلها. وتتساقط بتلاتها كلما تحرك شخص جوارها.

المشروبات تقدم في المشرب داخل كؤوس غريبة الأشكال والألوان. نبيذ أحمر كالياقوت، وخمر النعناع المتشرب بالخضرة. شرائط مطرزة علقت على الجدران وتنزل على أي شيء ساكن. الشموع داخل قناديل من الزجاج الملون تسقط ضوءًا متراقصًا على الحفلة والمحتفلين.

أصغر المدعوين هما بوبيت وويجيت، فعمرهما من عمر السيرك، وقد ظهر شعرهما الأحمر القاني معطيًا تأثيره. وقد ارتديا أزياء متماثلة بلون أزرق سماوي دافئ، مع حافات ذهبية وردية. وكهدية عيد ميلاد منحهما شاندرش قطتين برتقاليتين بعيون زرقاء وأطواق ملونة. وقد أعجب بهما التوءمان كثيرًا وأطلقا عليهما فورًا اسمَيْ بوتس وبافو، ولو أنهما فيما بعد لم يستطيعا معرفة أيهما الأول من الأخير فقد كانتا متماثلتين، وأصبحا يشيران للاثنين معًا دون تحديد.

المخططون الأصليون تواجدوا جميعًا عدا الراحلة تارا برجيس. ليني برجيس ارتدت فستانًا واسعًا بلون أصفر كناري ورافقها السيد إيثان باريس في بذلة زرقاء كالبحر، كانت هذه أكثر ملابسه تلونًا، وإن كانت ربطة عنقه فاتحة بعض الشيء وقد علق زهرة صفراء في سترته.

السيد أ. هـ. وصل بزيه الرمادي المعتاد.

أتت السيدة بادفا بعد إلحاح من شاندرش وقد تزينت بالحرير الذهبي الفخم مطرز بخيوط حمراء وتوجت رأسها الأبيض بالريش القرمزي، وبدلًا من الانخراط فيما حولها اكتفت بقضاء معظم الليلة على أحد المقاعد المجاورة للمدفأة تراقب ما حولها.

هر فريدريك تايسن كان ممن حصلوا على دعوة خاصة، شريطة ألا يكتب كلمة واحدة عن الحفل ولا يتحدث عنه لأي شخص. وهو الوعد الذي قطعه مسرورًا وحضر بزي أحمر به لمسة سوداء، معكوس لما اعتاد ارتداءه. وقد قضى معظم الأمسية في صحبة سيليا بوين التي ارتدت فستانًا متغير اللون يتحول موافقًا للون زي الشخص الذي يقابلها.

لم يصاحب الموسيقي أي مؤدين، فمن الصعب أن تجد من يستطيع تقديم عرض يبهر حش[illegible] العمال الدائمين للسيرك. لذا كانت الأمسية يغلب عليها المحادثات والمجاملات.

على العشاء، الذي كالعادة بدأ في منتصف الليل كانت الأطباق المقدمة إما بيضاء أو سوداء لكنها تنفجر بالألوان ما إن تخترقها الشوكة أو الملعقة كاشفة طبقات من النكهات المتعددة. وبعض الأطباق لم تقدم على أطباق عادية بل على مرايا.

ويجيت وبوبيت أخذا يسربان لقيمات للقطتين الراقدتين بين أقدامهما بينما يستمعان باهتمام لحكايات السيدة بادفا عن أيامها في الباليه، ورغم تحذير أمهما من أن بعض الأحداث قد لا تناسب طفلين في الثالثة عشر من العمر، واصلت السيدة بادفا حديثها دون تحفظ لا تموه سوى التفاصيل الأشد خجلًا التي كان ويجيت يستطيع قراءتها من لمعة عينيها دون أن يحتاج لأن تنطقها.

أما الحلوى فكانت كعكة مهولة مستديرة على شكل خيمة السيرك ومخططة بالشكولاتة المبشورة، مع حشوة من كريمة لتوت اللامعة. إلى جانب تماثيل صغيرة من الشكولاتة على شكل نمور، وفراولة مغطاة بخطوط متبادلة من الشكولاتة البيضاء والسمراء.

بعد انتهاء العشاء ألقى شاندرش كلمة مطولة شكر فيها كل الضيوف على ثلاثة عشر عامًا مذهلة وعلى أعجوبة السيرك الذي لم يكن سوى فكرة منذ ما يزيد على العقد. وأخذ يتحدث عن الأحلام والعائلة وأنهم يقدمون الفريد في زمن التقليد. بعض حديثه كان مترابطًا والبعض الآخر كان مفككًا بلا معنى. لكن في المجمل بدت لفتة لطيفة في نظر أغلب الضيوف. الكثير منهم استغل الفرصة بعد حديثه كي يشكره مباشرة على الحفل والسيرك، وبعضهم خص بالذكر مشاعره الجميلة.

الاستثناء بالطبع كان تعليقه منه أن العمر لا يظهر أثره على أي منهم باستثناء الشقيقين موراي. وهي الملاحظة التي سببت لحظات من الصمت غير المريح لم يقطعه سوى سعال السيد باريس. لم يجرؤ أحد على ذكر الأمر والبعض أبدى ارتياحه أن شاندرش نفسه قد لا يتذكر ما قاله بعد مرور ساعة واحدة.

بعد ذلك كان الرقص في قاعة الرقص التي زُيِّنَت بشرائط من الحرير الملون المذهب على جدرانها ونوافذها لتتألق في ضوء الشموع.

أما السيد أ.هـ. فقد تحرك حول المكان لا يلاحظه أحد ولم يتحدث إلا مع قلة منهم السيد باريس الذي عرفه على هر تايسن. لتبدأ بين ثلاثتهم مناقشة عميقة رغم قصرها حول الساعات وطبيعة الزمن، قبل أن يعتذر لهم السيد أ.هـ. بلباقة ويعود إلى الذوبان في الخلفية؛ حيث تفادى قاعة الرقص طوال الوقت باستثناء رقصة فالس، عندما أجبرته تسوكيكو على اجتياز بابها. كانت الأخيرة ترتدي كيمونو ورديًا وتعقد

شعرها بطريقة تقليدية وعيناها تلمع بلون أحمر مزعج. كانت أناقتهما الرسمية شاذة عن بقي الراقصين.

إيزوبل التي اختارت اللون الأزرق السماوي حاولت عبثًا لفت انتباه ماركو، لكن الأخير تجنبها طوال الوقت وكان من الصعب رؤيته وسط الزحام؛ لأنه يرتدي مثل الخدم تمامًا. وأخيرًا بمساعدة عدة كؤوس من الشامبانيا نجحت تسوكيكو في إقناعها بالتخلي عن المحاولة وجذبتها للحديقة الغاطسة كي تصرف ذهنها عن الأمر.

أما ذهن ماركو فحينما لا يكون مشغولًا بأوامر شاندرش أو يحوم حول السيدة بادفا التي تلكزه بعصاها كلما سألها إن كانت بحاجة للمساعدة فقد كان منصبًا على سيليا فحسب.

همس لها حين مرت به في قاعة الرقص:

- يحطمني أنني لا أستطيع دعوتك إلى الرقص.

التقط فستانها لون بذلته الخضراء ليتحول إلى لون يشبه الطحالب.

تمتمت بخفوت:

- إذن فمن السهل تحطيمك!

وغمزت له قبل أن يأتي شاندرش ليأخذ ذاعها بذراعه ويتحول لون فستانها إلى لون البرقوق الذهبي.

قدمها شاندرش للسيد أ.هـ. وهو لا يستطيع التذكر إن كانت قابلته من قبل أم لا، زعمت سيليا إنها المرة الأولى رغم أنها تذكره جيدًا. كان يبدو تمامًا مثلما رأته وعمرها ست سنوات لم يتغير سوى البدلة التي أصبحت تساير الموضة الحالية.

الكثير من الحاضرين ألحوا على سيليا يريدون مشاهد عرضها، رفضت في البداية لكنها في آخر الأمسية جذبت تسوكيكو المندهشة

لوسط حجرة الرقص وأخفتها في غمضة عين برغم الحشد المحيط، في لحظة كان أمامهما سيدتان ترتديان اللون الوردي وفي اللحظة التالية لم يروا إلا سيليا. وبعض لحظات علت الصيحات من المكتبة؛ حيث ظهرت تسوكيكو تحت ضوء المصابيح الملونة في أحد أركانها. تناولت الأخيرة كأسًا من أحد النادلين المصعوقين وابتسمت له بود قبل أن تعود إلى قاعة الرقص.

في طريقها مرت ببوبيت وويجيت؛ حيث كانت الأولى تعلم القطتين البرتقاليتين كيف تتسلقان فوق كتفها، بينما يُسقط ويجيت كتابًا تلو الآخر من رفوف المكتبة الممتلئة. في النهاية جذبته بوبيت بالقوة خارجًا حتى لا يقضي الليلة كلها في القراءة.

كان الضيوف يجولون في أسراب بين المكتبة وقاعة الرقص في طيف من الألوان المتموجة المتغيرة العامرة بالضحك والحديث ليستمر الصخب والمتعة حتى ساعات النهار الأولى.

وبينما كانت سيليا تخرج من الباب الأمامي جذب ماركو ذراعها ليأخذها نحو فجوة مظلمة خلف التمثال الذهبي، لتتناثر بتلات الزهور مع هذه الحركة العنيفة.

قالت سيليا:

- لتعلم أنني لم أعتد على هذا بعد.

وجذبت يدها من يده لكنها لم تغادر رغم ضيق المكان بين التمثال والجدار. وتغير فستانها ثانية ليأخذ لونًا أخضر داكنًا.

قال ماركو:

- تبدين مثلما رأيتك أول مرة.

قالت سيليا:

- تعني أنك اخترت عمدًا هذا اللون؟

- بل هي الصدفة الحسنة، أصر شاندرش على أن يرتدي كل العاملين اللون الأخضر ولم أتوقع ما فعلت بردائك.

هزت سيليا كتفيها قائلة:

- كنت محتارة في اختيار الزي المناسب.

قال ماركو:

- تبدين جميلة.

ردت سيليا وهي تهرب من مواجهة عينيه:

- شكرًا لك، تبدو وسيمًا أيضًا وإن كنت أفضِّل وجهك الحقيقي.

تغير وجهه ليكشف عن الملامح التي تذكرها جيدًا من تلك الليلة التي قضياها في نفس المكان منذ ثلاث سنوات في ظروف أكثر دفئًا. من حينها لم تسنح لهم الفرصة لأكثر من اختلاس لحظات قصيرة.

همس ماركو:

- اشتقت إليك.

تكهرب الهواء بينهما وهو يميل إليها ليطبع قبلة على عنقها، في الحجرة المجاورة اشتكى الضيوف من حرارة الجو التي ارتفعت فجأة لتُخْرِجَ المراوح من الحقائب الملونة وترفرف كأجنحة طيور استوائية.

وفي ظل التمثال ذي رأس الفيل دفعته سيليا فجأة ولم يتضح السبب إلا بعدما استبدلت السحب الرمادية اللون الأخضر من فستانها.

قالت سيليا وهي تحني رأسها لتحية الرجل الذي ظهر خلفهما دون صوت أو حتى يسقط بتلة واحدة:

- أهلًا يا ألكسندر.

حياها الرجل ذو البدلة الرمادية بانحناءة مهذبة وقال:

- آنسة بوين، كنت أود الحديث مع رفيقك على انفراد للحظات لو لم تمانعي.

قالت سيليا:

- بالطبع.

وغادرت دون حتى أن تنظر إلى ماركو، ليتغير فستانها من الرمادي إلى البنفسجي وهي تمر بالتوءمين موراي اللذين يلاعبان قطتيهما بالملاعق الفضية اللامعة.

قال الرجل ذو البذلة الرمادية لماركو:

- لا يمكنني وصف هذا التصرف باللائق.

ظلت عينا ماركو معلقتين بسيليا التي توقفت في مدخل قاعة الرقص ليتحول فستانها للقرمزي حين قدم إليها هر تايسن كأسًا.

سأله ماركو:

- أنت تعرفها؟

- لقد قابلتها، لا يمكنني القوي أنني أعرفها بأي طريقة مختلفة.

- كنت تعرف تمامًا من هي من قبل أن يبدأ أي شيء ورغم ذلك لم تخبرني؟

- لم أظن هذا ضروريًا.

مر بهم مجموعة من الضيوف الذي أثاروا البتلات المتساقطة، فقاد ماركو الرجل ذا البدلة الرمادية عبر المكتبة وجذب الجدار الزجاجي ليدخلا إلى غرفة الألعاب الخاوية كي يكملا حديثهما.

سأله ماركو:

- ثلاثة عشر عامًا لم تكلمني بالكاد والآن تريد محادثتي؟
- ليس لدي ما أريد حقًّا محادثتك فيه، إنما أردت فحسب مقاطعة... حديثك مع الآنسة بوين.
- هي تعرف اسمك.
- من الواضح أن ذاكرتها جيدة، ما الذي تريد مناقشته.

قال ماركو بصوت مرتعش خافت:

- أريد أن أعرف إن كنت أؤدي جيدًا.

قال مدربه:

- تقدمك كافٍ، وظيفتك مستقرة هنا وأنت في موضع جيد كي تعمل منه.
- ورغم ذلك لا يمكنني أن أكون نفسي، لقد علمتني كل تلك الأمور، ووضعتني هنا وجعلتني أتظاهر أنني شيء آخر، بينما هي في قلب المسرح تفعل ما تفعله حقًّا.
- لكن لا أحد في هذا المكان يصدقها، يظنون أنها تخدعهم، هم لا يرونها إلا تمامًا كما ترى نفسك، فقط هي ملحوظة أكثر، لكن الأمر ليس متعلقًا بالجمهور، أنا أثبت نقطة، يمكنك فعل ما تفعله هي دون أن تحيطه بالبهرجة والدخان والخدع، يمكنك المحافظة على سريتك وتعادل إنجازاتها. أنصحك أن تبقي مسافة بينكما وتركز على عملك.
- أنا أحبها.

لم يحدث أبدًا أن قال أو فعل ماركو شيئًا يظهر أدنى انفعال من الرجل ذي البدلة الرمادية. ولا حتى حينما بالخطأ تسبب في اشتعال

الطاولة أثناء تدريبهما. لكن التعبير الذي علا وجه الرجل الآن كان حزنًا واضحًا.

قال:

- يؤسفني سماع هذا، سيجعل من التحدي أمرًا أكثر صعوبة لك.
- نحن نلعب هذه اللعبة منذ ما يزيد على العقد، متى سينتهي.
- ينتهي حينما يكون هناك منتصر.

سأله ماركو:

- وكم يستغرق هذا؟
- من الصعب المعرفة، آخر تحدٍ انتهى بعد سبعة وثلاثين عامًا.
- لا يمكننا أن نبقي السيرك عاملًا لسبعة وثلاثين عامًا.
- إذن فليس لديك كل هذا الوقت كي تنتظره. لقد كنت تلميذًا جيدًا وأنت الآن منافس جيد.

سأله ماركو وقد علا صوته:

- كيف لك أن تعرف؟ أنت لم تجد داعيًا لمحادثتي طوال هذه السنوات، أنا لم أفعل أي شيء لأجلك، كل ما فعلته، كل تغيير صنعته في السيرك، كل خطوة مستحيلة ومشهد مبهر، إنما صنعته لأجلها.
- إن دوافعك لا تؤثر على اللعبة.
- لقد سئمت اللعب، أنا أعتزل.

رد مدربه:

- لا يمكنك الاعتزال. أنت مربوط بهذا بها. التحدي سيستمر. وسينهزم أحدكما، لا يوجد خيار لك في الأمر.

أمسك ماركو بواحدة من كرات البلياردو وقذفها نحو مدربه، لكن الأخير تفاداها بسهولة لتصطدم بالزجاج الملون. ودون كلمة أعطى ظهره لمدربه وغادر المكان دون حتى أن ينتبه لإيزوبل وهو يمر جوارها؛ حيث كانت قريبة بما يكفي كي تستمع للجدال.

اتجه مباشرة لقاعة الرقص وسار نحو منتصفها ليأخذ بيد سيليا ويجذبها بعيدًا عن هر تايسن.

ضمها ماركو في عناق زمردي، متلاصقين حتى لا تعرف أين يبدأ فستانها وتنتهي حلته، أحست سيليا كأنما فجأة لم يعد هناك شخص غيره في الغرفة، ما إن أمسك بذراعها، ولكن قبل أن تُعبِر عن صدمتها نزلت شفتاه على شفتيها لتتوه في فرحة صامتة.

قبّلها ماركو كما لو كانا الشخصين الوحيدين في العالم بأسره.

عصف الهواء حولهما، ليفتح باب الحديقة الزجاجي، مع رقصة من الستائر المرفرفة.

واتجهت نحوهما كل العيون في القاعة.

بعدها تركها ومشى بعيدًا.

وما إن غادر ماركو الغرفة حتى نسي كل الحاضرين ما شاهدوه منذ لحظات، فُسر ارتباكهم باضطراب نتج عن الحرارة أو الإسراف في الشراب، لم يستطع هر تايسن أن يفهم متى توقفت سيليا فجأة عن الرقص أو كيف تغير فستانها إلى اللون الأخضر.

وحين أحس باضطرابها سألها:

- أهناك خطب ما؟

*****

مر السيد أ. هـ. عاصفًا عبر الردهة، متجنبا بطريقة ما التعثر في بوبيت وويجيت اللذين كانا يعلمان بووتس وبافو كيف تدوران حول أرجلهما، ناول ويجيت بووتس (أو بافو) لبوبيت وسار خلف الرجل ذي البدلة الرمادية، راقبه وهو يمر عبر البهو ويأخذ قبعته الرمادية وعصاه الفضية من الخادم ويغادر عبر الباب الأمامي. بعدما غادر ألصق ويجيت وجهه في أقرب نافذة وراقبه وهو يمضي تحت أضواء الطريق قبل أن يختفي في الظلام.

لحقت به بوبيت بعد قليل والقطتان تلعبان بسعادة فوق كتفيها وسألته:

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟

التفت ويجيت عن النافذة وقال:

- الرجل لا يملك ظلًّا.

كان شاندرش يمر بهما فانحنى على النافذة سائلًا:

- ماذا تقول؟

لكنّ ويجيت وبوبيت والقطتين البرتقاليتين كانوا قد غادروا بالفعل عائدين إلى الردهة ليذوبوا وسط الزحام الملون.

حكايات قبل النوم

كونكورد ماساشوستس أكتوبر 1902

قضى بيلي الجزء الأول من الأمسية في استكشاف التيه مع بوبيت وويجيت. وهو شبكة محيرة من الغرف المتقاطعة مع طرقات بها أبواب متنوعة. بعض الغرف تدور وبعضها بأرضية كرقعة شطرنج مضيئة، إحدى القاعات محشوة بالحقائب وأخرى يهطل فيها الثلج.

سألهما بيلي وهو يذيب ندف الثلج التي تعلقت بمعطفه:

- كيف يكون هذا ممكنًا؟

كان رد بوبيت أن ألقت في وجهه كرة ثلج بينما اكتفى ويجيت بالضحك.

وبينما يتجولون في التيه أخذ ويجيت يحكي لهما قصة المينوتور بتفصيل جعل بيلي يشعر أنه سيقابل الوحش في أي وقت.

وصلوا إلى غرفة تشبه قفصًا عملاقًا لا يظهر خلف قضبانه سوى الظلام، والباب الأرضي الذي دخلوا منه انغلق فور دخولهم ولم يستطيعوا فتحه ثانية. فبدى لهم أنه لا يوجد مخرج.

توقف ويجيت عن الحكي بينما انشغلوا بفحص كل واحد من القضبان الفضية دون أن يجدوا فتحة سرية أو باب مخفي بعناية، وبدأ القلق يظهر على بوبيت.

وبعد وقت طويل قضوه في الحبس عثر بيلي على مفتاح مخبأ في مقعد أرجوحة معلقة وسط القفص. حين أداره ارتفعت الأرجوحة إلى أعلى وانفتح سقف القفص ليسمح لهم بالتسلق خارجًا، ليدخلوا معبدًا خافت الضوء يحرسه أبو هول أمهق.

وبينما كان المعبد يحوي على الأقل دستة من الأبواب فقد عثرت بوبيت فورًا على باب يعيدهم إلى السيرك.

كان القلق ما زال باديًا عليها ولكن قبل أن يطمئن عليها بيلي نظر ويجيت في ساعته وقال إنهما تأخرا عن موعد عرضهما. واتفق ثلاثتهم على اللقاء ثانية وغاب التوءمان وسط الزحام.

كان بيلي قد شاهد مرارًا عرض القطيطات حتى إنه حفظ كل حركاتهم، لذلك فضل أن يستكشف قليلًا وحده حتى يتفرغ التوءمان.

كان الطريق الذي اختاره للتجول دون أبواب مرئية. مجرد ممر بين الخيام، يمتد بلا نهاية عبر خطوط مضاءة بمصابيح خافتة.

ثم لاحظ نقطة مختلفة وسط تكرار اللونين الأبيض والأسود.

كانت فجوة في أحد جوانب خيمة. شق في النسيج حافتيه مثقوبتان بعرى فضية ورباط أسود يتدلى فوق رأسه، كما لو كان يفترض أن يغلق الشق كي يبدو جدار الخيمة مصمتًا. فتساءل إن كان أحد العاملين بالسيرك قد نسي إغلاقه.

ثم لمح الرقعة، ليست أكبر من بطاقة بريدية كبيرة، ملصقة في الشريط الأسود تتدلى فوق الأرض ببضعة أقدام، أدار الرقعة ليجد عليها

صورة بالأبيض والأسود تمثل طفلًا في سريره محاطًا بوسادات ناعمة وغطاء مطوي. لم يكن في مهد، بل أسفل النجوم اللامعة في سماء الليل. كان الوجه الآخر أبيض وقد طبع عليه بخط أنيق.

حكايات قبل النوم

أنشودة المساء

وحنين الذكريات

ادخل بحذر من فضلك

وكن حرًّا في فتح ما هو مغلق.

لم يعرف بيلي هل الرقعة خاصة بهذه الخيمة أم أنها سقطت من خيمة أخرى، أغلب الخيام لها لافتات من الخشب الصلب ومداخلها واضحة وظاهرة، بينما هذه تبدو كأنما قُصد ألا يراها أحد. مر به بعض الزوار الآخرين الذين ينتقلون من مكان إلى آخر في السيرك، وقد استغرقهم الحديث فلم يلاحظوه وهو واقف بجانب شق في الخيمة مستغرق في قراءة الرقعة.

مبدئيًّا جذب بيلي جانبي الشق بما يكفي كي يدخل رأسه عبره، كي يرى إن كانت بالفعل واحدة أخرى من مفاجآت السيرك أم هي مجرد شق في خلفية خيمة الأكروبات أو مخزن من نوع ما.

لم يستطع رؤية سوى بعض الأضواء الخافتة وأشكالًا تبدو كالأثاث. لم يتأكد بعد فجذب جانبي الشق أكثر كي يكفيه، ودخل بحذر كما ذكرت الرقعة، وهو ما ثبت صحته كونه وجد نفسه يصطدم بمائدة مغطاة بالزجاجات والدوارق والأوعية التي أخذت تقعقع فتوقف كي لا يسقط أي شيء.

كانت حجرة طويلة، بالحجم المعتاد لغرف الطعام، أو ربما بدت له غرفة طعام بسبب المائدة الممتدة بطول الغرفة تاركة فراغًا يكفي للالتفاف الحذر حولها. كانت الأواني متنوعة، بعض الدوارق كانت زجاجية عادية والأخرى من الفخار أو الزجاج المعتم. زجاجات نبيذ وويسكي وعطر. وهناك سكرية فضية وأوعية تشبه الجرة. ولم يبد أن كل هذا مرتبًا أو موضوعًا بأي نظام. فقط صُفُّوا فوق المائدة. كان هناك المزيد من الدوارق على محيط الغرفة البعض على الأرض والبعض على صناديق أو رفوف خشبية عالية.

كان الشيء الوحيد المشترك بين الرقعة والحجرة هو السقف، كان أسود مزدانًا بأضواء صغيرة متلألئة. يكاد يبدو مثل النظر إلى السماء بالخارج.

لم يفهم بيلي كيف يرتبط كل هذا بطفل في سريره أو بحكايات قبل النوم، وأخذ يدور حول المنضدة.

تذكر ما قالته الرقعة عن فتح الأشياء متسائلًا ما الذي يمكن أن يكون داخل كل تلك الأواني، تلك المصنوعة من زجاج شفاف تبدو فارغة، وحين وصل إلى الجانب الآخر من المائدة اختار أحدها عشوائيًّا، كان مرطبانًا من الصيني، مطليًّا بلون أسود لامع وغطاء به عقدة تعمل كمقبض. جذب الغطاء ونظر بالداخل فتصاعد منه سحابة من الدخان وغير ذلك كان فارغًا، وبينما يفتش فيه وصلته رائحة الدخان، كانت تحمل مزيجًا من رائحة النار الضارية وشواء أبو فروة ولمحة من الثلج. مدفوعًا بفضوله استنشق بقوة من الدخان، كان هناك عبق التوابل المختمرة، مع الحلوى المسكرة، والنعناع ودخان الغليون، والرائحة الطازجة لشجر التنوب، وقطرات الشمع السائلة. كان يكاد يشعر بالثلج، بالحماس، بالترقب،

بالطعم الحلو للحلوى. كان الأمر مدهشًا ومحيرًا ومزعجًا. بعد دقائق أعاد غلق الغطاء ووضع المرطبان على المائدة بحرص.

نظر إلى الأوعية والزجاجات حوله متحمسًا ومترددًا في تجربة آخر. التقط مرطبانًا شفافًا وفك غطاءه المعدني الفضي. لم يكن فارغًا بل كان يحتوي كمية قليلة من الرمال البيضاء التي تتحرك في قاعه، كانت رائحته لا يمكن أن يجهلها، رائحة المحيط، رائحة يوم صيف مشمس على الشاطئ. كان يستطيع سماع أصوات الأمواج وصيحات النورس، وشيئًا غامضًا كذلك، شيئًا خياليًّا. علم سفينة قراصنة يظهر عبر الأفق، وذيل عروس بحر يغطس خلف موجة. كانت الروائح والإحساس المصاحب يشعره بالإثارة والمتعة، مع المذاق الملحي لنسيم البحر.

أغلق بيلي المرطبان لتبهت الرائحة وتحبس ثانية داخل الزجاج مع حفنة الرمال.

تساءل بعد ذلك إن كان هناك فارق بين تلك الأواني الموضوعة على المائدة وتلك المرصوصة فوق الرفوف، فاختار زجاجة من رف على الجدار ليرى إن كان هناك نوع من النمط في تعبئة تلك الأواني المثيرة.

كانت زجاجة طويلة رفيعة، وقد أغلقتها فلينة مثبتة بسلك فضي. جذبها ببعض القوة لتنفتح بفرقعة، كان هناك شيء في قاع الزجاجة لكنه لم يستطع معرفته، كانت الرائحة الآتية من العنق الرفيع مضيئة مزهرة، شجرة ورد ممتلئة بالبراعم التي يتساقط من عليها الندى. رائحة تراب الحدائق الندي، وأحس أنه يمشي في ممر حديقة؛ حيث يئز النحل من حوله وتغني الطيور فوق الأشجار. استنشق بعمق فوجد وردًا وسط الزهور، زنابق وسوسن وزعفران. سمع حفيف أوراق الشجر في النسيم الدافئ، وصوت أقدام شخص آخر قريب منه، وأحس حقًّا بقطة تفرك

نفسها بقدميه، حتى إنه نظر إلى أسفل متوقعًا أن يراها فلم يجد على الأرض سوى المزيد من الأواني.

أعاد بيلي الفلينة للزجاجة ووضعها على الرف كما كانت. ثم التقط أخرى.

كانت زجاجة صغيرة محشورة في الخلف بأحد الرفوف، مستديرة بعنق قصير ومغلقة بسدادة زجاجية. أمسك بها بحرص فوجدها أثقل مما توقع. أزال السدادة لكنه تحير قليلًا، فلم يجد رائحة أو تغيرًا في البداية. ثم وجد رائحة الكراميل، يحملها نسيم الخريف الطازج، رائحة الصوف والحلوى جعلته يشعر أنه يرتدي معطفًا ثقيلًا ووشاحًا دافئًا حول عنقه. أتاه انطباع أن هناك أشخاصًا يرتدون أقنعة وامتزجت رائحة الكراميل بنار مخيم. ثم حدث تغير مفاجئ، حركة أمامه، شيء رمادي وألم في صدره وإحساس بالسقوط وصوت عواء في الرياح أو لعله صراخ فتاة.

وضع بيلي السدادة مضطربًا، لكنه لم يرغب في ختام التجربة بهذا فأعاد الزجاجة الصغيرة الغريبة إلى مكانها وقد قرر أن يختار واحدة أخرى قبل أن يغادر إلى لقاء بوبيت وويجيت ثانية.

التقط أحد الصناديق الموضوعة فوق المائدة هذه المرة، صندوقًا مصقولًا محفورًا على غطائه شكل دوامي. من الداخل كان مبطنًا بالحرير الأبيض. كانت الرائحة نفاذة قوية حارقة وقد أحس بالدخان يتصاعد حوله، كان ساخنًا، هواء الصحراء الجاف مع سطوع الشمس وذرات الرمال الناعمة. احمرت وجنتاه من الحرارة لكن أيضًا كان هناك سبب آخر، الإحساس بأن شيئًا فارهًا في نعومة الحرير يلامس بشرته في موجات وكانت هناك موسيقى لا يستطيع تمييزها لعله مزمار أو ناي، وضحكات. ضحكات عالية رنانة تتناغم مع الموسيقى، ومذاق

شيء حلو لكنه متبل في فمه. كان الشعور بالبهجة والترف ممتزجًا بالغموض والشهوة. أحس بيد تلامس كتفه فقفز من المفاجأة تاركًا الغطاء لينزل على صندوقه.

انقطع الإحساس فجأة، كان وحيدًا في الخيمة تحت بريق نجومها. فكر أن يكتفي بهذا وبدأ العودة إلى الشق في جدار الخيمة حذرًا من أن يسقط أي وعاء أو مرطبان.

توقف كي يعدل وضع الرقعة على الشق كي تبدو ظاهرة أكثر. لم يعرف لماذا لكن جعل صورة الطفل النائم أسفل النجوم للخارج، من الصعب أن يعرف أهو نائم بسلام أم بقلق.

مشى عائدًا إلى مقابلة بوبيت وويجيت متسائلًا إن كانا سيرغبان في الذهاب إلى الساحة كي يأكلوا شيئًا ما.

لكن حين شم رائحة الكراميل في الهواء أدرك أنه ليس جائعًا حقًّا.

تجول بيلي عبر الممرات الملتوية وعقله منشغل بزجاجات تحوي الغوامض. وحين انعطف في أحد النواصي وجد أمامه منصة عالية عليها تمثال حي لكنه مختلف عن المرأة المغطاة بالثلج التي رآها قبلًا، هذه المرأة كانت بشرتها لامعة ذات لون شاحب، وشعرها الأسود الطويل معقود بدستة من الشرائط الفضية ومنساب على كتفيها، كان فستانها أبيض مغطى بما بدا لبيلي كتطريز أسود، لكنه حين اقترب منها وجد أنها كلمات سوداء مخطوطة على القماش. اقترب أكثر ليقرأها فوجدها خطابات حب، مسجلة بخط اليد تصف العشق والوله تدور حول جيدها وتنساب على الفستان كما لو كانت ستنسكب فوق المنصة.

التمثال كان ثابتًا لكنه يمد يده، وحينها انتبه بيلي لتلك الفتاة التي ترتدي وشاحًا أحمر وتقف أمامها تمد يدها لتمثال خطاب الحب زهرة قرمزية.

كانت الحركة بطيئة جدًا لا تلاحظ، لكن ببطء شديد جدًا جدًا امتدت يد التمثال لتقبل الزهرة، انفتحت أصابعها، وانتظرت الفتاة صاحبة الزهرة بصبر حتى أغلقت التمثال يدها على العنق، فلم تترك الزهرة إلا بعدها.

ثم انحنت الفتاة إلى التمثال وعادت إلى الجمهور.

ظلت المرأة التمثال ممسكة بالزهرة التي بدا لونها أكثر نضارة مع زيها الأبيض والأسود.

كان بيلي ما زال يشاهد التمثال حينما ربتت بوبيت على كتفه.

نظرت بوبيت إلى التمثال وقالت:

- إنها المفضلة لدي.

سألها بيلي:

- من هي؟

قالت بوبيت:

- لها عدة أسماء لكن في الأغلب تلقب بالعاشقة. سعيدة أن هناك من قدم لها زهرة اليوم، أفعل هذا بنفسي أحيانًا حينما لا يفعلها أحد فهي لا تبدو مكتملة دونها.

كانت التمثال ترفع الزهرة ببطء نحو وجهها وجفناها ينغلقان تدريجيًا.

تركا العاشقة ومشيا نحو الساحة وسألته بوبيت:

- ماذا فعلت بوقتك؟

قال بيلي:

- وجدت خيمة مليئة بالزجاجات والأشياء التي لست متأكدًا أنها كانت هناك حقًّا، لقد كانت .... غريبة.»شيأ

لدهشته ضحكت بوبيت لكنها شرحت له:

- هذه خيمة ويجيت، سيليا صنعتها له كمكان يتدرب فيه، فقد كان ويجي يخبرها أنه يريد مكانًا يتدرب فيه على تسجيل قصصه زاعمًا أن هذا أسهل من كتابتها. بالمناسبة ويجي قال إنه سيتدرب على قراءة الناس، ولذا فسننضم إليه فيما بعد. يفعل هذا أحيانًا كي يجمع أفكارًا لقصصه لذا في الأغلب سيكون في قاعة المرايا أو غرفة الرسم.

سألها بيلي:

- ما غرفة الرسم؟

كان فضوله لمعرفة خيمة لم يرها أو يسمع عنها من قبل قد تغلب على الألف سؤال الذي ثار في ذهنه عمن تكون سيليا التي لا يذكر أن ويجيت وبوبيت قد ذكراها من قبل.

- إنها خيمة بجدران سوداء خاوية ودلاء من الطباشير كي يمكنك أن ترسم حيثما شئت، البعض يكتفي بكتابة اسمه والبعض يرسم صورًا، أحيانًا يكتب ويجيت بعض قصصه لكنه يرسم أيضًا فهو يجيد الرسم إلى حد كبير.

وبينما يتجولان في الساحة أصرّت بوبيت أن يجرب كاكاوًا مبهرًا يجمع بين لذة الطعم مع قليل من الألم، وهذا أعاد له شهيته فتشاركا

طبقًا من الزلابية ورزمة من أوراق تؤكل مرسوم على كل ورقة منها شرحًا تفصيليًا لنكهاتها.

دخلا لخيمة يعمها الضباب قابلا فيها مخلوقات من الورق، ثعابين بيضاء زاحفة تمد ألسنتها السوداء، طيور بأجنحة كالفحم ترفرف وسط الضباب الكثيف. ظل أسود لكائن مجهول فزع بين قدمي بوبيت قبل أن يختفي عن الأنظار.

زعمت أن هناك في مكان ما بالخيمة تنينًا ورقيًّا ينفث نارًا، وبرغم أن بيلي يصدقها لكنه لم يستطع أن يستوعب ورقًا ينفث نارًا.

وبينما ينتقلون من خيمة إلى أخرى نبهته بوبيت «

- لقد تأخر الوقت، أليس عليك العودة للمنزل؟

قال بيلي:

- يمكنني أن أبقى قليلًا بعد.

كان قد أصبح خبيرًا في التسلل عائدًا للمنزل دون أن يوقظ أحدًا لذا كان يرجع من السيرك كل ليلة في وقت أكثر تأخرًا.

في هذه الساعة لم يكن قد تبقى سوى القليل من الزوار، ولاحظ بيلي أن الكثير منهم يرتدون أوشحة حمراء. تختلف أنواعها من الصوف الثقيل حتى الحرير الخفيف لكن دومًا بلون أحمر قانٍ يبدو أشد احمرارًا وسط كل هذا السواد والبياض.

سأل بوبيت عن الأمر فقد مر به الكثير من الأحمر فلم يعد يبدو الأمر كمصادفة وذكر الفتاة ذات الزهرة عند العاشقة فقد كانت ترتدي وشاحًا أحمر أيضًا.

قالت:

- إنه كالزي الموحد، هؤلاء هم الحالمون. بعضهم يتبع السيرك حيثما ذهب وهم دومًا ما يبقون بعدما يرحل الباقون. والأحمر هو العلامة التي يعرفون بها بعضهم البعض.

أراد بيلي أن يسأل المزيد من الأسئلة عن الحالمين وأوشحتهم الحمراء لكن قبل أن يفعل جذبته بوبيت إلى خيمة أخرى وكان المشهد بالداخل كافيًا لتصمت كل كلماته.

كان إحساسه مشابهًا لما يحدث مع السقوط الأول للثلج، بتلك الساعات الأولى التي تغطي كل شيئًا بسجادة بيضاء ناعمة صامتة.

كل ما في الخيمة أبيض، لا يوجد قطرة من سواد، حتى الجدران لم تكن مخططة. أبيض متجانس يبرق، هناك أشجار وحشائش يحيطها ممرات متشابكة معبدة بالحصى، وكل ورقة وبتلة بيضاء تمامًا.

سألها بيلي الذي لم تتح له الفرصة كي يقرأ اللافتة:

- ما هذه؟

قالت بوبيت وهي تجذبه عبر الممر:

- إنها الحديقة الثلجية.

وصلا إلى باحة واسعة بها نافورة في المنتصف تلقي بفوم أبيض فوق الثلج الأبيض المصقول. الأشجار الشاحبة تمتد لحافات الخيمة وهطول من نتف الثلج ينزل من أفرعها.

لم يكن هناك غيرهما في الخيمة، لا يوجد ما يزعج محيطهما، مال بيلي على زهرة، ورغم أنها باردة ومتجمدة وبيضاء، لكن كان لها رائحة طفيفة ظهرت حينما اقترب منها. كانت رائحة الثلج والسكر فذكرته بزهور السكر التي تباع في متاجر الساحة.

اقترحت بوبيت:

- فلنلعب استغماية.

حينما وافق بيلي خلعت معطفها وعلقته على فرع متجمد، ومع زيها الأبيض أصبحت غير مرئية تقريبًا.

هتف بيلي:

- هذا ليس عدلًا!

لكنها كانت قد اختفت خلف الفروع الكثيفة لشجرة صفصاف. تبعها عبر الأشجار والشجيرات ووسط الكرمات والتكعيبات مطاردًا ما يلمحه من شعرها الأحمر.



إمساك الدفاتر

لندن، مارس 1900

كان شاندرش كريستوف لوفيفرا يجلس على مكتبه الضخم المصنوع من الماهوجني. وأمامه زجاجة شبه فارغة من البراندي. كان هناك كأس ما في بداية الأمسية لكنه أضاعه منذ ساعات. كان التنقل من غرفة إلى أخرى قد أصبح عادته الليلية نتيجة الأرق والملل. أضاع أيضًا معطفه خلال جولته بين الغرف، على أي حال سيستعيده في الصباح دون تعليق من خادم لبق.

في المكتب كان يحاول حين لا يرتشف من زجاجة البراندي أن يعمل، وهو ما يعني الكثير من الشخبطة بأقلام الحبر على قصاصات من ورق.

لم يقم بعمل حقيقي منذ سنوات، لم تأته أفكار جديدة ولم ينتج أعمالًا جديدة. دورة العمل والتنفيذ ثم الانتقال إلى مشروع جديد قد تجمدت ولا يمكنه أن يعرف لماذا حدث هذا. لم يكن الأمر مفهومًا له، ليس هذه الليلة ولا أي ليلة، ليس تحت تأثير البراندي أو دونه. ليس من المفترض أن يحدث هذا، دومًا كان هناك مشروع يبدأ، يقوم بتطويره، يُقدم للعالم ويصبح جاهزًا ثم يكتفي ذاتيًا ولا تعود هناك حاجة لشاندرش. لا يسعده هذا بالتأكيد لكنها طبيعة الأمور وشاندرش يفهم

هذا جيدًا. مرحلة يفخر فيها بالعمل وأخرى يسدد فيها فواتيره وثالثة مؤلمة يتخلى عنه ثم تأتي مرحلة تجاوزه والبدء من جديد.

السيرك تركه بالخلف وأبحر قدمًا، ورغم ذلك فهو عاجز عن مغادرة الشاطئ أو أن يبعد وجهه عنه. مر وقت أكثر من كافٍ للحزن على افتقاد إبداعه وانشغاله بفكرة جديدة. لكن لم تأته الشعلة بعد، لا إلهام أو بحث عن الأفضل والأكبر خلال أربعة عشر عامًا. ربما يكون السيرك هو ذروة ما يقدر عليه، لكنها ليست بالفكرة السارة لذا يحاول إغراقها بالبراندي كي لا يفكر فيها.

لقد ضاق بالسيرك.

يثير حنقه في مثل هذا الوقت، حين يقترب من نهاية زجاجة البراندي في هدوء الليل. لم يكن الوقت متأخرًا جدًّا بعد، بتوقيت السيرك ما زالت الليلة في بدايتها، لكن الصمت قد أصبح ثقيلًا بالفعل.

والآن فقد جف البراندي في زجاجته والحبر في قلمه، فاكتفى بالجلوس، يمرر يده في شعره عبثًا ويحدق إلى الفراغ عبر الغرفة لا يتعلق بصره بشيء، النار الذاوية في المدفأة الذهبية وخزانته المحشوة بالتحف والغوامض مشبوبة بالظلال. ثم جال نظره مارًّا عبر الباب المفتوح ليسقط على الباب المقابل، باب مكتب ماركو، المحشور بين زوج من الأعمدة فارسية الطراز. جزء من غرف الجناح المخصص لماركو ولو أنه بالخارج هذا المساء.

تساءل شاندرش وسط غيمة الخمر عمًّا إذا كان ماركو يحتفظ بأوراق السيرك في مكتبه. وما الذي يمكن أن تحتويه هذه الأوراق. لقد رأى فقط الأعمال الورقية الخاصة بالسيرك وهي تمر أمامه دون أن يزعج نفسه بالاطلاع عليها طوال هذه السنوات. لكن اليوم يثير السيرك فضوله.

نهض مترنحًا من كرسيه ممسكًا بالزجاجة الفارغة في يده قاطعًا الردهة. فكر أن الباب الخشبي الداكن سيكون موصدًا لكن حين وصل إليه وأدارت يده مقبضه الفضي وجده يدور بسهولة وانفتح الباب.

وقف شاندرش مترددًا عند المدخل، كانت الحجرة الضيقة غارقة في الظلام باستثناء ما تسلل عبر فتحة الباب ومن أنوار الشارع الخافتة عبر النافذة الوحيدة. للحظات فكر شاندرش أن ينظر لو ووجد القليل من البراندي ما زال في الزجاجة فسيتجرعه ويذهب بعيدًا. لكن الزجاجة كانت فارغة تمامًا وهذا هو بيته في نهاية الأمر. تخبط باحثًا عن مفتاح المصباح المجاور للغرفة وزاد إضاءته لينيرها أمامه.

كانت مكدسة بالأثاث، خزائن وحوافظ على الجدران وصناديق ملفات مكدسة في صفوف متلاصقة والمكتب في مركز الغرفة يحتل نصف ما تبقى من الفراغ تقريبًا، كان نسخة متواضعة مصغرة من هذا الذي في غرفة شاندرش. وسطحه مغطى بزجاجات الأحبار والأقلام وكومة من الدفاتر. كل شيء في نظام مرتب ولا يوجد ما يزينه من التماثيل والاحجار الكريمة والأسلحة العتيقة.

وضع شاندرش زجاجة البراندي الفارغة على المكتب وبدأ في البحث وسط الخزائن والملفات. يفتح الأدراج ويقلب في الأوراق دون فكرة عما يبحث عنه. لم يبد أن هناك قسم مخصص للسيرك، بعض أوراقه مع دفاتر المسرح وايرادات العروض، وأحس بقليل من الدهشة لغياب أي نظام توضيحي لتصنيف الملفات، فلا توجد ملصقات على الصناديق. كانت محتويات المكتب منظمة لكنها غير مصنفة.

في إحدى الخزائن عثر شاندرش على كومة من الرسوم الهندسية والمخططات أكثرها يحمل ختم السيد باريس وحروفه الأولى. لكن كانت هناك رسوم أخرى بخط لا يعرفه. في بعض الأحيان لا يستطيع حتى

تمييز اللغة التي كتب بها الوصف التوضيحي. برغم أن عنوان «**سيرك الأحلام**» مكتوب بوضوح على حافة كل ورقة.

جذبهم قرب الضوء ووضعهم على الفراغ القليل الموجود في الأرض وانكب عليهم. يفتح لفافة تلو الأخرى ويترك فرخًا تلو الآخر يسقط في كومة وهو ينتقل للتالي.

حتى بعض الأفرخ المطبوع عليها اسم السيد باريس قد تم تعديلها، إضافات وضعت بخط آخر. طبقات رسمت فوق التصميم الأصلي.

ترك الأوراق أرضًا وانتبه إلى الدفاتر المنظمة فوق المكتب. بدت كدفاتر حسابات بها صفوف تلو الصفوف من الأرقام والحسابات والملاحظات والإجماليات والبيانات. ألقاها بعيدًا وانتبه للمكتب نفسه.

أخذ يجذب الأدراج الخشبية الثقيلة. كان أكثرها فارغًا وأحدها يحوي دفاتر فارغة وزجاجات حبر غير مستخدمة وآخر ممتلئ بدفاتر قديمة وسجلات مواعيد عبر الأيام مكتوبة بخط ماركو الأنيق بنوع من الاختزال.

والدرج الأخير كان موصدًا.

لم يكن هناك مفتاح في المكتب وبقية الأدراج غير موصدة.

لم يستطع أن يتذكر هل احتوى هذا المكتب حين وضعه هنا منذ سنوات طويلة قفلًا؟ حين لم يكن بالغرفة سوى هذا المكتب وخزانة واحدة.

بدا له الأمر مريبًا فبحث لدقائق عن المفتاح قبل أن ينفد صبره، فعاد إلى مكتبه وأخذ سكينه الفضي المغروس في لوحة التهديف على جدارها، ونزل على الأرض أسفل المكتب وأخذ يعبث بالقفل محاولًا فتحه دون تدميره، ولم يلبث إلا وأتته التكة المريحة لانزلاق اللسان أسفل نصله.

ترك السكين أرضًا وجذب الدرج فلم يجد به سوى كتاب واحد، مجلد ضخم غلافه من الجلد الطبيعي، أخذه شاندرش من الدرج وبدا دهشًا من وزنه قبل أن يسقطه بدويٍ على سطح المكتب.

كان الكتاب قديمًا متربًا وقد تآكل غلافه واهترأ رابطه عند الحافات. لم يستغرق شاندرش سوى لحظة للتفكير في الأمر قبل أن يفتحه.

كان الغلاف الداخلي مغطى برسم منمق مفصل لشجرة مغطاة بالرموز والعلامات. كانت الكتابة كثيفة حتى إن الحبر يغطي الصفحة تمامًا، ولم يستطع شاندرش أن يفك أي من الرموز أو حتى يعرف إن كانت هذه العلامات تعني كلمات أم هي مجرد تفصيلة في الرسم. هنا وهناك تبدو بعض الرموز مألوفة. بعضها قد يكون أرقامًا والبعض الآخر يذكره بالرموز الهيروغليفية المصرية. ذكره الأمر بوشم البهلوانة.

الصفحات الداخلية كانت مغطاة بعلامات مشابهة لكنها مرتبطة بأشياء أخرى، قطع من ورق مقصوصة من ملفات أخرى.

استغرق الأمر منه النظر في عدة صفحات قبل أن يدرك أن كل قصاصة ورق تحمل توقيعًا. استغرق الأمر منه وقتًا أطول كي يميز الأسماء.

ولكن فقط حين وجد صفحة بها الخطان المتشابهان الطفوليان لشخبطات التوءمين موراي، أدرك حينها أن الكتاب يحوي أسماء كل شخص متصل بالسيرك.

وحين اقترب ليلقي نظرة مدققة وجد أنها معقودة مع خصل من الشعر.

الصفحات التالية كانت تحمل أسماء المخططين الأصليين باستثناء اسم غائب وآخر محذوف.

الصفحة الأخيرة كانت تحمل توقيعه، زهرة من حروف (c) غير مقروءة نزعت ببراعة مما يبدو خطابًا أو كشف حساب. وأسفلها خصلة من شعر أسود ملصق بالورقة ومحاط بالرموز والحروف. مد شاندرش يده ليتحسس الشعر على مؤخرة رأسه النازل على ياقته.

سقط ظل على سطح المكتب فقفز شاندرش من المفاجأة ليسقط الكتاب ويغلق.

- سيدي؟

كان ماركو يقف عند المدخل يراقب شاندرش بنظرات فضولية.

قال شاندرش:

- ظننت... ظننتك غادرت الليلة.

ونظر إلى الكتاب قبل أن يرفع عينيه ثانية لماركو.

قال ماركو وهو يجول ببصره على الأوراق والمخططات الملقاة أرضًا:

- بالفعل سيدي لكني نسيت بعض أغراضي. أتسمح لي بالسؤال ما الذي تفعله يا سيدي؟

قال شاندرش:

- يجب أن أسألك أنا نفس السؤال، ما هذا؟

وفتح الكتاب ثانية بعنف.

قال ماركو دون أن ينظر إلى الكتاب:

- هذه هي سجلات السيرك.

هاجمه:

- أي نوع من السجلات هذا؟

- إنه نظام من تصميمي يساعدني على البقاء متابعًا للسيرك كما تعرف.

- منذ متى تفعل هذا؟

- أفعل ماذا يا سيدي؟

قلب في الصفحات محاولًا التغلب على نفوره من لمس الكتاب ثانية وقال:

- تواصل بـــ... أيًا ما كان هذا الخبل.

قال ماركو:

- إن نظامي يرجع إلى بداية التفكير في السيرك.

- أنت تفعل شيئًا به، بنا جميعًا، أليس كذلك؟

- أنا لا أفعل شيئًا سوى تأدية وظيفتي يا سيدي.

ثم احتد صوته قليلًا وقال:

- وإن سمحت لي سيدي، فأنا لا أُقدر أن تقوم بالتفتيش وسط كتبي دون أن تبلغني يا سيدي.

تحرك شاندرش ليدور حول المكتب مواجهًا ماركو وهو يطأ فوق المخططات الملقاة متعثرًا برغم ثبات صوته.

- أنت موظف لديّ، لي كل الحق في أن أرى أي شيء داخل منزلي، أو ما الذي تم فعله بمشروعي، أنت تعمل معه، أليس كذلك؟ كنت تخفي عني كل شيء طوال الوقت، ليس لك الحق أن تفعل من وراء ظهري ...

قاطعه ماركو:

- من وراء ظهرك؟ لا يمكنك حتى أن تتخيل حجم الأشياء التي تُفعل من وراء ظهرك! لقد كان الأمر برمته من وراء ظهرك من قبل أن يبدأ أصلًا.

قال شاندرش:

- ليس هذا ما أردته من الأمر.

رد ماركو:

- لم يكن لديك خيار أبدًا في هذا الأمر، أنت لا تتحكم به ولم تتحكم أبدًا به، وأنت حتى لم ترغب في معرفة ما الذي فعلناه، كنت توقع الفواتير دون حتى أن تلقي نظرة، تقول دومًا ألا نحمل هم المال كذلك كانت التفاصيل، لم تحمل همها أبدًا وأوكلتها إليّ.

اهتزت الأوراق فوق المكتب مع ارتفاع صوته، فسكت وأخذ خطوة إلى الخلف مبتعدًا عنه لتستقر الأوراق ثانية في كومة مبعثرة.

قال شاندرش:

- لقد خربت هذه التجربة من بدايتها، تكذب في وجهي وتخفي ما لا يعرفه إلا الله في هذه الكتب....

سأله ماركو:

- أي كتب يا سيدي؟

نظر شاندرش خلفه إلى المكتب فلم يجد شيئًا، لا أوراق أو دفاتر. فقط محبرة جوار مصباح، تمثال برونزي لمعبود مصري وساعة وزجاجة براندي فارغة. لم يتبق شيء آخر على السطح اللامع للمكتب.

ترنح شاندرش وهو يلتفت بين المكتب وماركو غير قادر على التركيز.

قال:

- لن أدعك تفعل هذا بي.

وأمسك بزجاجة البراندي الفارغة وشهرها في وجه ماركو مكملًا:

- أنت معفى من مهامك، ستغادر فورًا.

تلاشت زجاجة البراندي وتوقف شاندرش وهو يقبض على الهواء.

رد ماركو بصوت هادئ ثابت وهو يتكلم ببطء كما لو كان يشرح الأمر لطفل صغير:

- لا أستطيع المغادرة، ليس مسموحًا لي، يجب أن أبقى هنا ويجب أن أستمر في فعل هذا الخبل كما وصفته بدقة، سترجع إلى شرابك وحفلاتك ولن تتذكر هذه المحادثة، ستظل الأمور كما هي وهذا هو ما سيحدث.

فتح شاندرش فمه ليعترض لكنه أغلقه ثانية متحيرًا، نظر نحو ماركو ثم نحو المكتب الفارغ. نظر ليديه وضم أصابعه وبسطها محاولًا الإمساك بشيء ما لا يتذكره، ثم التفت إلى ماركو قائلًا:

- عذرًا، لقد فقدت تركيزي، عمَّ كنا نتحدث؟

قال ماركو:

- لا شيء مهم يا سيدي، فقط بعض التفاصيل الصغيرة حول السيرك.

قال شاندرش:

- نعم بالطبع، أين السيرك الآن؟

- سيدني، في أستراليا يا سيدي.

اختنق صوته لكنه أخفى هذا بسعال قصير مشيحًا بوجهه.

أومأ شاندرش بغير اهتمام.

قال ماركو مشيرًا نحو الزجاجة الفارغة التي عادت لسطح المكتب:

- هل آخذ هذه عنك يا سيدي؟

قال شاندرش:

- نعم بالطبع بالطبع.

مناولًا الزجاجة إلى ماركو دون أن ينظر إليها أو إليه، بالكاد واعٍ لما يفعل.

- هل أحضر لك واحدة أخرى يا سيدي؟

قال شاندرش:

- نعم شكرًا لك.

ثم غادر مكتب ماركو عائدًا إلى مكتبه ليجلس على المقعد الكبير جوار النافذة.

في مكتبه أخذ ماركو يجمع الكتب والدفاتر والأوراق المبعثرة بيدين مرتعشتين. وأخذ يلف المخططات ويكوم الأوراق والدفاتر.

عثر على السكين الفضي المتروك أرضًا فأعاده إلى لوحة التهديف على جدار مكتب شاندرش وغرسها في مركزها.

ثم أفرغ كل درج في مكتبه، مزيلًا كل ملف أو وثيقة، وحين أصبح كل شيء مرتبًا أخذ من الحجرة المجاورة مجموعة من الحقائب وملئها حتى انتفخت. والكتاب الجلدي الضخم حُشر بين أكوام الأوراق. ثم فتش غُرْفته مزيلًا كل أغراضه الشخصية من المكان. ثم أطفأ المصباح وأغلق المكتب خلفه.

وقبل أن يغادر المكان محملًا بالحقائب ولفائف المخططات وضع زجاجة براندي ممتلئة وكأسًا على المنضدة المجاورة لمقعد شاندرش. لم يشعر الأخير حتى بوجوده، كان ذاهلًا يحدق عبر النافذة إلى المطر

والظلام، لم يسمع تكة الباب وماركو يغلقه خلفه. قال شاندرش وهو يصب لنفسه كأسًا من البراندي:

- إنه لا يملك ظلًّا.

*****

في وقت متأخر من نهاية الليلة، خاض شاندرش محادثة طويلة مع شبح زميل قديم عرفه فقط باسم بروسبيرو الساحر. الأفكار التي ربما أغرقها البراندي بقيت محفوظة في رأسه مختومة ومؤمنة على يد ساحر شفاف.

ثلاثة أكواب من الشاي مع ليني بيرجس

لندن وبازل وإسطنبول 1900

كان الاستوديو الخاص بالسيدة بادفا مكانًا أنيقًا قريبًا من مقابر **هاي جيت** مع نوافذ تمتد من السقف إلى الأرضية لتعطي رؤية بانورامية على لندن. وعُلقت الفساتين والملابس في حلقة واسعة كثنائيات لتعطي انطباعًا بوجود حفلة يحضرها عشرات الضيوف دون رؤوس.

تجولت ليني بيرجس بين مجموعة من الفساتين الأبيض والأسود بينما تنتظر السيدة بادفا، وتوقفت معجبة بواحد من الساتان العاجي مغطى بزخارف من المخمل الأسود فيبدو كما لو كان من الحديد المشغول.

قالت لها السيدة بادفا وهي تدخل الغرفة:

- يمكنني صنع نسخة ملونة منه إن رغبت فيه لنفسك.

كانت عصاها تصنع دبيبًا منتظمًا على بلاط الأرضية.

قالت ليني:

- إنه أكثر فخامة مما يروقني يا عمة بادفا.

قالت السيدة بادفا وهي تدير الحلقة متفحصة الملابس التي تدور بعيون ضيقة:

- من الصعب جدًّا صنع التوازن الملائم دون ألوان، لو زاد الأبيض يفترض الناس أنه فستان زفاف ولو زاد الأسود يشعرهم بالصرامة والثقل. هذا يحتاج للمزيد من السواد في رأيي، كنت سأضيف له أكمامًا لكن سيليا لا تحبهم.

عرضت السيدة بادفا على ليني بقية إنتاجاتها الأخيرة. بما في ذلك أحدث التصميمات قبل أن يجلسا ليشربا الشاي بجوار إحدى النوافذ.

أتت المساعدة لهما بالشاي قبل أن ترحل سريعًا فعلقت ليني:

- كلما زرتك وجدت مساعدة جديدة.

- إنهن تمللن من انتظار موتي ثم يهربن للعمل مع شخص آخر، ما إن يوقن أن إلقائي من النافذة كي أتدحرج حتى المقبرة ليس بالخيار الآمن، حتى يرحلن. أنا امرأة عجوز لديها الكثير من المال وليس لديها وريث. إنهن جوارح متأنقة وهذه ليست استثناء، لا أظنها ستدوم أكثر من شهر.

قالت ليني:

- كنت أفترض دومًا أنك ستورثين كل شيء لشاندرش.

- لا يحتاج شاندرش لأي من هذا ماليًّا. ولا أظنه سيستطيع إدارة العمل بالطريقة التي أحبها. ليس لديه النظرة الثاقبة التي يحتاجها، ناهيك عن أنه يفتقد إلى النظر كلية هذه الأيام.

قلّبت ليني شايها وهي تسأل:

- أحالته حقًّا سيئة؟

قالت السيدة بادفا:

- لقد فقد شيئًا من نفسه، لقد رأيت حالته قبل أن ينشغل بمشاريعه لكن لم يحدث له أبدًا مثل هذا. لقد أصبح شبحًا مقارنة بما كان عليه. برغم أنه بالنسبة لشاندرش فإن شبحه يظل أكثر حياة من أغلب الناس. أفعل ما أقدر عليه، أجد له عروض باليه من تلامذتي كي تشغل برنامج مسرحه، أجره معي إلى الأوبرا بينما يفترض أن يكون هو ما يفعل هذا لي.

وأخذت رشفة من الشاي قبل أن تضيف:

- ولا أحب أن أذكر هذا الأمر الحساس بالنسبة إليك، لكنني أحْرص على إبعاده عن القطارات.

قالت ليني:

- في رأيي هذا خيار حكيم.

- أنا أعرفه منذ كان طفلًا صغيرًا وهذا أقل ما يجب فعله.

اكتفت ليني بإيماءة، كان لديها أسئلة أخرى لكنها فضلت إبقاءها لشخص آخر ممن تنوي زيارتهم. لذا قضيت بقية المحادثة في الحديث عن الفن والموضة. وأصرت السيدة بادفا على أن تصنع لها نسخة أقل رسمية من الفستان الذي أعجبها باللونين الخوخ والكريمي وأنهت رسم تصميمه في دقائق.

قالت السيدة بادفا:

- حينما أتقاعد، سأترك كل هذا لك يا عزيزتي، لا يمكنني ائتمان شخص آخر عليه.

*****

كان المكتب كبيرًا لكنه يبدو أصغر بسبب كثرة محتوياته، وبينما جزء كبير من جدرانه مبني من الزجاج المصنفر، فإن أغلبها محجوب

بالخزائن والرفوف. منضدة الرسم منصوبة جوار النافذة لكنها مغطاة بالكامل بفوضى مرتبة من الأوراق والمخططات والرسوم. والرجل ذو النظارة الجالس خلفها بالكاد مرئي وقد امتزج بما حوله. وصوت قلمه وهو يحتك بالورق منتظم ودقيق مثل دقات الساعة التي في الركن.

كان نسخة مطابقة لمكتب مشابه في لندن وآخر في فيينا قبل أن ينتقل إلى بازل في سويسرا.

وضع السيد باريس قلمه جانبًا وصب لنفسه كوبًا من الشاي كاد أن يسقطه حينما رأى ليني بيرجس تقف على عتبته.

قالت:

- يبدو أن مساعدك غائب الآن. لم أقصد أن أفاجئك.

قال السيد باريس:

- لا بأس على الاطلاق.

ووضع كوبه على المنضدة ونهض من على كرسيه قائلًا:

- لم أتوقع وصولك قبل المساء.

قالت ليني:

- أخذت قطارًا أبكر وأردت رؤيتك.

قال السيد باريس:

- مزيد من الوقت كي أقضيه معك يعني مزيدًا من السعادة، شايًا؟

أومأت ليني ودخلت إلى المكتب المزدحم حتى وصلت إلى المقعد المقابل للمنضدة.

سألته من قبل حتى قبل أن تجلس:

- ما الذي ناقشته مع تارا في فيينا؟

قال دون أن ينظر لها موليًا انتباهه ناحية إبريق الشاي وهو يصبه:

- ظننتك تعرفين.

- إننا شخصان منفصلان يا إيثان، فقط لأنك عجزت عن تحديد من منا تقع في حبها لا يعني أننا نتبادل الأفكار.

أنزل الإبريق وأعد شايها الذي يعرف كيف تحبه دون الحاجة إلى السؤال.

قال وهو يقلّبه:

- لقد طلبتك للزواج ولم تعطيني أبدًا إجابة.

قالت ليني:

- لقد سألتني بعد وفاتها، كيف يمكنني أن أعرف إن هذا كان اختيارك أم هو اختيار فرض عليك.

ناولها كوبها واضعًا كفه وسط كفيها وقال:

- أنا أحبك أنتِ. أحببتها هي أيضًا لكن ليس بنفس الصورة. أنتما غاليتان عندي مثل عائلتي، كلتاكما، وأكثر من ذلك أحيانًا.

عاد إلى مقعده وخلع نظارته ليمسحها بمنديله، وقال ناظرًا إلى عدساتها:

- لا أعرف لِمَ أرتدي هذه! لم أعد بحاجة لها منذ سنوات.

قالت ليني:

- ترتديها لأنها تناسبك.

قال:

- شكرًا لك.

وأعاد النظارة وهو يراقبها ترتشف من فنجانها وأضاف:

- عرضي ما زال قائمًا.

قالت ليني:

- أعرف، أنا أفكر به.

قال السيد باريس:

- خذي وقتك، يبدو أن لدينا الكثير من الوقت.

أومأت ليني وهي تضع كوبها على المنضدة.

قالت:

- تارا كانت دومًا الشخص العاقل المتزن بيننا. كنا نكمل إحدانا الأخرى، وهذا سبب نجاحنا في كل ما كنا نفعله، كانت تؤصل أفكاري الخيالية، أتعمق أنا في التفاصيل بينما تحيط هي بالمنظور العام، ولأنني لا أستطيع رؤية المنظور العام أقف هنا بينما تغيب هي. كنت أرى كل عنصر وحده ولم أر أبدًا كيف أنهم معًا لا يتناسبون.

مرت دقات الساعة ثقيلة أثناء الصمت الذي تبعها.

بعدما لم يعد يتحمل تلك الدقات تكلم السيد باريس:

- لم أرد أن أخوض هذه المناقشة معها كما أكره أن أخوضها معك الآن.

سألته ليني:

- أنت تعرف ما الذي يحدث، أليس كذلك؟

أخذ السيد باريس يرتب بعض الأوراق على المنضدة بينما يفكر في الرد.

قال بعد برهة:

- بلى، أعرف.

- هل أخبرت شقيقتي؟

- لا.

قالت ليني:

- إذن أخبرني.

- لا أستطيع، إخبارك، يعني أن أخون ثقة من ائتمني ولا أريد أن أفعل هذا، ولا حتى من أجلك.

سألته وهي تنهض من مقعدها:

- كم مرة كذبت عليّ؟

نهض السيد باريس بدوره وهو يرد:

- لم أكذب عليك **أبدًا**، لا أصرح بما ليس من حقي إفشاؤه. فقد أعطيت وعدًا وأنوي أن أحافظ عليه لكني لم أكذب عليك أبدًا. أنت لم تسأليني من قبل، فقد افترضت أنني لا أعرف شيئًا.

قالتي ليني:

- تارا سألتك.

قال السيد باريس:

- ليس بشكل مباشر، أظنها لم تعرف ما السؤال الذي تريد أن تسأله، ولم أكن لأجيبها لو سألتني، أصابني القلق عليها واقترحت أن تتحدث مع ألكسندر لو أرادت إجابات. أفترض أن هذا سبب ذهابها إلى المحطة، لا أعرف إن كانت تحدثت معه أم لا، ولم أسأل.

سألته ليني:

- أيعرف ألكسندر الحقيقة أيضًا.

- أظنه إن كان يجهل شيئًا فسيكون أقل القليل.

تنهدت ليني وعادت إلى مقعدها. أمسكت بكوبها ثم أعادته دون أن تشرب منه.

دار السيد باريس حول المنضدة، وأمسك بيديها وتأكد أنها تنظر في عينيه قبل أن يتكلم.

قال لها:

- سأخبرك لو استطعت.

قالت:

- أعرف هذا يا إيثان، أعرف.

وضغطت يده بلطف لتطمئنه.

قال باريس:

- أنا لا أكره هذا يا ليني، أنقل مكتبي كلما مرت بضع سنوات، وأوظف موظفين جدد، أتابع المشاريع بالمراسلة، كل هذا ليس بالأمر الذي يصعب التعامل معه مقارنة بما أحصل عليه.

قالت:

- أتفهم هذا، أين السيرك الآن؟

- لست واثقًا، أظنه غادر بودابست مؤخرًا ولكني لا أعرف إلى أين يتجه، يمكنني المعرفة، فريدريك سيعرف ويمكنني إرسال تلغراف إليه.

- وكيف سيعرف هر تايسن أين سيذهب السيرك؟

- لأن سيليا بوين تخبره.

لم تسأله ليني عن شيء آخر. ولسعادته فقد قبلت ليني دعوته على العشاء والأكثر من هذا وافقت على تمديد إقامتها في سويسرا قبل أن تلحق بالسيرك.

*****

ما إن وصلت إلى إسطنبول حتى أرسلت ليني دعوة إلى سيليا كي تلاقيها في فندق بيرا بالاس، انتظرت في غرفة الشاي مع كوبين زجاجيين على شكل التيوليب تتصاعد منهما الأبخرة على صحنين مشابهين على المائدة المغطاة أمامها.

حين وصلت سيليا حيّت كلاهما الأخرى بحرارة. سألتها سيليا عن رحلتها أولًا قبل أن يتحدثا عن المدينة والفندق والارتفاع الشاهق للحجرة التي تجلسان فيها.

وصفتها ليني:

- الأمر كأنني في خيمة الأكروبات.

ونظرت للقباب التي تشكل السقف وكل منها مزين بدوائر من الزجاج الملون الفيروزي.

قالت سيليا:

- لم تأتِ إلى السيرك منذ زمن طويل، أزياؤك موجودة لو أردت أن تنضمي للتماثيل الليلة.

قالت ليني:

- شكرًا لكن لا، لست في مزاج للوقوف بلا حراك.

قالت سيليا:

- مرحب بك متى شئت.

قالت ليني:

- أعرف هذا ولكن في الحقيقة لست هنا لأجل السيرك، وإنما لأجل التحدث معك.

سألتها سيليا وقد بدا الاهتمام على وجهها:

- ما الذي تريدين التحدث عنه؟

قالت ليني:

- أختي قتلت في محطة سانت بانكراس بعد زيارة لفندق ميدلاند جراند. هل تعرفين سبب ذهابها إلى هناك؟

جذبت سيليا كوبها نحوها.

قالت سيليا وهي تختار كلماتها بعناية:

- أعرف من ذهبت لتراه.

قالت ليني:

- أفترض أن إيثان أخبرك؟

أومأت سيليا بالإيجاب.

سألتها ليني:

- هل تعرفين لم أرادت أن تراه؟

- لا، لا أعرف.

قالت ليني:

- لأنها لم تشعر أنها طبيعية. لقد أحست في أعماقها أن عالمها قد تغير ولم تجد تفسيرًا لهذا. لا شيء ولا حتى لمحة من الفهم. أظن أن كلنا شعرنا بالمثل وإن تعاملنا مع الأمر بطرق مختلفة. إيثان والعمة بادفا كلاهما أغرق نفسه في العمل كي يشغل وقته، ويبقي

ذهنه مشغولًا، أنا تجاهلت الأمر لوقت طويل، لقد أحببت شقيقتي وما زلت لكني أظنها ارتكبت خطأً.

قالت سيليا بخفوت:

- ظننتها حادثة.

وخفضت رأسها تتأمل الأشكال المتكررة التي تزخرف غطاء المائدة.

- لا، بل قبل هذا، خطؤها كان أنها سألت الأسئلة الخاطئة للأشخاص الخطأ. وهو خطأ لا أنوي تكراره.

- ولهذا أنت هنا؟

قالت ليني:

- ولهذا أنا هنا، منذ متى نعرف بعضنا يا سيليا؟

- أكثر من عشر سنوات.

- إذن فبالتأكيد أنت تثقين في بما يكفي كي تخبرينني حقًّا بما يحدث هنا. أشك أنك تجرئين على القول: لا شيء أو أن تقترحي عليّ ألا أشغل بالي بالأمر.

وضعت سيليا كوبها على صحنه وشرحت قدر ما تستطيع. أبقت التفاصيل غامضة مقدمة لها فقط الإطار العام للتحدي، وكيف يعمل السيرك كحلبة، وكيف أن البعض يعرف أكثر من غيره عن الأمر وعلى عدة مستويات ولكن فضلت ألا تخبرها بأي من أسمائهم. وأكدت بوضوح أن حتى هي لا تعرف كل الإجابات.

لم تقاطعها ليني بكلمة واحدة، بل استمعت إليها بانتباه وهي ترتشف الشاي.

حينما انتهت سيليا سألتها ليني:

- منذ متى يعرف إيثان بالأمر؟

قالت سيليا:

- منذ وقت طويل جدًّا.

أومأت ليني ورفعت كوبها لشفتيها ولكن بدلًا من أن تأخذ رشفة بسطت أصابعها لتسقط الكوب كي يتحطم صحنه.

تناثر الزجاج وتردد الصوت في الحجرة، انسكب الشاي على المائدة، ولكن قبل أن يلتفت أي شخص لمصدر الضوضاء كان الكوب قد اعتدل والأجزاء المهشمة اجتمعت ثانية وعاد الشاي إلى الكوب والتئم الزجاج وعادت المنضدة جافة.

أولئك الذين التفتوا نحو مائدتهما افترضوا أنهم توهموا الضجة وعاد كل منهم لاحتساء شايه.

سألتها ليني:

- لماذا لم توقفيه قبل أن ينكسر؟

قالت سيليا:

- لا أعرف.

نهضت ليني لتغادر وهي تقول:

- إن احتجت في أي وقت لشيء مني فسأسعد بسؤالك، لقد سئمت من كتمان الجميع للأسرار حتى تؤدي لقتل الآخرين. كلنا متورطون في لعبتك. ويبدو أنه ليس من السهل إصلاحنا مثل أكواب الشاي.

ظلت سيليا جالسة وحيدة لفترة بعد مغادرة ليني حتى برد كلا الكوبين.

بحار عاصفة

دبلن يونيو 1901

بعدما انحنت الحاوية واختفت أمام أعين جمهورها المدهوش، صفقوا بقوة وعلا صوت تحيتهم في الهواء، نهضوا من مقاعدهم بدأ بعضهم يرحل مع مرافقيهم يتحدثون بإعجاب عن هذه الحيلة المذهلة أو عن عودة الباب إلى الظهور في جدار الخيمة المصمت.

تبقى رجل واحد يجلس في الدائرة الخارجية من المقاعد، ظل في مكانه بينما يغادر البقية، كانت عيناه شبه مختفيتين أسفل حافة قبعته المستديرة، وقد ثبتهما على الفراغ المواجه في مركز الدائرة الذي كانت تشغله الحاوية منذ دقائق.

رحل كل المتفرجين.

وظل الرجل جالسًا.

بعد دقائق قليلة تلاشى الباب في جدار الخيمة ليختفي مجددًا.

لم تتغير نظرات الرجل. لم يلقِ حتى لمحة واحدة على الباب المختفي.

بعد لحظة أخرى كانت سيليا بوين تجلس أمامه. كانت ترتدي نفس ردائها الذي أدت به العرض: فستانًا أبيض مغطى بقطع بازل مفككة تتجمع مكونة لون أسود.

قالت وهي لا تستطيع إخفاء السعادة في صوتها:

- أتيت لزيارتي.

قال ماركو:

- لدي بضعة أيام. وأنت لم تقتربي من لندن مؤخرًا.

قالت سيليا:

- سنكون في لندن في الخريف، لقد أصبح هذا تقليدًا نوعًا ما.

- لم أستطع الانتظار كل هذا الوقت.

قالت سيليا بحنان:

- من الجيد أن أراك أنا أيضًا.

ومدت يدها لتعدل من وضع قبعته.

سألها:

- هل أعجبتك متاهة السحب؟

وأمسك بيدها حين خفضتها.

- أعجبتني، هل أقنعت صديقنا السيد باريس بمساعدتك فيها؟

قال ماركو وهو يمرر إصبعه على راحتها:

- بالفعل فعلت. ظننت أنه من الجيد الحصول على بعض المساعدة كي أصل إلى التوازن المناسب، إلى جانب أنك لديك دائرة الخيل ونتشارك في التيه فظننت أنه من العدل أن يشاركني السيد باريس في عمل خاص بي.

كانت قوة نظراته ولمساته تسري في جسدها كالعاصفة فنزعت يدها من يده وخفضتها إلى الأسفل.

سألته:

- هل أتيت كي تريني براعتك في الإيهام؟

- ليست خطتي لأجل الأمسية ولكن إن أحببت هذا...

- لقد شاهدت عرضي بالفعل لذا سيكون هذا عادلًا.

قال:

- يمكنني مشاهدتك طوال الليل.

قالت سيليا:

- بالفعل، فقد كنت في كل عرض قدمته هذا المساء. قد لاحظتك.

وقفت ومشت لمركز الدائرة ودارت حول نفسها بسرعة جعلت فستانها يلتف حولها وقالت:

- أستطيع رؤية كل مقعد فأنت لا تستطيع الاختباء مني حين تجلس في الخلف.

قال ماركو:

- فكرت أن إغراء لمسك سيكون أقوى لو أنني جلست بالأمام.

ونهض من فوق كرسيه ليقف على حافة دائرة العرض، وسط دائرة المقاعد الأمامية.

سألته:

- هل أنا قريبة بما يكفي كي تنفذ وهمك؟

رد:

- هل لو قلت لا ستقتربين مني؟

دون أن يحاول إخفاء ابتسامته.

استجابت باقترابها منه خطوة أخرى، أصبح ذيل فستانها ملامسًا لحذائه. قريبة بما يكفي كي يرفع ذراعه ويطوق خصرها.

علقت:

- لن تحتاج لملامستي في المرة الأخيرة.

لكنها لم تعترض.

قال ماركو:

- فكرت هذه المرة أن أقوم بشيء خاص.

قالت سيليا بمرح:

- أأغلق عينيّ؟

بدلًا من الرد أدارها لتوليه ظهرها دون أن يرفع يده عن خصرها.

وهمس في أذنها:

- شاهدي.

تصلبت الجوانب المخططة للخيمة، وتجمد السطح الناعم مع تحول النسيج إلى ورق. ظهرت كلمات على الجدران، نصوص متداخلة بخط اليد. عرفت سيليا منها اقتباسات من قصائد شكسبيرية وبعض الترنيمات لآلهة الإغريقيات بينما تمتلئ الخيمة بالشعر. غطت القصائد الجدران والسقف وزحفت على الأرض.

ثم بدأت الخيمة تنفتح، الورق ينطوي ويتمزق، الخطوط السوداء خرجت إلى الفراغ بينما جيرانها البيض ازدادت سطوعًا وارتفعت وتفرعت.

ما إن توقفت الحركة وأصبحا يقفان وسط غابة مظلمة من أشجار ورقية مصنوعة من الشعر حتى سألها ماركو:

- هل أعجبتك؟

لم تستطع سيليا سوى أن تجيب بإيماءة.

تركها على مضض، وتبعها وهي تمشي وسط الأشجار وتقرأ سطورًا من مختلف الفروع والجذوع.

وضعت يدها تتحسس طبقات اللحاء في إحدى الأشجار وهي تسأله:

- كيف أتاك هذا التصور؟

كان الجذع أسفل أصابعها دافئًا صلبًا يتسلل الضوء من داخله كما لو كان مصباحًا.

قال ماركو:

- أرى أشياء في عقلي، في أحلامي، أتخيل ما الذي يمكن أن تحبينه.

قالت سيليا:

- أعتقد أنه من المفترض ألا تتخيل أشياء لتسعد خصمك.

رد ماركو:

- حتى الآن لم أستطع أن أفهم تمامًا قواعد اللعبة لذا فأنا أتبع حدسي بدلًا من ذلك.

قالت سيليا وهي تمشي بين الأشجار:

- والدي ما زال غامضًا حول القواعد، خاصة حين أسأله عن متى وكيف سيتحدد المنتصر.

- ألكسندر هو الآخر يتجاهل هذه المعلومات.

قالت سيليا:

- أرجو ألا يكون يزعجك كما يفعل معي أبي، ولو أنه بالطبع ليس لوالدي شيء آخر يفعله.

قال ماركو:

- بالكاد رأيته خلال تلك السنوات. إنه دومًا ... بعيد ويستحيل انتظاره. لكنه يظل أقرب شخص يمكنني اعتباره عائلة لي. ورغم ذلك لا يخبرني شيئًا.

قالت سيليا:

- أشعر بالغيرة، والدي يخبرني باستمرار عن خيبة أمله في.

قال ماركو:

- لا يمكنني أن أصدق أنك ستخيبين أمل أي شخص.

- لأنك لم تحظ بشرف مقابلة والدي.

سألها ماركو:

- هل يمكنك أن تخبريني حقًّا ماذا حدث له؟ لقد تملكني الفضول.

تنهدت سيليا قبل أن تبدأ، توقفت عند شجرة مزينة بكلمات الحب واللوعة. لم تخبر أحدًا أبدًا هذه القصة، ولم تأتها أبدًا الفرصة كي تحكيها على شخص يستطيع فهمها.

بدأت:

- كان والدي دومًا ذا طموح جارف، والذي كان يريد فعله لم ينجزه، ليس بالصورة التي كان يخطط لها. كان يريد إزالة نفسه من العالم المادي.

سألها ماركو:

- وكيف يكون هذا ممكنًا؟

امتنت له سيليا أنه لم يستهزأ بالفكرة فورًا، كانت تستطيع أن تعرف أنه يحاول تخيلها في ذهنه واجتهدت كي تستطيع شرحها بأقرب صورة ممكنة.

قالت:

- لنفترض أن لدي كأسًا من النبيذ.

ظهر في يدها كأس من النبيذ الأحمر.

قالت:

- شكرًا لك، لو أنني أفرغت هذا النبيذ في بركة من الماء، أو بحيرة أو حتى المحيط، فهل سيختفي النبيذ نفسه؟

قال ماركو:

- لا، سيكون مخففًا فقط.

قالت سيليا:

- بالضبط، لقد توصل والدي لطريقة يزيل بها كأسه.

وبدأ الكأس في التلاشي في يدها وهي تتحدث، ولكن النبيذ ظل موجودًا يطفو في الهواء.

أكملت:

- لكنه ذهب مباشرة إلى المحيط بدلًا من البركة أو حتى كأس أكبر. ووجد مشكلة في أن يجمع نفسه ثانية. يمكنه فعلها بالطبع ولكن بصعوبة، لو أنه ظل محصورًا في مكان واحد فعلى الأرجح سيكون الأمر أفضل له، لكن بدلًا من هذا فقد جرفه الأمر، يجب عليه الآن أن يتشبث بالأشياء. أصبح كالشبح الذي يتلبس بيته في نيويورك، والمسارح التي اعتاد تقديم العروض بها، ويتشبث بي كلما استطاع. ولو أنني تعلمت كيف أتجنبه حينما أريد وهو يكره

هذا، خاصة وأن ما أفعله هو مجرد تضخيم واحدة من تقنيات الحجب الخاصة به.

سألها ماركو:

- هل يمكن فعله؟ أعني ما كان يحاوله هل يمكن فعله بصورة صحيحة؟

نظرت سيليا إلى النبيذ الذي يحوم دون كاس ورفعت يدها لتلمسه، فتشتت وتجزأ لقطرات ثم عاد واجتمع ثانية.

قالت:

- أعتقد أنه ممكن، ولكن تحت الظروف المناسبة، يحتاج الأمر حجر أساس، مكانًا أو شجرة، عنصرًا ماديًّا يمكن التشبث به. شيئًا يمنع انجرافك بعيدًا. أظن أن أبي أراد أن يكون العالم كله جسمًا له، لكن أعتقد أن الأمر يحتاج لأن يكون محدودًا أكثر، ليعمل مثل الكوب لكن بمرونة تسمح بالحركة من خلاله.

لمست النبيذ ثانية وهذه المرة تحرك نحو الشجرة المجاورة وتشربه الورق حتى أصبحت الشجرة بأكملها تشع بضوء قرمزي وسط الغابة البيضاء.

نظر ماركو بفضول نحو الشجرة المغموسة بالنبيذ:

- أنت تتلاعبين بوهمي.

قالت سيليا:

- أنت تسمح لي، لم أكن متأكدة أنني سأستطيع فعلها.

سألها ماركو:

- هل يمكنك فعله؟ ما كان يحاوله؟

تأملت سيليا الشجرة بعض الوقت قبل أن تجيب.

- لو كان لدي سبب يدفعني إلى هذا أظن أنني قادرة على فعله. لكنني أحب العالم المادي، أعتقد أن والدي كان يشعر بتقدم عمره الذي على الأرجح أكبر كثيرًا مما يبدو عليه. ولم يحب فكرة أن يتعفن في الأرض، ولعله تمنى أن يتحكم في قدره، لكن لا يمكنني أن أتأكد، فهو لم يشاورني في الأمر قبل تنفيذه. تركني مع الكثير من الأسئلة بلا إجابة ومع جنازة أزيفها وإن كانت أسهل كثيرًا مما تتصور.

سألها ماركو:

- لكنه يتحدث معك؟

- إنه يفعل، ليس كثيرًا كما كان من قبل، ويبدو تمامًا كما كان، أظنه نوع من الصدى، وعيه يستعيد شكل جسده المادي لكنه يفتقد الصلابة وهو ما يزعجه كثيرًا، ربما استطاع أن يحتفظ بصورة ملموسة أكثر لو فعل الأمر بطريقة مختلفة. لكن من ناحية أخرى لا أظن أنني سأحب أن أحبس في شجرة حتى نهاية الزمان، أتفعلها أنت؟

قال ماركو:

- أظن أن هذا يعتمد على الشجرة.

والتفت إلى الشجرة القرمزية فتوهجت وتحول اللون الأحمر الداكن إلى لون اللهب الدافئ.

وتبعتها بقية الأشجار.

ومع سطوع الأشجار المتزايد أصبح الضوء مبهرًا حتى إن سيليا أغلقت عينيها، وإذا بالأرض تحت قدميها تتحرك، ففقدت اتزانها لكن ماركو أمسك بخصرها ليوقفها.

حين فتحت عينيها كانا يقفان في منتصف سفينة وسط المحيط.

لكن السفينة مصنوعة من الكتب، وتبحر عبر آلاف الصفحات المتشابكة والبحر الذي تطفو فوقه من حبرٍ أسود داكن.

وفي السماء أضواء صغيرة ساطعة، كما لو كانت نجومًا مكدسة لكنها بسطوع الشمس.

قال ماركو:

- ظننت أن مكانًا شاسعًا سيكون لطيفًا بعد كل هذا الحديث عن حدود المكان والالتصاق به.

مشت سيليا حتى حافة السطح وهي تمرر يدها على نتوءات الكتب المصنوع منها سور السفينة، كان النسيم الهادئ يتلاعب بخصلاتها حاملًا رائحة المجلدات المتربة والحبر الندي المحيط.

أتى ماركو ليقف جوارها وهي تتأمل البحر الممتد في منتصف الليل عبر الأفق فقالت له:

- هذا جميل.

ولمحت يده اليمنى المستندة على السور فتجهمت حين لاحظت يده المكشوفة بأصابع سليمة.

سألها:

- أتبحثين عن هذه؟

وحرك يده اليمنى بخفة ليتغير جلده ويكشف الندبة التي تطوق إصبعه.

- لقد صنعها خاتم حينما كنت في الرابعة عشر، كان عليه شيء باللاتينية لكنني لا أعرف ما كان.

قالت سيليا:

- إيسي كوام فيديري. أن تكون بدلًا من أن تبدو. إنه شعار آل بوين فقد كان والدي شغوفًا بنحته على الأشياء. لست واثقة أنه سيقدر سخرية الموقف الآن، في الأغلب كان الخاتم مشابهًا لهذا.

ووضعت يدها اليمنى جوار يده اليمنى، على الكتب الملتحمة، كانت الدبلة الفضية على يدها منقوشة بما ظنه في البداية زخارف للزينة لكنه كان النص اللاتيني في خط لولبي.

حركت سيليا الخاتم لترفعه من إصبعها كي يرى الندبة المشابهة.

قالت:

- هذا هو الجرح الوحيد الذي لم أستطع أبدًا علاجه.

قال ماركو وهو ينظر إلى الخاتم في يدها وإن خانته نظراته بتأمل الندبة:

- خاتمي كان مشابهًا، لكنه كان من الذهب. ندبتك حدثت من شيء صنعه ألكسندر؟

أومأت سيليا.

سألها:

- كم كان عمرك؟

قالت:

- كنت في السادسة، كان الخاتم فضيًّا غير منقوش، وكانت المرة الأولى التي أقابل فيها أحدًا يستطيع أن يفعل ما يفعله والدي.

برغم أنه بدا مختلفًا عن أبي كثيرًا جدًّا. قال لي إنني ملاك، وكان هذا أرق ما قاله لي أحدهم في حياتي.

وضع ماركو يده على يدها وقال:

- هذا أقل من شأنك.

هب نسيم قوي فجأة ملأ الأشرعة الورقية ورفرفت الصفحات التي تشكل السطح بينما هاج الحبر في الأسفل.

قال ماركو:

- أفعلتِ هذا؟

قالت:

- لم أقصد هذا.

لكنها لم تنزع يدها من يده.

قال ماركو:

- لا أمانع، أستطيع فعل الأمر بنفسي كما تعرفين.

زادت سرعة الرياح محدثة أمواجًا قوية هزت السفينة، تساقطت الأوراق من الأشرعة كما لو كانت أوراق شجر أدركها الخريف. بدأت السفينة في الارتجاج واختل توازن سيليا لكن ماركو وضع ذراعه حول خصرها كي يثبتها.

قالت:

- هذا مبهر يا سيد الأوهام.

قال:

- ناديني باسمي.

لم يسمعها أبدًا تناديه باسمه، وحين طوقها بذراعه أحس بشوق لسماع صوتها ينطقه. أحسها مترددة فقال:

- أرجوك.

قالت بصوت ناعم خافت:

- ماركو.

كان رنين اسمه على لسانها أشد إغراء مما تخيل، فمال إليها ليتذوقه. لكن قبل أن تصل شفتاه لشفتيها أشاحت بعيدًا.

تنهد قائلًا في أذنها:

- سيليا.

حمل اسمها كل شوقه وتوقه الذي تحسه بنفسها، مع أنفاسه الساخنة على عنقها.

قالت:

- آسفة، أنا... أنا لا أريد أن أعقّد الأمر أكثر مما هو بالفعل.

لم يُجِب وإن أبقى ذراعه يطوقها، بينما هدأت الرياح واستقرت الأمواج.

قالت وهي تميل رأسها إلى كتفه:

- لقد قضيت من عمري زمنًا طويلًا كي أسيطر على نفسي. أن أعرف نفسي من الداخل والخارج، أن أجعل كل شيء مرتبًا تمامًا. أفقد كل هذا حين أكون معك وهذا يفزعني و...

قاطعها ماركو:

- لا أريدك أن تفزعي.

أكملت قولها وهي تلتفت لتنظر إليه ثانية:

- يفزعني كم أنا معجبة بك! كم هو مغر أن أفقد نفسي لأجلك، أن أنطلق، أن أدعك تحفظني من تدمير الثريات بدلًا من أن أُقْلِقَ نفسي بهذا دومًا.

- يمكنني هذا.

- أعرف.

وقفا في صمت بينما تطفو السفينة عبر الأفق غير المتناه.

قال ماركو:

- لتصاحبيني بعيدًا، إلى أي مكان، أي مكان بعيد عن السيرك وعن ألكسندر وعن أبيك.

قالت سيليا:

- لا نستطيع.

أصرّ قائلًا:

- بالطبع نستطيع، أنت وأنا معًا نستطيع فعل أي شيء.

قالت سيليا:

- لا، يمكننا فعل أي شيء هنا فقط.

- لا أفهمك؟

- هل فكرت في الأمر من قبل؟ عن مجرد الرحيل؟ تفكيرًا حقيقيًّا مصحوبًا بنية حقيقية وليس مجرد حلم أو أمل مخادع؟

حينما لم يجبها أكملت:

- فكر في الأمر الآن، تخيل أننا هجرنا المكان وتركنا هذه اللعبة وبدأنا من جديد معًا في مكان آخر، واجعله تفكيرًا صادقًا.

أغلق ماركو عينيه وبدأ في تصور الأمر، وبدلًا من الأماني والأحلام ركز على الخطوات الحقيقية حتى أصغر التفاصيل، كترتيب الدفاتر لمحاسب جديد لشاندرش أو توضيب ملابسه من شقته حتى وصل لخاتمي الزفاف حول أصبعيهما.

وحينها بدأ إصبعه في يده اليمنى يحترق، ألم حاد يكويه، بدأ من الندبة في إصبعه وزحف عبر ذراعه حتى غطى على كل شيء في عقله. نفس الألم الذي حدث يوم أنشأت تلك الندبة مضاعفًا ألف مرة.

توقفت السفينة فورًا، انطوت الأوراق وتلاشى محيط الحبر وأصبحا وسط حلقة من المقاعد داخل خيمة مخططة وانهار ماركو أرضًا.

تتضاءل الألم قليلًا حينما انحنت ركعت سيليا جواره وأخذت بيده. قالت:

- في ليلة الاحتفال بذكرى السيرك، تلك الليلة التي قبلتني فيها، فكرت في هذا تلك الليلة. لم أرد أن ألعب المزيد، أردت فقط أن أكون معك، أردت أن أطلب منك الهروب معي وانتويته. وفي نفس اللحظة التي اقتنعت فيها بأننا قادران على هذا غمرني ألم رهيب حتى لم أقوَ على الوقوف. لم يعرف فريديريك ماذا حدث لي، أجلسني في ركن هادئ وأمسك بيدي ولم يلح ليفهم مني ما حدث، فهذا من شيمه الطيبة.

ونظرت إلى الندبة على إصبع ماركو الذي يجاهد كي يلتقط أنفاسه:

- فكرت في أن الأمر مرتبط بك، لذا حاولت في مرة ألا أركب القطار وهو يغادر وكان الألم مماثلًا، نحن حقًّا مربوطان تمامًا.

ابتسم ماركو رغم ألمه المضني وقال:

- أردت أن تهربي معي؟ لم أتخيل أن تكون هذه القبلة بهذه القوة.

- كان يمكنك أن تنسيني إياها، تفعل معي مثلما فعلت مع كل من كانوا في الحفل وتمحيها من ذاكرتي.

قال ماركو:

- لم يكن هذا سهلًا ولم أرد أن تنسيها.

قالت سيليا:

- لم أستطع، كيف تشعر الآن؟

- بالبؤس، لكن الألم نفسه يختفي، قلت لألكسندر في تلك الليلة أنني أريد الرحيل لكن يبدو أنني لم أعنها حقًا. كنت أريد فقط ردًّا منه.

قالت سيليا:

- في الأغلب قُصد من الأمر ألا ندرك سجننا، ألا نشعر بالقضبان حتى نصطدم بها، يقول والدي دومًا إن الأمر سيكون أسهل لو لم يفكر كل منا بالآخر ويبدو أنه كان محقًّا.

قال ماركو وهو يفرك وجهه بيده:

- لقد حاولت، حاولت أن أنساك ولم أستطع، لم أستطع أن أتوقف عن التفكير بك، عن الحلم بك، ألا تشعرين مثلي؟

قالت سيليا:

- أشعر، أنت هنا حولي في كل مكان، أجلس في الحديقة الثلجية كي أشعر بلمحة من قربك، هذا هو ما أشعر به تجاهك، أحسست بهذا من قبل حتى أن أعرفك، وكل مرة أتصور أن مشاعري لا يمكن أن تزداد قوة، تزداد.

سألها:

- إذن فما الذي يمنعنا من أن نكون معًا؟

ووضع يده على وجهها نازلًا حتى رقبتها.

شهقت سيليا ويده تنخفض:

- أريد هذا، صدقني أريد هذا، لكن الأمر ليس عني وعنك. لقد علق الكثيرون في هذه اللعبة. والأمر يزداد صعوبة يومًا بعد يوم لمجرد الحفاظ عليها. وهذا ...

وأمسكت يده بيديها مكملة:

- وهذا يشتتني حقًّا، يقلقني ما الذي سيحدث لو فقدت تركيزي.

سألها:

- أليس لديك مصدر طاقة؟

كررت مرتبكة:

- مصدر طاقة؟

- الطريقة التي استخدم بها نار الساحة، كقناة، استعير الطاقة من النار، أليس لديك شيء شبيه بهذا؟ أتفعلين كل شيء بنفسك؟

قالت سيليا:

- لا أعرف طريقة أخرى.

سألها ماركو:

- أأنت تتحكمين بالسيرك باستمرار؟

أومأت سيليا:

- اعتدت على هذا، أغلب الوقت يكون الأمر ممكنًا.

- لا يمكنني أن أتخيل كم يستنزفك هذا.

وقبل جبهتها بنعومة قبل أن يتركها. وظل قريبًا منها قدر ما يستطيع دون أن يلمسها.

ثم أخذ يحكي لها قصصًا، أساطير سمعها من مدربه، وخيالات اختلقها بنفسه استلهمها من قصاصات وجدها في المخطوطات القديمة وكعوب الكتب، وعن أعمال سيرك لا يمكن أن تحتويها الخيام.

ردت سيليا بحكايات من طفولتها التي قضتها في كواليس المسارح، مغامرات في المدن البعيدة التي زارها السيرك، وحكت له عن أيام عملها كوسيطة روحية وأسعدها أنه وجد هذا الخداع سخيفًا تمامًا كما أحسته وقتها.

جلسا يتحدثان حتى اقترب الفجر، ولم يتركها إلا قبل أن يغلق السيرك.

قربها ماركو من صدره للحظة قبل أن ينهض، جذبها نحوه وأعطاها بطاقة ليس بها سوى حرف (م) وعنوان.

قال وهو يناولها لها:

- لم أعد أقضي وقتًا طويلًا في منزل شاندرش، وحين لا أكون عنده فستجدينني هناك. مرحبًا بك في أي وقت في النهار أو الليل. حينما تجدين في نفسك الاستعداد لقليل من تشتيت الانتباه.

قالت سيليا:

- شكرًا لك.

وقلبت البطاقة في أصابعها لتختفي.

- حينما ينتهي كل هذا، وأيًّا من كان المنتصر فلن أدعك ترحلين بسهولة، أتوافقين؟

- أوافق.

أمسك ماركو بيدها ورفعها إلى شفتيه وقبل الخاتم الفضي الذي يخفي ندبتها. مدت أناملها لتلامس فكه ثم التفتت واختفت قبل أن يستطيع جذبها نحوه ثانية.

التماس

كونكورد ماساشوستس، 30 أكتوبر 1902

كانت الأغنام في مزاج سيئ اليوم بينما يحاول بيلي أن يرعاها من حقل لآخر، قاومته وهو يوخزها ويسبها ويدفعها مصرة على أن العشب في الحقل الحالي أكثر اخضرارًا من الجانب الآخر لهذا الباب الذي يمر عبر سور حجري منخفض. ولم تنجح محاولات بيلي بإقناعها بالعكس.

ثم سمع صوتًا من خلفه يقول:

- هلا يا بيلي.

كانت بوبيت هناك، بدت متنافرة مع المكان وهي تقف على الجانب الآخر للجدار وسط ضوء النهار شديد السطوع، وكل ما حولها طبيعي وأخضر، حتى ملابسها التي تتخفى بها، رغم أنها ليست زي السيرك المعتاد بدت راقية جدًّا بالنسبة للمكان. تنورتها مزركشة جدًّا بالنسبة إلى الاستخدام اليومي، حذاؤها ذو الرقبة رغم أنه مترب فهو أكثر أناقة وغير عملي كي تمشي به وسط مزرعة. لم تكن ترتدي قبعة وشعرها الأحمر منساب ينزل على وجهها مع الهواء.

ما إن أفاق من المفاجأة حتى قال:

- أهلًا بوبيت، ماذا تفعلين هنا؟

قالت:

- أحتاج إلى الحديث معك حول أمر ما، أسألك شيئًا أعني.

سألها بيلي:

- ألم يحتمل الانتظار حتى المساء؟

كان اللقاء معها ومع ويجيت كل ليلة ما إن يفتح السيرك أبوابه قد أصبح جزءًا من روتينه الليلي.

هزت بوبيت رأسها وقالت:

- ظننت أنه من الأفضل منحك بعض الوقت لتفكر بالأمر.

- أفكر في ماذا؟

- تفكر في المجيء معنا.

نظر إليها وبالكاد سألها:

- ماذا؟

قالت:

- الليلة هي آخر ليلة لنا هنا. وأريد منك أن تأتي معنا حينما نرحل.

قال بيلي:

- تمزحين!

هزت رأسها:

- لا أمزح، أقسم على هذا، أردت الانتظار حتى أتأكد أن طلبي هذا هو الأمر الصحيح. هو الفعل الصحيح. وقد تأكدت الآن، هذه مسألة مهمة.

سألها بيلي:

- ماذا تعنين؟ كيف تكون مهمة؟

تنهدت بوبيت ونظرت إلى الأعلى، تحدق إلى السماء كما لو كانت تبحث عن النجوم المختفية خلف السماء الزرقاء المرصعة بالسحب البيضاء.

قالت:

- أنا أعرف أنه يفترض أن تأتي معنا، أعرف هذا يقينًا.

- لكن لماذا؟ لماذا أنا؟ ماذا سأفعل؟ فقط أتطفل خلفكم؟ أنا لست مثلك أنت وويجت، لا أملك مهارة مميزة، أنا لا أنتمي إلى السيرك.

- أنت تنتمي، أنا واثقة من أنك تنتمي، لا أعرف السبب بعد، لكني متأكدة من أنك تنتمي معي، معنا أعني.

واحمرت وجنتاها.

- أنا أتمنى، أنا فقط...

نظر بيلي مرتبكًا إلى الأغنام حوله.. إلى البيت والحظيرة أعلى التل مع أشجار التفاح. أسيكون هذا حسمًا للجدل حول حياة المزرعة أم الذهاب لهارفارد أم يزيد الأمر سوءًا؟

قال:

- لا يمكنني أن أرحل هكذا.

وإن أحسَّ أنه يقصد معنى آخر.

قالت بوبيت:

- أعرف، وأعتذر منك، لم يكن عليّ السؤال، لكن أظن... لا ليس ظنًا، أنا أعرف. أعرف أنك إن لم تأتِ معنا فلن نعود.

- لن تعودوا هنا؟ لماذا؟

قالت بوبيت:

- لن نعود لأي مكان.

رفعت عينيها تفتش السماء ثانية قبل أن تعود لتنظر إلى بيلي مكملة:

- إن لم تأتِ معنا فلن يستمر السيرك، ولا تسألني لماذا، لم يخبرنني لماذا.

وأشارت إلى السماء حيث تختفي النجوم وراء السحب.

أكملت:

- تقول فحسب إنه كي يكون هناك مستقبل للسيرك، نحتاج إليك هناك. أنت يا بيلي وأنا وويجي. لا أعرف سبب أهمية أن يكون ثلاثتنا لكنه ضروري، إن لم يحدث فسينهار، وقد بدأ الأمر بالفعل.

- ماذا تعنين، يبدو السيرك في أفضل حال.

- لست متأكدة أن من بالخارج يمكنهم ملاحظة الأمر، إنه... ماذا لو مرضت واحدة من أغنامك، هل سألاحظها؟

قال بيلي:

- في الأغلب لا.

سألته بوبيت:

- لكنك ستعرف؟

أومأ بيلي فأكملت:

- الأمر مشابه مع السيرك، أنا أعرف كيف يفترض أن يشعر وهو ليس بخير الآن، لم يكن كذلك منذ فترة، يمكنني الإحساس بوجود شيء ما خطأ وأستطيع إدراك أنه ينهار كالكعكة التي لم تختمر

بما يكفي لإبقائها سليمة. لكني لا أستطيع معرفة ما السبب. هل أي من كلامي مفهوم لك؟

اكتفى بيلي بالتحديق بها فتنهدت قبل أن تكمل:

- أتذكر تلك الليلة حين كنا في التيه؟ حينما علقنا في غرفة القفص؟

أومأ بيلي.

- لم أعلق أبدًا في أي مكان في التيه، أبدًا، لو لم نستطع العثور على مخرج من حجرة أو قاعة فيمكنني أن أركز وسأشعر بمكان الباب. ويمكنني معرفة ما وراء هذا الباب. أحاول ألا أفعل هذا كي يصبح الأمر ممتعًا، ولكن في تلك الليلة حاولت فعل هذا حينما لم نعرف المخرج ولم ينجح الأمر، بدا الأمر غير معتاد ولم أعرف كيف أتعامل معه.

سألها بيلي:

- ولكن ما الذي يمكنني فعله للمساعدة؟

- أنت من عثر في النهاية على المفتاح، أتذكر؟ ظللت أبحث عن الإجابات والشيء الصحيح لفعله ولم يبد شيئًا واضحًا إلا بالنسبة إليك. أعرف أن هذا طلبًا مهولًا أن أسألك ترك أهلك وبيتك، لكن السيرك هو بيتي وأهلي ولا يمكنني أن أخسرهم، ليس إن كان هناك ما يمكن فعله لمنع هذا، آسفة.

جلست فوق الجدار الحجري مواجهة الجانب الآخر وجلس بيلي جوارها، مواجهًا حقله والأغنام المتمردة. عم الصمت عليهما لفترة بينما الأغنام تدور في الحقل تقضم الحشائش.

ثم نظرت بوبيت نحو المزرعة وسألته:

- هل تحب المكان هنا يا بيلي؟

قال:

- ليس كثيرًا.

- ألم تتمنَ من قبل أن يأتي شخص ما ويحملك بعيدًا؟

سألها:

- أأخبرك ويجيت بذلك؟

وتساءل في داخله أيمكن أن تكون الأمنيات قوية حقًّا لدرجة أن تصبح ثابتة ومقروءة على وجهه.

قالت بوبيت:

- لا، مجرد تخمين، لكن ويجيت طلب مني أن أعطيك هذه.

وأخرجت من جيبها زجاجة صغيرة مدتها إليه.

برغم أنها تبدو فارغة لكن بيلي عرف فورًا أنها ليست كذلك، وغلبه الفضول فلم يستطع أن يصبر على فتحها، فنزع سدادتها الصغيرة مطمئنًا أنها مربوطة بالزجاجة عبر سلك ملتوٍ.

كان الإحساس داخلها مألوفًا مريحًا مفهومًا وحقيقيًّا حتى إن بيلي أحس بخشونة ملمس اللحاء ورائحة البلوط وأصوات السناجب.

قالت بوبيت:

- لقد أراد أن تستطيع الاحتفاظ بشجرتك معك حتى لو قررت أن تأتي معنا.

أعاد بيلي السدادة إلى مكانها وعاد الصمت بينهما بينما النسيم يعبث بشعر بوبيت.

ثم بخفوت سألها بيلي:

- كم لدي من الوقت كي أفكر في الأمر؟

ردت بوبيت:

- سنغادر الليلة بعدما يغلق السيرك، سيكون القطار جاهزًا قبل الفجر، ولكن سيكون من الأفضل أن تأتي مبكرًا عن هذا. الرحيل قد يكون... معقدًا بعض الشيء.

قال بيلي:

- سأفكر في الأمر، لكن لا أستطيع أن أعدك بشيء.

قالت بوبيت:

- شكرًا يا بيلي، هل يمكنني أن أطلب منك خدمة أخرى؟ إن لم تأتِ للرحيل معنا فهل يمكن ألا تأتي الليلة؟ وليكن هذا هو وداعنا، أظن هذا سيكون أيسر.

حدق بيلي إليها متجمدًا للحظات لا يستطيع استيعاب كلماتها. بدا له هذا أكثر إفزاعًا من فكرة الرحيل. لكنه أومأ لها لأنه أحس أن هذا هو الرد الصحيح الممكن.

قال:

- حسنًا، لن آتي إلا لو كنت سأذهب معكم. أعدك.

قالت بوبيت:

- شكرًا يا بيلي.

وابتسمت ابتسامة حَارَ في تفسيرها أهي سعيدة أم شيء آخر.

وقبل أن يقول لها أن تبلغ ويجيت بوداعه إن احتاج الأمر، مالت إليه وقبلته، ليس على خده كالعادة وإنما على شفتيه. وعرف بيلي في هذه اللحظة أنه سيذهب خلفها حتى نهاية العالم.

التفتت بوبيت ورحلت دون كلمة أخرى، وراقبها بيلي حتى غاب شعرها الأحمر عن ناظريه، وظل يحدق إلى الفراغ الذي كانت تشغله لفترة. اعتصر الزجاجة الصغيرة في يده وهو غير واثق من شعوره أو ماذا يفعل وقد بقيت ساعات قليلة على القرار.

ومن خلفه فإن الأغنام -وقد تُرِكت لها حريتها- قررت أن تتجول عبر البوابة المفتوحة للحقل المجاور.

دعوة

لندن، 30 أكتوبر 1901

حينما وصل السيرك إلى لندن وبرغم الإغواء القوي بأن تذهب فورًا إلى عنوان شقة ماركو المطبوع على هذه البطاقة التي تحتفظ بها دومًا معها، فإن سيليا بوين ذهبت بدلًا من ذلك إلى فندق ميدلاند جراند.

لم تستفسر من مكتب الاستقبال، لم تتحدث مع أي شخص.

وقفت في منتصف البهو لا يلاحظها أحد ممن يمرون بها سواء من العاملين أم من الضيوف الذين يتحركون نحو أماكن أخرى ومواعيد أخرى وأماكن مؤقتة أخرى.

وبعدما وقفت ما يزيد على الساعة جامدة كما لو كانت واحدة من تماثيل السيرك، اقترب منها رجل ذو بدلة رمادية.

استمع إلى حديثها دون رد، وحينما انتهت لم يصدر عنه سوى إيماءة.

انحنت إليه بتهذيب قبل أن تلتفت مغادرة.

ووقف الرجل ذو البدلة الرمادية وحده لا يلاحظه أحد في البهو بعض الوقت.

تقاطعات 1: سقوط القبعة

لندن 31 أكتوبر و1 نوفمبر 1901

يحتفي السيرك بطريقة مميزة في ليلة الهالوين، في الساحة تعلق مصابيح ورقية مستديرة ترقص على أسطحها البيضاء ظلال صامتة لوجوه صارخة. توضع أقنعة بيضاء وفضية وسوداء من الجلد مع أشرطة لربطها وتجهز في سلال عند البوابة وحول السيرك كي يرتديها من يحب من الزوار. من الصعب أن تعرف المؤدي من الزائر في تلك الليلة.

إنها تجربة مختلفة تمامًا أن تتجول في السيرك وأنت متخفٍ، تختلط بمحيطه وتصبح جزءًا من أجوائه. الكثير من الزوار يجدونها تجربة فائقة الروعة لكن البعض يصابون بالقلق ويفضلون الظهور بوجوههم.

والآن وقد تناقص الجمهور في هذه الساعة التي تجاوزت منتصف الليل والساعة تدق لتقطع ليلة عيد القديسين.

الزوار ذوي الأقنعة المتبقين يتجولون كالأشباح.

الصف أمام قارئة الطالع في هذا الوقت يتناقص إلى الصفر، أغلب الناس تستطلع مستقبلها في بداية المساء. بينما نهاية الليل مناسبة للبحث عن أمور أقل عمقًا.

مبكرًا كان المتطلعون للغيب يأتون بلا توقف، ولكن مع ميلاد نوفمبر وتلاشي أكتوبر لم يعد هناك من ينتظر في الردهة، لا أحد خلف ستارة الخرز يستمع للأسرار التي تفشيها البطاقات.

ثم انشقت الستارة برغم أنها لم تسمعه يقترب.

ما أتى ماركو لإخبارها به لم يكن مفاجئًا، فقد نبأتها به البطاقات عبر السنوات لكنها رفضت التصديق. اختارت دومًا الاحتمالات الأخرى وتفسيرها بالطرق الأخرى.

كان سماع الأمر من شفتيه مختلفًا تمامًا. ما إن تكلم حتى عادت إليها ذاكرة فقدتها. مشهد اثنين يرتديان الأخضر وسط قاعة رقص مزدحمة وقد بدا عشقهما لا ينكر فقد أغرق القاعة بأكملها بلهيبه.

طلبت منه أن يسحب بطاقة واحدة، وفوجئت حين استجاب لها.

لكن البطاقة التي سحبها لم تفاجئها، كانت بطاقة الحبر الأعظم. *La Papessa*

حينما غادر رفعت لافتتها لتنهي عمل الليلة، كانت أحيانًا ما تغلق مبكرًا أو لبعض الوقت حينما تسأم من القراءة أو تحتاج لبعض الراحة، عادة ما تقضي الوقت الفارغ مع تسوكيكو ولكنها هذه الليلة بدلًا من أن تبحث عن البهلوانة فقد جلست وحيدة على طولتها تخلط أوراقها بعنف.

قلبت بطاقة واحدة على وجهها ثم أخذت ثانية فثالثة.

كانت جميعها من مجموعة السيوف. صفوف منها بأطرافها المدببة. أربعة وتسعة وعشرة والسيف المنفرد المدبب للواحد الآس.

أعادتها إلى المجموعة.

تركت الأوراق والتفتت إلى شيء آخر تفعله.

كانت تحتفظ بصندوق مستدير أسفل طاولتها. كانت آمن مخبأ بالنسبة إليها والأيسر في الوصول إليه. عادة ما تنسى أنه هناك مخفي أسفل الغطاء المخملي معلق دومًا بينها وبين مستطلعيها في حضور دائم خفي.

والآن نزلت أسفل الطاولة وأخرجته من ظلماتها إلى ضوء الشموع المتراقص.

كان صندوق قبعاتٍ مستديرًا مغلفًا بالحرير الأسود دون قفل أو مزلاج. غطاؤه يوصد بشريط معقود. ترددت للحظات وهي تفكر في ترك الأمر على حاله وأنه من الأفضل أن تعيده إلى مرقده الخفي، لكن بدا لها أن الأمر لم يعد يستحق.

ببطء فكت الشريط بحل عقدته بأظفارها، حينما اتسعت بما يكفي كي تحرك الغطاء جذبته بحرص كما لو كانت تخشى ما بداخله.

بداخل الصندوق كانت قبعة.

كانت تمامًا كما وضعتها أول مرة، قبعة مستديرة قديمة سوداء. وقد بدا البلى على حافتها. كانت مربوطة بشرائط أخرى بيضاء وسوداء. ملفوفة كالهدية بربطة داكنة وفاتحة. أسفل عقدة الربطة ورقة تاروت وحيدة. بين الورقة والقبعة منديلًا أبيض مطويًا من الدانتيل ذي حافات مطرزة بزخارف سوداء متشابكة.

كانت أشياء بسيطة معقودة ومجهزة.

كانت تضحك أثناء دروسها مفضلة بطاقاتها، البطاقات أكثر صراحة برغم تعدد معانيها واحتمالاتها.

كانت مجرد احتياط، التحوط في هذه الظروف غير المتوقعة أمر حكيم. الأمر مثل إحضار مظلة في يوم تشعر فيه باقتراب المطر حتى وأنت ترى الشمس ساطعة.

برغم ذلك فليست واثقة من أنها أفادت في شيء سوى جمع الأتربة. ليس لديها طريقة للتأكد، ليس مثل المطر يمكنها مقارنته بقراءة البارومتر للضغط الجوي. تلك الأمور غير المادية لا يمكن قياسها. لا

يوجد ميزان حرارة يقيس درجة الفوضى. في هذه اللحظة يبدو أنها تخوض فراغ مجهول.

أخرجت إيزوبل القبعة بحرص من الصندوق. وأطراف الشرائط تنزل من عليها كشلال ينسكب منها. كانت تبدو جميلة على كونها قبعة قديمة ومنديلًا وبطاقة تاروت مربوطين معًا بشريط مهترئ، بدت تنكرية.

قالت إيزوبل:

- أبسط السحر هو أكثره فاعلية.

تراجعت بعدما كادت تنفجر دموعها حين سمعت صوتها.

لم ترد عليها القبعة.

قالت إيزوبل:

- لا أظن أن لك أي تأثير أيًّا ما كان.

لم ترد عليها القبعة ثانية.

كانت تريد فقط أن تبقي السيرك متوازنًا. أن تمنع الطرفين المتواجهين من التسبب في تدمير أحدهما أو المحيطين بهما.

أن تحفظ الميزان من الانكسار.

مرة تلو المرة استعادت مشهدهما في حجرة الرقص. تتذكر شذرات من جدال سمعته وماركو يقول إنه فعل كل شيء لأجلها. مقولة لم تفهمها حينها ونسيتها مع الوقت.

لكن الأمر الآن واضحًا.

كل تلك المشاعر التي تشي بها بطاقاتها حينما تحاول أن تقرأ له، كان يكنها لسيليا.

السيرك نفسه كان بأكمله لأجلها. كل خيمة جميلة اختلقها، وهي بَنَت له واحدة في المقابل.

وإيزوبل نفسها كانت تساعد في الحفاظ على التوزان، مساعدته ومساعدتهما معًا.

نظرت إلى أسفل نحو القبعة بين يديها.

دانتيل أبيض يعانق صوفًا أسود وشريط يشبكهما لا ينفصلان.

مزقت الشريط بأصابعها جاذبة العقدة بغضب مفاجئ.

طار المنديل كشبح إلى الأسفل لتظهر الحروف الأولى المخيطة عليه س . ن. ب مقروءة وسط الزخارف المعقدة.

وسقطت ورقة التاروت أرضًا ليظهر وجهها حاملًا صورة ملاك وكلمة الناسك مكتوبة أسفلها.

توقفت إيزوبل كاتمة أنفاسها، منتظرة صدى لما فعلته، نتيجة من نوع ما. لكن كل شيء ساكن، الشموع مضيئة والستارة ساكنة والمكان هادئ.

أحست فجأة بالغباء، كم هو سخيف أن تجلس وحيدة في خيمتها مع قبعة قديمة وكومة من الشرائط. أدركت أنها حمقاء كي تتوهم أن لها تأثيرًا على هذه الأشياء، أو أن أيًّا من أفعالها كان له أدنى قيمة.

انحنت لتستعيد البطاقة الواقعة لكن يدها تجمدت فوقها حين سمعت شيئًا ما. لجزء من الثانية سمعت أصواتًا كصرير فرامل القطار. استغرق منها الأمر بضع دقائق كي تدرك إيزوبل أن الصوت قادم من الخارج وهو ليس سوى صوت بوبيت موراي تصرخ.

الظلمة الأكحل قبل الفجر

كونكورد ماساشوستس، 31 أكتوبر 1902

وقف ويجيت وبوبيت عند بوابة السيرك، مفسحَيْن الطريق لكشك التذاكر برغم أنه في هذه الساعة المتأخرة لم يعد هناك صف من الزائرين. كان نفق النجوم قد تم إزالته بالفعل واستبدل بستارة واحدة مخططة، وساعة الأحلام خلفهما تدق ثلاث دقات. وويجيت يمضغ كيسًا من الفشار المغطى بالشكولاتة.

سأل شقيقته بفم ممتلئ:

- ممافا قلففف له؟

قال بوبيت:

- شرحت له الأمر قدر استطاعتي، أظنني شبهت الأمر بكعكة.

قال ويجيت:

- حسنًا، يفترض أن ينجح هذا، من الذي يكره التشبيه بالكعك.

- لست واثقة أن كلامي كان مفهومًا. أظن أن ما أحزنه حقًّا هو طلبي منه ألا يأتي الليلة لو لم يكن سيأتي ليرحل معنا. لكنني لم أعرف ماذا أقول غير ذلك، كنت أريد أن أوضح له مدى جدية الأمر.

ثم تنهدت ونظرت للسياج الحديدي قائلة:

- وأعطيته قبلة.

قال ويجيت:

- أعرف.

حدقت إليه بوبيت وقد احمر وجهها بلون شعرها.

هز كتفه وقال:

- لم أقصد أن أعرف، لم تخفِ الأمر إطلاقًا. يجب أن تتدربي أكثر إن لم تريدي مني أن أرَ ما يخصك. ألم تعلمك سيليا كيف تفعلينها؟

قالت بوبيت:

- لماذا تزداد رؤاك بينما تضعف رؤاي؟

- ربما الحظ؟

أدارت بوبيت عينيها وسألته:

- هل تحدثت مع سيليا؟

- فعلت، أخبرتها أنك قلت إن بيلي يفترض أن يأتي معنا ولم تقل سوى أنها لن تفعل شيئًا لمنعه.

- حسنًا، هذا شيء يحتسب على الأقل.

قال ويجيت وهو يهز كيس الفشار:

- إن ذهنها مشتت، لا تخبرني بشيء وبالكاد سمعت مني شيئًا وأنا أحاول أن أشرح لها سؤالنا. ربما لو قلت لها سنحضر فرس نهر طائرًا كي نحتفظ به للعب لقالت لا مانع. لكن بيلي ليس آت لمجرد التسلية؟ أليس كذلك؟

قالت بوبيت:

- لا أعرف.

- ما الذي تعرفينه؟

نظرت بوبيت إلى سماء الليل، كانت السحب المظلمة تغطي أغلب النجوم إلا من جيوب صغيرة متلألئة.

قالت:

- أتذكر حينما كنا في مرقاب النجوم ورأيت شيئًا ساطعًا لم أستطع معرفته؟

أومأ ويجيت.

أكملت:

- كانت الساحة، الساحة بأكملها متأججة وليس النار في مركزها فحسب، متوهجة محترقة ساخنة، ثم... لا أعرف ما الذي حدث لكن بيلي كان هناك، هذا ما أنا واثقة منه.

سألها ويجيت:

- وسيحدث هذا قريبًا؟

قالت:

- قريبًا جدًا.

- ألا ينبغي أن نختطفه؟

- حقًا يا ويجي!

قال ويجيت:

- بل حقًا، يمكننا فعلها، نتسلل إلى منزله ونضربه بشيء ما ثقيل ونجره هنا سرًا، يمكننا أن نحمله وسيظن الناس أنه سكير مترنح من البلدة، سيكون في القطار قبل أن يستعيد وعيه، وحينها لن

يملك الخيار. بسرعة دون ألم. حسنًا، دون أن نتألم نحن باستثناء حمل وزنه الثقيل.

قالت بوببت:

- حقًّا! لا أظنها فكرة جيدة.

قال بوبيت:

- أوه، دعك من هذا، سيكون الأمر مرحًا.

قالت:

- لا أظن، أظن أننا بالفعل قمنا بكل ما يفترض بنا فعله، وليس بيدنا الآن سوى الانتظار.

سألها ويجيت:

- أأنت واثقة؟

قالت بخفوت:

- لا.

بعد قليل ذهب ويجيت ليبحث عن شيء آخر ليأكله بينما انتظرت بوبيت وحدها عند البوابة تسترق النظر كل برهة لتعرف الوقت من الساعة خلفها.

التقاطعات 2

الغضب القرمزي والقدر الأحمر

لندن، 31 أكتوبر و1 نوفمبر 1902

ذات مرة كتب هر فريدريك تايسن:

برغم أن أي ليلة في السيرك يمكن وصفها بحق أنها سحرية لكن ليلة عيد القديسين لها خصوصيتها، الهواء نفسه يحمل عبق الغموض.

كانت ليلة الهالوين تلك باردة منعشة، والجمهور الصاخب يرتدي المعاطف الثقيلة والأوشحة. كثير منهم يرتدون الأقنعة لتغيب الوجوه في مهرجان من الأبيض والأسود والفضي.

كانت أضواء السيرك أكثر خفوتًا من المعتاد والظلال تزحف في كل ركن. دخل شاندرش كريستوف لوفيفرا السيرك دون أن يلاحظه أحد. التقط قناعًا فضيًّا من أحد السلال عند البوابة وأخفى به وجهه.

لم تتعرف إليه السيدة في كشك التذاكر حينما دفع ثمن التذكرة كاملًا.

تجول داخل السيرك مثل رجل في حلم.

الرجل ذو البدلة الرمادية لم يرتد قناعًا، مشى متمهلًا بهدوء، بخطوات متكاسلة. لم يضع لنفسه هدفًا محددًا فقط، تجول من خيمة إلى أخرى، يدخل البعض ويتجاوز البعض. اشترى كوبًا من الشاي وانتظر في الساحة يراقب النار بعض الوقت قبل أن يعود إلى التجول في الممرات بين الخيام.

لم يزر السيرك من قبل وبدا أنه يستمتع به.

تبعه شاندرش، كل حركة، كل خطوة، يطارده عبر الخيام ويراقبه وهو يدفع ثمن الشاي. يحدق إلى الأرض جوار الرجل ذي البدلة الرمادية باحثًا عن ظله. لكن تراقص الضوء المستمر صعّب هذا المسعى.

باستثناء شاندرش لم ينتبه إليه أحد. المارة لا يرمقونه حتى بنظرة واحدة، لا يلتفت نحوه أحد برغم طوله وقبعته المرتفعة وبدلته الرمادية. حتى الفتاة التي باعته الشاي بالكاد نظرت إليه قبل أن تلتفت إلى العميل التالي. كان ينسل وسط السيرك كأنه طيف، حاملًا عصاه ذات المقبض الفضي التي لم يستخدمها أبدًا.

فقده شاندرش وسط الزحام عدة مرات. يتوه اللون الرمادي وسط الأسود والأبيض وألوان الزوار. لكن لا يمضي وقت طويل قبل أن يعثر على القبعة الرمادية العالية ثانية، لكن أثناء فقدانه يشعر بتوتر يصل لدرجة الغليان. فيعبث بمعطفه ومحتويات جيبه.

كان شاندرش يتمتم لنفسه، أولئك الذين مروا به بقرب يكفي لسماع ما يقوله تجنبوه.

وخلف شاندرش كان يتبعه شاب لن يتعرف إليه حتى لو نظر في عينيه. ورغم ذلك حافظ هذا الشاب على مسافة كافية بينهما.

ظل انتباه شاندرش مسلطًا فقط على الرجل ذي البدلة الرمادية ولم يلتفت ولو مرة ليتساءل عن هذا الشاب الذي يتبعه والذي يحمل شبهًا لمساعده.

أبقى ماركو عينه الرمادية المخضرة على شاندرش دون أن يحتاج قناعًا فقد أظهر وجهًا لا يعرفه سوى سيليا، والحاوية تبدو منشغلة الآن.

استمر هذا لوقت طويل، السيد أ.هـ يتجول متهاديًا في السيرك، زار قارئة الطالع التي لم تتعرف إليه، لكن استطلعت مستقبله بصفوف منمقة من الأوراق برغم أنها اعترفت بكونها متداخلة مربكة. شاهد عرض الحاوية، وأظهرت معرفتها بحضوره عبر إيماءة لبقة واحدة. تجول في قاعة المرايا؛ حيث صاحبته أعداد لا تحصى من صور ترتدي بدلته الرمادية. أخذ جولة في دوامة الخيول وبدا معجبًا بالذات بالحديقة الثلجية.

وشاندرش يتبعه من خيمة إلى أخرى وينتظر خارج الخيام التي لم يدخلها محترقًا بقلق متزايد.

فقد ماركو أثرهما بعض الوقت؛ حيث اختطف دقائق قليلة لشأن آخر.

كان الساعة عند البوابة تدق الدقيقة تلو الأخرى، ودولابها يدور ويتغير.

أكتوبر يتحول لنوفمبر، تغير لا يلاحظه إلا أولئك القريبون من الساعة.

تناقص الزحام وعادت السلال لتملأ بالأقنعة، أكوام من وجوها خاوية الأعين ذات أشرطة. والأطفال تُجر بعيدًا عن السيرك مع وعود

بإمكانية العودة غدًا، برغم أن السيرك لن يكون موجودًا في المساء التالي وسيشعر أولئك الأطفال بالخيانة والاستغفال.

وفي ممر في نهاية السيرك واسع بعض الشيء وبه القليل من الزوار، توقف السيد أ.هـ وشاهده شاندرش من مساف قريبة غير قادر على معرفة سبب توقفه برغم أنه يبدو كما لو كان يتحدث مع شخص ما.

لكن شاندرش لم ير سوى البدلة الرمادية ساكنة، والقبعة العالية فوقها وهدفه متاح دون عائق.

سمع صدى صوت يؤكد له أن الرجل غير حقيقي، تلفيق من وحي خياله، مجرد حلم.

ثم كانت لحظة توقف، تباطأ الوقت كما لو كان هناك شيء يسقط لكنه يقاوم الجاذبية، النسيم البارد الذي يسري عبر الممرات الدائرية للسيرك توقف، لم يعد هناك شيء يرفرف أو يهتز في هذه اللحظة، حتى أقمشة الخيم وشرائط الأقنعة.

في أعلى خيمة، فقدت واحدة من لاعبات الأكروبات اتزانها، وسقطت لمسافة قبل أن يمسك بها أحد زملائها لتتفادى بالكاد التحطم على الأرض. في الساحة نفثت النار بغتة شرارات وسحب سوداء مصحوبة بقرقعة أفزعت الزوار القريبين الذين قفزوا وهم يسعلون.

القطط التي تقفز في الهواء من يد بوبيت ليد شقيقها التوت فجأة وسط القفزة لتسقط على ظهورها بدلًا من أقدامها مواجهة ويجيت وهي تموء بسخط.

تجمدت الحاوية، بدا أن عرضها توقف وشحب وجهها كالموت، تأرجحت كما لو كانت ستفقد الوعي حتى إن عددًا من الجمهور الحاضر هب لمساعدتها لكنها لم تسقط.

تلوى ماركو كما لو كان قد تلقى ضربة في معدته من مهاجم خفي. أحد المارة أمسك بذراعه كي يحفظ اتزانه.

وشاندرش كريستوف لوفيفرا أخرج سكينًا فضيًا ثقيلًا من جيب معطفه وقذفه دون تردد.

طارت السكين من يد شاندرش، يتقلب نصلها مع نقبضها، يدوران في حلقات مثالية عبر الهواء.

كان هدفها محددًا وثابتًا، هدف حقيقي طبيعي تمامًا.

ثم تحرك الهدف.

هذا الصوف الرمادي الذي يشكل ظهر بدلة السيد أ.هـ تزحزح. تحرك ببطء لجانبه، بخطوة وقورة، ولفتة تلقائية. حركة وزن يسقط في الفراغ.

وهكذا مرقت السكين من بين أكمامه ومضت بدلًا من ذلك في صدر الرجل الذي كان يتكلم معه. اخترق النصل معطفه الأسود المفتوح بسهولة ممزقًا قلبه كما لو كان هدفه المتعمد. واستقر المقبض الفضي بالكاد أسفل وشاحه القرمزي.

أمسك السيد أ.هـ بهر فريدريك تايسن وهو ينكفئ للأمام.

تجمد شاندرش ينظر في يده الفارغة كما لو كان يعجز عن تذكر ما الذي كان يحمله فيها منذ لحظات. تعثر مترنحًا ليعود نحو الساحة. نسي أن يخلع قناعه حينما غادر، وعندما وجده في اليوم التالي داخل بيته لم يستطع أن يتذكر من أين أتى.

أنزل السيد أ.هـ هر تايسن أرضًا، ناطقًا بسيل من الكلمات بنبرة خافتة لا يستطيع أحد سماعها، الزوار المتناثرون حولهما لم يلاحظوا شيئًا في البداية برغم أن بعضهم تعجب للتوقف المفاجئ لعرض

الصغيرين المؤديين بالقرب منهم. والصبي ذو الزي الأسود يحمل قططه المرتعبة.

بعد برهة طويلة، توقف السيد أ.هـ عن الكلام ومرر يده ذات القفاز الرمادي على وجه هر فريدريك تايسن ليغلق عينيه الذاهلتين.

انكسر الصمت التالي بصراخ بوبيت موراي، حينما وصلت بركة الدماء أسفل حذائها الأبيض.

وقبل أن تتحول الصدمة إلى فوضى، نزع السيد أ.هـ برفق السكين الفضي من صدر هر تايسن ووقف ورحل مبتعدًا.

وحينما مر بماركو الذاهل المصدوم ناوله السكين الملوث بالدماء دون كلمة أو حتى نظرة. ثم اختفى بين الزحام.

مجموعة الزوار الذين شهدوا الحادثة أُبعِدوا سريعًا، وقد افترضوا فيما بعد أن الأمر كان تمثيلًا متقنًا، لمسة مسرحية لليلة مهرجانية.

بركة الدموع

مرفق مع اللافتة خارج هذه الخيمة صندوق صغير ممتلئ بالحصى الأسود الأملس. واللافتة تطلب منك أن تأخذ واحدة حين تدخل.

في الداخل تجد الخيمة مظلمة، وسقفها مغطى بمظلات سوداء مفتوحة تتدلى مقابضها المنحنية إلى الأسفل مثل الأنياب.

في وسط الغرفة بركة. حوض داخل جدار حجري أسود محاط بالحصى الأبيض.

والهواء يحمل المذاق الملحي للمحيط.

تمشي إلى الحافة لتنظر إلى الداخل والحصى يطقطق أسفل قدميك.

البركة ضحلة، لكنها متوهجة، ووميض متحرك متذبذب ينساب لسطح الماء كي يشع برقة، يكفي لتتوهج البركة والحصوات في قاعها، مئات الحصوات كل منها مماثلة تمامًا لتلك التي تحملها في يدك. والضوء يأتي متخللًا المسافات بين الحصى.

تتموج الانعكاسات من حول الغرفة لتبدو كما لو كانت الخيمة بأكملها تحت الماء.

تجلس على الجدار وتدير حصاتك السوداء مرارًا بين أصابعك.

سكون الخيمة يشعرك بالكآبة.

وتتدفق ذكريات من الأركان الخفية في عقلك، إحباطات الماضي، الفرص الضائعة والقضايا الخاسرة، انكسارات القلب وألم الهجر وبشاعة الوحدة. خواطر الندم على ماضٍ منسي ممتزجٍ مع الندوب الجديدة.

تشعر بالحصاة تزداد ثقلًا في يدك.

حين تسقط حصاتك لتنضم للبقية في قاع البركة تشعر بخفة الروح، كما لو كنت تخلصت من ثقل أكبر وليس مجرد قطعة صخر ملساء مدهونة.

الوداع

كونكورد ماساشوستس 30 و31 أكتوبر 1902

تسلق بيلي شجرة البلوط كي يستعيد صندوقه المختبئ قبل الغروب. وتأمل السيرك القابع وسط ضوء العصر البرتقالي تاركًا ظلالًا طويلة على الحقل جواره.

لكن حينما فتح الصندوق لم يجد به حقًّا ما يريد أن يأخذه معه.

أخذ فقط قفاز بوببيت الأبيض ووضعه في جيب معطفه، وأعاد الصندوق إلى الشجرة.

في البيت أحصى مدخراته التي كانت أكثر مما توقع، وجهز بعض الملابس مع سترة إضافية. فكر في أخذ حذاء احتياطي لكنه تراجع وقرر أنه إن احتاجه فيمكن أن يستعير من ويجيت واحدًا. عبّأ كل شيء في حقيبة جلدية بالية وانتظر أن ينام والداه وشقيقته كارولين.

وفي أثناء الانتظار أفرغ حقيبته وأعاد ملئها، معيدًا التفكير فيما يأخذه وما يتركه.

انتظر ساعة أخرى كي يتأكد أنهم ناموا جميعًا، ثم ساعة أخرى تحسبًا، برغم أنه أصبح بارعًا في التسلل في الساعات المتأخرة منسلًا لقضاء مختلف الأمور.

وأخيرًا حين تسلل إلى البهو وقد فوجئ بتأخر الوقت، وضع يده على مقبض الباب مستعدًا للمغادرة، ثم قفل عائدًا واضعًا حقيبته أرضًا وبدأ يفتش في سكون عن قطعة ورق.

ما إن وجد واحدة، حتى جلس على منضدة المطبخ ليكتب رسالة لوالديه. شرح أسباب رحيله قدر استطاعته ورجاءه بأن يتفهما الأمر. لم يأتِ بذكر لهارفارد أو مستقبله في المزرعة.

تذكر حينما كان صغيرًا أن والدته تمنت له أن يجد السعادة والمغامرة. إن لم تكن هذه مغامرة فلا يعرف ما يمكن أن يكون.

- ماذا تفعل هنا؟

أتاه الصوت من خلفه، التفت ليجد كارولين تقف بمنامتها عند الباب وشعرها معقود فوق رأسها ممتلئ بالدبابيس وغطاء معقود على كتفيها.

عاد إلى ورقته قائلًا:

- لا شيء يخصك.

وقّع الخطاب وطواه وتركه واضحًا في منتصف المنضدة جوار وعاء تفاح مكملًا:

- احرصي على أن يقرآها.

نظرت كارولين إلى حقيبته وسألته:

- أأنت تهرب؟

- شيء كهذا.

شهقت قائلة:

- لا يمكن أن تكون جادًّا.

- لماذا لا تعودين إلى سريرك يا كارولين؟ لن يضرك المزيد من استراحة التجميل.

اكتفت بهز وجهها مستهجنة.

أكمل بيلي:

- وأيضًا منذ متى اهتممت إطلاقًا بما أفعله؟

احتد صوت كارولين دون أن يعلو فوق طبقة الهمس:

- أنت تتصرف كالأطفال طوال الأسبوع، تلعب في السيرك الغبي وتسهر طوال الليل، انضج يا بيلي.

قال بيلي:

- هذا بالضبط ما أفعله، لا يهمني إن لم تفهمي الأمر. البقاء هنا لن يسعدني. سيسعدك أنت لأنك شخص سطحي ممل، والحياة السطحية المملة تناسبك. لكنها لا تناسبني، ولن تناسبني أبدًا. لذا فسأرحل، فقط قدِّمي إليّ خدمة وتزوجي شخصًا يجيد رعاية الأغنام.

وأخذ تفاحة من الوعاء وقذفها في الهواء ثم أمسكها ودسها في حقيبته، وودع كارولين مكتفيًا بتحية من يده.

تركها واقفة أمام المنضدة بفم مفتوح وأغلق الباب خلفه بسكون ورحل في عاصفة من الغضب الصامت.

مشى بيلي بعيدًا عن البيت متحمسًا. كان يتوقع أن تأتي كارولين خلفه أو تحاول أن تحذر والديه من رحيله لكن مع كل خطوة بدا له واضحًا أنه يرحل حقًّا ولم يعد هناك شيء يوقفه.

بدت المسافة أطول في سكون الليل، لم يعد هناك جمهور يتوجه إلى السيرك عبر الطريق كما يحدث كل ليلة حينما يسرع كي يصل قبل فتح الأبواب.

كانت النجوم ما زالت ظاهرة في السماء حين وصل إلى شجرة البلوط، وحقيبته معلقة على كتفه. كان قد تأخر أكثر مما أراد برغم أن الفجر لم يأتِ بعد.

فأسفل السماء المرصعة بالنجوم، كان الحقل الممتد أمامه خاويًا، كما لو لم يكن هناك به شيء من قبل سوى الفراغ وأوراق الشجر والضباب.

استرجاع الماضي

لندن، 1 نوفمبر 1901

انسل الرجل ذو البدلة الرمادية بسهولة وسط جمهور السيرك، كان المارة يبتعدون عن طريقه دون أن يشعروا، يفسحون له الطريق وهو يشقه نحو البوابة.

كان ما اعترض طريقه عند حافة الساحة جسم شفاف، يبدو كسراب أحدثه وهج النار والمصابيح الورقية المتأرجحة. توقف الرجل ذو البدلة الرمادية رغم أنه كان يستطيع بسهولة أن يمضي عبر تجسد زميله دون عائق.

سأله هكتور:

- ليلة مثيرة، أليس كذلك؟

وجذب هذا نظرات فضولية من الزوار القريبين.

حرك الرجل ذو البدلة الرمادية إصبعه داخل القفاز الرمادي كما لو كان يقلب صفحة كتاب خفي، فتلاشت كل النظرات الفضولية وانجذبت أعينهم لمشاهد أخرى.

واستمرت الجماهير تأتي وتذهب عبر البوابة دون أن يعير أحد اهتمامًا للسيدين.

تهكم هكتور قائلًا:

- لا داعي لهذا، نصف هؤلاء يأتون هنا متوقعين رؤية شبح في كل ركن.

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- لقد خرج الأمر عن السيطرة، تلك الحلبة كانت دومًا مكشوفة أكثر من اللازم.

قال هكتور وهو يلوح بذراعيه للجمهور:

- وهذا ما يجعله أكثر تسلية.

مرت ذراعه في كتف امرأة تعبر فالتفتت مندهشة لكنها أكملت طريقها حينما لم تر شيئًا.

أكمل هكتور:

- ألم تستخدم ما يكفي من حيل التمويه؟ حتى بعدما تملقت طريقك مع شاندرش كي تسيطر على الحلبة؟

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- أنا لم أسيطر على شيء، فقط أقمت نظامًا للسرية متخفيًا في جو الغموض. مشورتي هي السبب في تنقل هذه الحلبة من مكان إلى آخر دون سابق إنذار، الأمر لصالح كلا اللاعبين.

- هذا يبقيهما بعيدين عن بعضهما، لو وضعتهما من البداية معًا كما يجب أن يكون لحطمته منذ سنوات.

- هل تسببت حالتك الحالية في أن تصاب بالعمى؟ كنت أحمق بما يكفي كي توقع نفسك في هذا الحال، وأنت أحمق لو لم تر أن كلًّا منهما مفتون بالآخر. لو لم ينفصلا عن بعضهما لحدث هذا بصورة أسرع.

ضاقت عينا هكتور واختفى وظهر ثانية في الضوء المتذبذب وهو يقول:

- كان يجب أن تكون خاطبة، لاعبتي مدربة خير من ذلك.

- ورغم ذلك فقد أتت إليّ، دعتني هنا بنفسها وأنت...

سكت وقد لفت انتباهه شخص في الجمهور.

قال هكتور:

- أظنني أخبرتك أن تختار لاعبًا تستطيع تحمل فقدانه.

وانتبه إلى الطريقة التي يحدق إليها زميله في الجمهور بعدما مر بهما شاب مضطرب بقبعة مستديرة دون أن يلتفت لأيهما، مطاردًا شاندرش عبر الجمهور المتوافد.

أكمل هكتور:

- دومًا ما ترتبط بتلاميذك أكثر من اللازم، وللأسف قليل منهم من يشعر بهذا التعلق.

التفت الرجل ذو البدلة الرمادية قائلًا:

- وكم من تلاميذك اختار أن ينهي اللعبة بنفسه؟ سبعة؟ حسنًا ستصبح ابنتك الثامنة.

رد هكتور وكل كلمة تخرج حادة صارمة رغم حالته المتلاشية:

- لن يحدث هذا ثانية.

- لو فازت فستكرهك بسبب هذا، إن لم تكن تكرهك بالفعل.

- ستفوز، لا تتجاهل حقيقة أنها لاعبة أقوى من فتاك ودائمًا كانت كذلك.

رفع الرجل ذو البدلة الرمادية يده نحو نار الساحة فتضخم الصوت آلات من الخلف كي يستطيع هكتور سماع أنين ابنته وهي تكرر اسم فريدريك مرارًا في ذعر متزايد.

- أيبدو لك هذا قوة؟

وأنزل يده بعد سؤاله ليختفي صوت سيليا وسط ضجيج الجمهور.

تجهم هكتور وإن شوهت النار تعابيره.

أكمل الرجل ذو البدلة الرمادية:

- رجل بريء مات الليلة، رجل كانت لاعبتك معجبة به كثيرًا، لو لم تكن بدأت تنكسر بالفعل فهذا سيحطمها. أكان هذا ما أردت تحقيقه هنا؟ ألم تتعلم شيئًا بعد كل تلك المواجهات؟ لا توجد أي وسيلة على الإطلاق كي تتنبأ بما سيحدث، لا توجد ضمانة لأي جانب.

قال هكتور:

- لم ينته الأمر بعد.

ثم اختفى وسط تداخل الأضواء والظلال.

أكمل الرجل ذو البدلة الرمادية سيره كأنما لم يوقفه شيء، شاقًّا طريقه عبر الستائر الثقيلة التي تفصل الساحة عن العالم الخارجي.

وتأمل الساعة عند البوابة لبعض الوقت قبل أن يودع السيرك.

ألمٌ جميل

لندن، 1 نوفمبر 1901

شقة ماركو التي كانت فارغة بسيطة أصبحت الآن مزدحمة بأثاث متنوع متنافر. قطع سأمها شاندرش لسبب أو لآخر فانتهت إلى هذا الملجأ بدلًا من التخلص منها تمامًا.

كان هناك كتب أكثر مما تحتمله الرفوف، لذا فقد كومت على كرسي صيني عتيق ووسائد هندية.

كانت الساعة فوق المدفأة من صنع هر تايسن، مزدانة بكتب دقيقة تتقلب صفحاتها مع دقات الثواني التي تمضي نحو الثالثة صباحًا.

الكتب الكبيرة الموضوعة على المكتب كانت تتحرك بانتظام أقل بين يدي ماركو الذي يقلب في سجلاته المكتوبة بخط اليد مشخبطًا حسابات وملاحظات على بعض الأوراق المتناثرة، مرة تلو الأخرى كان يشطب رموزًا وأرقامًا ويلقي بكتب كي يأخذ أخرى ثم يلقي بها ويعود للتي ألقاها سابقًا.

انفتح باب الشقة من تلقاء نفسه، سقطت الأقفال مفتوحة وتأرجح منفرجًا. قفز ماركو من فوق مكتبه وأسقط زجاجة حبر فوق أوراقه.

كانت سيليا تقف عند المدخل، خصلات من شعرها هاربة من تصفيفتها، ومعطفها ذو اللون الكريمي مفتوح لا يقي من الطقس البارد.

فقط حينما خطت إلى الداخل انغلق الباب خلفها تلقائيًّا وأغلقت الأقفال، وأدرك ماركو أن أسفل معطفها فستانًا ملطخًا بالدماء.

سألها:

- ماذا حدث؟

وتجمدت يده التي امتدت لتقيم زجاجة الحبر في الهواء.

قالت سيليا:

- أنت تعرف تمامًا ماذا حدث.

كان صوتها هادئًا ولكن ظهرت تموجات على السطح الأسود لبركة الحبر فوق المكتب.

قال ماركو محاولًا الاقتراب منها:

- أأنت بخير؟

- بكل تأكيد أنا لست بخير.

انفجرت زجاجة الحبر ناثرة قطراته على الأوراق وأكمام ماركو البيضاء وذابت وسط صدريته السوداء.

كانت يده ملطخة بالحبر لكنه ما زال منزعجًا من الدماء على فستانها. تلك الصرخات القرمزية وسط الحرير العاجي والمخمل الأسود الذي يحوطه كالقفص.

سألها:

- سيليا، ماذا فعلت؟



قالت بصوت متهدج:

- لقد حاولت...

انهار صوتها مع الكلمة فكررت:

- لقد حاولت، ظننت أنه يمكنني إصلاح الأمر، كنت أعرفه منذ وقت طويل. ربما يمكنني إعادته كما أعيد الساعة لتدق ثانية، كنت أعرف أين الخطب لكني لم أستطع إصلاحه، كنت أعرفه جيدًا ولكن.... لم ينفع.

وانفجر الحزن الذي كانت تكتمه في صدرها، والدموع التي حبستها لساعات انهمرت من عينيها.

هرع ماركو عبر الغرفة ليصل إليها، جذبها وضمها إليه بينما تبكي.

أخذ يكرر لها:

- أنا آسف.

وهو يواسيها حتى هدأت، وأرخت كتفيها بين ذراعيه.

قالت بخفوت:

- كان صديقي.

قال ماركو:

- أعرف.

ومسح دموعها تاركًا لطخة من الحبر على وجنتها.

- أنا آسف جدًا، لا أعرف ما الذي حدث، شيء ما دمر التوازن ولم أستطع معرفة ما هو.

قالت سيليا:

- كانت إيزوبل.

- ماذا؟

- التعويذة التي وضعتها إيزوبل على السيرك، عليك وعليّ، كنت أعرف بأمرها. أشعر بها، لكن لم أتصور أن لها تأثيرًا حقيقيًّا ولكن يبدو أنها كانت فعالة. لا أعرف لِمَ اختارت الليلة أن توقفها.

تنهد ماركو وقال:

- اختارت الليلة أن توقفها لأنني أخبرتها أخيرًا أنني أحبك. كان يجب أن أفعل هذا منذ سنوات ولكنني فعلتها الليلة. ظننتها تحملت الأمر ولكن يبدو أنني كنت مخطئًا. لم يكن عندي أدنى فكرة لِمَ أتى ألكسندر إلى السيرك.

قالت سيليا:

- كان هناك لأنني دعوته.

سألها ماركو:

- ولم فعلت هذا؟

تدفقت الدموع منها ثانية:

- أردت أن يكون هناك منتصر، أردت أن ينتهي هذا كي أكون معك، فكرت أنه لو أتى ورأى السيرك فقد يحدد هذا المنتصر، لا أعرف بأي طريق آخر يتوقعان أن يحسم الأمر. كيف عرف شاندرش أنه سيكون هناك؟

- لا أعرف، لا أعرف ما الذي تَمَلَكه ليصر على الذهاب ولا لماذا أصر ألا أرافقه. لذا تبعته، لم أفقد أثره إلا لدقائق حينما ذهبت لأحدث إيزوبل، وحين عدت إليه ...

سألته سيليا:

- أبدا لك أيضًا الأمر كأنما زالت الأرض من أسفلك؟

أومأ ماركو وقال:

- كنت أحاول حماية شاندرش، لم أتصور أن يمثل هو الخطر على أي شخص آخر.

التفتت سيليا إلى الكتب على المكتب سائلة:

- ما كل هذا؟

كانت تحوي صفحات لا تنتهي من الرموز والاختزالات التي تحيط بنصوص منقولة من مصادر أخرى متلاصقة ومكتوبة فوق بعضها، وفي وسط المكتب مجلد ضخم ملصق على غلافه الأمامي، شيء بدا لسيليا كقصاصة من جريدة محاطة بشجرة توضيحية مكتوبة. الكلمة الوحيدة التي فسرتها كانت **فائق**.

قال ماركو:

- هذه هي الطريقة التي أعمل بها، هذا المجلد تحديدًا هو الذي يربط كل شخص في السيرك، تدبير وقائي كما يمكن أن نسميه، وضعت نسخة منه في موقد النار قبل إشعالها لكني وضعت تعديلات لهذه النسخة.

قلبت سيليا بين صفحات الأسماء، وتوقفت عند صفحة بها رقعة ورق تحمل توقيع ليني برجيس المميز وجوارها فراغ بنفس الحجم لرقعة أخرى تمت إزالتها تاركة أثرها الخاوي.

قال ماركو:

- كان يجب أن أضيف هر تايسن، لم أفكر أبدًا في الأمر.

- لو لم يكن هو لكان شخصًا آخر من الزوار، لا توجد طريقة لإنقاذ الجميع، هذا مستحيل.

كرر ماركو أسفه:

- أنا آسف، لم أعرف هر تايسن مثلما عرفتيه، لكنني أعجبت به وبعمله.

قالت سيليا:

- لقد أراني السيرك بطريقة عجزت قبله عن إدراكها، كيف يبدو من الخارج، كنا نتبادل الخطابات لسنوات.

- كنت سأكتب لك أنا الآخر، لو استطعت أن أضع كل ما أريد قوله لك في صورة كلمات، لكن بحرًا من المداد لن يكفيني.

نظرت سيليا إليه وقالت:

- لكنك بنيت لي أحلامًا بدلًا من ذلك، وأنا بنيت لك خيمًا تراها بالكاد. كان حولي دومًا منك الكثير، بينما عجزت أنا أن أعطيك شيئًا في المقابل لتحتفظ به.

قال ماركو:

- ما زلت أحتفظ بالشال الخاص بك.

ابتسمت برقة بينما تغلق المجلد. وبجوارها عادت قطع الزجاج المتناثرة لتشكل زجاجة الحبر بينما عائد السائل الأسود بداخلها.

قالت:

- أظن أن هذا ما كان والدي يصفه بأنه جلب العمل للخارج بدلًا من العمل من الداخل حتى تخرج. كان دائمًا يحذر منه.

قال ماركو:

- إذن فسيكره الغرفة الأخرى.

سألته سيليا:

- أي غرفة؟

استقرت زجاجة الحبر سليمة كأنما لم تقع أبدًا.

أشار ماركو إلى الأمام، إلى الغرفة المجاورة، فتح الباب لكنه لم يدخلها. وحين تبعته سيليا عرفت السبب.

كانت في السابق حجرة مكتب أو استقبال، ليس واسعة ولكن مريحة، لولا طبقات الأوراق والخيوط المعلقة على كل أسطحها.

خيوط ممتدة من الثريا حتى الرفوف العالية متشابكة مع أخرى كشبكة منحدرة من السقف.

وعلى كل الأسطح حتى الطاولات والمقاعد هناك نموذج دقيق للخيم، بعضها مصنوع من ورق الصحف والبعض من القماش. قطع من أوراق هندسية وروايات وأدوات مكتبية مطوية ومقطوعة ومشكلة في سرب من الخيم المخططة. كلها مربوطة معًا بالمزيد من الخيوط السوداء والبيضاء والحمراء، ومرتبطان بتروس وقطع من مرايا وأشلاء شموع منصهرة.

وفي مركز الحجرة على طاولة خشبية مستديرة مدهونة بلون أسود وملصق عليها خطوط بيضاء من الأصداف. هناك موقد حديدي صغير بداخله نار مشتعلة بألسنة بيضاء ساطعة تلقي ظلال عالية في المكان.

خطت سيليا داخل الغرفة منحنية كي تتفادى الخيوط المعلقة من السقف. كان إحساسها شبيهًا بدخول السيرك، حتى رائحة الكراميل في الهواء. لكن كان هناك شيء أعمق أسفل هذا، شيء قوي وقديم خلف الأوراق والخيوط.

ظل ماركو عند الباب بينما تتجول سيليا بحذر داخل الغرفة مراعية ألا توقع بحافة فستانها أيًّا من الخيم الصغيرة وهي تتأملها وتجري بأصابعها برقة فوق الخيوط والتروس.

سألته:

- هذا سحر قديم جدًّا؟ أليس كذلك؟

رد ماركو:

- إنه الوحيد الذي أعرفه.

وهز خيطًا مجاورًا للباب فانتقلت الحركة عبر الغرفة وتلألأ نموذج السيرك بأكمله حينما عكست قطع المعدن نور النار.

أكمل:

- ولو أنني أشك أنه يستخدم لهذا الغرض.

توقفت سيليا عند خيمة بها أفرع شجرة مغطاة بالشمع، وجهت نفسها من هناك لتجد أخرى دفعت برقة بابها الورقي لترى حلقة من الكراسي الضئيلة تمثل مكان عروضها.

كانت الأوراق التي صُنعت خيمتها منها لقصائد شكسبيرية.

تركت سيليا الباب ليغلق.

أنهت جولتها المصغرة حول الغرفة وانضمت إلى ماركو مغلقة الباب بهدوء خلفها.

إحساس التواجد بالسيرك تلاشى ما إن غادرت عتبة الحجرة، وأصبحت فجأة منتبه لكل ما حولها في الغرفة الأخرى: الدفء القادم من النار مقابل البرد المتسلل من النافذة، ورائحة ماركو وراء حبره وعطره.

قالت:

- شكرًا لك أن أريتني هذا.

قال ماركو:

- أخمن أن والدك لن يوافق عليه.

قالت:

- لم أعد أهتم كثيرًا بموافقة والدي.

تجاوزت سيليا المكتب وتوقفت عند المدفأة. تتأمل الصفحات الضئيلة التي تقلب مع الوقت في الساعة الموجودة على رفها.

جوار الساعة كانت هناك ورقة لعب وحيدة. رقم اثنين من القلوب. لا يظهر عليها أثر أنها اخترقت ذات مرة بخنجر عثماني ولا أن دماء سيليا قد سالت على سطحها. لكنها كانت تعرف أنها نفس البطاقة.

قال ماركو:

- يمكنني أن أتحدث مع ألكسندر، لعله رأى ما يكفي كي يحدد المنتصر، أو أن هذا ربما يؤدي إلى ما يشبه الاستبعاد. أنا واثق أنه يراني خيبة أمل ويمكنه أن يعلنك فائـ...»

قاطعته سيليا دون أن تلفت:

- توقف، أرجوك توقف، لا أريد أن أتحدث عن تلك اللعبة اللعينة.

حاول ماركو الاعتراض لكن صوته احتبس في حلقه، جاهد ليتكلم لكنه وجد نفسه عاجزًا عن النطق.

فارتخى كتفاه في تنهيدة صامتة.

قالت سيليا حين اقترب منها:

- لقد تعبت من محاولة إبقاء أشياء لا يمكن إبقاؤها، من محاولة السيطرة على ما لا يمكن السيطرة عليه، من حرمان نفسي مما أريد خشية تدمير أشياء لا أستطيع إصلاحها. وستتحطم مهما حاولنا أن نفعل.

ومالت على صدره فطوقها بذراعيه واضعًا برفق راحته الملوثة بالحبر على عنقها. وظلا على هذا الوضع بجوار قعقعة النار ودقات الساعة فترة.

حين رفعت رأسها، أبقى عينيه على عينيها وهو ينزع معطفها من فوق كتفيها واضعًا يده على ذراعيها المكشوفتين.

وهذا الشغف المألوف الذي يتخللها كلما تلامسا مباشرة قد غمرها الآن، وهي عاجزة عن مقاومته، عازفة عن رفضه.

قالت وأصابعها تعبث بأزرار صدريته:

- ماركو، أنا...

تلاقت شفتاه مع شفتيها برغبة حارة قبل أن تكمل.

بينما كانت تزيح أزراره لم يرد أن يرفع شفتيه من فوق شفتيها بينما يزيح كلٌّ منهما عن الآخر ما يفصل بينهما، وجذبها معه إلى الأسفل.

محبوسًا بصمته وجد طريقًا آخر كي يعبر عن أسفه وإعجابه مفجرًا كل ما يكتمه في نفسه. وأصابعه الملطخة بالحبر تترك أثرها في أنحاء المكان وأذناه تتذوق كل نفس تصدره.

ارتجت الغرفة من تلاقيهما.

وبرغم كل ما هو هش بها لم يتحطم شيء.

وفوقهما استمرت الساعة تقلب صفحات قصة أدق من أن تقرأ لتمضي بلا نهاية.

*****

لا يتذكر ماركو أنه سقط في النوم. في لحظة كانت سيليا بين ذراعيه واضعة رأسها على صدره تستمع لدقات قلبه، وفي اللحظة التالية كان وحيدًا، وقد انطفأت النار لم يبق منها إلا جذوة في الرماد والضوء الرمادي آتٍ من النوافذ تاركًا ظلالًا باهتة.

وفوق ورقة اللعب كان هناك خاتم فضي عليه نقش باللاتينية. ابتسم ماركو واضعًا خاتم سيليا في خنصره بجوار الندبة في الإصبع المجاور.

لم ينتبه إلا متأخرًا أن مجلد التدبير الوقائي الذي كان على مكتبه قد اختفى.

الجزء الرابع
اشتعال

هناك خيم، أثق أنني لم أكتشفها بعد في زياراتي المتعددة للسيرك. برغم أنني شاهدت الكثير من المناظر، ورحلت عبر العديد من الممرات، فسيظل دومًا هناك أركانًا لم تكتشف وأبوابًا لم تفتح.

فريدريك تايسن 1896

من الناحية التقنية

لندن، 1 نوفمبر1901

تمنت سيليا لو استطاعت إيقاف الوقت وهي تستمع لدقات قلب ماركو المنتظمة مع دقات الساعة. أن تبقى إلى الأبد في هذه اللحظة محفوظة بين ذراعيه ويداه تربتان برفق على ظهرها. ألا تضطر للمضي أبدًا.

لكن ما استطاعته هو إبطاء ضربات قلب ماركو بما يكفي كي يذهب في نوم عميق. كان يمكنها إيقاظه ولكن النهار قد أتى وأفزعتها فكرة توديعه.

بدلًا من ذلك قبلته في شفتيه وارتدت ملابسها في صمت ونزعت خاتمها من إصبعها ووضعته على المدفأة بين القلبين على ورقة اللعب.

توقفت وهي ترتدي معطفها ناظرة إلى الكتب المتناثرة على المكتب.

ربما إذا فهمت طريقة عمله فستستطيع أن تستخدمها كي تجعل السيرك مستقلًا أكثر، أن تزيح بعض الثقل عن كاهلها. بما يسمح لهما بقضاء وقت أكثر من مجرد بضع ساعات مسروقة دون أن يتحديا قواعد اللعبة.

كانت هذه هي أفضل هدية يمكن أن تفكر في إهدائها إليه. ما داما عاجزين عن إجبار مدربيهما على إعلان منتصر.

أخذت مجلد الأسماء فقد بدا بداية جيدة لفهم كيف يعمل.

أخذته معها ورحلت.

أغلقت باب شقة ماركو خلفها بهدوء قدر استطاعتها ودخلت البهو المظلم والأقفال والمزاليج تنغلق خلفها بصوت مكتوم.

لم تلاحظ الجسد المختفي في الظلال حتى تكلم:

- أيتها الخائنة الساقطة الصغيرة.

كان والدها.

أغلقت سيليا عينيها محاولة التركيز ولكن كان من الصعب دومًا أن تبعده بعدما يحكم إمساكه بها، فلم تستطع.

قالت:

- مندهشة أنك انتظرت حتى أخرج كي تلقبني بهذا.

لوح هكتور ناحية الباب:

- هذا المكان محمي جيدًا، دخوله مستحيل، لا شيء يستطيع المرور ما لم يرد الصبي هذا.

قالت سيليا:

- جيد، إذن فيمكنك البقاء بعيدًا عنه والبقاء بعيدًا عني.

أشار إلى الكتاب في يدها وسألها:

- ماذا تنوين أن تفعلي بهذا.

قالت سيليا:

- لا شيء يخصك.

قال هكتور:

- لا يمكنك أن تتدخلي بعمله.

- أعرف هذا، التدخل هو أحد الأشياء القليلة التي من الواضح أنها ضد القواعد. لا أنوي التدخل في عمله، أنا أنوي التعلم من نظامه كي أتوقف عن مواصلة إدارة الكثير من السيرك.

- نظامه؟ أنظمة **ألكسندر** لا تستحق أن تشغلي بالك بها، ليس لديك فكرة عما تفعلين، لقد بالغت في توقعاتي لقدرتك على هذا التحدي.

- إنها مباراة، أليست كذلك؟ الأمر عن كيف نتعامل مع انعكاس السحر حينما نقدمه في مكان عام، في عالم لا يصدق بهذه الأشياء. إنه اختبار للتحمل والسيطرة وليس للمهارة.

قال هكتور:

- إنه اختبار للقوة، وأنت ضعيفة، أضعف مما تصورتك.

قالت:

- إذن فدعني أخسر. أنا منهكة يا بابا. لا يمكنني فعل هذا أكثر، الأمر ليس كأنك سترفع زجاجة خمر في شماتة حينما يُعلن من هو الفائز.

قال والدها:

- الفائز لا يعلن، المباراة تنتهي لا تُوقف، يفترض أن تكوني فهمت هذا الآن، كنت أذكى من هذا في المعتاد.

حدقت سيليا إليه ولكن في الوقت نفسه أخذت تردد كلماته في ذهنها. جامعة الإجابات الغامضة التي تهرب بها منها طوال السنين. وفجأة ظهر لها الأمر الذي حجب دومًا عنها، مفتاح المجهول قد اتضح.

قالت سيليا:

- المنتصر هو الذي يبقى واقفًا بينما الآخر يعجز عن الاحتمال.

كان اتضاح الأمر له وقع مريع عليها.

- هذا تعميم مخل للأمر لكن أظنه يؤدي الغرض.

التفتت سيليا عائدة إلى شقة ماركو مسندة يدها على الباب.

قال هكتور:

- توقفي عن التظاهر بأنك تحبين هذا الفتى، أنت أعلى من تلك التوافه.

قالت بخفوت:

- أنت مستعد للتضحية بي لأجل هذا؟ أن تدعني أدمر نفسي فقط كي تثبت وجهة نظرك؟ ربطتني بهذه اللعبة وأنت تعرف ما على المحك؟ وتركتني أتصور أن الأمر مجرد تحدٍ للمهارات؟

قال:

- لا تنظري إليّ هكذا، كما لو أنني لست بشريًا.

احتدت قائلة:

- يمكنني النظر من خلالك، ليس الأمر نابعًا من خيالي.

- لم يكن ليحدث أي فارق لو أنني ظللت كما كنت حين بدأ الأمر.

سألته سيليا:

- وماذا سيحدث للسيرك بعد انتهاء المباراة؟

قال:

- السيرك مجرد حلبة، مسرح، استاد مبهرج. يمكنك الاستمرار به بعد الفوز برغم أنه سيفقد غرضه بعد انتهاء اللعبة.

سألته سيليا:

- أفترض أن بقية الأشخاص المتورطين بلا غرض أيضًا؟ مصائرهم تعتمد على الصدفة.

قال هكتور:

- كل فعل له تأثير. هذا جزء من التحدي.

- لماذا تخبرني كل هذا الآن بينما لم تذكره لي من قبل؟

- قبل الآن لم أتخيل أنك ربما تصبحين الخاسر.

قالت سيليا:

- تعني من سيموت.

قال والدها:

- من الناحية التقنية، اللعبة تنتهي حينما يتبقى لاعب واحد، لا توجد طريقة أخرى لإنهائها، يمكنك التخلي عن أي أحلام ضالة في مواصلة العهر مع هذا **التافه** الذي التقطه ألكسندر من مجاري لندن بعدما ينتهي الأمر.

تجاهلت سيليا تعليقه وسألته:

- من الذي بقيَ إذن؟ قلت إن تلميذ ألكسندر فاز في التحدي الأخير، ماذا حدث له؟

أتتها ضحكة متهكمة من الشبح الذي كان هكتور وهو يقول:

- إنها تلوي نفسها في عُقد داخل سيركك الغالي.

اللعب بالنار

الضوء الوحيد في الخيمة يأتي من النار. الألسنة تشع بضوء أبيض مثل نار الساحة.

تمر بآكل نار على منصة مخططة عالية، يحتفظ بشعلات صغيرة تتراقص على أطراف عصيّ طويلة، بينما يستعد لابتلاعهم جميعًا.

على منصة أخرى، امرأة تمسك بسلسلتين طويلتين في نهاية كل منهما كرة نار تأرجحهما في دوائر وأقواس تاركة أثرًا متوهجًا من الضوء الأبيض في طريقيهما، تحركهما بسرعة حتى تبدوان كخيطين من النيران وليستا شعلتين منفردتين على سلسلة طويلة.

مؤدين على عدة منصات يتلاعبون بالمشاعل لتطير عاليًا في الهواء ويقذفونها أحيانًا لبعضهم محدثين شلالات من الشرارات.

في مكان آخر هناك حلقات مشتعلة مثبتة في عدة مستويات يمر خلالها العارضين ذهابًا وإيابًا بسهولة كما لو كانت من المعدن البارد وليست مضرمة بالنار اللاهبة.

الفنانة على هذه المنصة تمسك بشعلات من النار بيديها العاريتين، وتحولهم إلى أشكال من الثعابين والزهور ومختلف الأشكال.

شرارات تعلو من شهب نارية، طيور من اللهب ثم تختفي تتشكل كالمينوتور والعنقاء في يدها.

تبتسم لك وأنت تشاهد اللهب الأبيض في يدها يتحول بحركة من أصابعها إلى قارب، كتاب، وقلب من النار.

تسوكيكو 月子[1]

في الطريق من لندن لميونخ 1 نوفمبر 1901

يمر القطار عبر الريف لا يلفت الأنظار وهو يهدر وينفث سحبًا من الدخان الأسود في الهواء. كانت القاطرة شبه سوداء بالكامل، والعربات التي تجرها أحادية اللون أيضًا. تلك التي بها نوافذ زجاجها مصبوغ ومسود وتلك التي دون نوافذ سوداء كالفحم.

كان صامتًا في حركته، لا يطلق صافرة ولا بوقًا. عجلاته على القضبان دون صرير بل تمضي بنعومة وهدوء، يمر في طريقه لا يلفت الأنظار ولا يتوقف.

من الخارج يبدو كقطار يعمل بالفحم أو شيء مشابه لا يختلف عن غيره من القطارات.

أما الداخل فقصة أخرى.

من الداخل فالقطار وثير مترف دافئ. أغلب عربات المسافرين مفروشة بالسجاد السميك المزخرف، أثاثه مغطى بالقطيفة الحمراء والبنفسجية والكريمية كما لو كان صبغ بالغروب والشفق الذي يحتفظ ببهجة الألوان قبل أن يتلاشى مع منتصف الليل والنجوم.

الممرات مضاءة بفوانيس جانبية يتدلى منها الكريستال الذي يتأرجح مع حركة القطار، كريستال صاف مريح.

بعد مغادرتهم بقليل أخفت سيليا المجلد بتمويهه أمام الأعين وسط كتبها.

كانت قد استبدلت فستانها الملطخ بالدماء بآخر رمادي يلمع بضوء القمر، مزين بأشرطة سوداء وبيضاء وفاحمة. كان واحدًا من المفضلين لدى فريدريك.

كانت الشرائط تتدلى إلى الأسفل وهي تشق طريقها عبر القطار، توقفت أمام الباب الذي يحمل رمزين آسياويين بجانب اسم مكتوب بخط اليد.

أتاها الرد على طرقاتها المهذبة فورًا بالدعوة إلى الدخول.

بينما أغلب القمرات في القطار مبهرجة بالألوان، فإن عربة تسوكيكو محايدة، أرض عارية محاطة بأغطية من الورق وستائر من الحرير الخام وتحمل عطر القشدة والزنجبيل.

كانت تسوكيكو تجلس أرضًا في منتصف الحجرة مرتدية كيمونو أحمر يبدو كقلب دام وسط الحجرة الباهتة. ولم تكن وحدها، كانت إيزوبل راقدة على الأرض مسندة رأسها على حجر تسوكيكو تبكي في صمت.

وقفت سيليا مترددة عند المدخل واستعدت لتغادر وتغلق الباب خلفها وهي تقول:

- لم أقصد المقاطعة.

أشارت إليها تسوكيكو أن تدخل وقالت:

- أنت لا تقاطعينا، ربما تساعدينني في إقناع إيزوبل أنها بحاجة إلى بعض الراحة.

لم ترد سيليا لكن إيزوبل مسحت دموعها ونهضت قائلة:

- شكرًا لك كيكو.

وأخذت تبسط ما تجعد من فستانها بينما ظلت تسوكيكو جالسة في مكانها منتبهة إلى سيليا.

وقفت إيزوبل بجوار سيليا وهي تغادر قائلة:

- أنا آسفة بشأن هر تاسين.

- وأنا أيضًا.

للحظة ظنت سيليا أن إيزوبل ستعانقها، لكن بدلًا من ذلك أومأت قبل أن تغادر وتغلق الباب خلفها.

بعدما غادرت إيزوبل تكلمت تسوكيكو:

- الساعات الأخيرة كانت عسيرة علينا جميعًا.

وقبل أن تشرح لها سيليا سبب مجيئها أضافت:

- أنت بحاجة إلى الشاي.

أجلستها تسوكيكو على حشوة وذهبت في صمت لركن العربة، لتحضر أدوات الشاي من خلف إحدى الستائر الورقية.

لم تكن طقوس الشاي الكاملة التي قدمتها تسوكيكو لها على مر السنوات. لكنها أعدت لهما زوجًا من سلاطين الماتشا الخضراء، كان هذا الشاي الياباني جميلًا ومهدئًا للأعصاب.

حينما جلست تسوكيكو أمامها سألتها سيليا:

- لماذا لم تخبريني؟

ابتسمت تسوكيكو وقالت:

- أخبرك بماذا؟

تنهدت سيليا وهي تتذكر ليني بيرجس وتتساءل، إن كانت أحست بنفس الغيظ وهي تتبادل معها كوبين مختلفين من الشاي في إسطنبول، فكرت في تحطيم كوب تسوكيكو فقط كي ترى رد فعلها.

أشارت تسوكيكو للندبة في إصبعها وسألتها:

- هل جرحت نفسك؟

قالت سيليا:

- لقد تم ربطي لتحدٍّ منذ ثلاثين عامًا.

وارتشفت رشفة من الشاي قبل أن تضيف:

- هل ستريني ندبتك بما أنك رأيت ندبتي؟

ابتسمت تسوكيكو ووضعت شايها على الأرض أمامها ثم أنزلت الكيمونو من على رقبتها.

على مؤخرة رقبتها في فراغ بين سيل من الرموز الموشومة مستقرة في قلب هلال، كانت هناك ندبة باهتة في حجم وشكل خاتم.

قالت تسوكيكو:

- الندبة تعيش أكثر من المباراة كما ترين.

وأعادت الكيمونو كما كان.

قالت سيليا:

- كان واحدًا من خواتم والدي.

لكن تسوكيكو لم تؤكد أو تنفي الأمر.

سألتها:

- كيف شايك؟

ردت سيليا:

- لماذا أنت هنا؟

- وُظِّفت بهلوانة.

وضعت سيليا شايها أرضًا وقالت:

- لست في المزاج المناسب يا تسوكيكو.

- لو أنك اخترت أسئلتك بصورة أفضل فستحصلين على إجابات شافية.

سألتها سيليا:

- لماذا لم تخبريني أبدًا عن معرفتك بالتحدي، وأنك خضته بنفسك من قبل؟

قالت تسوكيكو:

- كان هناك أتفاق ألا أكشف نفسي إلا لو سئلت مباشرة، وقد التزمت بكلمتي.

- لماذا أتيتِ هنا من الأصل؟

- كنت فضولية، لم تقم مباريات مثل هذه منذ الذي شاركت بها. لم أكن أنوي البقاء.

- لماذا بقيت؟

- أعجبني مسيو لوفيفرا، حلبتي كانت أكثر خصوصية، وهذه بدت فريدة، من النادر العثور على أماكن فريدة حقًّا، بقيت كي ألاحظ.

قالت سيليا:

- كنت تراقبيننا؟

أومأت تسوكيكو.

قالت سيليا:

- أخبريني بالمزيد عن اللعبة.

كانت تأمل وقد أصبحت تسوكيكو أكثر صراحة لأسئلتها أن تحصل على رد شاف.

قالت تسوكيكو:

- إن بها أكثر مما تتصورين، حتى أنا لم أفهم القواعد أيضًا في وقتي. الأمر ليس حول ما تسمينه سحرًا فقط، أتظنين أن إضافة خيمة جديدة للسيرك هو حركتك؟ إنها أكثر من ذلك، كل ما تفعلينه، كل لحظة من الليل والنهار هي حركتك. أنت تحملين رقعة الشطرنج معك، إنها ليست محصورة في أقمشة وخطوط الخيام، ولو أنك ومنافسك لا تملكان ترف المربعات المحددة كي تبقيا فيها.

فكرت سيليا في الأمر وهي ترتشف شايها، محاولة استيعاب أن كل شيء حدث في السيرك ومع ماركو هو جزء من اللعبة.

سألتها تسوكيكو:

- هل أحببته؟

وراقبت عينيها المهمومتين مع لمحة من ابتسامة متعاطفة. لكن بالنسبة إلى سيليا كانت تجد دومًا صعوبة في تفسير تعابير تسوكيكو.

تنهدت سيليا وقد بدا لها أنه لا جدوى من الإنكار:

- نعم أحبه.

- هل تعتقدين أنه يحبك؟

لم تجب سيليا فصياغة السؤال ضايقتها. منذ ساعات قليلة كانت واثقة لكنها الآن في هذا الكهف المصنوع من الحرير المعطر فكل ما هو مؤكد وثابت يبدو لها هباء منثورًا يطير مع أبخرة الشاي، وهشًّا كالأوهام.

أكملت تسوكيكو:

- القلب متقلب متبدل. من النادر أن يكون أساسًا صلبًا لأي قرار في أي لعبة.

أغلقت سيليا عينيها كي تقي يديها من الاهتزاز.

استغرق الأمر منها وقتًا أطول مما تحب كي تستعيد سيطرتها.

أكملت تسوكيكو:

- إيزوبل هي الأخرى تصورت أنه يحبها، كانت واثقة، هذا هو سبب مجيئها هنا، كي تساعده.

قالت سيليا:

- إنه يحبني.

خرجت الكلمات من شفتيها أقل قوة مما ترددت في عقلها.

ردت تسوكيكو:

- ربما، إنه بارع في التلاعب، ألم تكذبي من قبل على الناس بنفسك؟ تخبرينهم بما يريدون سماعه؟

لم تعرف سيليا أيهما أسوأ، حقيقة أن اللعبة كي تنتهي يجب أن يموت أحدهما أم احتمالية أنها لا تمثل شيئًا حقيقيًّا له؟ وأنها مجرد قطعة في رقعة تواجهه ينتظر الإيقاع بها وكش ملك.

قالت تسوكيكو:

- إنها مسألة منظور، الفارق بين الشريك والخصم. أنت تأخذين جانبًا والشخص الآخر يكون واحدًا من أو كلا أمرين مختلفين تمامًا. من الصعب معرفة الوجه الحقيقي ولديك أمور أكثر بكثير من خصمك كي تتعاملي معها.

- ألم تكوني كذلك؟

- حلبتي لم تكن بهذه العظمة، تورط بها أشخاص أقل وحركة أقل، دون التحدي داخلها لم يكن هناك ما يحتاج للإنقاذ. أغلبها الآن حديقة شاي على حد علمي. لم أعد لذاك المكان منذ انتهى التحدي.

قالت سيليا:

- يمكن للسيرك أن يستمر بعد... انتهاء هذا التحدي.

قالت تسوكيكو:

- سيكون هذا لطيفًا، قربان لائق بصديقك هر تايسن. ولو أنه سيكون صعبًا وسيحتاج أن يكون مستقلًّا تمامًا عنك وعن خصمك. لقد توليت بنفسك جزءًا كبيرًا من مسؤولية كل هذا. وأنت حيوية لإدارته. لو أنني طعنت قلبك بسكين في هذه اللحظة فسيتحطم هذا القطار فورًا.

أنزلت سيليا كوبها وراقبت الحركة السلسة للقطار وهي تثير موجات هادئة في سطح المشروب. في رأسها أخذت تحسب الوقت الذي تستغرقه كي توقف القطار وكم من الوقت تستطيع أن تبقي قلبها ينبض. ثم خلصت إلى أن الأمر سيعتمد على السكين.

قالت:

- محتمل.

- ولو أنني سأزيل نار الساحة أو حافظها فسيكون هذا مشكلة.

أومأت سيليا.

قالت تسوكيكو:

- أمامك الكثير من العمل الشاق لو أردتِ أن يبقى هذا السيرك عاملًا.

سألتها سيليا:

- أتعرضين المساعدة؟

كانت تأمل في مساعدتها على ترجمة نظام ماركو بما أن لها نفس المدرب.

لكن تسوكيكو هزت رأسها بأدب قائلة:

- لا.

لطفت خشونة الرفض بابتسامة مكملةً:

- إن عجزت عن فعل الأمر بصورة صحيحة فسأتدخل. لقد طال الأمر كثيرًا بالفعل لكني سأمنحك بعض الوقت.

سألتها سيليا:

- كم من الوقت؟

أخذت تسوكيكو رشفة من شايها ثم قالت:

- الوقت شيء لا يمكنني التحكم فيه، سوف نرى.

جلسا في صمت لبعض هذا الوقت الذي لا يمكن التحكم فيه. كانت حركة القطار تهز الستائر الحريرية لتهب عليهما روائح الزنجبيل والقشدة.

سألت سيليا:

- ماذا حدث لمنافسك؟

لم تنظر تسوكيكو نحوها بل خفضت بصرها إلى مشروبها.

قالت:

- منافستي الآن كومة من الرماد في ميدان بطوكيو، ما لم تكن الريح والزمن قد نقلاها بعيدًا.

هروب

كونكورد وبوسطن، 31 أكتوبر 1902

سار بيلي في دوائر حول الحقل الفارغ بعض الوقت قبل أن يقنع نفسه أن السيرك بخير وذهب حقًّا، لم يكن هناك شيء على الإطلاق. ولا حتى ورق عشب مثنية تشير أن هذا المكان كان مشغولًا من قبل.

جلس أرضًا ممسكًا برأسه وقد أحس أنه تائه تمامًا رغم أنه في أرض يعرفها ويلعب بها منذ كان طفلًا.

ثم تذكر أن بوبيت تحدثت عن قطار.

القطار يجب أن يمر ببوسطن كي يصل إلى أي وجهة بعيدة.

ما إن أتته تلك الخاطرة حتى نهض بيلي وجرى بأقصى سرعة نحو المحطة.

لم يجد قطارات حينما وصل هناك لاهثًا متألمًا من أثر الحقيبة على ظهره. كان لديه أمل ما أن قطار السيرك الذي لا يعرف حقًّا إن كان موجودًا أم لا سيكون هناك منتظرًا، بدلًا من ذلك بدت المحطة مهجورة تمامًا لا يوجد بها سوى رجل وامرأة يرتديان معطفين أسودين.

استغرق الأمر من بيلي لحظة كي يدرك أنهما يرتديان وشاحين أحمرين.

سألته المرأة وهي تراه يجري عبر الرصيف:

- أأنت بخير؟

لم يستطع بيلي التعرف إلى لكنتها جيدًا.

قال بيلي وهو يجاهد لكي يتنفس:

- أأنتما هنا لأجل السيرك.

أجاب الرجل بنفس اللكنة المرحة:

- بالفعل، ولو أنه قد غادر كما هو ظاهر لك.

أضافت المرأة:

- وأغلق مبكرًا أيضًا ولو أن هذا ليس بالمستغرب.

سألهما بيلي:

- أتعرفان بوبيت وويجيت؟

قال الرجل:

- من؟

بينما مالت السيدة برأسها كأنها لم تفهم معنى السؤال.

شرح بيلي لهما:

- إنهما توءمان يؤديان عرضًا بالقطط، هما صديقاي.

صاحت السيدة:

- التوءمان وقططهما الرائعة، كيف صادقتهما؟

رد بيلي:

- إنها قصة طويلة.

قالت:

- إذن فلتقصها علينا ونحن ننتظر، ستذهب لبوسطن أيضًا كما أظن؟

قال بيلي:

- لا أعرف، أنا أحاول أن ألحق بالسيرك.

قال الرجل:

- هذا بالضبط ما نفعله، ولو أنه من غير الممكن أن تتبع السيرك حتى تعرف إلى أين سيذهب وهذا قد يستغرق يومًا.

قالت السيدة:

- أتمنى أن يكون هذه المرة في مكان مستطاع.

قال بيلي بنبرة تحمل الشك:

- كيف ستعرف أين سيكون؟

قالت السيدة مبتسمة:

- نحن الحالمون لنا طرقنا. ولكن ما زال علينا الانتظار لفترة ستكون أكثر من كافية لتبادل الحكايات.

كان الرجل يدعى فيكتور وشقيقته لورينا، وهما يقضيان ما يسميانه (عطلة سيرك ممتدة) يتبعان فيها سيرك الأحلام في أي مكان يستطيعان الوصول إليه. عادة ما يفعلان هذا في أوربا فقط لكنهما هذه المرة قررا مطاردته على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي. كانا في كندا قبل المجيء هنا.

قص عليهما بيلي نسخة مختصرة من كيف أصبح صديقًا لبوبيت وويجيت مبتعدًا عن التفاصيل الأكثر ريبة.

ومع اقتراب الفجر لحق بهم حالم آخر، سيدة تدعى إليزابيث كانت تقيم في فندق محلي وستتوجه أيضًا لبوسطن بما أن السيرك قد غادر. لاقت منهما ترحابًا حارًا وبدا ثلاثتهم كأصدقاء قدامى برغم أن لورينا قالت إنهما لم يقابلاها إلا منذ بضعة أيام. وبينما ينتظرون القطار التالي أخرجت إليزابيث بكرة من الصوف الأحمر وإبر غزل.

قدمت لورين لها بيلي بأنه حالم شاب دون وشاح.

قال بيلي:

- لست **حالمًا** حقًا.

لم يكن قد فهم بالكامل معنى هذا المصطلح بعد.

نظرت له إليزابيث من وراء غزلها متفحصة إياه بعيون ضيقة ذكرته بنظرة مدرس صارم برغم أنه يبدو أطول منها. مالت إليه كأنها ستفشي له سرًا وسألته:

- هل تحب سيرك الأحلام؟

دون تردد أجاب:

- نعم.

أضافت:

- أكثر من أي شيء آخر في العالم؟

قال بيلي:

- نعم.

لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام برغم لهجتها الجادة، والتوتر الذي ما زال يجعل قلبه يخفق.

قالت إليزابيث:

- إذن فأنت **حالم** حقًّا مهما كان الزي الذي ترتديه.

حكوا له قصصًا عن السيرك وعن الحالمين الآخرين، وكيف أن تلك الجماعة تتبع السيرك حيثما ذهب وتخبر بقية الحالمين حتى يستطيعوا السفر إلى وجهته. فيكتور ولورينا يتبعانه كلما سنحت لهما الفرصة، إليزابيث تفعل هذا حينما يكون قريبًا من نيويورك وتعد هذه الرحلة بعيدة بالنسبة لها لكنها تحضر إلى نادٍ غير رسمي في المدينة يقيم تجمعًا للحالمين من فترة إلى أخرى حينما يكون السيرك بعيدًا ليظلوا على تواصل والسيرك بعيد.

بعدما أشرقت الشمس وصل القطار وفي الطريق إلى بوسطن استمرت الحكايات بينما تحيك إليزابيث ولورينا، تسند رأسها الناعس إلى ذراعها.

سألته إليزابيث:

- أين ستقيم في بوسطن؟

لم يفكر بيلي في الأمر فقد كان يتبع مسعاه خطوة تلو الأخرى دون أن يشغل نفسه بم قد يحدث عند وصوله.

أجاب:

- لست متأكدًا، على الأرجح سأبقى في المحطة حتى أعرف أين سأذهب تاليًا.

قال فكتور:

- مستحيل، ستبقى معنا. نحجز أغلب طابق كامل في باركر هاوس ويمكنك أن تأخذ غرفة أوجست، فقد عاد إلى نيويورك أمس ولم أبلغ الإدارة بأن لدينا غرفة شاغرة بعد.

حاول بيلي الاعتراض لكن لورينا أوقفته هامسة:

- إنه عنيد جدًّا، ولن يقبل منك رفضًا ما دام قد اتخذ قراره.

وبالفعل دفع بيلي داخل عربتهم ما إن نزلوا من القطار، وأُخذت حقيبته مع متاع إليزابيث ما إن وصلوا إلى الفندق.

سألته لورينا حينما وجدته يحدق مذهولًا إلى بهو الفندق المزدحم:

- أهناك خطب ما؟

همس لها بيلي:

- أشعر أنني مثل أميرات القصص الخيالية، تلك الواحدة التي لم يكن لديها حتى حذاء وذهبت إلى حفل في القلعة.

انفجرت ضاحكة ضحكة مجلجلة حتى إن العديد من الزوار نظروا نحوهم.

اقتيد بيلي إلى حجرة حجمها نصف حجم منزله بالكامل، لكنه عجز عن النوم برغم الستائر الثقيلة التي تحجب ضوء النهار. أخذ يروح ويجيء في الغرفة حتى خشي أن يتلف السجاد، ثم جلس عند النافذة يراقب الناس بالأسفل.

أحس براحة حينما سمع طرقات على بابه.

سأل فكتور قبل أن يفتح الأخير فمه:

- هل استطعت معرفة أين السيرك؟

رد:

- ليس بعد يا فتاي العزيز، أحيانًا كانت تصلنا أخبار مبكرة عن وجهته التالية ولكن لم يحدث هذا مؤخرًا، أعتقد انه ستصلنا أخبار بنهاية اليوم. ولو كان الحظ في صالحنا فسنغادر في الصباح الباكر، هل لديك بدلة؟

قال بيلي:

- ليست معي.

متذكرًا الحلة الموضوعة في صندوق بمنزله ولا يتم إخراجها إلا في مناسبات خاصة. على الأرجح لقد صغرت عليه ولم يستطع أن يتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي أتت مناسبة لارتدائها.

قال فكتور:

- إذن فسنحصل لك على واحدة.

كان يتكلم ببساطة كما لو كان الأمر بسهولة شراء صحيفة.

التقيا بلورينا في البهو وأخذاه معهما للمدينة في عدد من الجولات تتضمن التوقف عند خياط للحصول على بدلة له.

قالت لورينا وهي تنظر إلى العينات:

- كلا كلا، إنها خاطئة تمامًا للونه، يحتاج لونًا رماديًّا، رماديًّا داكنًا أنيق.

بعد الكثير من الدبابيس والمقاييس وجد بيلي لديه حلة أجمل من أي زي امتلكه في حياته. أفضل حتى من أفخر حلل والده. كانت بلون رصاصي ورغم اعتراضه فقد أضاف إليها فكتور حذاء لامعًا وقبعة جديدة.

كان انعكاسه في المرآة مختلفًا تمامًا حتى إن من يعرف بيلي منذ فترة من الصعب أن يتعرف إليه الآن.

عادوا إلى باركر هاوس يجرون الكثير من المشتريات، لم يبقوا كثيرًا في غرفهم قبل أن تأتي إليزابيث وتأخذهم إلى العشاء.

وكانت المفاجأة لبيلي أن وجد بانتظارهم ثُلةٌ من الحالمين ينتظرون في المطعم بالأسفل، بعضهم ممن سيتبعون السيرك والبعض الآخر ممن سيبقون في بوسطن. أحس بالتوتر من فخامة المطعم لكن لباقة وبساطة الجمع أزالا توتره. وكما هو متوقع كانوا جميعًا يرتدون الأسود والأبيض والرمادي مع لمسات حادة من الأحمر على أربطة العنق أو المناديل.

وحينما أدركت لورينا أن بيلي لا يحمل لمسة حمراء، قامت فجأة بأخذ ورد من باقة زهور وثبتتها في ياقته.

حُكيت قصص لا تنتهي عن السيرك طوال العشاء، وحكوا عن خيم لم يسبق لبيلي أن رآها وبلاد لم يسمع عنها. في أغلب الوقت اكتفى بيلي بالاستماع، مبهورًا بلقائه مع جمع يحبون السيرك بنفس الدرجة التي يحبه بها.

سأل بيلي بخفوت بعدما انقسم الحديث على المائدة إلى عدة محادثات جانبية:

- هل تظنون... هل تظنون أن هناك خطبًا ما بالسيرك؟ أعني مؤخرًا؟

حدق فكتور ولورينا إلى بعضهما كما لو كانا يترقبان من منهما سيرد، ولكن كانت إليزابيث هي من تكلمت أولًا:

- لم يعد كما كان منذ وفاة هر تايسن.

أومأت لورينا بالإيجاب بينما تجهم شقيقها فجأة.

سأل بيلي:

- من هو هر تايسن؟

بدا ثلاثتهم مندهشين من جهله وقالت إليزابيث:

- فريدريك تايسن، كان الحالم الأول. كان صانع ساعات وهو الذي صنع الساعة عند المدخل.

سأل بيلي:

- هذه الساعة صنعت على يد واحد من خارج السيرك حقًّا؟

لم يفكر في سؤال بوبيت أو وجيت عنها من قبل، لقد افترض أنها شيء ولد داخل السيرك.

أومأت إليزابيث بالإيجاب.

قال فكتور:

- كان كاتبًا كذلك، وهكذا قابلناه، منذ سنوات بعيدة، قرأنا مقالات كتبها عن السيرك وأرسلنا له خطابًا ورد علينا وهكذا. كان هذا حتى من قبل أن نسمي أنفسنا بالحالمين.

قالت لورينا بحزن:

- صنع لي ساعة تشبه دوامة الخيل، بكائنات صغيرة تدور عبر سحب وتروس فضية. آلية رائعة، أتمنى لو أستطيع حملها معي أينما ذهبت ولو أنه من الجميل أن يبقى في بيتي تذكارًا للسيرك.

علقت إليزابيث وهي تبتسم رافعة كأسها:

- سمعت أنه كان في علاقة حب سرية مع الحاوية.

استهزأ فيكتور قائلًا:

- ثرثرة وهراء.

قالت لورينا مفكرة في الأمر:

- كان يبدو دومًا مفتونًا بها في كتاباته.

سأل فيكتور:

- وكيف يمكن ألا يفتن بها أي إنسان؟

فالتفت لورينا ناظرة له بفضول.

سألهم بيلي:

- والسيرك لم يعد كما كان منذ وفاة هر تايسن؟

وأخذ يفكر إن كان للأمر علاقة بما طلبته بوبيت منه.

قالت لورينا:

- بالنسبة إلينا بالطبع لم يعد الأمر كما كان.

ثم صمتت للحظات مفكرة قبل أن تضيف:

- السيرك نفسه يبدو مختلفًا قليلًا، لا شيء محدد، فقط شيء...

تدخل فكتور:

- شيء ناشز، كساعة لا يتأرجح بندولها بصورة صحيحة.

لم يستطع بيلي أن يكتم السؤال:

- متى مات؟

قال فكتور:

- في الحقيقة الليلة يكون قد مر عام.

قالت لورينا:

- أوه، لم أدرك هذا.

اقترح فيكتور بصوت عالٍ يسمعه كل من على المائدة:

- نخب لأجل هر تايسن.

ورفع كأسه فارتفعت الكؤوس حول المائدة، وكذلك فعل بيلي.

واستمرت الحكايات عن هر تايسن أثناء تناول الحلوى، لم يقطعها سوى نقاش عن سبب تسمية الكعكة بالفطيرة بينما هي كعكة.

اعتذر فكتور بعدما أنهى قهوته رافضًا المشاركة في نقاش الكعك، وحينما عاد إلى المائدة كان يحمل تلغرافًا في يده.

- سنذهب إلى نيويورك يا أصدقائي.

طريق مسدود

مونتريال، أغسطس 1902

بعدما انحنت الحاوية واختفت أمام عيون جمهورها المدهوش، انفجر تصفيقهم وتحيتهم للفراغ أمامهم. نهضوا من مقاعدهم وغادروا مع رفاقهم، يتبادلون الإعجاب بالخدع وهم يغادرون عبر الباب الذي عاد إلى الظهور في جانب الخيمة المخططة.

رجل واحد يجلس في الدائرة الداخلية ظل في مقعده لم يغادر، كانت عيناه مختفيتين بالحافة المائلة لقبعته المستديرة، ومثبتتين على الفراغ في مركز الدائرة الذي كانت تشغله الحاوية منذ لحظات.

غادر كل الجمهور وبقي الرجل جالسًا.

بعد بضعة دقائق تلاشى الباب ثانية ليلتئم جدار الخيمة، ولم تتغير نظرة الرجل. لم يلق حتى لمحة نحو الباب المختفي.

بعد لحظة كانت سيليا جالسة أمامه على مقعد في الجانب المقابل من الدائرة. ما زالت ترتدي نفس الزي الذي قدمت به عرضها: فستانًا أسود مغطى بشرائط بيضاء رقيقة.

قالت:

- عادة ما تجلس في الخلف.

رد ماركو:

- أردت رؤية أفضل.

- قطعت مسافة طويلة كي تأتي هنا.

- كان يجب أن آخذ عطلة.

خفضت سيليا عينيها نحو يديها.

سألها ماركو:

- لم تتوقعي أن أقطع كل هذا الطريق، أليس كذلك؟

قالت:

- نعم، لم أتوقع.

- كما تعرفين من الصعب الاختباء حينما تسافرين بصحبة سيرك كامل.

قالت سيليا:

- لم أكن أختبئ.

قال ماركو:

- بل كنت تفعلين، حاولت الحديث معك في جنازة هر تايسن لكنك غادرت قبل أن أجدك. ثم أخذت السيرك عبر المحيط. كنت تتجنبينني.

قالت سيليا:

- لم يكن الأمر متعمدًا، كنت بحاجة إلى وقت كي أفكر، شكرًا لك على بِركة الدموع.

- أردت أن يكون لديك مكان آمن كي تبكين فيه ما دمت غير قادر على أن أكون بجوارك.

أغلقت عينيها ولم ترد.

بعد برهة قال ماركو:

- لقد سرقت كتابي.

قالت:

- أنا آسفة.

- مادام هو آمن في مكان ما فلا يهم من الذي يحتفظ به، أنا أم أنت. كان يمكنك أن تطلبي، كان يمكنك أن تودعيني.

أومأت سيليا قائلة:

- أعرف.

لم ينطق أحدهما بكلمة لبعض الوقت.

قالت سيليا:

- أحاول أن أجعل السيرك مستقلًا، أن أفصله عن التحدي. عنا. عني. أحتاج لتعلم منظومتك كي أقوم بهذا بطريقة صحيحة. لا يمكنني أن أدع مكانًا بهذه الأهمية لكل هؤلاء الناس يذوي. شيء يحمل الروعة والراحة والغموض جميعًا في مكان بلا مثيل. إذا كان لديك شيء كهذا ألن تحاول الحفاظ عليه؟

قال ماركو:

- لدي هذا كلما كنت معك. دعيني أساعدك.

- لا أحتاج مساعدتك.

- لا يمكنك فعل هذا وحدك.

قالت سيليا:

- لدي إيثان باريس وليني بيرجس. لقد وافقا على تولي إدارة الأمور الأساسية. وبقليل من التمرين فبوبيت وويجيت سيستطيعان تولي أمور التلاعب التي لا يقدر عليها إيثان وليني. أنا.... أنا لا أحتاجك.

لم تستطع أن تنظر في عينيه.

قال:

- أنت لا تثقين بي.

قالت سيليا ناظرة أرضًا:

- إيزوبل وثقت بك. شاندرش كذلك، كيف يمكنني أن أصدق أنك صريح معي عكسهما؟ بينما أنا من يجب عليك خداعها.

قال ماركو:

- لم أقل أبدًا لإيزوبل أنني أحبها، كنت صغيرًا وأشعر بوحدة قاتلة وكان يجب ألا أدعها تتصور أنني أكنُّ لها مشاعر أكثر مما أحمل. لكن ما شعرت به نحوها لا يقارن بما أشعره نحوك. هذا ليس تكتيكًا أخدعك به، أتظنينني بهذه القسوة؟

نهضت سيليا من كرسيها قائلة:

- مساء الخير سيد أليسادير.

نهض ماركو دون أن يقترب منها قائلًا:

- انتظري يا سيليا. أنت تحطمين قلبي، قلت لي يومًا إنني أذكرك بوالدك وأنك لا تريدين أن تعاني كما عانت أمك منه، لكنك تفعلين هذا لي. ترحلين عني دومًا. ترحلين تاركة إياي في شوق لك مرة تلو الأخرى بينما سأهب أي شيء لك كي تبقين، هذا يقتلني.

قالت سيليا بخفوت:

- هذا يجب أن يقتل أحدنا.

سألها ماركو:

- ماذا؟

قالت سيليا:

- الذي ينجو هو الفائز. المنتصر يعيش والمهزوم يموت. هكذا تنتهي اللعبة.

- هذا ...

توقف ماركو وهز رأسه قبل أن يكمل:

- لا يمكن أن يكون هذا هو المقصد من الأمر.

قالت سيليا:

- بل هو كذلك، إنه اختبار للتحمل وليس المهارة. وأنوي أن أجعل السيرك مستقلًا قبل أن...

لم تستطع نطق الكلمات، بالكاد تستطيع النظر نحوه.

قال ماركو:

- ستفعلين ما فعله والدك، ستزيلين نفسك من الرقعة.

قالت:

- ليس بالضبط، أظن أنني بنت أمها أكثر من أبيها.

قال ماركو:

- كلا، لا يمكن أن تنوي هذا.

- إنها الطريقة الوحيدة لإيقاف اللعبة.

- إذن فلنستمر في اللعب.

قالت:

- لا أستطيع، لا أستطيع الصمود. كل ليلة يزداد الأمر صعوبة وأنا... أنا يجب أن أتركك تفوز.

قال ماركو:

- أنا لا أريد **الفوز**، أنا أريدك **أنت**، حقًّا يا سيليا. ألا تفهمين هذا؟

لم تستطع سيليا أن تتكلم ولكن دموعها بدأت تنزل على خديها، ولم تحاول إخفاءها.

سألها ماركو:

- كيف يمكن أن تتصوري أنني لا أحبك؟ سيليا أنت كل شيء بالنسبة إليّ، لا أعرف من الذي يحاول أن يقنعك بغير ذلك، لكن يجب أن تصدقينني، أرجوك.

لم تفعل سوى النظر إليه بعينين غارقتين في الدموع، كانت المرة الأولى التي تبقي نظرها عليه.

قال:

- هذا حين عرفت أنني أحبك.

كان يقفان متواجهين في حجرة صغيرة مستديرة ذات لون أزرق ومرصعة بالنجوم، على إفريز يحيط بأرضية من الوسائد المزدانة بالجواهر.

وثريا لامعة فوقهما.

قال ماركو:

- لقد فتنت بك منذ رأيتك أول مرة، لكن هذه هي اللحظة التي عرفت فيها الأمر.

تغيرت الحجرة حولهما ثانية لتصبح قاعة رقص متسعة خاوية، وضوء القمر يتخلل من نوافذها.

قالت سيليا بصوت هامس تردد صداه عبر الحجرة:

- وهذا حينما عرفت أنا.

قطع ماركو المسافة بينهما ومال إليها، ليمسح دموعها بقبلاته قبل أن تتلاقى شفاههما.

وبينما يقبلها، إذ ازدادت نار الساحة توهجًا، لاعبو الأكروبات سطعوا في ضوئها وهم يدورون، تلألأ السيرك بأكمله ليذهل كل زواره.

ثم انكسر التلاقي العذب حينما جفلت سيليا مبتعدة.

قالت:

- أنا آسفة.

رفض ماركو أن يتركها وظلت أصابعه قابضة على طرف فستانها:

- أرجوك، أرجوك لا تهجريني.

قالت:

- لقد فات الوقت، لقد فات منذ وصلت إلى لندن وحولت مذكرتك إلى بجعة، لقد تورط الكثيرون في الأمر، كل ما يفعله أي منا يؤثر عليهم جميعًا، على كل زائر يعبر تلك البوابة، مئات إن لم يكن آلاف الناس جميعهم ذباب في شبكة عنكبوت نسجت وعمري ستة أعوام والآن بالكاد أستطيع أن أتحرك خشية أن أفقد شخصًا آخر.

رفعت عينيها له وربتت بيدها على خديه سائلة:

- هل تفعل شيئًا لأجلي؟

قال ماركو:

- أي شيء.

قالت بصوت كسير:

- لا تعد.

واختفت قبل أن يعترض، تمامًا كما تفعل بسهولة وجلال في نهاية عروضها. تلاشى فستانها بين أصابعه ولم يبق سوى عطرها في المكان الذي كانت تشغله منذ لحظات.

وقف ماركو وحيدًا في خيمة فارغة ليس بها سوى حلقتين من الكراسي وباب مفتوح ينتظره أن يذهب.

قبل أن يرحل أخرج ورقة لعب من جيبه وتركها على مقعدها.

زيارات

سبتمبر 1902

جلست سيليا بوين على مكتب محاطة بأكوام من الكتب. كانت مكتبتها قد امتلأت منذ فترة ولكن بدلًا من أن تجعل حجرتها أكبر بدأت تصنع من الكتب حجرتها. أكوام منها تشكل الطاولات وأخرى معلقة من السقف بجوار أقفاص ذهبية كبيرة تحوي عدة يمامات حية.

كان هناك قفص مستدير آخر موضوع على المائدة بدلًا من أن يعلق بالأعلى يحتوي ساعة خاصة، لا تعطي الوقت فحسب بل أيضًا حركة النجوم وهي تدق بثبات بعد الظهيرة.

وغراب أسود كبير يغفو دون قفص جوار الأعمال الكاملة لشكسبير.

شموع غير متساوية في شمعدانات فضية، تحترق في مجموعات ثلاثية، تحيط بالمكتب في مركز الغرفة. وعلى المكتب نفسه كوب من الشاي الذي يبرد ببطء، ووشاح قد لف في شكل كرة من الصوف الأحمر، وصورة في إطار لصانع ساعات راحل، وبطاقة لعب وحيدة وكتاب مفتوح ممتلئ بالرموز والعلامات والتوقيعات المأخوذة من أوراق أخرى.

جلست سيليا ومعها مذكرة وقلم. تحاول فهم النظام الذي كتب به الكتاب. حاولت أن تتخيل الطريقة التي سيكتب بها ماركو وتصورته وهو يخط كل صفحة ليحولها إلى فرع في شجرة الحبر التي تمتد عبر الكتاب.

قرأت كل توقيع مرارًا وتكرارًا متحرية كيف حُفظت كل خصلة شعر ملصقة ومحللة كل رمز حولها.

كانت قد قضت من الوقت في تكرار العملية ما يكفي كي تعيد إنشاء الكتاب من الذاكرة، ورغم ذلك عجزت عن فهم كيف يعمل الأمر.

اضطرب الغراب ونعق بشيء ما وسط الظلال.

قالت سيليا دون أن تنظر:

- أنت تزعج هاجين.

أبرز ضوء الشموع حافات طيف والدها فحسب وهو يحوم مقتربًا. فأظهر ثنايا معطفه وياقة قميصه وخلق وميضًا في فراغ عينيه المظلمتين.

قال وهو ينظر إلى الغراب المتوتر:

- يجب أن تحصلي على آخر، مانين كي تكملي الزوج.

قالت سيليا:

- أنا أفضل التفكير عن التذكير يا بابا[1].

اكتفى بالزمجرة:

- همممف.

---

(1) *هاجين ومانين زوج من الغربان في الأساطير النوردية يجلبان الأخبار لأودين. هاجين يعني فكرة ومانين يعني ذكرى.*

تجاهلته سيليا وهو يميل من وراء كتفها يراقبها وهي تقلب الصفحات المكتوبة.

قال:

- أي عبث شنيع فوضوي هذا.

قالت سيليا وهي تنسخ سطرًا من الرموز في مذكرتها:

- لغة تعجز عنِ التكلم بها ليس بالضرورة عبثًا شنيعًا فوضويًّا.

قال هكتور وهو يطفو نحو الجانب الآخر من المكتب كي يرى بصور أفضل:

- هذا عمل رديء، روابط وتعاويذ، كما هي دومًا طريقة ألكسندر. فائقة التعقيد وخفية.

- ورغم ذلك فأي شخص يدرسها كفاية يستطيع تنفيذها. على العكس تمامًا من كل محاضراتك لي عن كم أنا مميزة.

قال:

- أنت مميزة، أنت أرقى من هذا.

ملوحًا نحو الصفحات وكومة الكتب مكملًا:

- هذا يستخدم الأدوات والمجسمات، لديك أكثر من هذا بكثير كي تحققيه بموهبتك، والكثير جدًّا كي تستكشفينه.

- هناك الكثير من الأشياء في السماء والأرض يا هوراشيو، أكثر مما حلمت في فلسفتك.

- أرجوك لا تقتبسي من شكسبير.

- أنا مطاردة بشبح أبي، يحق لي أن أقتبس من هاملت كما أريد، كنت تعشق شكسبير في الماضي يا بروسبيرو.

- أنت أكثر ذكاء من هذا التصرف، كنت أتوقع منك ما هو أفضل.

- أعتذر أنني لم أبلغ توقعاتك الخارقة السخيفة يا بابا، أليس لديك شخص آخر لتضايقه.

- ليس هناك سوى قلة أستطيع في حالتي هذه محادثتها. ألكسندر ممل لدرجة قاتلة كالعادة، شاندرش كان مشوقًا لكن هذا الصبي غير ذاكرته عشرات المرات فأصبحت كأنني أحدث نفسي، ولو أنه يظل لطيفًا على سبيل التغيير.

سألته سيليا:

- أتتحدث مع شاندرش؟

قال:

- أحيانًا.

وهو يتفحص عمل الساعة من الداخل.

- أأخبرت شاندرش أن ألكسندر سيكون في السيرك تلك الليلة؟ أنت من أرسله هناك؟

- لقد قدمت اقتراحًا لسكير، السكارى سهلو التأثر بالاقتراحات، ويقبلون بلطف الحديث مع الموتى.

قالت سيليا:

- لا بد أنك عرفت أنه لا يمكن أن يضمر شرًّا لألكسندر.

كانت تحاول إيجاد تفسير فلم يبد لها الأمر مفهومًا، ولو أن أغلب تصرفات والدها لا تبدو مفهومة.

- ظننت أن الرجل العجوز سيستفيد بطعنة في الظهر على سبيل التغيير، تلميذه هذا كان عمليًّا يصرخ كي يفعلها بنفسه. كان يريد

هذا بشدة لدرجة أن الفكرة كانت بالفعل في رأس شاندرش، كل هذا الغضب تسلل لـ لا وعيه عبر التعرض له مرارًا وتكرارًا. لم أكن بحاجة لفعل ما هو أكثر من دفعة في الاتجاه الصحيح.

قالت سيليا وهي تضع قلمها:

- ألم تقل إن هناك قاعدة عن التدخل؟

أوضح والدها:

- التدخل بشأنك أو بشأن خصمك. يمكنني أن أتدخل مع أي شخص آخر كما أحب.

- إن تدخلك تسبب في **مقتل** فريدريك!

قال هكتور:

- هناك صانعو ساعات غيره في العالم. يمكنك العثور على أحدهم لو احتجت إلى ميقات جديد.

كانت يدا سيليا ترتعشان حين التقطت كتابًا من كومة أعمال شكسبير وقذفته نحوه، عبرت مسرحي (كما تحبها) من صدره دون عائق لتصدم جدار الخيمة وراءه وتقع أرضًا. نعق الغراب مرفرفًا ناثرًا ريشه.

بدأت الأقفاص حول اليمام والساعة ترتج، والزجاج على إطار الصورة تشقق.

قالت سيليا من بين أسنانها:

- اذهب بعيدًا يا بابا.

قال:

- لا يمكنك أن تستمري في إبعادي.

ولت سيليا انتباهها إلى الشموع على الشمعدان مركزة على لهب واحد متراقص.

أكمل هكتور:

- تتصورين أنك تبنين روابط إنسانية مع أولئك الناس؟ تتصورين أنك تعنين أي شيء لهم؟ كلهم سيموتون في النهاية، أنت تدعين مشاعرك تقهر قوتك.

قالت سيليا:

- أنت جبان، كلاكما جبان، تتواجهان عبر وسائط لأن كليكما يخشى أن يتحدى الآخر مباشرة. تخافان من أن يأتي الفشل فلا يجد أحدكما سوى نفسه كي يلومها.

احتج هكتور:

- هذا ليس صحيحًا.

قالت سيليا:

- أنا أكرهك.

زاد تركيزها على لهب الشمعة فارتجف طيف والدها واختفى.

*****

لم يكن هناك ثلج على نافذة شقة ماركو هذه المرة لذا فقد كتب سطورًا من الرموز في شكل حرف A بالحبر عليها، ضاغطًا بأصابعه الملطخة في مواجهة الزجاج. كان الحبر يسيل من فوقه كالمطر.

ظل يحدق إلى الباب. ويلف الخاتم الفضي حول إصبعه في دوائر متوترة حتى أتت الدقات في الصباح المبكر لليوم التالي.

لم يلمه الرجل ذو البدلة الرمادية لاستدعائه. وقف خارج الباب ويده على عصاه منتظرًا ماركو كي يتكلم.

قال ماركو:

- إنها تظن أن على أحدنا أن يموت كي تنتهي اللعبة.

- إنها على حق.

كان هذا التأكيد أشد وقعًا عليه مما تصور، تلك الشرارة الضئيلة من الأمل أنها مخطئة قد سحقت بثلاث كلمات بسيطة.

قال:

- إذن فالفوز أسوأ من الهزيمة.

رد مدربه:

- لقد أعلمتك أن مشاعرك تجاه الآنسة بوين ستجعل التحدي أكثر صعوبة لك.

سأله ماركو:

- لماذا فعلت هذا بي؟ لماذا قضيت كل هذا الوقت تدربني لأجل أمر كهذا؟

مر الصمت في انتظار إجابته ثقيلًا:

- ظننت أن هذا خيارًا أفضل من الحياة التي قد تحصل عليها بدلًا من هذا، بغض النظر عن النتائج.

أغلق ماركو الباب وأوصد المزلاج.

رفع الرجل ذو البدلة الرمادية يده كي يدق ثانية لكنه بدلًا من ذلك أنزلها ومشى بعيدًا.

جميل لكن مميت

تتبع صوت الناي لركن مختف، الموسيقى المنومة تقودك نحوها.

هناك على الأرض، في عش من الوسائد المصنوعة من الحرير المخطط، سيدتان. إحداهما تعزف على الناي الذي سمعته. وكرة من البخور المشتعل بينهما عند سلة كبيرة سوداء مغطاة.

يجتمع جمهور صغير والمرأة الأخرى ترفع بحذر غطاء السلة قبل أن تأخذ نايها الخاص وتنضم إلى عزف زميلتها.

ثعبانا كوبرا بيضاوان يلتفان حول بعضهما وهما يخرجان من السلة. في توقيت مثالي مع الموسيقى، يبدوان لوهلة كأنهما أفعى واحدة وليستا اثنتين. لكنهما تنفصلان ثانية يتحركان إلى الأسفل على جانبي السلة، يزحفان أرضًا حتى يقتربان من قدميك.

الثعبانان يتحركان جيئة وذهابًا في حركة تشبه لدرجة مدهشة الرقص الكلاسيكي، عظيم وراقٍ.

تسارع إيقاع الموسيقى، وترى الآن حركة أكثر خشونة للثعبانين. رقصة فالس تتحول إلى معركة. يلتف كلٌّ منهما حول الآخر وتراقب منتظرًا أن يهاجم أحدهما الآخر.

فح أحدهما بصوت خفيض ورد الثاني عليه بالمثل. ظلا يدوران في دوائر مع الموسيقى والبخور يعلو إلى السماء المرصعة بالنجوم فوقك.

لا تستطيع أن تعرف أيًّا من الثعبانين سيهاجم أولًا، ففي النهاية هما متماثلان تمامًا. وبينما يزوم كل منهما ويفح على الآخر ويقفز نحو قرينه فأنت مشتت عن هذا بإدراكك حقيقة أنهما لم يعودا بيضاوان ناصعان بل أصبحا أسودين كالأبنوس.

التبصر

في الطريق من بوسطن إلى نيويورك، 31 أكتوبر 1902

كان أغلب ركاب القطار قد استقروا في عرباتهم وقمراتهم يستعدون للنوم أو القراءة أو غيرها من الأنشطة التي يشغلون بها وقت الرحلة. والرواق الذي كان يعج بالناس عند الرحيل، قد أصبح الآن شبه خاوٍ بينما يشق ويجيت وبوبيت طريقهما من عربة إلى أخرى بهدوء كالقطط.

على باب كل قمرة مكتوب اسم بخط اليد، وتوقفا أمام الباب المكتوب عليه س. بوين ورفع ويجيت يده كي يدق برفق على الباب المعتم ليأتيه الإذن من الداخل:

- ادخل.

فأزاحت بوبيت الباب لينفتح.

سألت:

- هل نعطلك عن شيء؟

قالت سيليا:

- لا، ادخلا.

وأغلقت كتاب الرموز الذي كانت تطالعه ووضعته على الطاولة. كانت القمرة بأكملها تبدو كما لو كانت مكتبة منفجرة، أو أكوامًا من الكتب والأوراق على المقاعد المخملية والطاولات الخشبية. كان الضوء داخل الغرفة يتراقص مع حركة القطار الذي يهز كريستال الثريا.

دفع ويجيت الباب خلفهما وأوصده.

سألتهما سيليا:

- أتريدان بعض الشاي؟

قالت بوبيت:

- لا شكرًا.

ونظرت بتوتر إلى ويجيت الذي اكتفى بإيماءة.

تفحصتهما سيليا، كانت بوبيت تعض شفتها وهي تهرب من ملاقاة عيني سيليا بينما يميل ويجيت نحو الباب.

قالت:

- أفصحا ما عندكما.

بدأت بوبيت:

- نحن... لدينا مشكلة.

سألتهما سيليا:

- أي نوع من المشكلات؟

وأزاحت أكوام الكتب كي تفسح لهما مكانًا على الأريكة البنفسجية لكن التوءمين وقفا كما هما.

قالت بوبيت:

- أظن أن شيئًا ما كان يفترض أن يحدث لم يحدث.

سألتها سيليا:

- وما هو؟

- صديقنا بيلي كان يفترض أن يأتي معنا.

قالت سيليا:

- آه، نعم، ويجيت قال شيئًا ما عن هذا، أفترض أنه لم يأتِ؟

قالت بوبيت:

- لا، لقد انتظرناه لكنه لم يأت، وإن كنت لا أعرف هل هذا بسبب أنه لم يرد المجيء أم بسبب أننا رحلنا مبكرًا.

قالت سيليا:

- فهمت، يبدو لي أنه كان قرارًا خطيرًا. أن تقرر أن تهرب وتنضم إلى سيرك أم لا. ربما لم يكن لديه الوقت الكافي كي يفكر بالأمر جيدًا.

قالت بوبيت:

- ولكن يفترض به المجيء. أنا أعرف أنه يفترض به المجيء.

سألتها سيليا:

- أرأيت شيئًا ما؟

- ما يشبه ذلك.

- كيف يكون هناك ما يشبه الرؤيا؟

قالت بوبيت:

- لم يعد الأمر واضحًا كما كان من قبل. لا يمكنني رؤية الأشياء واضحة كما اعتدت وأصبحت لمحات وأجزاء لا تبدو مفهومة. لم يعد هنا شيء مفهوم منذ عام وأنت تعرفين هذا.

قالت سيليا:

- أعتقد أنك تبالغين ولكنني أتفهم كيف يبدو لك الأمر.

علا صوت بوبيت قائلة:

- ليست مبالغة.

بدأت الثريا في الاهتزاز وأغلقت سيليا عينيها آخذة نفسًا عميقًا وانتظرت حتى انتظمت حركتها ثانية قبل أن تتكلم.

- بوبيت، ليس هناك شخص تأثر بما حدث في العام الماضي أكثر مني، ولقد أخبرتك من قبل لم يكن الأمر خطأك ولم يكن هناك شيء يمكن فعله لتجنبه. لا أنت ولا أي شخص آخر. أتفهمين هذا؟

قالت بوبيت:

- نعم، لكن ما فائدة رؤية المستقبل لو عجزت عن فعل شيء ليوقفه؟

قالت سيليا:

- لا يمكنك أن توقفي الأشياء من حدوثها، يمكنك فقط أن تستعدي لها.

تمتمت بوبيت:

- يمكنك أنت إيقافها.

وأدارت نظرها نحو أكوام الكتب. فوضعت سيليا إصبعها تحت ذقن بوبيت وأدارت رأسها لتنظر في عينها.

قالت:

- فقط حفنة من الأشخاص على هذا القطار يعرفون أهميتي في إبقاء السيرك عاملًا. ورغم أنكما منهم وأنكما ماهران حقًّا، فأنتما

لا تدركان أفق ما يحدث هنا ولن تحبا الأمر مطلقًا لو فعلتما. والآن أخبراني، ما هو ما يشبه الرؤيا ذاك؟

أغلقت بوبيت عينيها محاولة التركيز وقالت:

- لا أعرف، كان ساطعًا، كل شيء يشتعل، وبيلي كان هناك.

قالت سيليا:

- عليك أن تقدمي ما هو أكثر من ذلك.

قالت بوبيت:

- لا أستطيع، لم أر شيئًا ما بوضوح من قبل أن...

- وهذا على الأرجح لأنك لا تريدين أن تَري أي شيء واضح بعدما حدث. ولا يمكنني أن ألومك، لكن إن كنت تريدين مني أن أمنع أيًّا ما كان هذا فسأحتاج مزيدًا من المعلومات.

ثم فكت السلسلة الفضية الطويلة التي على عنقها ونظرت للوقت في السعة المعلقة بها، وأمسكتها أمام عيني بوبيت.

وقالت:

- بوبيت أرجوك، أنت لست بحاجة للنجوم كي تفعلي هذا، فقط أن تركزي، حتى لو لم تريدي.

تجهمت بوبيت. ثم أولت تركيزها للسلسلة المتدلية أمامها وهي تتأرجح في الضوء الدافئ.

ضاقت عيناها محددة الانعكاس على انحناء الساعة ثم ارتختا وهما ينظران لشيء وراء الساعة ووراء القطار.

بدأت تتمايل وعينها تنغلقان وسقطت إلى الخلف فقفز ويجيت ليمسكها قبل أن تصطدم بالأرض.

ساعدته سيليا كي ينقلا بوبيت إلى أحد المقاعد المخملية جوار الطاولة، بينما جوارهم كوب من الشاي يعد نفسه، يغلي وينقع لحظيًّا في فنجان من الصيني الزهري.

فتحت بوبي عيناها وهي تنظر للثريا كأنما تراها للمرة الأولى. ثم التفت إلى سيليا كي تقبل منها فنجان الشاي.

قالت بوبيت:

- هذا موجع.

قالت سيليا:

- آسفة يا غاليتي، أظن أن بصيرتك تزداد قوة، وهو ما يجعل الأمر أكثر تعقيدًا عندما تحاولين كبتها.

أومأت بوبيت وهي تفرك صدغيها.

قالت سيليا:

- والآن أخبريني كل ما رأيته. كل شيء، لا يهمني إن كان له معنى أم لا. حاولي وصفه.

تأملت بوبيت شايها قبل أن تبدأ.

قالت:

- هناك حريق، بدأ من نار الساحة، ولكن... أكبر. لم يعد هناك ما يحتويه. كما لو كانت الساحة بأكملها مشتعلة، وهناك ضجة عالية وسخونة و...

توقفت للحظة وأغلقت عينيها محاولة التركيز على الصورة في رأسها قبل أن تفتح عينيها ثانية ناظرة لسيليا وقالت:

- كنت هناك، كنت مع شخص آخر وأظنها كانت تمطر، ثم لم تعودي هناك لكنك هناك. لا يمكنني التفسير. ثم كان بيلي هناك، ليس أثناء النار وإنما بعدها فيما أعتقد.

سألته سيليا:

- وما شكل هذا الشخص الآخر؟

- رجل، طويل يرتدي بدلة وقبعة مستديرة. أظن... من الصعب المعرفة.

أسندت سيليا رأسها بين يديها للحظات قبل أن تتكلم.

- إن كان هذا من أظنه، فأنا واثقة أنه حاليًّا في لندن الآن. لذا فربما الأمر ليس وشيكًا كما تظنين.

اعترضت بوبيت:

- لكنه كذلك، أنا واثقة.

- لم يكن التوقيت أبدًا من نقاط قوتك. لقد قلت بنفسك إن صديقك هذا كان حاضرًا وقت الحادث. وكانت شكواك الأولى أنه ليس هنا الآن، هذا ربما يحدث بعد أسابيع أو شهور أو سنوات يا بيت.

أنزلت بوبيت كوبها على المنضدة بعنف قائلة:

- لكن يجب أن **نفعل** شيئًا.

توقف الشاي قبل أن ينسكب على كتاب مفتوح كما لو كان اعترضه جدار خفي.

أكملت بوبيت:

- أن نستعد كما تقولين.

- سأفعل ما أستطيع كي لا يتحول السيرك إلى دخان. سأجعل أغلبه مقاومًا للنار قدر استطاعتي. هل يكفي هذا الآن؟

بعد دقيقة من الصمت أومأت بوبيت.

قالت سيليا:

- حسنًا، سننزل من القطار خلال ساعات، يمكننا أن نناقش هذا فيما بعد.

- انتظري.

كان هذا ويجيت الذي كان يجلس بالخلف على أحد المقاعد، مبقيًا نفسه خارج الحديث، لكنه الآن التفت إلى سيليا قائلًا:

- لدي سؤال لك قبل أن تطردينا.

سألته:

- وما هو؟

قال:

- لقد قلت إننا لا ندرك أفق ما يحدث هنا.

قالت:

- ربما لم اختر الوصف الأفضل للأمر.

سألها ويجيت:

- إنها لعبة، أليست كذلك؟

نظرت سيليا إليه بحزن متصنعة ببطء ابتسامة بين شفتيها وقالت:

- استغرق الأمر منك ستة عشر عامًا كي تفهم هذا، كنت أتوقع ما هو أكثر منك يا ويجي.

قال:

- لقد خمنت هذا منذ فترة، ليس من السهل رؤية الأمور التي لا تريدينني أن أراها، لكنني التقطت بعض الشذرات مؤخرًا فلم تكن حمايتك قوية كالمعتاد.

تدخلت بوبيت وهي تنقل نظرها بين أخيها وسيليا متسائلة:

- لعبة؟

قال ويجيت:

- مثل الشطرنج والسيرك هو الرقعة.

قالت سيليا:

- ليس بالضبط، الأمر ليس صريحًا مثل الشطرنج.

سألت بوبيت:

- كلنا نشارك في لعبة؟

قال ويجيت:

- ليس نحن. لعبتها هي وشخص آخر، بقيتنا ماذا؟ قطع إضافية؟

قالت سيليا:

- الأمر ليس كذلك.

سألها ويجيت:

- إذن فكيف هو؟

كان رد سيليا أن نظرت إليه محدقة مباشرة إلى عينيه بثبات.

بادلها ويجيت التحديق في صمت لبعض الوقت بينما بوبيت تراقبهما بفضول، وفي النهاية أغلق ويجيت عينيه وعلى وجهه أثر المفاجأة، ثم خفض نظره إلى حذائه.

تنهدت سيليا، وخاطبت كليهما:

- إن كنت لا أصارحكما بكل شيء فهذا لأنني أعرف الكثير مما لا تحبان معرفته، سأطلب منكما أن تثقا بي حين أقول إنني أحاول جعل كل شيء أفضل. الأمر مقام على توازن هش جدًّا وبه عوامل كثيرة متداخلة، وأفضل ما يمكننا فعله الآن هو أن نواجه كل شيء في حينه، ولا نشغل أنفسنا بالأمور التي ربما تحدث أو الأشياء التي سوف تأتي فيما بعد. هل اتفقنا؟

أومأ ويجيت وتبعته بوبيت.

قالت سيليا:

- شكرًا لكما، والآن اذهبا وحاولا الحصول على بعض الراحة.

عانقتها بوبيت قبل أن تنسل من الباب عائدة للرواق.

بينما انتظر ويجيت لوهلة وقال لها:

- أنا آسف.

قالت له:

- لا يوجد ما يجعلك تتأسف.

- آسف على كل حال.

قبلها في خدها قبل أن يغادر، دون أن ينتظر منها ردًّا آخر.

سألته بوبيت بعدما لحق بها:

- ما الأمر؟

قال ويجيت:

- لقد تركتني أقرأها، كلها دون أن تخفي أي شيء، لم تفعل هذا من قبل.

ورفض أن يشرح لها أكثر وهما يسيران عبر القطار.

ما إن وصلا إلى عربتهما سألته بوبيت وقطتها البرتقالية تقفز في حجرها:

- ماذا نفعل في رأيك؟

قال ويجيت:

- أظن أننا يجب أن ننتظر، هذا كل ما يمكننا فعله.

*****

بعدما أصبحت وحيدة في حجرتها المزدحمة بالكتب، بدأت سيليا تمزق منديلها إلى شرائط. تسقط شريطًا تلو الآخر في فنجان فارغ وتشعل به النار، كررت هذه العملية مرارًا حتى أصبح القماش يحترق دون أن يتفحم، مصدرًا فحسب ضوء أبيض ساطعًا وسط اللهب.

مطاردة

في الطريق من بوسطن إلى نيويورك 1 نوفمبر 1902

كان صباحًا باردًا ومعطف بيلي الذي بهت لونه الرمادي لم يعد لائقًا مع بدلته الرصاصية الأنيقة، ولا يبدو له أن درجتي اللون يتماشيان مع بعضهما. لكن زحام الطرق والمحطة لم يترك له فرصة للتفكير في مظهره.

كان هناك حالمون آخرون يتجهون إلى نيويورك، لكنهم أخذوا قطارًا تاليًا، لذا كان هناك مزيج من الوداع والارتباك في فصل الحقائب الكثيرة قبل أن يتحركوا.

كانت الرحلة بطيئة، وقد جلس بيلي يحدق عبر النافذة إلى المشاهد المتغيرة وهو يضغط بلا وعي على أظفاره.

جلس فيكتور بجواره ومعه كتاب مغلف بجلد أحمر.

ناوله الكتاب قائلًا:

- فكرت أنك ستحب بعض القراءة لتمضية وقت الرحلة.

أمسك بيلي بالكتاب وفتحه كي يقرأ عنوانه، لكنه فوجئ أنه ألبوم جمع القصاصات، أغلب صفحاته مشغولة بمقالات قُصّت من الصحف.

ولكن هناك أيضًا بعض الخطابات بخط اليد، تواريخها تتراوح بين بضع سنوات وأكثر من عقد مضى.

شرح له فكتور:

- ليست كلها بالإنجليزية، لكن ستستطيع قراءة معظم المقالات على الأرجح.

قال بيلي:

- شكرًا لك.

أومأ فكتور قبل أن يعود إلى مقعده في الجهة الأخرى من العربة.

وبينما القطار يهدر نسيَ بيلي مشاهد السفر وبدأ يلتهم كلمات هر فريدريك مرارًا وتكرارًا، كان يشعر أنها آسرة وقريبة منه.

سمع لورينا تقول لشقيقها:

- لم أرك تبدي مثل هذا الاهتمام المفاجئ بحالم جديد من قبل، على الأقل ليس لدرجة أن تعيره كتابك.

كان رد فكتور الوحيد:

- إنه يذكرني بفريدريك.

كانوا قد أوشكوا على الوصول لنيويورك حينما احتلت إليزابيث المقعد المقابل له، وضع بيلي علامة حيث توقف في منتصف مقال يقارن بين التلاعب بالضوء وبالظل في خيمة معينة مخصصة لفن عرائس إندونيسي قبل أن يترك الكتاب.

قالت إليزابيث بخفوت وهي تنظر عبر النافذة:

- نحن نمضي في حياة عجيبة نطارد أحلامنا من مكان إلى مكان. لم أر أبدًا حالمًا في مقتبل الشباب يمتلك نفس المشاعر الصافية

القوية نحو السيرك مثلنا نحن الذين نتبعه منذ سنوات. أريد منك أن تحصل على هذا.

وأعطته وشاحًا من الصوف الأحمر. هذا الوشاح الذي كانت دومًا تنسجه، وكان أطول مما توقع ونهاية كل طرف مشغولة بجدائل معقودة.

قال بيلي:

- لا يمكنني قبول هذا.

كان جزءًا منه يشعر بالامتنان العميق، والجزء الثاني يتمنى لو يتوقف الناس عن وهبه الأشياء.

ردت إليزابيث:

- كلام فارغ، أنا أصنعهم طوال الوقت، وليس لدي نقص في الصوف، لقد بدأت في هذا دون أن يكون في ذهني حالمٌ محدد أهديها إليه لذا فمن الواضح أنه مقدر لك.

قال لها بيلي:

- شكرًا لك.

وارتدى الوشاح على عنقه برغم دفء القطار.

قالت إليزابيث:

- العفو، سنصل قريبًا، وحينها لن يكون أمامنا سوى انتظار الغروب.

ثم تركته ليعود وحيدًا في مقعده المجاور للنافذة، ليتأمل منها السماء الرمادية بمزيج من الارتياح والتوتر والحماس لا يمكنه تهدئته.

حينما وصلوا إلى نيويورك أحس بيلي بالصدمة من غرابة كل ما حوله. فبرغم أنها لا تختلف كثيرًا عن بوسطن، لكن بوسطن مألوفة لديه

بعض الشيء، والآن بعدما ابتعد عن محطة القطار أحس بمدى بعده عن وطنه الآن.

كان فيكتور ولورينا مرتبكين مثله أما إليزابيث فقد كانت في أرضها. لذا فقد قادتهم عبر التقاطعات وجرتهم بين عربات الشوارع حتى بدأ بيلي يشعر أنه مثل أغنامه. لكن لم يستغرق الأمر طويلًا حتى وصلوا إلى وجهتهم. مكان خارج حدود المدينة؛ حيث التقوا مع حالم آخر من المنطقة يدعى أوجست. نفس الحالم الذي حل بيلي في غرفته ببوسطن. وقد قدم إليهم دعوة كريمة بالبقاء في بيته حتى يستطيعوا العثور على غرف في مكان آخر.

بدا أوجست رجلًا بدينًا مرحًا، وكان انطباع بيلي الأول عنه أنه يشبه منزله: منزل قصير واسع على واجهته شرفة ودودة مرحبة. حينما حيا إليزابيث كاد أن يرفعها من فوق الأرض وهو يهز يدها بحماس، وحينما التفت إلى بيلي ليتعرف إليه تألمت أصابع الأخير بعدها.

قال أوجست وهو يساعدهم في حمل حقائبهم:

- لدي أخبار جيدة وأخرى سيئة. أيهما تريدون أولًا؟

قبل أن يفكر بيلي فيما يفضل أجابت إليزابيث:

- الجيدة. لقد سافرنا مسافة طويلة فلا تستقبلنا بأخبار سيئة.

قال أوجست:

- الأخبار الجيدة هي أنني كنت مصيبًا في تخمين المكان الذي سيقام فيه السيرك على بعد أقل من ميل. يمكنكم رؤية الخيام من الشرفة لو ملتم عند نهايتها بالزاوية الصحيحة.

وأشار من حيث يقف فوق السلالم إلى الجانب الأيسر للشرفة.

هرع بيلي للشرفة ولورينا وراءه، كانت قمم الخيام ظاهرة من وراء الأشجار عن بعد، مجموعة من القمم البيضاء الناصعة بين السماء الرمادية والأشجار البنية.

قالت إليزابيث وهي تضحك على بيلي ولورينا وهما يميلان فوق الحاجز:

- رائع، إذن فما الأخبار السيئة؟

قال أوجست وقد بدا أنه لا يعرف كيف يشرح الأمر:

- لست متأكدًا أنها أخبار سيئة بالفعل، ربما محبطة، عن السيرك.

مال بيلي إلى الحاجز نحوهم كي ينضم مجددًا للحديث وقد تبخرت كل تلك النشوة التي كانت تغمره منذ لحظات.

سأل فكتور:

- محبطة؟

قال أوجست:

- حسنًا، الطقس ليس مثاليًّا، كما لا بد أنكم لاحظتم...

وأشار نحو السحب الثقيلة الرمادية.

- كان لدينا عاصفة قوية ليلة أمس والسيرك كان مغلقًا بالطبع، وهي بداية غريبة لم تمر عليَّ مطلقًا، لم أره من قبل مطلقًا ينصب كي يغلق في أول ليلة لوصوله لسوء الطقس. ورغم ذلك كان هناك ما يبدو، لا أعرف ما أسميها بالضبط، لنقل بعض الضجة عند منتصف الليل. أصوات اصطدام كادت أن ترج المنزل وتصورت أن شيئًا ما قد أصابته صاعقة. كان هناك الكثير من الدخان فوق السيرك وأحد الجيران أقسم أنه رأى وميضًا ساطعًا كالنهار.

مشيت نحوه هذا النهار لكن لم يبد لي أي شيء مختلف، برغم من أن لافتة الإغلاق ما زالت معلقة على البوابة.

علقت لورينا:

- يا للعجب!

أما بيلي فدون كلمة قفز من فوق سياج الشرفة وأخذ يجري عبر الأشجار، متجهًا نحو الخيم المخططة بأسرع ما يستطيع، وهو يجر وشاحه الأحمر الطويل خلفه.

أشباح قديمة

لندن 31 أكتوبر 1902

كان الوقت متأخرًا والرصيف مظلمًا رغم أعمدة الإنارة التي تحاذي صف المباني الحجرية الرمادية. وقفت إيزوبل بقرب السلالم المظلمة لما أسمته بيتها ما يقارب العام، منذ دهر بدا كعمر مضى، كانت تنتظر بالخارج عودة ماركو مرتدية شالًا ذا نون أزرق باهت على كتفيها يبدو كجزء من سماء النهار الساطعة وسط الليل.

مرت ساعات قبل أن يظهر ماركو عند الناصية. واشتدت قبضته على حقيبته حينما رآها.

سألها:

- ماذا تفعلين هنا؟ يفترض أن تكوني في الولايات المتحدة؟

قالت:

- لقد تركت السيرك، هجرته، سيليا قالت إن بإمكاني هذا.

أخذت قطعة من الورق من جيبها تحمل اسمها، اسمها الحقيقي الذي استخرجه منها منذ سنوات وطلب منها أن تكتبه في واحد من دفاتره.

قال ماركو:

- بالطبع فعلت.

قبضت على طرفي شالها وسألته:

- أيمكنني الصعود؟

التفت ماركو نحو النوافذ حيث يأتي ضوء ضعيف ينير الزجاج قائلًا:

- لا، أرجوك، فقط أخبريني ما أتيت لتخبريني به أيًّا ما يكون.

تجهمت إيزوبل ونظرت حولها في الشوارع لكنها كانت خاوية مظلمة، لا يوجد سوى نسيم بارد يهب ليهز أوراق الشجر في المكان.

قالت بخفوت:

- أردت أن أقول إني آسفة، لأنني لم أخبرك أنني كنت أخفف الأمر، أعرف أن ما حدث العام الماضي كان ذنبي جزئيًّا.

- يجب أن تعتذري من سيليا وليس مني.

قالت:

- لقد فعلت، كنت أعرف أنها تحب شخصًا ما لكنني تصورته هر تايسن، لم أدرك إلا في تلك الليلة أنه كان أنت. لكنها أحبته هو الآخر وقد فقدته وكنت أنا السبب.

قال ماركو:

- لم يكن ذنبك، كانت هناك عوامل كثيرة هائلة في الأمر.

قالت إيزوبل:

- هناك دومًا عوامل كثيرة هائلة في الأمر، لم أكن أنوي أن أتورط إلى هذه الدرجة، كنت أريد فقط أن أكون مفيدة. كنت أريد فقط أن أنتهي من... **هذا** ونرجع إلى ما كانت عليه الأمور قبله.

قال ماركو:

- لا يمكننا الرجوع إلى الخلف، الكثير تغير عما كان عليه.

قالت إيزوبل:

- أعرف، لا يمكنني أن أكرهها، حاولت هذا، بل لا يمكنني حتى ألا أحبها، لقد تركتني استمر لسنوات، رغم أنها كانت تشك فيّ بوضوح، لكنها كانت دومًا طيبة معي، وأنا أحببت السيرك، شعرت أخيرًا أنه قد أصبح لدي بيت. مكان أنتمي له، وبعد فترة لم أعد أشعر أن عليَّ حمايتك منها. أحسست أنه يجب أن أحمي كل شخص آخر من كليكما. بدأت بعدما أتيت لرؤيتي في باريس حينما كنت متضايقًا جدًّا بسبب شجرة الأماني، لكن علمت أنني يجب أن أستمر بعدما قرأت البطاقات لسيليا.

سألها ماركو:

- متى كان هذا؟

قالت إيزوبل:

- تلك الليلة في براج حينما كان يفترض أن تلقاني. أنت لم تدعني أقرأ لك أبدًا، ولا حتى بطاقة واحدة حتى العام الماضي. لم أدرك هذا من قبل، أتساءل هل كنت سأترك هذا الأمر طوال تلك السنوات لو كانت الفرصة متاحة لي، استغرق الأمر مني دهورًا كي أفهم حقًّا ما الذي كانت تقوله بطاقاتها. لم أستطع رؤية ما هو أمام عينيّ وأضعت الكثير من الوقت. كان الأمر دومًا عن كليكما، حتى من قبل أن تلتقيا. وأنا لم أكن سوى نزوة.

قال ماركو:

- أنت لم تكوني نزوة.

سألته إيزوبل:

- هل أحببتني أبدًا؟

اعترف ماركو:

- لا، ظننت أنني سأقدر ولكن...

أومأت إيزوبل قائلة:

- ظننتك فعلت، كنت متأكدة تمامًا أنك فعلت رغم أنك لم تقلها مسبقًا. لم أستطع التفريق بين ما هو كائن وما أريده أن يكون. ظننت أن هذا سيكون مؤقتًا برغم أنه استمر يجرفنا مرارًا وتكرارًا. لكنه ليس مؤقتًا، لم يكن أبدًا. أنا من كنت مؤقتة بينما أتصور أنها إن رحلت فستعود إليّ.

قال ماركو:

- لو أنها رحلت فلن يكون لي قيمة. يجب أن تعرفي أنك أفضل من أن تنتظري هذا.

وقفا في صمت وسط الشوارع الخاوية وبرد الليل ينزل بينهما.

قال ماركو:

- طابت ليلتك آنسة مارتين.

واتجه كي يصعد السلالم.

قالت إيزوبل:

- أصعب شيء يمكن قراءته هو الوقت.

توقف ماركو والتفت إليها ثانية.

أكملت:

- ربما لأنه يغير الكثير، لقد قرأت الطالع لأشخاص لا يحصون حول أمور بلا حصر وكان أصعب ما أحاول فهمه من البطاقات هو

التوقيت. أعرف هذا وما زال يفاجئني، كم أضعت برغبتي من وقت في انتظار ما هو مجرد احتمال. كنت أظنها مسألة وقت فحسب لكنني كنت مخطئة.

بدأ ماركو:

- لم أتصور أن يستغرق الأمر كل هذا...

لكن إيزوبل قاطعته:

- الأمر كله كان مرتبطًا بالتوقيت، كان قطاري متأخرًا في هذا اليوم، اليوم الذي رأيتك تسقط فيه مذكرتك، لو كان أتى في موعده ما كنا سنتقابل أبدًا، ربما لم نكن مقدرين لبعضنا ابدًا، هذا احتمال. واحد من آلاف، لكن ليس محتومًا. مثل أمور أخرى.

قال ماركو:

- إيزوبل أنا آسف، أنا آسف أنني ورطتك في كل هذا، آسف أنني لم أخبرك مبكرًا عن مشاعري تجاه سيليا، ولا أعرف أي شيء آخر تريدينه مني.

أومأت إيزوبل وهي تضم شالها على أكتافها.

قالت:

- منذ أسابيع قرأت لشخص ما، شاب أصغر مني حينما قابلتك، طويل بطريقة من لم يعتد طوله بعد. كان نقيًّا وعذبًا. حتى إنه سألني عن اسمي. وكل شيء كان في بطاقاته. كل شيء. كان الأمر كأنني أقرأ السيرك. ولم يحدث هذا لي سوى مرة واحدة فقط حينما قرأت لسيليا.

سألها ماركو:

- لماذا تخبرينني بهذا؟

- لأنني أظن أنه قد ينقذكما. لم أعرف ما شعوري تجاه الأمر، وما زلت. كان هناك في بطاقاته مع كل شيء آخر، واضحًا أكثر من أي شيء آخر قرأته. ظننت حينها أن الأمر سينتهي بصورة مختلفة لكنني كنت مخطئة. يبدو أنني أخطئ كثيرًا مؤخرًا. ربما حان الوقت كي أعثر على مهنة جديدة.

توقف ماركو وقد بدا وجهه شاحبًا في ضوء الطريق.

سألها:

- ما الذي تقولينه؟

قالت إيزوبل:

- أقول إن لديك فرصة، فرصة كي تكون معها، فرصة كي تحل كل الأمور بصورة طيبة. أكاد أريد هذا لك، حقًّا برغم كل شيء. ما زلت أريدك أن تكون سعيدًا، وتلك الاحتمالية موجودة هناك.

ومنحته ابتسامة صغيرة حزينة وهي تضع يدها في جيبها:

- لكن التوقيت غير ملائم.

أخرجت يدها من جيبها وبسطتها، كانت راحتها تحوي مجموعة من البلور اللامع الأسود تفتت ليصبح رمادًا كالفحم.

مدت راحتها إلى يدها فسألها ماركو:

- ما هذا؟

كان ردها أن نفخت برقة ليطير هذا الرماد نحو ماركو في سحابة سوداء. حينما تلاشت لم يكن هناك سوى حقيبة ماركو سقطت متروكة على الرصيف بين قدمي إيزوبل فأخذتها معها قبل أن ترحل.

فيما بعد

نيويورك 1 نوفمبر 1902

برغم من تغير البيئة حوله إلا أن السيرك بدا له تمامًا كما كان في حقول بلدته. وصل بيلي للسياج أخيرًا شاعرًا بألم في جانبه ويتنفس بثقل من أثر العدو وسط أرض تغلب عليها الغابات وليس الحقول.

لكن كان هناك اختلاف آخر. استغرق الأمر منه لحظات يستعيد فيها أنفاسه جوار البوابة محدقا إلى اللافتة التي تقول

مغلق لسوء الأحوال الجوية

كانت معلقة بدلًا من تلك المعتادة التي تذكر أوقات العمل.

أدرك الأمر، كانت الرائحة، لم تكن رائحة الكراميل الممزوجة ببراعة مع رائحة الحطب الدافئة، بدلًا من ذلك كانت رائحة ثقيلة لشيء محترق رطب مع رائحة عطرة مقلقة.

أحس بالتوتر.

لم يكن هناك صوت وراء السياج الحديدي. والخيم ساكنة تمامًا لا شيء يتحرك سوى الساعة وراء البوابة تدق ببطء لحظات ما بعد الظهيرة.

سرعان ما أدرك بيلي أنه لا يستطيع أن ينسل بين قضبان السياج كما كان في العاشرة. الفجوات ضيقة جدًّا. ومهما حاول أن يعتصر كتفيه. كان لديه توقع أن بوبيت ستكون بانتظاره لكن لم تظهر له روح واحدة في المكان.

كان السياج أعلى من قدرته على التسلق. وفكر بيلي في الاكتفاء بالجلوس أمام البوابة حتى الغروب حين لاحظ فرع شجرة لا يتجاوز السياج لكنه قريب بما يكفي منه كي يجاوز الأطراف المدببة في أعلاه.

هذا موضع تسلقه، ولو قفز بالزاوية الصحيحة سينزل في ممر بين الخيم، ولو كانت الأخرى فعلى الأرجح سيكسر قدمه. لكن هذه مشكلة صغيرة مقارنة بما يواجهه وعلى الأقل فسيكون داخل السيرك بالفعل.

كانت الشجرة سهلة التسلق، والفرع القريب من السياج عريض بما يكفي كي يقف مقتربًا. لكنه لم يستطع أن يحفظ توازنه وحينما استعد ليقفز بقوة كان الأمر أشبه بسقوط متعمد. وقع بعنف داخل الممر متدحرجًا بقوة لجانب الخيمة وتلطخ بالمسحوق الأبيض على الأرض.

تأذت قدماه لكن بدا أنهما في حال جيد، على العكس من كتفيه الذين امتلآ بالكدمات وراحتي يديه اللتين امتلأتا بالخدوش والتراب. أزال المسحوق من يديه بنفضهما بسهولة لكنه التصق كالدهان بمعطفه ورجلي بدلته الجديدة. وهو الآن مرة أخرى يقف وحيدًا داخل السيرك.

تمتم لنفسه:

- المصارحة أم الجرأة.

حول قدمه كانت الأوراق الجافة الهشة تتراقص وقد جلبتها الرياح من خارج السياج، نقاط من ألوان الخريف الساكن تشوه الأسود والأبيض.

لم يكن بيلي متأكدًا إلى أين عليه الذهاب، فتجول عبر الممرات متوقعًا رؤية بوبيت في كل لحظة. لكنه لم يجد سوى الخطوط والفراغ. وأخيرًا توجه نحو الساحة، نحو النار.

حينما انعطف على ناصية تكشف الساحة كانت مفاجئته من أن النار منطفئة أكبر من مفاجئته أن هناك شخصًا في انتظاره.

لكن هذا الشخص الواقف جوار المرجل المصنوع من الحديد المشغول لم يكن بوبيت، تلك المرأة أقصر بكثير وشعرها أسود فاحم وحين التفتت له كانت شفتاها تحملان سيجارة فضية وخصلاتها السوداء حول رأسها تبدو كالثعابين.

استغرق الأمر منه لحظة حتى تعرف عليها أنها البهلوانة، فلم يكن قد رآها أبدًا إلا على منصتها حيث تلوي نفسها في وضعيات مستحيلة.

قالت له:

- أنت بيلي، أليس كذلك؟

أجاب بيلي متسائلًا إن كان كل من في السيرك يعرف من هو:

- نعم أنا.

قالت البهلوانة:

- لقد تأخرت.

سألها متحيرًا:

- تأخرت عن ماذا؟

- أشك أنها ستستطيع الصمود أكثر من ذلك.

سألها بيلي:

- من؟

وإن قفز في ذهنه أنها تقصد السيرك نفسه.

أكملت:

- وبالطبع لو أنك أتيت مبكرًا لربما تغيرت الأمور، التوقيت أمر حساس.

سألها بيلي:

- أين بوبيت؟

- الآنسة بينلوبي متوعكة في هذه اللحظة.

سألها:

- كيف يمكن ألا تعرف أنني هنا؟

- ربما تعرف جيدًا أنك هنا، لكن هذا لن ينفي حقيقة أنها –كما قلت منذ لحظة– متوعكة الآن.

سألها بيلي:

- من أنت؟

كانت كتفاه الآن تئنان ومن الصعب عليه أن يستوضح كل كلمة بينما كل شيء يبدو بلا معنى.

قالت البهلوانة:

- يمكنك أن تدعوني تسوكيكو.

وأخذت نفسًا عميقًا من سيجارتها.

من ورائها كان المرجل الحديدي المتوحش فارغًا هادئًا. والأرض حوله التي كانت في العادة مدهونة بالأبيض والأسود في شكل حلزوني لم يبق عليها سوى السواد كما لو كان الظلام قد ابتلع كل شيء تاركًا فحسب الفراغ.

قال بيلي وهو يقترب:

- كنت أظن أن النار لا تنطفئ أبدًا.

قالت تسوكيكو:

- لم تنطفئ من قبل.

حين وصل إلى حافة المرجل الذي كان ما زال ساخنًا، وقف بيلي على أطراف قدميه كي ينظر في الداخل. كان شبه ممتلئ بماء المطر الذي كان سطحه يتجعد ويتموج مع الهواء. كانت الأرض أسفل منه سوداء وموحلة، وحين رجع إلى الخلف ركل بالصدفة قبعة مستديرة سوداء.

سأل بيلي:

- ما الذي حدث؟

أجابت تسوكيكو:

- هذا أمر من الصعب شرحه، إنها قصة طويلة ومعقدة.

- وأنت لن تخبريني بها أليس كذلك؟

أمالت رأسها قليلًا واستطاع بيلي أن يلمح شبح الابتسامة حول شفتيها.

قالت:

- نعم، لن أخبرك.

تمتم بيلي وهو يزفر:

- عظيم.

قالت تسوكيكو:

- أرى أنك قد حملت اللواء.

مشيرة بسيجارتها لوشاحه الأحمر.

لم يعرف بيلي كيف يفترض أن تكون إجابته لكنها واصلت دون انتظاره:

- أظن أنه يمكنك تسميته بالانفجار.

قال بيلي:

- نار الساحة انفجرت؟ كيف؟

- أتذكر حين قلت إنه أمر من الصعب شرحه؟ هذا لم يتغير.

سأل بيلي وهو ينظر حوله إلى الخيم التي لا تنتهي خطوطها:

- لماذا لم تحترق الخيم؟

كانت بعض الخيم القريبة قد تلطخت بالوحل لكنَّ أيًّا منها لم يحترق برغم تفحم الأرض حولها.

قالت تسوكيكو:

- هذا صنيع الآنسة بوين، أظن أنه دون هذا الإجراء الوقائي لكان الدمار أكثر بكثير.

سألها بيلي:

- من هي الآنسة بوين؟

ردت تسوكيكو:

- أنت تسأل الكثير من الأسئلة.

جاوبها بيلي:

- وأنت لا تجيبين الكثير منها.

قالت تسوكيكو:

- أنا لست سوى مندوب، دوري أن أكون مرافقًا لك لأجل مقابلة، كي تناقش هذه الأمور. أظن هذا بسبب أنني في هذه اللحظة الشخص الوحيد الحي الذي لديه أدنى فكرة عما تكشف، ولماذا أنت هنا. أسئلتك من الأفضل أن تدخرها لشخص آخر.

سألها بيلي:

- ومن سيكون هذا الشخص؟

قالت تسوكيكو:

- سنرى، تعال من هنا.

أشارت إلى الأمام وقادته حول المرجل للجانب الآخر من الساحة، ومشيا مسافة قصيرة في ممر مجاور لتلتصق طبقات من الوحل بحذاء بيلي الجديد الذي فقد لمعانه.

وقفت عند مدخل خيمة وقالت:

- ها قد وصلنا.

تقدم بيلي كي يرى اللافتة فعرف أي خيمة هي، ما إن لمح الكلمات عليها

الوحوش المرعبة والكائنات الغريبة

عجائب في الورق والضباب

سألها بيلي:

- هل ستأتين معي؟

قالت تسوكيكو:

- لا، أنا مجرد مندوب، أتذكر؟ سأكون في الساحة لو احتجتني.

وحيته بإيماءة مهذبة ومشت عائدة من حيث أتت، وبينما ترحل لاحظ بيلي أن الوحل لا يلتصق بحذائها.

بعدما اختفت خلف الناصية دخل بيلي الخيمة.

إحراق

نيويورك، 31 أكتوبر 1902

اصطدم ظهر ماركو بالأرض بعنف كأنما دفعه أحدهم بعنف ليسقطه، تاركًا إياه يسعل من تأثيري الصدمة وسحابة الرماد الأسود التي تحوطه.

سقطت أمطار خفيفة عليه وهو يوقف نفسه وحينما صفا الهواء حوله رأى صفًا من أشجار صغيرة ونجوم يحيط بها إطار فضي وقطع شطرنج أبيض وأسود.

استغرق الأمر منه برهة كي يفهم أنه يقف بجوار ساعة الأحلام.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، والبهلوان لاعب الهواء يقذف إحدى عشر كرة بين النجوم الوامضة والقطع المتحركة.

كانت اللافتة التي تشير إلى أن السيرك مغلق بسبب الطقس ترتج مع الرياح وإن كانت في هذه اللحظة فإن الأمطار لا تزيد على رزاز ثقيل.

فرك ماركو الغبار اللامع عن وجهه الذي عاد لملامحه الحقيقية، وكان أكثر اضطرابًا من أن يحاول تغييره ثانية. حاول أن يتفحص بوضوح هذا الرماد الأسود من فوق بدلته لكن كان تلاشى بالفعل.

كانت الستارة المخططة وراء كشك التذاكر معلقة لتفتح، وخلال الظلام استطاع أن يميز جسدًا يقف في الظلام وقد اتضح على ضوء مفاجئ لقداحة سجائر.

حين اقترب منها حيته تسوكيكو بمرح بالفرنسية:

- بونسوار.

وأعادت قداحتها إلى جيبها ووضعت سيجارتها في مبسمها الطويل.

أتى عواء الرياح في المكان يرجرج البوابة.

سألها ماركو:

- كيف فعلت ..... ما فعلته؟

ردت تسوكيكو:

- تعني إيزوبل؟ علمتها تلك الخدعة بنفسي، لا أظنها عرفت دقائقها لكن يبدو أنها أجادت أداءها رغم ذلك، هل تشعر بأي نوع من عدم الاتزان؟

قال ماركو:

- أنا بخير.

برغم أن ظهره يؤلمه إثر السقطة وعينيه تحرقانه. نظر بفضول إلى تسوكيكو، لم يخض من قبل حديث مع البهلوانة وحقيقة وجوده معها لا يقل إرباكًا عن حقيقة أنه منذ لحظات كان في مكان آخر كلية.

دفعته تسوكيكو نحو نفق الستائر بيد وهي تمسك السيجارة بأخرى قائلة:

- هلم، ابتعد عن الرياح على الأقل.

وتفحصت وجهه وسط الضباب والدخان قائلة:

- هذا الوجه أفضل من الآخر، إنه يناسبك.

وأنزلت الستارة ما إن دخل ليغلفهما الظلام الذي لا يبدده سوى الوميض الضعيف للنجوم والطرف الملتهب لسيجارتها وهو النقطة الملونة الوحيدة بين نقاط الضوء الأبيض.

نفض ماركو المطر عن قبعته وسأل:

- أين الجميع؟

شرحت له تسوكيكو:

- حفلة الطقس السيئ، تقام عادة في خيمة الأكروبات كونها الأكبر ولكنك لا تعرف هذا لأنك لست عضوًا حقيقيًّا في الجماعة. أم أنت كذلك؟

لم يستطع أن يرى وجهها جيدًا كي يفهم تعبيرها وإن أحس أنها تبتسم ابتسامة واسعة.

قال:

- لا، أفترض أنني لست واحدًا.

تبعها وهي تقطع النفق الشبيه بالمتاهة متعمقًا نحو السيرك فسألها:

- لماذا أنا هنا؟

قالت:

- سنصل إلى تلك النقطة في الوقت المناسب. ما مقدار ما أخبرتك به إيزوبل؟

كان حديثه مع إيزوبل أمام منزله قد تلاشى من ذاكرته تقريبًا برغم أنه كان منذ لحظات. تذكر شذرات منه لا تكفي كي يفهم منها شيئًا.

حينما لم يرد مباشرة قالت تسوكيكو:

- لا يهم، أحيانًا يكون من الصعب جمع شتات ذهنك بعد رحلة كهذه. هل أخبرتك أن بيننا عاملًا مشتركًا؟

تذكر أن إيزوبل ذكرت سيليا وشخصًا آخر لا يتذكر من هو بالضبط.

قال:

- لا.

قالت تسوكيكو:

- كلانا تلميذ سابق لدى نفس المعلم.

وتوهج طرف سيجارتها وهي تأخذ منها نفسًا عميقًا.

وصلا إلى ستارة أخرى فأضافت:

- كان ساترًا مؤقتًا كما أخشى.

جذبتها إلى الخلف ليغمر المكان الضوء المبهر آلات من الساحة. وأشارت إلى ماركو كي يخوض وسط المطر. وسحبت نفسًا من سيجارتها بينما يعبر هو دون نقاش من الستارة المفتوحة محاولًا استيعاب تصريحها الأخير.

كانت الأضواء التي تزخرف الخيام مطفأة لكن في مركز الساحة كانت النار تحترق متوهجة متألقة بلهبها الأبيض وقطرات المطر حولها تتلألأ.

دخلت تسوكيكو إلى الساحة خلفه وقالت:

- إنها جميلة، أشهد لك بهذا.

سألها ماركو وهو غير واثق أنه فهم قصدها:

- أنت كنت تلميذة ألكسندر؟

أومأت تسوكيكو وقالت:

- سئمت من كتابة الأمور في كتب لذا سجلتها على جسدي بدلًا من ذلك، فلم أحب أبدًا اتساخ يدي.

وأشارت إلى أصابعه الملوثة بالحبر مضيفة:

- فاجأني أنه وافق على مثل هذه الحلبة المفتوحة للتحدي، كان يفضل دومًا العزلة، وأظنه ليس سعيدًا بما تطور إليه الأمر.

وبينما يستمع إليها لاحظ ماركو أن البهلوانة جافة تمامًا. كل نقطة ماء تسقط عليها تتبخر فورًا، تتحول إلى بخار ما إن تلامسها.

قال:

- أنت فزت باللعبة الأخيرة.

صححت له تسوكيكو:

- نجوت من اللعبة الأخيرة.

سألها ماركو وهما يتجهان إلى النار:

- متى؟

- لقد انتهت منذ ثمانية وثلاثين عامًا وستة أشهر وواحد وعشرين يومًا. كان يوم تبرعم الكرز.

أخذت تسوكيكو نفسًا طويلًا من سيجارتها قبل أن تكمل.

- مدربينا لا يفهمان كيف هو الأمر، أن ترتبط بشخص بهذه الطريقة، إنهما مسنان جدًّا، منفصلان عن مشاعرهما جدًّا، لم يعودا يذكران كيف هو العيش والتنفس في هذه العالم. يظنان أنه من السهل أن يتراهنا ضد بعضهما على أي شخصين. الأمر لا يكون سهلًا أبدًا. هذا الشخص الآخر يصبح السبب في تعريفك لحياتك، تعريفك لنفسك، يصبح ضروريًّا كتنفسك. ثم يتوهمان أنه يمكن للمنتصر أن يواصل دون ذلك. الأمر سيكون كفصل التوءمين موراي عن

بعضهما متصورين أن يبقى حالهما كما هو. سيكونان سليمين لكن ليسا مكتملين. أنت تحبها أليس كذلك؟

قال ماركو:

- أكثر من أي شيء في هذا العالم.

أومأت تسوكيكو وهي تفكر وقالت:

- منافستي كانت تدعى هيناتا، كانت رائحتها مثل الزنجبيل والقشطة، وقد أحببتها أكثر من أي شيء في العالم أيضًا، وفي يوم تفتح الكرز هذا أشعلت النار في نفسها، صنعت عامودًا من النار وسارت عبره كما لو كان من الماء.

قال ماركو:

- أنا آسف.

قالت تسوكيكو وعلى وجهها شبح ابتسامتها المعهود:

- شكرًا لك، إنه ما تنوي الآنسة بوين أن تفعله لأجلك، أن تتركك تفوز.

- أعرف.

قالت:

- أكره أن ينال أي إنسان هذا الألم، أن يكون منتصرًا.

وصلا إلى النار فقالت وهي تتأمل رقصة الألسنة وسط المطر المتزايد:

- كانت هيناتا ستحب هذا، كانت مغرمة بالنار، بينما كان الماء هو عنصري قبل...

مدت يدها وتأملت قطرات الماء التي تأبى أن تصل لبشرتها.

سألته:

- هل تعرف قصة الساحر في الشجرة؟

سألها ماركو:

- قصة ميرلين؟ أعرف عدة نسخ منها.

أومأت تسوكيكو:

- هناك الكثير، من عادة القصص القديمة أن تحكى ويعاد حكايتها وتتغير، كل قاص جديد يضع علامته أو علامتها في القصة. وأيًّا ما كانت حقيقة القصة فستدفن بين الأغراض والتشويق. الأسباب لا تهم قدر القصة نفسها.

ازداد هطول المطر وأصبح غزيرًا وهي تكمل:

- أحيانًا يكون كهفًا لكني أحب النسخة التي تجعله شجرة. ربما لأن الشجرة أكثر رومانسية.

نزعت السيجارة المشتعلة من مبسمها وأمسكت بها بين أصابعها.

قالت:

- بينما توجد هنا الكثير من الأشجار الصالحة لهذا الغرض فأظن أن هذه هي الأفضل.

أحال ماركو انتباهه إلى النار، كانت تضيء المطر المنهمر فوقها حتى بدت قطراته كأنها ثلجًا يلمع.

كل نسخ حكايات ميرلين التي يعرفها تتضمن أن يحب الساحر، سواء كان السجن شجرة أو كهفًا أو صخرة.

هناك دومًا عقاب، نتيجة للحب الأحمق.

نظر ثانية إلى تسوكيكو.

قالت قبل أن يتكلم:

- أنت تفهم؟

أومأ ماركو.

قالت:

- عرفت أنك ستفعل.

ازدادت ابتسامتها تألقًا على ضوء النار وسط المطر.

نادى صوت من خلفهما:

- ماذا تفعلين يا تسوكيكو؟

وبينما التفتت تسوكيكو رأى ماركو سيليا تقف على حافة الساحة.

كان فستانها الفضي قد أحاله المطر إلى لون رمادي باهت وشرائطه تتطاير خلفها في أثر من الأبيض والأسود تتناغم وشعرها مع هبوب الرياح.

قالت تسوكيكو وهي تعيد المبسم الفضي لجيبها:

- عودي إلى الحفل يا عزيزتي، لن تحبي أن تحضري هذا.

قالت سيليا محدقة إلى ماركو:

- أحضر ماذا؟

تكلمت تسوكيكو موجهة حديثها لكليهما:

- أنا محاطة بخطابات حب بنيتماها كل لأجل الآخر عبر سنوات، مموهة في شكل خيم، وقد ذكرني هذا بكيف كان الأمر معها. كان رائعًا ومريعًا. لست مستعدة بعد لن أيأس أن أتخلى عنه لكنكما تتركانه يذوي.

قالت سيليا مرتبكة:

- لقد قلت لي من قبل إن القلب متقلب متبدل.

قال تسوكيكو وهي تدير السيجارة بين أصابعها:

- لقد كذبت، ظننت أن الأمر سيكون أسهل لو شككت به، وتركت لك عامًا كي تجدي طريقة يستمر بها السيرك دونك. ولم تفعلي وأنا أتدخل.

بدأت سيليا:

- أنا أحاول أن...

لكن تسوكيكو قاطعتها:

- أنت تتجاهلين دومًا الحقائق الواضحة، أنت تحملين السيرك في داخلك. هو يستخدم النار كأداة أما أنت فالخسارة الأكبر لكنك أغبى من أن تدركي هذا. أنت تؤمنين أنه لا يمكنك العيش مع الألم، لكن مثل هذا الألم لا يمكن العيش معه، فقط نتحمله.

قالت سيليا:

- كيكو أرجوك، أنا بحاجة إلى المزيد من الوقت.

هزت تسوكيو رأسها قائلة:

- لقد أخبرتك من قبل، الوقت لا يمكنني التحكم به.

لم يرفع ماركو عينيه عن سيليا منذ أن ظهرت في الساحة، لكنه الآن التفت بعيدًا وقال لتسوكيكو هاتفًا:

- أكملي، افعليها، أنا أفضل أن أحترق بجوارها عن أن أعيش دونها.

ما كان يفترض أن يكون كلمة:

- كلا.

التي صرخت بها سيليا تحولت لشيء أكبر حملته الرياح، العذاب الذي حمله صوتها طعن ماركو بأشد مما يمكن أن تفعله كل سكاكين شاندرش مجتمعة، لكنه حافظ على انتباهه مع البهلوانة.

سألها:

- هذا سينهي اللعبة؟ ستنتهي اللعبة حتى لو سجنت داخل النار ولم أمت؟

قالت تسوكيكو:

- ستكون عاجزًا عن الاستمرار وهذا كل ما يهم؟

قال ماركو:

- إذن فافعليها.

ابتسمت له تسوكيكو، وضمت راحتيها معًا بينما يرتفع دخان سيجارتها فوق يديها، وانحنت إليه باحترام.

لم ينظر أي منهما وسيليا تعدو نحوهما عبر المطر.

قذفت تسوكيكو بسيجارتها التي ما زالت مشتعلة نحو النار.

كانت ما زالت في الهواء حينما صرخ ماركو بسيليا أن تتوقف.

كانت بالكاد لامست ألسنة اللهب البيضاء حينما ألقت سيليا بنفسها بين ذراعيه.

أدرك ماركو أنه لم يعد هناك وقت كي يدفعها بعيدًا بما يكفي، لذا فقد جذبها نحوه دافنًا وجهه في شعرها، وقبعته المستديرة تطير في الهواء بفعل الرياح.

ثم بدأ الألم بعدها. ألم حاد يمزقه كما لو كان جسده يتفكك.

همست سيليا في أذنه:

- ثق بي.

فتوقف عن المقاومة ناسيًا كل شيء إلا هي.

في اللحظة التي سبقت الانفجار، قبل أن يُعمي الضوء الأبيض الأنظار فلا يتضح أي شيء، ذاب جسدهما في الهواء.

في لحظة كانا موجودين متعانقين، وفستان سيليا يرفرف مع الرياح والمطر ويدا ماركو يضغطان على ظهرها وفي اللحظة التالية كانا لمحة من ضوء وظلال.

ثم اختفى كلاهما من السيرك في اللهب المتأجج الذي فاض نحو الخيام وصعد كالإعصار وسط الأمطار.

وحيدة في الساحة، تنهدت تسوكيكو وألسنة اللهب تمر حولها دون أن تلمسها تدور حولها كالدوامة لتضيئها بتألق مستحيل.

ثم كما ظهرت فجأة ماتت النار كأن لم تكن.

والمرجل يقف فارغًا، لم يبق به حتى شرارة أو دخان، واندفعت الأمطار داخل المعدن الخاوي ليتصاعد البخار من أثر سخونة الحديد.

جذبت تسوكيكو بتكاسل سيجارة أخرى من معطفها وأشعلتها بالقداحة.

اشتعلت بسهولة رغم تساقط المطر.

وأخذت تراقب المرجل يمتلئ بالمطر وتنتظر.

التحول

نيويورك 1 نوفمبر 1902

لو استطاعت سيليا أن تفتح فمها لصرخت.

لكن كان عليها التركيز على الكثير جدًّا، على الحرارة والمطر وماركو بين ذراعيها.

ركزت عليه فقط، جاذبة كل ما هو عليه إليها وهي تتفكك.

تمسكت بكل ذكرى لكل لمسة بينهما، كل لحظة قضتها معه لتحمله معها.

وفجأة لم يعد هناك شيء. لا مطر ولا نار فقط هدوء أبيض ممتد من العدم.

وفي مكان ما بين هذا العدم بدأت ساعة في دقات منتصف الليل.

- توقفي.

هكذا فكرت

ظلت دقات الساعة تعزف لكنها أحست بالسكون.

فكرت: التفكيك هو الجزء السهل.

إعادة التكوين هو المشكلة.

الأمر مثل شفاء أناملها المشقوقة وهي طفلة لكن هذه المرة مضاعفًا بلا حدود.

الكثير كي توازنه محاولة العثور على الحافة ثانية.

يمكنها ببساطة أن تتخلى.

التخلي سيكون أسهل بكثير.

أقل ألمًا بكثير.

جاهدت ضد هذا الإغواء، ضد الألم وضد الفوضى، كافحت كي تتحكم بنفسها وبمحيطها.

اختارت مكانًا تركز عليه، أكثر مكان تألفه يمكن أن تفكر فيه.

وببطء، ببطء قاتل، جذبت نفسها بأمان لتجمع شتاتها.

حتى أصبحت واقفة في خيمتها في مركز دائرة الكراسي الخاوية.

كانت تحس أنها أخف، أقل كثافة، ومترنحة.

لكنها ليست مجرد ظل لنفسها السابقة، لقد عادت كاملة مرة أخرى تتنفس. يمكنها أن تشعر بدقات قلبها، سريعة لكن ثابتة. حتى فستانها تشعر به كما كان ينساب حولها ولم يعد مبتلًا من أثر المطر.

دارت حول نفسها ليطير حولها.

بدأ الترنح يتلاشى وهي تستجمع نفسها، ما زالت تشعر بالذهول من نجاحها.

ثم لاحظت أن كل شيء حولها في الخيمة كان شفافًا.

المقاعد، الأنوار المعلقة بالأعلى، حتى الجدران المخططة تبدو غير مادية.

وكانت وحيدة.

*****

بالنسبة إلى ماركو استغرقت لحظة الانفجار طويلًا.

امتدت الحرارة والضياء بلا نهاية وهو متشبث بسيليا رغم الألم.

ثم فجأة اختفت.

لم يبق شيء.

لا نار، لا مطر، ولا حتى الأرض أسفل قدميه.

المشهد أمامه أخذ يتغير باستمرار من الظلام على النور، ظلام يستبدله بياض ناصع كي تلتهمه الظلمة ثانية. لا يستمر أحدهما أبدًا.

*****

كان السيرك يتحرك حول سيليا مائعًا كواحد من أوهام ماركو.

كانت تتصور في ذهنها المكان الذي تريد أن تصبح به فتصبح به فورًا، لم تستطع معرفة حتى إن كانت تنقل نفسها فورًا أم تتلاعب بالسيرك نفسه حولها.

الحديقة الثلجية كانت هادئة وساكنة، ليس بها سوى البياض البارد اللاسع في كل اتجاه.

فقط جزء من قاعة المرايا كان يعكس ملامحها، وبعضها لا يظهر سوى وميض ملطخ لفستانها الرمادي. أو حكة الشرائط التي تطير خلفها.

ظنت أنها رأت جزءًا من ماركو.

في الزجاج، حافة معطفه أو لمحة لامعة من ياقته لكنها لم تستطع التأكد.

والكثير من المرايا خاوية فارغة لا يظهر شيء بين أطرها المزخرفة.

بدأ الضباب في خيمة الوحوش يتبدد وهي تبحث فيها، فلا تجد شيئًا مختبئًا بها سوى الورق.

بركة الدموع لا تهتز مطلقًا، سطحها هادئ مستقر ولم تستطع أن تمسك بحجر كي تلقيه بها. لم تستطع أن تشعل شمعة في شجرة الأماني، برغم أن الأمنيات المعلقة بها ما زالت مشتعلة.

تجولت عبر التيه، غرف صنعتها تقود لغرف من صنعه ثم إلى غرفها ثانية.

كانت تستطيع الشعور به، قريب منها حتى إنها تتوقع رؤيته عند كل منعطف، خلف كل باب.

لكن لم يكن هناك سوى الريش الناعم المتطاير وأوراق اللعب المتناثرة والتماثيل الفضية ذات الأعين الخاوية وأرضية كرقعة شطرنج بمربعات خاوية.

هناك شذرات منه في كل مكان. لكن لا يوجد ما يكفي لها كي تركز عليه. لا شيء تمسك به.

في القاعة ذات الأبواب المختلفة والمغطاة بالثلج المتساقط، كان هناك آثار تشبه آثار الأقدام أو ربما نوعًا من الظلال. لكن لم تستطع سيليا أن تعرف على أين تؤدي.

*****

شهق ماركو حينما دخل الهواء رئتيه، كما لو كان قبلها قد حبس أسفل الماء دون أن يشعر. كانت أول فكرة كاملة استطاع التفكير فيها هي أنه لم يتوقع أن يكون حبس نفسه في النار يجعله يعاني من كل هذه البرودة.

كان البرد قارصًا لاسعًا ولا يمكنه رؤية سوى اللون الأبيض حوله في كل مكان.

بعدما اعتادت عيناه المشهد استطاع تمييز ما بدا كظل شجرة، الفروع العالية لشجرة صفصاف بيضاء ثلجية تنزل حوله.

أخذ خطوة إلى الأمام، كانت الأرض لدهشته لينة تحت قدميه.

كان يقف في منتصف الحديقة الثلجية.

النبع في مركزها توقف، الماء الذي كان دومًا فائرًا جاريًا أصبح ساكنًا هادئًا.

والبياض جعل من الصعب أن يرى هذا لكن الحديقة بأكملها كانت شفافة.

نظر نحو يديه، كانتا ترتعشان لكن بديتا صلبتين. بذلته ما زالت سوداء معتمة.

رفع ماركو يده لزهرة قريبة فاخترقت أصابعه بتلاتها بقليل من المقاومة. كما لو كانت مصنوعة من الماء وليس الثلج.

كان ما زال ينظر على الزهرة حينما سمع شهقة خلفه.

*****

أطبقت سيليا بيديها على شفتيها لا تصدق عينيها، أن ترى ماركو واقفًا في الحديقة الثلجية هو مشهد تخيلته عشرات المرات من قبل حينما تكون وحيدة وسط المكان المزهر الشاسع، لم يبد حقيقيًّا برغم وضوح بدلته الداكنة وسط الزهور الباهتة.

ثم التفت لينظر إليها، وما إن رأت عينيه حتى تلاشت شكوكها.

للحظة بدا صغيرًا جدًّا حتى استطاعت أن ترى الصبي الذي كانه منذ سنوات تسبق لقائهما. حينما كانا متصلين لكن تفصلهما مسافات هائلة.

هناك الكثير تريد قوله، أشياء تخشى أنها لن تجد فرصة أخرى كي تخبره بها. لكنَّ واحدًا منها هو ما يهم حقًّا.

قالت:

- أحبك.

تردد صدى الكلمة في الخيمة ليهز برقة أوراق الشجر الثلجية.

*****

نظر ماركو إليها مدهوشًا وهي تقترب متصورًا أنها حلم.

حينما وصلت إليه قالت:

- ظننت أنني فقدتك.

كان صوتها همسًا مرتعشًا.

بدا كيانها ماديًّا مثله، ليست شفافة كبقية الحديقة، بدت جميلة وحية وسط الخلفية البيضاء الباهتة. هناك حمرة ناضرة في خديها، وعيناها السوداوان تزرفان الدموع.

مد يده نحو وجهها مرتعبًا من أن تخترقه كما اخترقت بتلات الزهرة.

لكنها كانت صلبة دافئة حية حتى غمره الارتياح.

جذبها بين ذراعيه ودموعه تنهمر على خصلاتها.

حينما استطاع النطق قال:

- أحبك.

*****

وقفا متشابكين لا يريد أحدهما أن يترك الآخر.

قالت سيليا:

- لم أستطع تركك، لم أستطع التخلي عنك.

سألها ماركو:

- ماذا فعلت؟

كان عاجزًا عن فهم ما حدث بالتحديد.

قالت سيليا:

- لقد استخدمت السيرك كحجر أساس. لم أعرف إن كان الأمر سينجح لكنني لم أستطع تركك. لقد حاولت. حاولت أخذك معي لكنني لم أجدك، وظننت أنني خسرتك.

قال ماركو وهو يربت على شعرها:

- أنا هنا.

لم يكن هذا ما توقعه، أن يتم تحريره من العالم ويعاد تجسيده في مكان محصور.

لا يشعر أنه محاصر، فقط يشعر مفصولًا، كما لو أن السيرك يتداخل معه وسيليا بدلًا من أن يحتويهما.

نظر حوله إلى الأشجار، والصفصافة الثلجية ذات الفروع المتهدلة، الأشجار المشذبة التي تحدد المكان تلوح بعيدًا كالأشباح.

حينها أدرك أن الحديقة تنصهر.

قال ماركو:

- لقد انطفأت نار الساحة.

استطاع أن يشعر بالأمر الآن، بهذا الخواء. يمكنه أن يشعر بالسيرك حوله كما لو كان ضبابًا عالقًا به، كما لو أنه يمكنه أن يمد يده فيلمس

السياج الحديدي دون عناء برغم المسافة. يمكنه أن يحدد مكان السياج يشعر بامتداده الهائل في كل اتجاه، أين تقع كل خيمة، وحتى الساحة المظلمة التي تقف فيها تسوكيكو، كل شيء بلا جهد يذكر، يمكنه أن يشعر بالسيرك بأكمله بنفس السهولة التي يشعر بها بقميص يرتديه. والشيء الوحيد المضيء المشتعل به هو سيليا.

لكنه لهب ذو بريق متذبذب، هش كشعلة شمعة.

قال:

- أنت تحافظين على السيرك متماسكًا؟

أومأت سيليا، كانت بدأت توًّا تشعر بثقل الأمر، لكن السيطرة عليه أصعب دون نار الساحة. ولا يمكنها التركيز بما يكفي كي تبقي كل التفاصيل سليمة، بعض العناصر بدأت تنزلق منها بالفعل، تذوب كما يحدث للزهور حولهما وكانت مدركة أنه لو انهار فلن تستطيع إعادته سليمًا مرة أخرى.

بدأت ترتجف، ورغم أنها هدأت حينما أمسك بها ماركو فقد واصلت الارتعاش بين ذراعيه.

- دعيه يا سيليا.

قالت:

- لا يمكنني، لو تركته فسينهار.

سألها ماركو:

- ما الذي سيحدث لنا لو انهار؟

قالت سيليا:

- لا أعرف، لقد تركته موقوفًا، لا يمكنه أن يكفي نفسه ذاتيًّا دوننا. يحتاج راعيًا.

موقوف

نيويورك، 1 نوفمبر 1902

في المرة الأخيرة التي دخل بيلي هذه الخيمة كانت بوببيت معه وكان الضباب فيها كثيفًا.

ووقتها –الذي يجد بيلي صعوبة في تصديق أنه كان من أيام قليلة– بدت له الخيمة لا تنتهي.

لكن الآن دون غطائها الضبابي أمكن لبيلي أن يرى جدرانها البيضاء وكل الكائنات داخلها. لم يكن أي منها متحركًا. الطيور والخفافيش والفراشات معلقة في الهواء كما لو كانت مثبتة بخيوط ساكنة تمامًا، لا يمكن سماع خفقات الأجنحة الورقية ولا أي حركة على الإطلاق.

بقية الكائنات ساكنة على الأرض بالقرب من قدمي بيلي، من بينها قطة سوداء تجثم مستعدة للانقضاض بالقرب من ثعلب أبيض ذي أطراف فضية. كانت هناك حيوانات أكبر أيضًا، حمار وحشي بخطوط مثالية، أسد مضطجع بلبدة ثلجية، وعل أبيض بقرون طويلة.

وجوار الوعل رجل في بدلة سوداء.

كان شبه شفاف، كما لو كان شبحًا أو انعكاسًا على زجاج. أجزاء من ملابسه لم تبد سوى ظلًّا ويمكن لبيلي أن يرى بسهولة الوعل عبر أكمام معطفه.

كان بيلي ما زال يفكر هل هذه صورة من خياله أم لا حينما نظر الرجل له، كانت عيناه لدهشة بيلي براقتين برغم أنه لم يستطع أن يميز لونهما.

قال:

- لقد طلبت منها ألا ترسلك من هنا برغم أنه الطريقة الأقصر.

سأله بيلي:

- من أنت؟

رد الرجل:

- اسمي ماركو، لا بد أنك بيلي.

أومأ بيلي.

قال ماركو:

- وددت لو أنك لم تكن صغيرًا جدًّا.

بدا صوته حزينًا بصدق لكن بيلي كان منتبهًا أكثر لحالته الشبحية.

سأله بيلي:

- أأنت ميت؟

واقترب منه، حينما تغيرت الزاوية للحظة بدا له ماركو صلبًا ثم عاد ليكون شفافًا في اللحظة التالية.

قال ماركو:

- ليس بالضبط.

- تسوكيكو قالت إنها آخر شخص حي يعرف بالتحديد ما الذي حدث.

- أظن أن الآنسة تسوكيكو ليست صادقة بالكامل.

قال بيلي عاجزًا عن وصف الأمر بطريقة أخرى:

- أنت تبدو كشبح.

- أنت أيضًا تبدو لي بنفس الطريقة، لذا من منا الحقيقي؟

لم يعرف بيلي كيف يجيب هذا السؤال، لذا بدلًا من الإجابة سأل أول سؤال خطر له.

- أهذه قبعتك الموجودة في الساحة؟

لدهشته ابتسم ماركو وقال:

- إنها لي بالفعل، لقد فقدتها قبل أن يحدث كل شيء لذا بقيت هناك.

سأل بيلي:

- ما الذي حدث.

- إنها قصة طويلة حقًّا.

قال بيلي:

- هذا ما قالته تسوكيكو.

تمنى لو عثر على ويجيت كي يقوم بدور القاص بصورة مرضية.

قال ماركو:

- كانت صادقة في هذا الشأن، كانت تسوكيكو تنوي أن تسجنني في نار الساحة والسبب يرجع إلى قصة أطول من الوقت المتاح

لنا، ثم حدث تغير في الخطط أدى على الوضع الحالي. لقد تم تفكيكي ثم إعادة جمعي في هذه الصورة الأقل كثافة.

مد ماركو يده فاقترب بيلي ليلمسها، عبرت أصابعه خلالها بسهولة لكن كان هناك مقاومة لينة، انطباع بأن هناك شيئًا يشغل هذا الفراغ حتى لو لم يكن صلبًا تمامًا.

قال ماركو:

- هذا ليس وهمًا ولا خدعة.

انعقد حاجبا بيلي مفكرًا لكنه بعد لحظات أومأ موافقًا. أخبرته بوبيت أنه لا يوجد مستحيل ويبدو أنه سيؤمن بهذا حقًّا.

أكمل ماركو:

- لا يمكنني التفاعل مع ما يحيط بي كما تفعل أنت، أنت وكل شيء آخر هنا يبدو لي من منظوري غير مادي تمامًا كما أبدو لك. ربما في وقت آخر سنستطيع أن نناقش الأمر معًا مطولًا. تعال معي.

والتفت وبدأ في السير إلى نهاية الخيمة.

تبعه بيلي آخذًا مسارًا متعرجًا ليتفادى الحيوانات وقد وجد صعوبة في العثور على موطئ قدم بينما ماركو يخترق بسهولة طريقة مباشرة.

اختل توازن بيلي وهي يتفادى تمثالًا مائلًا لدب قطبي فاصطدم كتفه في غراب معلق في الهواء، سقط الغراب أرضًا وانثنى جناحيه وانكسر.

قبل أن يقول بيلي شيئًا مد ماركو يده والتقط الغراب وقلبه بين يديه وحرك جناحيه المكسورين ووصل داخلها ليدير شيئًا بصوت قرقعة فأدار الغراب رأسه وأصدر نعيقًا معدنيًا حادًا.

سأله بيلي:

- كيف تستطيع لمسهم.

قال ماركو:

- ما زلت أتعلم كيفية التعامل مع الأشياء المادية.

وسوَّى جناحي الغراب وتركه يمشي على ذراعه، فرفرف ريشه الورقي لكنه لم يستطع الطيران.

أكمل ماركو:

- على الأرجح الأمر له علاقة بأنني من صنع تلك الأشياء، عناصر السيرك التي كان لي يد في صنعها تبدو لي ملموسة أكثر.

نزل الغراب على كومة هائلة من الحراشف الورقية ذات ذيل ملتوٍ فيما بدا أنه ما كان تنينًا.

قال بيلي:

- إنهم مذهلون.

- ليسوا سوى ورق وماكينات ساعات معدة بتعاويذ بسيطة، يمكنك صنع مثلها بنفسك بقليل من الدراسة.

لم يخطر ببال بيلي من قبل أبدًا أن بإمكانه صنع مثل هذه الأشياء بنفسه، لكن حينما قيل له هذا ببساطة ومباشرة بدا له شيئًا ممكنًا.

سأله بيلي وهو يقترب من الطرف الثاني للخيمة:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

قال ماركو:

- هناك شخص يريد أن يتحدث معك، هي تنتظر عند شجرة الأمنيات، يبدو أنها الأكثر ثباتًا.

قال بيلي:

- لا أظن أنني رأيت شجرة الأمنيات.

وهو يسير بحذر في كل خطوة نحو الجانب الآخر.

قال ماركو:

- ليست بالخيمة التي تتعثر بها صدفة، بل تعثر عليها حينما تحتاجها. إنها واحدة من خيمي المفضلة، تأخذ شمعة من صندوق عند المدخل وتشعلها من أخرى مشتعلة بالفعل على الشجرة، فتشعل أمنيتك بأمنية شخص آخر سبقك.

وصلا إلى نهاية الخيمة وأشار ماركو إلى شق دقيق في جدار الخيمة، يربطه مجموعة ترى بالكاد من الشرائط، ذكره هذا بمدخل خيمة ويجيت ذات الزجاجات الغريبة.

قال ماركو:

- لو خرجت من هنا سترى مدخل خيمة الأكروبات في الجهة الأخرى، سأكون خلفك لكن على الأرجح لن تستطيع رؤيتي إلا حينما نصبح بالداخل ثانية، كن... كن حذرًا.

فك بيلي عقد الأربطة وانسل من الجدار بسهولة ليجد نفسه في ممر ملتو بين الخيم، كانت خيمة الأكروبات تلوح أعلى من الخيم حولها ولافتتها التي تقول **تحدي الجاذبية** معلقة على المدخل الذي يبعد بضع خطوات.

دخل بيلي هذه الخيمة عدة مرات وكان يعرف أرضيتها المفتوحة والمؤدين المعلقين بأعلاها جيدًا.

لكن حينما خطى بالداخل لم يقابله الفراغ الواسع الذي انتظره، كان يمشي عبر حفلة. احتفال تجمد في مكانه وأصبح معلقًا بنفس الطريقة التي تجمدت بها الطيور الورقية في الهواء.

عشرات من المؤدين عبر الخيمة، يغمرهم ضوء المصابيح المستديرة المعلقة بحبال من الأعلى وحولها مقاعد وأقفاص مستديرة.

بعض المؤدين يقفون في أزواج أو مجموعات والبعض يجلس على وسائد وصناديق ومقاعد تضيف بعض الألوان للحشد الذي يغلب عليه الأبيض والأسود.

وكل جسد منهم ساكن تمامًا. بلا حركة حتى يبدو أنهم لا يتنفسون حتى، كأنهم تماثيل.

واحد منهم بالقرب من بيلي يضع نايًا على شفتيه، لكن الآلة صامتة بين يديه. وآخر يصب زجاجة نبيذ والسائل يطفو فوق الكأس.

قال ماركو:

- كان يجب أن نلتف حولهم، أراقبهم منذ ساعات ورغم ذلك لا تزيدني مراقبتهم إلا توترًا.

سأله بيلي:

- ماذا حدث لهم؟

أجاب ماركو:

- لا شيء على حد علمي، السيرك برمته أوقف كي يمنحنا المزيد من الوقت، لذا...

رفع يده وأشار نحو الحفلة المجمدة.

قال بيلي مرتبكًا:

- تسوكيكو جزء من السيرك ولا تبدو هكذا.

قال ماركو:

- أظنها تلعب بقواعدها الخاصة.

تحرك وسط الحشد الساكن وهو يضيف:

- من هنا.

كان اختراق الحفل أصعب من السير الملتوي بين الحيوانات الورقية، بحذر شديد تقدم بيلي خطوة تلو الأخرى وهو يخشى ما قد يحدث لو أنه اصطدم بأحدهم كما أسقط ذاك الغراب.

قال ماركو وهم يتفادون مجموعة من الأشخاص يقفون في دائرة مفتوحة:

- كدنا نصل.

لكن بيلي توقف محدقًا إلى الوجه الذي أمامه وسط الدائرة.

كان ويجيت مرتديًا زي العرض خاصته دون معطفه المكون من الرقع، وصدريته مفتوحة فوق قميصه الأسود. كانت يده مرفوعة في الهواء مشير بطريقة مألوفة عرف منها بيلي أنه كان يقص قصة ما.

كانت بوبيت تقف إلى جواره، ورأسها متجه نحو الساحة كما لو كان شيء ما جذب انتباهها عن شقيقها في نفس اللحظة التي توقفت فيها الحفلة. كان شعرها منسابًا خلفها، موجات حمراء تطفو في الهواء كما لو كانت معلقة في الماء.

تحرك بيلي كي يواجهها. مد يده مترددًا كي يلمس شعرها، كان متجعدًا بين أصابعه، تحرك ببطء قبل أن يعود إلى حالته المتجمدة.

كانت عيناها ما زلتا لامعتين فسأل:

- أتستطيع أن تراني؟

متوقعًا أن تطرف بعينها في أي لحظة لكنها لم تفعل.

قال ماركو:

- لا أعرف، ربما لكن...

قبل أن يستجمع أفكاره سقط أحد المقاعد المعلقة بالأعلى. تمزقت أربطته وقريبًا من ويجيت تهشم على الأرض متناثرًا لحطام.

قفز بيلي بينما صاح ماركو:

- تبًّا!

كاد بيلي يصطدم ببوبيت وأحدث موجة ثانية في شعرها.

قال ماركو:

- من هنا.

وأشار إلى جانب الخيمة على مسافة قريبة قبل أن يختفي.

نظر بيلي خلفه إلى ويجيت وبوبيت. كان شعر بوبيت استقر ثانية وتوقفت موجاته بينما بعض شظايا المقعد المحطم علقت بحذاء ويجيت.

التفت ثانية وتحرك بيلي نحو طرف الخيمة متفاديًا بحذر التماثيل البشرية من حوله. وألقى نظرة متوترة على المقاعد المتبقية بالأعلى والأقفاص الحديدية التي لا يمسكها شيء سوى أربطة واهية.

كانت أصابعه مرتعشة وهو يفك أربطة الجدار.

ما إن مر خارجًا حتى غمره إحساس أنه مشى عبر حلم.

داخل الخيمة المجاورة كانت شجرة شاهقة، ضخمة مثل شجرة البلوط خاصته، وتنمو من أرضية الخيمة مباشرة. كانت فروعها عارية سوداء، لكنها مغطاة بالشمع المنصهر، طبقات شفافة من الشمع المتجمد على اللحاء.

كان جزءًا فقط من الشموع يحترق لكن هذا لا ينقص من جلال المشهد وهم يضيئون الفروع السوداء الملتوية ملقين بظلال راقصة على الجدران المخططة.

وأسفلها يقف ماركو محيطًا بذراعة امرأة عرف بيلي فورًا أنها الحاوية.

بدت شفافة مثل ماركو، وفستانها كالضباب في ضوء الشموع.

قالت حين اقترب:

- أهلا بيلي.

تردد صوتها حوله بنعومة وقريبًا منه كأنها بجوار أذنه تهمس له.

أضافت حينما لم يرد فورًا:

- يعجبني وشاحك.

أحس في كلماتها بود وراحة غريبة.

- أنا سيليا، لا أظن أننا تعارفنا مباشرة من قبل.

قال بيلي:

- سعيد بلقائك.

ابتسمت سيليا بينما كان بيلي مندهشًا كيف تبدو مختلفة جدًّا عن حالها حينما تؤدي عروضها. حتى مع تجاهل حقيقية أنه يستطيع رؤية الشجرة السوداء عبر جسدها.

سألها:

- كيف عرفت أنني قادم هنا؟

- ذكرتك بوبيت ضمن سلسلة أحداث تحققت قبلًا، كنت آمل أنك ستصل في النهاية.

ما إن نطقت اسم بوبيت حتى التفت بيلي باتجاه الحفلة المتوقفة، بدا أن بينه وبينها بونًا شاسعًا وليس مجرد جدران من القماش المخطط.

أكملت سيليا حينما التفت ثانية إليها:

- نحن بحاجة لمساعدتك في شيء ما. نحتاج لأن تستحوذ على السيرك.

سألها بيلي:

- ماذا؟

لم يكن لديه توقع محدد لطلبها، لكن حتمًا كان هذا خارج توقعاته.

قال ماركو:

- السيرك الآن بحاجة إلى راعٍ جديد، إنه يجنح كسفينة دون مرساة، يحتاج شخصًا ما كي يكون مرساة له.

سأل بيلي:

- وهذا الشخص هو أنا؟

قالت سيليا:

- نود أن يكون أنت، أجل، لو كنت مستعدًا لهذا الالتزام فسنكون قادرين على مساعدتك. وبوبيت وويجيت سيستطيعان المساعدة أيضًا. لكن المسؤولية الحقيقية ستكون على عاتقك.

قال بيلي:

- لكنني لست... مميزًا، لست مثلكما، لست بالشخص المهم مقارنة بأي شخص آخر.

قالت سيليا:

- أعرف، أنت لست المختار أو المقدور. أتمنى لو أستطيع أن أخبرك بهذا لو كان سيجعل الأمر أيسر لك، لكن لن يكون هذا حقيقيًّا، أنت شخص أتى في الوقت والمكان الصحيحين. وأنت شخص يمتلك قلبًا مراعيًا بما يكفي كي تقوم بما يجب القيام به، أحيانًا يكون هذا هو كل ما يحتاجه الأمر.

وبينما ينظر إليها بيلي تحت ضوء الشموع تكشف له فجأة أنها أكبر عمرًا بكثير مما تبدو عليه، والأمر كذلك ينطبق على ماركو، كان الأمر أشبه برؤية شخص ما في صورة فوتوغرافية قبل أن تدرك أن هذا الشخص ليس في نفس العمر حينما تم تصويرها. وبديا له أبعد بكثير بسبب هذا. بدا السيرك نفسه بعيدًا جدًّا هو الآخر، برغم أنه يقف في قلبه، كأنما السيرك يهوي بعيدًا عنه.

قال بيلي:

- حسنًا.

لكن سيليا مدت يدها الشفافة لتقاطعه قبل أن يوافق.

قالت:

- انتظر، هذا مهم، أريد منك أن تحظى بشيء لم يحظ به أي منا. أريد أن تحظى بالاختيار، يمكنك أن توافق على هذا أو أن تمضي بعيدًا، لست مضطرًّا للمساعدة ولا أريد منك أن تشعر بهذا.

سألها بيلي:

- ما الذي سيحدث لو مضيت مبتعدًا؟

نظرت سيليا إلى ماركو قبل أن ترد.

فنظر كلاهما إلى الآخر دون أن يتكلما، لكن النظرة بدت حميمية جدًّا حتى أن بيلي أشاح عينيه ناظرًا نحو الفروع الملتوية للشجرة.

بعد برهة تكلمت سيليا:

- لن يبقى.

لم توضح قصدها والتفتت ثانية على بيلي مضيفة:

- أعرف أن هذا طلب كبير لكن ليس لدي شخص آخر كي أطلب منه هذا.

فجأة بدأت شموع الشجرة تطلق شرارًا وبعضها أصبح مسودًا وبدأت سحب الدخان تستبدل اللهب المتألق قبل أن تختفي بدورها.

ترنحت سيليا وللحظة بدا لبيلي أنها ستفقد وعيها، لكن ماركو ساندها.

قال ماركو وهو يمرر يده على شعرها:

- سيليا، يا حبيبتي، أنت أقوى شخص عرفته في حياتي، يمكنك الصمود لفترة أطول، أعرف هذا.

قالت سيليا:

- أنا آسفة.

لم يستطع بيلي أن يعرف من منهما تقصده باعتذارها.

قال ماركو:

- لا يوجد ما يدعوك للاعتذار.

أمسكت سيليا بيده بقوة.

سألهما بيلي:

- ماذا سيحدث لكما لو أن السيرك... توقف؟

قالت سيليا:

- صدقًا لا أعرف.

تمتم ماركو:

- لن يكون أمرًا جيدًا.

سأل بيلي:

- ما الذي تريدان مني فعله؟

قالت سيليا:

- أريد منك أن تنهي شيئًا بدأته، أنا... أنا.. تصرفت باندفاع ولعبت أوراقي في غير موضعها. والآن هناك مسألة نار الساحة هي الأخرى.

سأل بيلي:

- نار الساحة؟

قال ماركو:

- تصور السيرك كآلة، نار الساحة هي أحد الأشياء التي تمده بالطاقة.

قالت سيليا:

- هناك أمران يجب فعلهما، الأول هو إعادة إشعال نار الساحة، هذا سوف... يغذي هذا نصف السيرك.

سأل بيلي:

- والنصف الثاني؟

قالت سيليا:

- هذا أكثر تعقيدًا، أنا أحمله معي وسيكون عليّ أن أعطيه لك.

- أوه!

قالت سيليا:

- سيكون عليك أن تحمله معك، طوال الوقت، ستكون مربوطًا بقوة شديدة بالسيرك نفسه، يمكنك أن تغادره ولكن ليس لوقت طويل، ولا أعرف إن كنت ستستطيع أن تعطيه إلى شخص آخر. سيكون لك إلى الأبد.

فقط حينها أدرك بيلي حجم الالتزام المطلوب منه، إنه أكبر من أمر كالالتحاق بهارفارد لعدة سنوات، وحتى من التزامه الموروث بمزرعة العائلة.

نظر نحو سيليا وماركو وأدرك من نظراتها أنها ستدعه يذهب لو طلب الرحيل، أيًّا ما كان ما سيعنيه هذا لهما وللسيرك.

فكر في عشرات الأسئلة التالية لكن أيًّا منها لم يعن شيئًا.

لقد حسم خياره حينما كان في العاشرة من عمره تحت شجرة مختلفة مشتبكًا بالجوز والجرأة وفردة من قفاز أبيض.

سيختار دومًا السيرك.

قال:

- سأفعلها، سأبقى، وسأفعل أيًّا ما كان ما تحتاجان مني لفعله.

قالت سيليا برقة:

- شكرًا لك يا بيلي.

ترددت الكلمات في أذنه مهدئة آخر مخاوفه.

قال ماركو:

- شكرًا جزيلًا، لنجعل الأمر رسميًّا.

قالت سيليا:

- هل تعتقد أن هذا ضروري حقًّا؟

قال ماركو:

- في حالنا هذا لن أرضى بعقد شفهي.

تجهمت سيليا للحظة ثم منحته موافقتها بإيماءة. فترك ماركو بحذر يدها، لكنها ظلت واقفة ولم تبد لبيلي مترنحة.

سأله بيلي:

- أتريد مني أن أوقع على شيء؟

قال ماركو:

- ليس بالضبط.

أخذ من يده اليمنى خاتمًا فضيًّا كان عليه نقش ما لم يستطع بيلي تفسيره في الضوء الخافت، مد ماركو يده نحو أحد الفروع فوق رأسه ومرر الخاتم في لهب إحدى الشموع حتى توهج بلون أبيض ساخن. تساءل بيلي عمن تمنى الأمنية التي استخدم ماركو شمعتها.

قال ماركو كأنما قرأ أفكاره:

- تمنيت أمنية على هذه الشجرة منذ سنوات طويلة.

سأل بيلي:

- وماذا تمنيت؟

خشي أن يكون سؤاله وقحًا، لكن ماركو لم يرد.

بدلًا من ذلك وضع الخاتم المتوهج على راحته وقدمه نحو بيلي.

مترددًا مد بيلي يده متوقعًا أن تخترق يد ماركو كما حدث من قبل، لكن بدلًا من هذا توقفت، كانت يد ماركو شبه صلبة، مال ماركو إليه وهمس في أذنه:

- لقد تمنيتها هي.

ثم بدأت يد بيلي تؤلمه. كان الألم حادًّا وملتهبًا والخاتم يحترق في يده.

حينما استطاع أن يتنفس سأل:

- ما الذي يحدث؟

كان الألم قاسيًا عنيفًا يسري عبر جسده بأكمله، بالكاد استطاع أن يمنع ركبتيه من أن تخورا أسفله.

قال ماركو:

- الربط، أحد اختصاصاتي.

ترك يد بيلي فتلاشى الألم فورًا. لكن استمرت قدما بيلي في الارتعاش.

سألته سيليا:

- أأنت بخير؟

أومأ بيلي ناظرًا إلى راحته، لقد اختفى الخاتم ولكن هناك دائرة حمراء محترقة في يده. لم يحتج بيلي سؤالًا كي يعرف أنه ندبة سيحملها دومًا معه، أغلق يده ونظر إلى سيليا وماركو ثانية وقال:

- أخبراني ماذا أحتاج لأن أفعل الآن؟



الإشعال الثاني للنار

نيويورك، 1 نوفمبر 1902

عثر بيلي بصعوبة على الحجرة الضيقة المزدحمة بالكتب. رمقه الغراب الأسود الكبير بفضول وهو يفتش في محتويات المكتب. تصفح بقلق صفحات المجلد الكبير حتى وجد الصفحة التي تحمل توقيعَيْ بوبيت وويجيت، مزق الصفحة من الكتاب بحذر ليزيلها تمامًا، ووجد قلمًا ودواة حبر فكتب اسمه هو بها حسب التعليمات. وبينما ينتظر أن يجف الحبر جمع الأشياء التي يحتاجها مراجعًا القائمة مرة تلو الأخرى في رأسه كي لا ينسى أي شيء.

كان العثور على الصوف سهلًا، بكرة منه كانت جاهزة على كومة الكتب.

البطاقتان: بطاقة لعب معتادة وبطاقة تاروت تصور ملاكًا، كانتا ضمن أوراق على المكتب. وضعهما داخل غلاف الكتاب.

اليمامتان ترفران فوقه في قفص.

الأصعب كان العثور على ساعة الجيب ذات السلسلة الفضية الطويلة، وجدها على الأرض بجوار المكتب وحينما نفض التراب عنها رأى حرفي هـ . ب. منقوشين على ظهرها. كانت الساعة معطلة.

وضع بيلي الورقة المنزوعة فوق الكتاب ووضعه تحت إبطه، وضع الساعة والصوف في جيوبه مع الشمعة التي أخذها من شجرة الأماني. نعق عليه الغراب وهو يغادر بينما ظل اليمام نائمًا.

اخترق بيلي الخيمة المجاورة مارًّا بدائرتي المقاعد مخترقًا طريقه بشكل مباشر برغم أن هذا لم يبد لائقًا. في الخارج كان المطر الخفيف ما زال مستمرًّا.

أسرع إلى الساحة حيث وجد تسوكيكو ما زالت بانتظاره.

قال لها:

- أخبرتني سيليا أنني بحاجة إلى استعارة قداحتك.

أمالت تسوكيكو رأسها بفضول وهي تنظر إليه بطريقة غريبة كأنها طائر بابتسامة قط.

قالت بعد برهة:

- أظن أن هذا مقبول.

وأخرجت القداحة الفضية من كم جيبها وألقتها إليه.

كانت أثقل مما تصور، كانت مصنوعة من تروس معقدة مغلفة جزئيًّا بصفائح فضية بالية متآكلة. وعلى سطحها حُفِرَت رموز لم يفهمها.

قالت تسوكيكو:

- احرص عليها.

سأل بيلي وهو يقلبها بين يديه:

- أهي سحرية؟

قالت:

- لا لكنها عتيقة، وقد صنعها شخص عزيز جدًّا لي، أظن أنك تحاول إشعال هذا ثانية؟

وأشارت إلى المرجل المعدني الذي كان يحوي نار الساحة.

أومأ بيلي بالإيجاب.

سألته:

- أتحتاج مساعدة؟

سألها:

- أتعرضين مساعدتك؟

هزت كتفيها قائلة:

- لا أنتظر منفعة حقيقية من الأمر.

لكنّ شيئًا ما في نظراتها نحو الخيم المحيطة جعل بيلي يشك في كلماتها.

قال بيلي:

- لا أصدقك، ولكنني أهتم وأعتقد أنني يجب أن أفعل هذا بنفسي.

ابتسمت له تسوكيكو ابتسامة بدت لأول مرة صادقة.

قالت:

- سأتركك للأمر إذن.

مررت يدها على المرجل الحديد فتبخرت معظم مياه الأمطار المتراكمة داخله. لتتصاعد الأبخرة في شكل سحابة سرعان ما ذابت وسط الضباب. ودون نصائح أو تعليمات أخرى اتجهت نحو الممر الأبيض والأسود وخيط من الدخان يتبعها تاركة بيلي وحيدًا في الساحة.

تذكر ما قصَّه عليه ويجيت عن الإشعال الأول للنار، برغم أنه أدرك الآن فحسب أنها كانت ليلة ميلاد ويجيت. كان قد قص عليه القصة بالتفصيل الدقيق حتى أنه افترض أن ويجيت شهدها بنفسه. الرماة، الألوان والاستعراض.

والآن يقف بيلي يحاول فعل نفس الشيء وليس معه سوى كتاب وبعض الصوف وقداحة مستعارة وحيدًا وسط المطر.

أخذ يتمتم لنفسه مكررًا ما يتذكره من تعليمات سيليا، التعليمات الأكثر تعقيدًا من العثور على الكتب والخيوط.

أمور حول التركيز والنوايا لا يفهمها بالكامل.

لف الكتاب بخيط قرمزي من الصوف جزء منه داكن بعدما صبغه شيء ما جاف بني.

عقده ثلاث ربطات ليغلق الكتاب والصفحة المقطوعة فوق غلافه، والبطاقتان محفوظتان داخله.

وساعة الجيب معلقة به وقد لف سلسلتها حوله قدر استطاعته.

ألقى بكل شيء داخل المرجل الخالي؛ ليسقط بصوت مكتوم وقرعت الساعة المعدن.

كانت قبعة ماركو في الطين أسفل قدميه فألقاها هي الأخرى.

التفت خلفه نحو خيمة الأكروبات؛ حيث كان يستطيع رؤية قمتها العالية بين بقية الخيام من مكانه بالساحة.

ثم متعجلًا أخرج بقية المكونات من جيوبه، وأضافها إلى المجموعة داخل المرجل. بطاقته الفضية والزهرة الجافة التي كانت معلقة بياقته منذ العشاء مع الحالمين، وقفاز بوبيت الأبيض.

تردد وهو يمسك بالزجاجة الصغيرة التي تحتوي عبق شجرته ثم أضافها هي الأخرى. وجفل حينما تحطمت على القاع الحديدي.

أخذ شمعة بيضاء بيد وفي اليد الأخرى قداحة تسوكيكو.

حاول مرتبكًا عدة مرات إشعال القداحة حتى حصل على شعلة ثابتة.

أشعل الشمعة بلهب برتقالي ساطع.

وألقى الشمعة المحترقة داخل المرجل.

لم يحدث شيء.

قال لنفسه:

- أنا اخترت هذا، أنا أريد هذا، أنا أحتاج هذا. رجاءً رجاءً فلينجح الأمر.

تمنى الأمر أكثر من أي أمنية طلبها وهو يطفئ شموع أعياد ميلاده أو حينما يرى شهابًا في السماء.

كان يتمنى هذا لنفسه، للحالمين ذوي الأوشحة الحمراء، لصانع الساعات الذي لم يقابله أبدًا، لسيليا وماركو وبوبيت وويجيت وحتى تسوكيكو التي تزعم أنها لا تهتم.

أغلق بيلي عينيه.

وللحظة سكن كل شيء، حتى رزاز المطر.

وأحس بيدين تنزلان على كتفه.

وثقل في صدره.

وشيء ما وسط المرجل الملتوي بدأ يطلق شرارًا.

وحينما اشتعلت النار كانت لامعة وقرمزية.

وحينما تحولت إلى اللون الأبيض كادت أن تعميه وأطلقت شلالًا من الشرارات يتساقط كالنجوم.

ودفعت قوة الحرارة بيلي إلى الخلف أزاحته كموجة بحر وألهب الهواء الساخن رئتيه. سقط على الأرض التي لم تعد متفحمة أو موحلة، وإنما عادت جافة مدهونة بالخطوط السوداء والبيضاء.

وحوله في كل مكان دبت الحياة والأضواء في الخيام تتوهج مثل اليراع.

*****

وقف ماركو أسفل شجرة الأمنيات يراقب الشموع وهي تعود للاشتعال فوق الفروع.

بعد لحظات ظهرت سيليا ثانية بجواره.

سألها:

- أنجح الأمر؟ أرجوك أخبريني أنه نجح.

كان ردها أن قبلته بنفس الطريقة التي باغتتها بها في قاعة الرقص المزدحمة.

وبدا لهما أنهما الشخصان الوحيدان في العالم.

الجزء الخامس

التنبؤ

أفضل ألّا أفكر في نفسي باعتباري كاتبًا وإنما شخص يفتح الطريق، مرشد يدل القراء على السيرك. كي يزوروا السيرك ثانية حتى ولو في أذهانهم فحسب حينما يعجزون عن الذهاب إليه بأنفسهم. أستعين في هذا بالكلمات المطبوعة وأوراق الصحف الخشنة، كلمات يمكن قرأتها مرارًا وتكرارًا، تعود بهم للسيرك كلما أرادوا ومهما كان الوقت والمسافة تسافر بهم. حينما أصف الأمر هكذا يبدو كأنه سحرًا، أليس كذلك؟

فريدريك تايسن 1898

الآن انتهى مرحنا وها هم ممثلونا،

كما أخبرتك لم يكونوا سوى أرواح

ذابت في الهواء، تذروهم الرياح

وكما اختُلق هذا المشهد بلا وجود

فالأبراج الشامخة والقصور الباذخة

والمعابد المقدسة وحتى هذا الكوكب العظيم

إيهٍ! كل ما كان تراث عاش سوف يتحلل

وكخيال مبهرج سيتلاشى

لا يترك أي أطلال. وهذه كينونتنا

كالحلم خلقنا وحياتنا القصيرة

ليست سوى غفوة.

بروسبيرو، مسرحية العاصفة لشكسبير الفصل الرابع المشهد الأول.

استطلاع القدر

الوقت متأخر ولم يعد هناك الكثيرون يصطفون لقارئة الطالع.

وبينما في الخارج يحمل الليل البارد عبق الكراميل والدخان فهذه الخيمة دافئة ورائحتها مشبعة بالبخور والزهور وشمع العسل.

لا تنتظر كثيرًا في غرفة الانتظار قبل أن تعبر ستارة من الخرز. تصدر صوتًا كالمطر بينما تتصادم خرزاتها والحجرة خلفها محاطة بالشموع.

تجلس على طاولة في مركز الغرفة، تجد مقعدك لدهشتك مريحًا.

وجه قارئة الطالع محجوب وراء نقاب أسود، لكن الضوء يظهر عيناها وهي تبتسم.

ليس لديها كرة بلورية ولا أوراق تاروت.

فقط حفنة من نجوم فضية لامعة تنثرها على الغطاء المخملي فوق الطاولة، تقرأهم كما يُضرب الودع.

تتحدث عن أشياء لا يمكن لها معرفتها بدقة عجيبة.

تخبرك بحقائق تعرفها بالفعل، معلومات ربما خمنتها بنفسك واحتمالات لا يمكنك الحكم عليها.

النجوم على الطاولة تبدو في ضوء الشموع المتراقص كأنها تتحرك، تختلط، وتتغير أمام عينيك.

قبل أن تغادر تذكرك قارئة الطالع بأن المستقبل لا يكون أبدًا منقوشًا على الحجر.

رسوم هندسية

لندن ديسمبر1902

وقفت بوبيت موراي على عتبة بيت آل لوفيفرا وفي يدها حافظة أوراق جلدية وأسفل قدمها حقيبة كبيرة. دقت جرس الباب بضع مرات مصاحبة بالطرق بقوة على الباب برغم أنه يمكنها سماع الجرس يتردد في أرجاء البيت.

حينما انفتح الباب أخيرًا كان شاندرش بنفسه يقف خلفه بقميص بنفسجي وقطع ورق مكورة بين يديه.

نظر إلى بوبيت من رأسها الأحمر حتى حذائها ذي الرقبة قائلًا:

- كنت أصغر سنًا آخر مرة رأيتك فيها، وكنتما اثنين.

قالت بوبيت:

- أخي في فرنسا.

وحملت حقيبتها وتبعت شاندرش على الداخل.

كان التمثال الذهبي ذو رأس الفيل بحاجة للتلميع، المنزل برمته كان في حال مريع، أو ما يمكن أن يوصف بالمريع بالنسبة لمنزل مغطى من الأرض إلى السقف بالتحف والنفائس والكتب والقطع الفنية الموزعة

بطريقة أنيقة ثرية. لم يكن متألقًا كما كان حينما كانت تجري مع ويجيت بين طرقاته فيما يبدو كأنه من زمن أبعد من مجرد بضع سنوات، حين كانت تطارد قطتها البرتقالية بين أطياف الضيوف المبهرجين بالألوان.

سألته وهما يصعدان السلالم:

- ماذا حدث لخدمك؟

قال شاندرش:

- صرفت أغلبهم، كانوا فشلة لا يستطيعون فعل شيء صحيح واحد، أبقيت الطباخين فحسب، برغم أنني لم أقم مأدب منذ فترة لكنهم يجيدون ما يفعلونه.

تبعته بوبيت حتى مكتبه، لم تذهب أبدًا لهذا الجناح من قبل، ولكن تشك أن حاله كان مثل الآن: مغطى بالرسوم الهندسية والمخططات وزجاجات البراندي الفارغة.

قطع شاندرش الغرفة ليضيف الورقة المكورة بين يديه لكومة مماثلة على مقعد ويحدق بجمود إلى مجموعة من الرسوم الهندسية المعلقة على النوافذ.

أخلت بوبيت مكانًا على المكتب كي تضع حافظة الأوراق مزيحة بعض الكتب وقرن وعل وسلحفاة من الزمرد المنقوش. وتركت الحقيبة بالقرب من الباب.

التفت إليها شاندرش سائلًا:

- لماذا أنت هنا؟

بدا كما لو كان انتبه توًّا إلى وجودها.

فتحت بوبيت حافظة الأوراق مخرجة كومة من المستندات وقالت:

- أحتاج منك خدمة يا شاندرش.

- وما هي؟

قالت:

- أريد منك أن توقع صكوك ملكية السيرك.

وعثرت على قلم حبر وسط فوضى المكتب وجربته على قصاصة ورق لترى إن كان ممتلئًا.

غمغم شاندرش:

- لم يكن السيرك لي منذ البداية.

قالت بوبيت وهي ترسم حرف باء:

- بالطبع كان لك، لقد كان فكرتك، لكن أعرف أنك لا تجد له الوقت الكافي وأظن أنه سيكون من الأفضل لك لو تخليت عن موقعك كمالكه.

فكر شاندرش في الأمر للحظات لكنه في النهاية أومأ وسار نحو المكتب ليقرأ العقد.

قال وهو يتفحصه:

- سجلت إيثان وليني هنا ولم تسجلي العمة بادفا؟

قالت بوبيت:

- لقد تحدثت مع الجميع بالفعل، والعمة بادفا طلبت ألا تشارك في الأمر ثانية، لكنها واثقة أن الآنسة بيرجس قادرة على تولي مسؤولياتها.

سألها شاندرش:

- ومن هو السيد كلارك؟

قالت بوبيت وقد احمرت وجنتاها:

- إنه صديق عزيز جدًّا لي، وسيعتني عناية رائعة بالسيرك.

حينما أنهى شاندرش قراءة المستند ناولته القلم.

وقع باسمه بتوقيعه المنمق وترك القلم ليسقط على المكتب.

قالت بوبيت:

- أنا ممتنة لك أكثر مما يمكن للكلمات أن تعبر.

ونفخت في الحبر كي يجف قبل أن تعيد العقد إلى حافظة الأوراق، بينما جاوب شاندرش كلامها بإشارة كسولة من يده وهو يتجه ثانية للنوافذ حيث الأوراق الهندسية معلقة.

بعدما أغلقت الحافظة سألته بوبيت:

- ما هذه الرسوم؟

قال شاندرش مشيرًا لكل الأوراق حوله:

- لدي بعض... **الخطط** من إيثان ولا أعرف ماذا أفعل بها كلها.

خلعت بوبيت معطفها وتركته ينزل على ظهر مقعد المكتب وألقت نظرة متفحصة على الرسوم والمخططات المعلقة على الرفوف والملصقة على المرايا واللوحات والنوافذ. بعضها كان لحجرات كاملة والبعض كان نماذج للواجهات أو تفاصيل للأقواس والقاعات.

توقفت حينما وصلت للوحة تهديف مغروس فيها سكين فضي ونصلها ملطخ بشيء داكن. تلاشت السكين وهي تواصل سيرها لكن شاندرش لم يشعر بهذا.

قال شاندرش وهي تقطع الغرفة:

- يفترض أن تكون لتجديد المنزل، لكنهم لا يتناسبون معًا بصورة صحيحة.

قالت بوبيت:

- إنه متحف.

كانت تجمع الأجزاء معًا في ذهنها وهي تقارنها بالمبنى الذي رأته بالفعل في النجوم. كانوا مختلطين تمامًا لكن الأمر واضح لا يقبل الشك، أنزلت مجموعة من الرسوم الهندسية وأعادت ترتيبها كي تحكي قصة تلو الأخرى.

أوضحت لشاندرش الذي يراقبها باهتمام:

- ليس هذا المبنى، بل مبنى جديد.

وأخذت مجموعة من الأبواب يفترض أن تكون عدة تصورات من نفس الباب ووضعتها بحيث أصبحت عدة مداخل كل منها يؤدي إلى قاعة مختلفة.

راقبها شاندرش وهي تعيد الترتيب وقد بدأت تلوح ابتسامته بعدما أدرك ما تفعله.

أخذ يعدل بنفسه الأوراق الزرقاء متبعًا ترتيبها محيطًا نسخًا من معبد فرعوني بأعمدة منحوتة تحوي أرفف كتب. جلسا معًا على الأرض يجمعان الغرف والقاعات والسلالم وكاد شاندرش أن ينادي ماركو قبل أن ينتبه ويوقف نفسه.

قال لبوبيت:

- أنسى دومًا أنه غير موجود، غادر ذات ليلة ولم يرجع. لم يترك ملاحظة حتى، كنت أتصور أن شخصًا اعتاد دومًا كتابة الملاحظات سيترك واحدة.

قالت بوبيت:

- أعتقد أن رحيله لم يكن مخططًا، وواثقة أنه نادم على أنه لم ينهِ واجباته هنا بطريقة صحيحة.

سألها شاندرش وهو ينظر نحوها:

- هل تعرفين سبب رحيله؟

قالت بوبيت عاجزة عن كتمان ابتسامتها:

- رحل ليكون مع سيليا بوين.

صاح شاندرش:

- هااااه! لم أتصور أن له مثل هذا القلب، طوبى لهما، فلنشرب نخبًا.

- نخبًا؟

قال شاندرش:

- أنت على حق لا توجد شامبانيا.

وأزاح جانبًا كومة من زجاجات البراندي الفارغة وهو يفرغ مجموعة أخرى من المخططات على الأرض.

أكمل:

- سنخصص على شرفهما حجرة. أي واحدة تعتقدين أنهما سيحبانها؟

جالت بوبيت بين الرسوم والمخططات، احتارت بين عدة غرف تظن أنها ستعجب أحدهما أو كليهما ثم توقفت عند رسم لغرفة مستديرة بلا نوافذ مضاءة فقط عبر ضوء يتسرب من حوض أسماك زجاجي فوقه، مكان هادئ ساحر.

قالت:

- تلك.

أمسك شاندرش بقلم رصاص وكتب على طرفها:

- مهداة ل م. أليسادير وس. بوين.

عرضت عليه بوبيت:

- يمكنني أن أجد لك مساعدًا جديدًا، أستطيع البقاء في لندن لبعض الوقت.

- سأكون ممتنًا لك يا عزيزتي.

وإذا الحقيبة الكبيرة التي أسندتها بوبيت بجوار الباب تسقط أرضًا بصوت مكتوم.

سألها شاندرش:

- ما الذي في الحقيبة؟

وهو يرمقها بشيء من التوجس.

قالت بوبيت بمرح:

- اشتريت لك هدية.

أوقفت الحقيبة وفتحتها بحذر لتخرج منها قطيطة سوداء صغيرة ببقع بيضاء على أقدامها وذيلها. كانت تبدو كما لو كانت قد غمست في الكريمة.

قالت له بوبيت:

- اسمها أرا. ستأتي لك حين تناديها وتعرف بعض الحيل لكن في الأغلب تفضل أن تحظى بالاهتمام وتجلس بالقرب من النوافذ. ظننت أنك سترحب ببعض الصحبة.

وضعت القطيطة أرضًا برفق ورفعت يدها فوقها فمدت القطة قدميها الأماميتين مصدرة مواءً خافتًا ولعقت أصابع بوبيت قبل أن تولي انتباهها إلى شاندرش.

قال:

- أهلًا أرا.

قالت بوبيت وهي تنظر إلى شاندرش بينما تزحف القطة نحو حجره:

- لن أعيد لك ذكرياتك، لا أعرف إن كنت أستطيع هذا حتى لو حاولت وإن كان ويجي في الأغلب قادر على هذا. لكن الآن لا أظنك بحاجة لهذا العبء. أظن أن المضي قدمًا أفضل من النظر وراءنا.

سألها شاندرش:

- عن ماذا تتحدثين؟

وهو يلتقط القطة ويداعبها خلف أذنها بينما تهر.

قالت بوبيت:

- لا شيء، شكرًا لك يا شاندرش.

ومالت إليه لتقبل خده.

وما إن لمست شفتيها جلده حتى أحس شاندرش أنه في حال أفضل مما كان لسنوات، كما لو كان هناك ضبابًا قد انقشع عنه فجأة، صفا ذهنه وترابطت خططه للمتحف واشتعلت في ذهنه أفكار لمشاريع جديدة بطرق تبدو ممكنة جميعها.

قضى شاندرش وبوبيت ساعات يرتبان ويضيفان للمخططات مضيفين مكانًا جديدًا للتحف والفنون ورؤى المستقبل.

والقطة ذات اللونين الأبيض والأسود تلاعب الورق المكور أثناء عملها.

قصص

باريس، يناير 1903

قال الرجل ذو البدلة الرمادية بصوت يحمل حزنًا لا يكاد يظهر:

- لقد تغيرت القصص يا ولدي العزيز، لم تعد هناك معارك بين الخير والشر ولا وحوش لتقتل أو جميلات لينقذن. من خبرتي فأغلب الجميلات قادرات على إنقاذ أنفسهن بأنفسهن، على الأقل اللاتي يستحققن الإنقاذ. لم تعد هناك حكايات مباشرة عن مسعى ووحوش ونهايات سعيدة. المساعي غير واضحة الأهداف أو المسارات. والوحوش متلونة لا يمكن أن تتعرف بسهولة على حقيقتها. كما أنه لا توجد حقًّا نهايات، سعيدة أو غيرها.

الأمور تمضي دومًا، تتداخل وتتشابك، قصتك هي جزء من قصة أختك وهي جزء من قصص عديدة ولا يوجد ما ينبئ إلى أين ستمضي جميعها. الخير والشر أكثر تعقيدًا بكثير من الأميرات والتنانين، أو الذئب وذات الرداء الأحمر الصغيرة. وأليس التنين بطلًا في قصته؟ أليس الذئب لا يفعل سوى ما جبلت عليه الذئاب؟ ولو أنه ذئب فريد قطع شوطًا كبيرًا كي يتنكر في شكل جدة حتى يعبث بفريسته.

ارتشف ويجيت من كأسه مفكرًا في الكلمات قبل أن يرد.

سأله:

- لكن ألن يعني هذا أن الحكايات المباشرة لم تحدث مطلقًا!

هز الرجل ذو البدلة الرمادية كتفيه قبل أن يأخذ زجاجة النبيذ كي يعيد ملء كأسه:

- هذا أمر معقد، قلب الحكاية والأفكار التي تشملها مباشرة، الزمن قد غيرها وكثف تفاصيلها، فحولها إلى ما هو أكثر من القصة، أعظم من مجموع أجزائها. لكن هذا يحتاج زمنًا. أصدق الحكايات تحتاج زمنًا والألفة كي تصبح ما هي عليه.

أتى النادل ليتحدث مع ويجيت دون أن يلقي بالًا للرجل ذي البدلة الرمادية وحينما غادر قال الأخير سائلًا ويجيت:

- كم لغة تتكلم؟

قال ويجيت:

- لا أتوقف عن العد، يمكنني التكلم بأي لغة ما إن أسمع منها ما يكفي كي أعرف الأساسيات.

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- مثير للإعجاب.

- ألتقطحصها أبدا، يمكنني أن أتحدث أجزاء ومقاطع وعلمتني سيليا كيف أستخرج القواعد وأن أجمع الأصوات في جمل كاملة.

- أرجو أنها معلم أفضل من والدها.

- من معرفتي فهي مختلفة تمامًا عن والدها، على الأقل لم تجبرني أنا وبوبيت أبدًا على خوض ألعاب معقدة.

سأله الرجل ذو البدلة الرمادية:

- هل تعرف حتى غرض هذا التحدي؟

سأله ويجيت:

- أتعرف أنت؟ يبدو لي الأمر مائعًا.

- لا يوجد في العالم إلا القليل من الأشياء غير المائعة، منذ زمن بعيد جدًّا، أفترض يمكن أن تقول **في قديم الزمان** لو أردت أن تبدو حكايتك أفضل من حقيقتها. واحد من تلامذتي الأوائل خالفني حول سبل العالم، حول التحمل والاستمرارية والزمن. ظن أن نظامي قد عفا عليه الزمن، وطور طرقه الخاصة التي تصور أنها متفوقة. في رأيي ليست منهجًا ما دام لا يمكن تعليمها. لذا بدأ في التعليم، وبدأت التحديات باختبارات بسيطة. ولكن بمرور الزمن أصبحت أكثر تعقيدًا. لكنها في جوهرها دومًا كانت تحد بين الفوضى والسيطرة كي نرى أي من تقنياتنا هو الأقوى. إن وضع اثنين من المتنافسين في حلبة في مواجهة أحدهما الآخر حتى ترى من سيسقط أولًا لا يقارن بأن ترى كيف يبذلان جهدهما حينما توجد عناصر أخرى في الحلبة معهما. حينما تكون هناك عواقب لكل خطوة، هذا التحدي الأخير كان الأكثر تشويقًا، سأعترف أن الآنسة بوين شقت طريقها بذكاء شديد. ولو أنني متحسر لفقدان تلميذي خلال الأمر.

وأخذ رشفة من كأسه مكملًا:

- ربما كان أفضل تلميذ دربته على الإطلاق.

سأله ويجيت:

- أتظنه ميتًا؟

أنزل الرجل كأسه وبعد برهة صمت طالت رد بسؤال:

- أتظنه ليس ميتًا؟

- أعرف أنه لم يمت، كما أعرف أن والد سيليا ليس ميتًا وللدقة فهو يقف هناك عند تلك النافذة.

رفع ويجيت كأسه مميلًا إلها نحو نافذة مظلمة بالقرب من الباب.

كان الانعكاس في الزجاج يمكن تفسيره برجل ذي شعر رمادي في معطف أو أنه تداخل لانعكاسات عدة زبائن ونادل على الضوء المنكسر القادم من الشارع. وتموج الانعكاس قليلًا قبل أن يصبح غير قابل للتمييز.

أكمل ويجيت:

- لم يمت أي منهما، لكنهم لم يصبحا كهذا أيضًا.

وأومأ نحو النافذة وأكمل:

- إنهما في السيرك، إنهما **هما** السيرك. يمكنك سماع خطوات أقدامهما في التيه وأن تشم عطرهما في متاهة السحب. الأمر رائع.

- أتظن أن السجن رائع؟

قال ويجيت:

- الأمر يعتمد على وجهة نظرك، كلٌّ منهما لديه الآخر، وهما محتجزان في مكان فريد، واحد يمكن أن –وسوف يحدث– ينمو ويتغير حولهما. ونوعًا ما لديهما كل العالم مبني على خياله، لقد علمني ماركو حيلة أوهامه، لكنني لم أتقنها بعد. لذا نعم أظن الأمر رائعًا. أتدري أنه يعتبرك كوالده؟

سأله الرجل ذو البدلة الرمادية:

- أقال لك هذا؟

قال ويجيت:

- ليس بالكلمات، لقد تركني أقرأه، يمكنني رؤية ماضي الناس. أحيانًا بالتفاصيل لو أن الشخص الذي أقرأه يثق بي. وهو يثق بي لأن سيليا تثق بي، لا أظنه يلومك بعد الآن لأنه بسببك حصل عليها.

حين اخترته أردت من يكون ندًّا ومكملًا لها. يبدو أنني اخترت جيدًا أكثر مما ينبغي.

ثم مال الرجل ذو البدلة الرمادية إلى المائدة كما لو كان سيهمس بسر ما لكن ارتفاع صوته لم يتغير وهو يقول:

- كان هذا هو الخطأ كما اتضح، كانا متناسبين بشدة، منغمسين في المنافسة أكثر من أي شيء آخر، والآن لا يمكن أن ينفصل أحدهما على الآخر، يا للخسارة!

قال ويجيت وهو يلتقط الزجاجة ليملأ كأسه ثانية:

- أظن أن هذا يعني أنك لست من النوع الرومانسي.

- كنت كذلك في شبابي، من وقت طويل جدًّا جدًّا جدًّا.

وضع ويجيت الزجاجة مكانها ثانية وهو يقول:

- هذا واضح.

كان ماضي الرجل ذي البدلة الرمادية يمتد لزمن طويل جدًّا، طويلًا أكثر من أي شخص قابله ويجيت. لا يمكنه قراءة سوى أجزاء قليلة منه أغلبها باهت بالٍ. بينما كانت الأجزاء المرتبطة بالسيرك أوضحها والأسهل في التقاطها.

- أأبدو لك مسنًا؟

- ليس لك ظل.

انفرج فم الرجل ذو البدلة الرمادية بابتسامة، أول تعبير واضح يظهر منه منذ بداية الأمسية.

قال:

- أنت حاضر البديهة، واحد من كل مئة، ربما من الألف حتى، من يستطيع ملاحظة كل هذا. نعم عمري قديم حقًّا، ورأيت في زمني الكثير من الأشياء العظيمة. بعضها أحبذ نسيانه. في النهاية هو عبء على المرء. كل شيء عبء بطريقته تمامًا مثلما كل شيء يذوي مع الزمن. حتى أنا لست استثناء من هذه القاعدة.

أومأ ويجيت نحو النافذة سائلًا:

- أستصير مثله في النهاية؟

- حتما لا أرجو هذا، اعتدت أن أتقبل المحتوم حتى لو كانت لي طرقي كي أؤجله. كان يسعى إلى الخلود وهو أمر من الشنيع الوصول له، إنه ليس سعيًا لأي شيء وإنما مجرد هروب من المحتوم. مع مرور الزمن سيبغض حالته هذه إن لم يكن فعلًا بالفعل. أتمنى أن يكون تلميذي ومعلمتك أفضل حظًا منه.

قال ويجيت:

- أتعني أنك تتمنى لهما القدرة على الموت؟

- ما أعنيه فقط هو أن يستطيعا الوصول للظلمة أو الفردوس دون خشيتها إن استطاعا.

وصمت برهة قبل أن يكمل:

- وأتمنى هذا لك ولقومك أيضًا.

قال ويجيت:

- شكرًا لك.

وإن لم يكن واثقًا أنه فهم النوايا الطيبة في أمنيته.

قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- لقد أرسلت إليك وإلى شقيقتك مهدًا كهدية ترحيب بوصولكما لهذا العالم، وأقل ما يجب أن أتمنى لكما خروجًا سعيدًا منه. أشك كثيرًا أنني سأشهد رحيلك بنفسي، أتمنى ألا أفعل في الحقيقة.

سأله ويجيت:

- هل السحر ليس سببًا كافيًا للعيش؟

كرر الرجل كلمته:

- السحر.

محولًا إياها لضحكة.

- هذا ليس سحرًا، هذه هي طرق العالم ولكن القليل من الناس يتوقفون بما يكفي كي يلاحظونها. انظر حولك...

ولوح بيده مشيرًا إلى الموائد المجاورة قبل أن يكمل:

- لن تجد حتى واحدًا منهم لديه أدنى فكرة عن الأشياء الممكنة في هذا العالم والأسوأ أن أيًّا منهم لن يستمع إليك لو حاولت أن تهديهم إليها، لا يريدون أن يصدقوا سوى أن السحر مجرد خدع بارعة، لأنهم لو فكروا في حقيقته فسيؤرق مضاجعهم خائفين على وجودهم نفسه.

قال ويجيت:

- لكن بعض الناس يمكن هدايتهم.

- بالفعل، وهذه الأمور يمكن تعليمها. الأمر أسهل مع العقول الأحدث منهم. وهناك حيل بالطبع، ليس سخافات إخراج الأرنب

من القبعة، ولكن طرق تجعل الوصول للكون أيسر. أقل القليل من الناس يقضي الوقت الكافي لتعلمهم هذه الأيام، وللأسف أقل منهم من يمتلكون قدرة طبيعية على الوصول. أنت وشقيقتك تملكان هذا كنتيجة غير متوقعة **لافتتاح** السيرك. ماذا تفعل بموهبتك؟ لأي غرض تسخرها؟

فكر ويجيت بالأمر قبل أن يجيب، خارج حدود السيرك لا يبدو أن هناك مجالًا يذكر لتلك الأمور لذا فيبدو أن الرجل على حق بعض الشيء.

كانت أصدق إجابة وجدها هي:

- أنا أروي القصص.

سأله الرجل:

- أنت تروي القصص؟

كان الاهتمام في نبرته يكاد يكون محسوسًا.

قال ويجيت:

- قصصًا، حكايات، أساطير الأقدمين، أيًّا ما كان الاسم الذي تفضله، الأشياء التي كنا نناقشها سابقًا وأنها أكثر تعقيدًا مما كانت. آخذ لمحات من الماضي الذي أراه وأمزجها بروايات. هذا ليس مهمًا وهو ليس سبب وجدي هنا...

قاطعه الرجل ذو البدلة الرمادية:

- إنه مهم، لا بد لشخص ما أن يحكي تلك الحكايات، حينما تخاض المعارك ويكون هناك نصر وهزيمة وحين يعثر القراصنة على كنوزهم وتأكل التنانين خصومهم على الإفطار مع كوب لذيذ من الشاي المعطر، فعلى شخص ما أن يحكي أجزاء متداخلة من روايتهم. هناك سحر في ذلك، إنه في المستمعين، فأي وكل

أذن ستستمع بطريقة مختلفة وتتأثر بطرق لا يمكن التنبؤ بها. تتراوح بين السطحي والمصيري. ربما تحكي قصة تسكن في روح شخص ما فتسري في دمائهم ونفوسهم وأهدافهم. وتلك الحكاية ستحركهم وتدفعهم ومن يدري ما قد يفعلونه بسببها، بسبب كلماتك. وهذا دورك، موهبتك، ربما ترى شقيقتك المستقبل لكنك تشكله بنفسك يا بني، لا تنس هذا.

وأخذ رشفة أخرى من كأسه قبل أن يضيف:

- في النهاية فالسحر له أشكال متعددة.

صمت ويجيت مفكرًا في تغير نظرة الرجل ذي البدلة الرمادية له، وتساءل عن أصل تلك الكلمات الكبيرة السابقة أن الحكايات لم تعد كما كانت في الماضي وهل كانت لمجرد الاستعراض لكنه في قرارة نفسه لا يؤمن بها.

في البداية كان يبدو غير مكترث به لكنه الآن ينظر إلى ويجيت نظرة طفل للعبة جديدة، أو ربما ذئب يدرس فريسة مشوقة، سواء برداء أحمر أو دونه.

قال ويجيت:

- أنت تحاول إلهائي!

لم يرد الرجل واكتفى بارتشاف كأسه ناظرًا عبره إلى ويجيت.

قال ويجيت:

- هل انتهت اللعبة إذن؟

- نعم ولا.

ثم أنزل كأسه مضيفًا:

- من الناحية التقنية لقد أصبحنا في دائرة مفرغة لم يعمل حسابها، فهي لم تنته بالطريقة المفترضة.

- وماذا عن السيرك؟

- أفترض أن هذا هو سبب حديثك معي؟

أومأ بيلي قائلًا:

- بيلي أخذ مكان لاعبيك وشقيقتي صفت الحسابات مع شاندرش، سواء من الناحية القانونية أو الأخلاقية. نحن نملك ونديز السيرك بالفعل وتطوعت كي أنهي بقية الاستحواذ.

- لست مولعًا بالنهايات المفتوحة لكن أخشى أن الأمر ليس بهذه السهولة.

قال ويجيت:

- لم أقصد أنني أصفيه بالسهولة.

في الصمت الذي عقب ذلك علت ضحكات رنانة من مائدة قريبة لتهز الأجواء حولهما قبل أن تهدأ وتختفي وسط طنين المحادثات العادية ورنين الكؤوس الزجاجية.

قال الرجل ذو البدلة الرمادية بخفوت:

- لا تدري ما الذي تورط نفسك به أيها الفتى، ولا كم هي هشة المؤسسات! ولا كيف يستحيل توقع العواقب! أي شخص سيكونه رفيقك بيلي لو لم ينغمس في أمر السيرك؟ مجرد حالم، عاشق لشيء لا يفهمه حتى.

- لا أظن أن هناك ما يعيب إطلاقًا في أن يكون المرء حالمًا.

- لا يوجد ما يعيب ولكن الأحلام لها طبيعتها في التحول إلى كوابيس. أظن مسيو لوفيفرا لديه خبرة في هذا. من الأفضل أن تترك الأمر

برمته يتلاشى في الغموض والنسيان، كل الإمبراطوريات تسقط في النهاية، هذه طبيعة الأشياء. ولعل وقت التخلي قد أتى بالفعل.

قال ويجيت:

- أخشى أنني لا أنوي هذا.

- ما زلت صغيرًا جدًّا.

- أراهن على المجموع، حتى لو كنت أنا وشقيقتي وبيلي كما تصفنا صغيرين جدًا فلو جمعنا أعمار كل شخص أقدم لصالحه هذا العرض فالمجموع سيفوق بمراحل عمرك.

- ربما.

- وأنا لا أعرف بالضبط ماهية قواعد لعبتك. لكن أظن أنك مدين لنا بهذا جراء تعريضنا للخطر برهانك.

تنهد الرجل ذو البدلة الرمادية ثم ألقى نظرة نحو النافذة، لكن شبح هكتور بوين لم يظهر في أي مكان.

لو كان لبروسبيرو الساحر رأي في الأمر فقد اختار ألا يصرح به.

بعد تفكير قال الرجل ذو البدلة الرمادية:

- أفترض أن حجتك وجيهة، لكني لست مدينًا لكم بشيء أيها الشاب.

سأله ويجيت:

- إذن لِمَ أنت هنا؟

ابتسم الرجل لكنه لم يقل شيئًا.

أكمل ويجيت:

- أنا أفاوضك على ما يعتبر في الحقيقة ملعبًا مستعملًا، لم يعد له قيمة بالنسبة إليك بينما يمثل الكثير من الأهمية لي. لذا لن تستطيع إثنائي، حدد سعرك.

اتسعت ابتسامة الرجل ذو البدلة الرمادية بوضوح.

قال:

- أريد قصة.

- قصة؟

- أريد هذه القصة، قصتك، الحكاية التي أتت بنا هنا لهذا المكان وهذه المقاعد مع هذا النبيذ. لا أريد قصة تختلقها هنا...

وطرق على صدفه بأصابعه.

- ... أريد التي توجد هنا.

وأدار يده فوق قلبه للحظة قبل أن يجلس في مقعده ثانية.

فكر ويجيت في العرض لدقيقة.

سأله:

- ولو حكيت تلك القصة فستمنحني السيرك؟

- سأمرر لك القليل الذي تبقى لي كي أمنحه، حينما نغادر هذه الطاولة لن يكون لي مطلب في سيركك ولا علاقة به أيًّا ما كانت، وحين تنفد زجاجة النبيذ هذه فالتحدي الذي بدأ قبل حتى أن تولد سينتهي، سيعلن رسميًّا أنه وصل لاستحالة مثل الملك المخنوق في الشطرنج. يفترض أن يكفيك هذا؟ هل اتفقنا سيد موراي؟

قال ويجيت:

- اتفقنا.

صب الرجل ذو البدلة الرمادية آخر ما تبقى من النبيذ وضوء الشموع ينزل وينكسر على الزجاجة الفارغة وهو ينزلها على المائدة.

أدار ويجيت النبيذ في كأسه. الخمر هو شعر معبئ في زجاجة، مقولة سمعها من هر تايسن لكنه عرف فيما بعد أنها لكاتب آخر[1] لا يستطيع تذكره الآن.

هناك مواضع كثيرة للبداية.

وعناصر كثيرة يجب أن يضمنها.

تساءل إن كانت شاعرية السيرك يمكن تعبئتها في قصة.

أخذ ويجيت رشفة من نبيذه ثم وضع كأسه على الطاولة، اعتدل في مقعدة ورد النظرات الموجهة إليه بمثلها، آخذًا وقته كما لو كان لديه كل الوقت في العالم، في الكون، منذ تلك الأزمان حين كانت الحكايات تعني أكثر مما تعنيه الآن، ولكن ربما أقل مما قد تعني يومًا ما. سحب نفسًا يفك به عقدة الكلمات الحبيسة في قلبه ثم أخرجها من شفتيه بسلاسة.

- وصل السيرك دون سابق إنذار......

(1) روبرت لويس ستيفنسون.

أحلام سعيدة

في هذه الساعة قبل الفجر لم يبق معك سوى القليل من الناس يتجولون في سيرك الأحلام. بعضهم يرتدون أوشحة حمراء تبدو ناضرة وسط الأسود والأبيض.

لم يعد لديك الكثير من الوقت قبل أن يأتي شروق الشمس المحتوم، وتواجه الآن معضلة قضاء الدقائق المتبقية من الليل.

أتزور خيمة أخيرة أخرى؟ أتكون واحدة زرتها من قبل واستمتعت بها أم خيمة لم تستكشفها وما زالت لغزًا؟ أم تسعى لوجبة أخيرة قبل الإفطار فتأخذ تفاحة بالكراميل؟ الليل الذي بدا لك لا نهائي منذ ساعات ينسل الآن بين أصابعك، وتدق دقائقه الأخيرة كما لو كانت تسقط في الماضي كي تدفعك نحو المستقبل.

ستقضي لحظاتك الأخيرة في السيرك كما تحب، فهذا الوقت لك، ولك وحدك، ولكن لن يمضي الكثير حتى يصبح وقت الإغلاق لسيرك الأحلام، على الأقل في الوقت الحالي.

النفق المرصع بالنجوم قد أزيل ولم تتبق سوى ستارة تفصل بين الساحة والمدخل الآن.

حينما يغلق خلفك، ستشعر أن المسافة أبعد بكثير من بضع خطوات تتوسطها ستارة مخططة.

تتردد قبل الذهاب إلى المخرج، متوقفًا كي تشاهد الساعة المعقدة الراقصة وهي تدق الثواني وتتحرك قطعها بسلاسة. يمكنك تأملها الآن عن قرب أفضل من وقت الدخول فلم يعد هناك زحام يحجبها.

أسفل الساعة هناك لوحة فضية غير ملحوظة، تنحني لتقرأ النص المنقوش على المعدن المصقول.

لذكرى

هكذا كتب من الأعلى وأسفلها أسماء وتواريخ بخط أصغر.

فريدريك ستيفان تايسن

9 سبتمبر 1846 – 1نوفمبر 1901

و

شاندرش كريستوف لوفوفيرا

2 أغسطس -1847 15 فبراير 1932

شخص ما يراقبك وأنت تقرأ اللوحة الفضية تشعر بالعيون المسلطة عليك قبل أن تعرف من أين تأتي النظرات. ما زال كشك التذاكر مشغولًا، السيدة بداخله تراقبك وتبتسم لك. لا تعرف بالضبط ما يفترض بك أن تفعل.

تلوح لك، إشارة قصيرة لكن ودودة كما لو كانت تطمئنك أن كل شيء على ما يرام، أن زوار سيرك الأحلام يتوقفون عادة عند المغادرة كي يتأملوا الساعة العجيبة الموضوعة عند البوابة. وبعضهم حتى يقرأ اللوح التذكاري لرجلين ماتا منذ سنوات بعيدة. وأنت تقف في موضع وقفه الكثيرون قبلك تحت النجوم الغائبة والأضواء اللامعة.

دعتك السيدة نحو كشك التذاكر، وبينما تمشي نحوها كانت تقلب في كومة من الأوراق والتذاكر. في شعرها تناثر ريش فضي وأسود يرفرف على رأسها مع حركتها. حينما عثرت على ما تبحث عنه، تعطيه إليك. تأخذ بطاقة الأعمال من قفازها الأسود كان أحد وجهيها أبيض والآخر أسود.

على الوجه الأسود طبع بحروف فضية **سيرك الأحلام**

على الآخر بحبر أسود على الخلفية البيضاء قرأت

السيد بيلي ألدين كلارك، المالك

bailey@nightcircus.com

تقلب البطاقة في كفك مفكرًا ما الذي قد تكتبه للسيد كلارك، ربما تشكره على سيركه الفريد وربما كان هذا كافيًا.

تشكر السيدة على البطاقة فتكتفي بالابتسام.

تمضي نحو البوابة، تقرأ البطاقة في يدك ثانية قبل أن تعبر البوابة نحو الميدان وراءها، تلتفت للكشك خلفك فتجده خاويًا وقد أنزل مصراعًا أسود ثقيلًا عليه.

تتحسس البطاقة بعناية في جيبك.

تلك الخطوات عبر البوابة التي نقلتك من الأرضية المخططة لتلك الأرض العشبية تبدو ثقيلة.

تفكر وأنت تمشي مبتعدًا عن سيرك الأحلام، نحو الفجر الزاحف أنك أحسست بيقظة أكثر وأنت داخل حدود السيرك.

لم تعد واثقًا على أي جانب من سياجه هو الحلم والواقع.

تمت

شكر وإهداء

هناك عدد من الشركاء والمخططين وراء هذا الكتاب، وأدين لهم بالكثير من الامتنان.

وأولهم وأهمهم وكيلي ريتشارد باين الذي توسم خيرًا فيما كان عبث شنيع فوضوي وآمن بي في كل خطوة. وقد استحق وشاحه الأحمر ألف مرة.

إلى محررتي أليسون كالهان، وحلم تحول لحقيقة، والجميع في دابلداي للنشر يستحقون شكولاتة فئران أكثر مما أستطيع تقديمه.

ممتنة لكل من منح وقتًا وفكرًا لمراجعة العمل المرة تلو الأخرى خاصة كاري باسكي، وإليزابيث م ثورموند وديانا فوكس وجنيفير والتز.

أقدم نخبًا لسكان الأعراف أولئك الغريبين الموهوبين دونهم لم أكن لأوجد هنا.

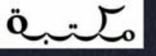
كايل كاسيدي الذي دفعني لشراء قلم حبر عتيق استخدمته في قدر كبير من الجزء الرابع وحين قلت له إنني سأضعه في الإهداء تصور أنني أمزح.

السيرك نفسه تأثر بعوامل كثيرة لكنَّ اثنين منهما يستحقان ذكرًا خاصًّا وهما عباقرة العطور في معامل بلاك فينيكس والخبرة العظيمة في مسرح بانش درانك الذي كنت محظوظة بالتعرف إليه بفضل تقارير المسرح الأمريكي بكامبريدج ماساشوستس.

وأخيرًا شكري الأبدي لبيتر وكلوفيا. هذا الكتاب لم يكن ليوجد دون أحدهما وكان أفضل مما يمكن أن أتصوره بفضل الآخر. أحبكما.

إيرين مورجينستيرن







وصل السيرك دون سابق إنذار
لم يسبقه إعلان أو توزع له منشورات، أو تعلق لافتات في منافذ البلدة، أو روج له في الصحف المحلية، ببساطة كان مقامًا هناك حيث لم يكن أمس.

* * *

السيرك الليلي أسعدني، ممتع وذو خيال قوي. لقد صنعت إيرين مورجينسترن السيرك الذي تمنيته طويلًا، هذا كتاب رائع.
- أودري نيفينجير مؤلفة "زوجة المسافر عبر الزمن".

وليمة تحبس الأنفاس من الخيال. تحليق يأخذك في سماء الأحلام كي يأسرك بفتنته.

- جريدة التايمز